

عبدالصمد الحاج يوسف ابو راشد

طيرة الكرمل

«الأرض والإنسان»



عبد الحميد
أحمد بن
أحمد بن
عبد الحميد

عبد الحميد أبو راشد

١٩٩٣/١٠/١٥
١٩٩٣/١٠/١٥

طيرة الكرم

«طيرة حيفا»

الأرض والإنسان

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

إربد - الأردن

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٣/٩/١٠١٦)

٩٥٦.٤٣١

عبد : عبد الصمد الحاج يوسف ابوراشد
طيرة الكرمل (طيرة حيفا) : الارض والانسان
عبد الصمد الحاج يوسف ابوراشد، عمان:

د.ن، ١٩٩٣

() ص

ر.أ (١٩٩٣/٩/١٠١٦)

١- فلسطين - تاريخ ٢- حيفا - تاريخ.

أ- العنوان

(تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية)

التنضيد الضوئي والمونتاج
الطيبي للطباعة والكمبيوتر
الأردن - أربد مقابل البوابة الغربية
لجامعة اليرموك

صورة الغلاف : الغنان علي فايز عبد القادر (شعواطة) - أربد
الخط في الخرائط: موسى حجاب / أربد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ
وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ... »

صدق الله العظيم سورة البقرة : 191/190

ولي وطن ألياً أن لا أبيعهُ وأن لا أرسى غيبري له الدهر مالكا
«أبن الرومي»

الآهداء

إلى الطومنين بالله تعالى؛ بحبي لله وقصتي وشهدائه

... من قصتي نجبه

... ومن ينتظر

... أو قصتي شوقاً إليه

إلى من يرى لله قصتي فلسطيين عليها

إلى من يرى فلسطيين عليها هي لله قصتي

إلى روح والدي، ووالدي

توطئة

حين شرعت بوضع هذا الكتاب، تملكنتني إحساسات كثيرة، لا تعدو كونها واجبات متعددة الأبعاد، وذات صلة بفلسطين الوطن والقضية، في ماض وحاضر ومستقبل، فالاجيال الصاعدة التي تُعدُّ نفسها للتحرير، في حاجة الى ان يعرفوا كل صغيرة وكبيرة، وكل شبر من ارض الوطن، كما انهم في حاجة الى معرفة آبائهم واجدادهم الاقدمين، وهذا البعد ليس من ترف المعرفة، وانما هو شرط لا يقل عن شرط الوقوف على اسباب وضعهم الاجتماعي والاقتصادي والدولي الشاذ، واذ الوضع من مؤامرة وظلم، فسيدرك مباءات المؤامرة وهوية الظالمين، وآقائينهم في الكيد الذي لن ينقطع، فالمعركة مستمرة، وسيلاحقونه حتى يفنى وجوداً، او يفنى حساً، فيتنازل عن وطنه للغاصبين، وليظل لاجئاً تلحقة لعنة اللجوء وعارة الى الابد.

ولن يقف الظالمون عند فلسطين والتهاهما، اي عند الغاء الوجود الفلسطيني، ولن يكفيهم من الفرات الى النيل، كما يصرحون في " بروتوكولاتهم " وانما هدفهم العالم بأسره، وهنا تأخذ الواجبات بعداً قومياً وآخر عالمياً، طليعتة العرب، كل العرب، لانهم الهدف بعد فلسطين، ولانهم خط الدفاع الاول عن الانسانية، بحكم التجربة القاسية والقرب من بؤرة الشر المركزية، فما اعظم الواجب الملقى على جيل التحرير.

والبعد العلمي ثالث الأبعاد، فالامانة تقضي بوضع الحقائق امام الرأي العام والخاص، والعربي والدولي، واضحة جلية مما يعتمد عليه العدو اكاذيب ومغالطات يروج لها، ويطلب من العرب التسليم بها كشرط للسلام، ان تسكت الاجيال العربية اللاحقة عن وجود اسرائيل كحقيقة تاريخية قامت على الشرعية الدولية، وهم يعلمون ان باطلهم قد فرض على العرب بالقوة، لهذا فهم يسعون الى ميزة التفوق العسكري وحماية الغرب معاً، لتظل لهم الهيمنة على الموارد المائية والاقتصادية والبشرية حين يحيلون العرب، بالارهاب الى عبيد واجراء في اوطانهم، وتلغي عنهم صفة السيادة والحرية والكرامة التي يتمتع بها الاقوياء في العالم.

ومذا هو الغرض الاول والاخير من قيام دولة الصهاينة في فلسطين.

وشمة بعد رابع، يكمن في الصمت حين يكون جريمة، فالنسيان من صفات الذاكرة حين
يعلوها غبار السنين ويتحول الى صدأ يمتد الى القلب، فيصرف نشاط الحواس عن الهدف الاسمي الى
العشوية والهامشية. ومن حسن حظ هذا الكتاب ان يدرك نقرأ ممن اشبعوا حب الطيرة واغرموا
بمعاملها، حتى انتعشت صوراً حية على لوحات الذاكرة لديهم، وهم عندي بحكم معرفتي بهم،
ثقات امناء مبرؤون من كل هوى، من امثال السادة عبد الرؤوف نايف عبد الحمود، وسليمان عبد
العال حجير، وعبد الرحمن محمود السعدي، وصبحي السيد ابوراشد، وغيرهم ممن كان
الاعتماد عليهم في تحديد المواقع التي لم تصلها قدماي، في صدر حياتي، ووصفها بالدقة المتناهية،
وفي اثبات كثير من الاخبار ذات القيمة عن الطيراوين، فيما لم تذكر الوثائق، وليطمئن القارئ
الى صدقها وصحتها، فهي حقائق لا مجال لدفعها. فجزامر الله تعالى عن امتهم خير الجزاء.
ومن تتبع اخبار "طير الكرم" في وثائق الانتداب، او حتى الوثائق الفلسطينية، وجدها
مبتورة او مخطوءة، ووجد معظمها مغيباً كلياً؛ فاكملت مبتوراً، وصوت مخطوءاً، واثبت ماله شأن
وتقتضيه الامانة. ولا ازعم اني بلغت الكمال او مطلق الصواب فيما عملت؛ فالكمال لله وحده.
لقد مر التاريخ بطيرة الكرم احقاباً طويلة صامتاً لا يتكلم، وارجو ان لا يكون الوقت قد
فات وان جاء متأخراً، وعسى ان يحقق هذا الكتاب الغاية المرجوة منه، وانه لمن جهاد الكلمة، خالصاً
لوجه الله الكريم.

المؤلف

عبد الحميد الحاج يوسف ابوراشد

اربد / الاردن

السبت 16 رجب الخير 1413 هـ

9 كانون الثاني 1993 م.

الفصل
الأول
٤١

الأرض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموقع والاسم والشهرة

إذا نظرت الى الخارطة، وركزت على نصف الكرة الارضية الشمالي، واقتربت من خط العرض 33 درجة شمال خط الاستواء، وعلى خط الطول 35 درجة شرقي غرينتش، وعلى بعد اثني عشر كيلو متراً باتجاه الجنوب الشرقي من مدينة حيفا⁽¹⁾ وعلى سفوح سلسلة جبال الكرمل الغربية، وفي تجويف جبلي مكشوف يطل على البحر الابيض المتوسط ، تقع قرية زراعية عرفت في التاريخ الحديث باسم طييرة حيفا ...

إضافة الطييرة الى حيفا، ذات مغزى ينم عن التلاحم العضوي والمصيري التاريخي للبلدين، وانهما لذلك عبر عصور التاريخ الخوالي، وانما برزت حيفا وتقدمت على ما حولها في المكانة والعمران والشهرة، بموقعها الجغرافي الاستراتيجي (الحيوي) المتميز ، الذي اهلها لان تكون ثاني موانئ البحر الابيض المتوسط بعد ميناء مرسيليا الفرنسي، وثاني اكبر مرافئ بعد ميناء الاسكندرية المصري. ولقد كانت هذه القفزة في عهد الانتداب البريطاني الذي وسع ميناءها وحسنه⁽²⁾ ورفع من كفاءته، بعد ان كان ميناء صغيراً في عهد الحكومة التركية التي انشأته عام 1908م، ثم جعل منه ملتقى خطوط سكة الحديد بين دمشق وبيروت ومصر⁽³⁾، مما اعطاها مكانه متميزة ، كهزمة وصل تجارية هامة بين بلدان الشرقين الادنى والاوسط، وبلدان حوض البحر المتوسط، ولتخدم وجوده العسكري والاقتصادي معاً، فتحولت حيفا، وبسرعة هائلة من قرية متواضعة لصيادي السمك، وبمطحنة للحبوب على نهر المقطع وبعده بلغ اربعة الاف نسمة مع نهاية الحرب العالمية الاولى عام 1918م الى مدينة حديثة عدد سكانها

(1) الحديث عما كان عام 1948م، حيث كان الاتصال بين الطييرة وحيفا عن طريق خط حيفا - يافا الذي يتفادى اختراق الجبل ويمر من جهة رأس الكرمل.

(2) بدأ توسيع الميناء عام 1929م وافتتح رسمياً في 1933/10/31م برصيف طوله 400م وعمق 9 أمتار، وبرصيف لناقلات النفط ثم اضاف اليه الاحتلال الصهيوني ارسيفه اخرى منها رصيف عائم.

(3) ابتدأ العمل بخط الحديد دمشق-حيفا-، عن طريق درعا، في 1892/12/19م وانتهى عام 1905م، ثم اوصلته بريطانيا بكل من بيروت ومصر.

عربي كنعاني

* 137.000 «سبعة وثلاثين ومئة الف» نسمة عام 1947⁽¹⁾.

والاسم التاريخي الذي حملته القرية هو "طيرة الكرمل" وكلا الفظين عربيان كنعانيان، وكلمة "كرمل" تعنى باللغة الكنعانية "المثمر" و "كرم الله" كنعنت لذلك الجبل المعروف في وسط الشمال الفلسطيني الساحلي، يبدأ في الارتفاع من مكان غير بعيد عن نهر المقطع الذي يصب في خليج عكا، فهو يمتد من هذا الخليج شمالاً الى ياقون جنوباً وبمسافة 22 كيلومتراً. ووادي ياقون هو الذي يفصله عن سلسلة جبال السامرة التي تتجه جنوباً شرقياً. تختفي سفوح الكرمل الجنوبية والغربية في السهل الساحلي الفلسطيني⁽²⁾ الذي يضيق كلما اتجه شمالاً حتى يختفي تماماً عند موقع يقال له "الخضر" بين الطيرة وحيفا، حيث يمتد راس الكرمل الصخري نحو البحر المتوسط، حتى يلامس مياهه .

ويحد الكرمل من الشرق سهل مرج بن عامر، ويكون انحداره نحوه حاداً، وتسمية الكرمل بهذا اللفظ الدال على الخير والبركة والقداسة، جاءت من طبيعة هذا الجبل الذي تكسوه خضرة دائمة، بالاشجار المثمرة وغير المثمرة، وخضرة المزروعات في مواسمها كأن متته ارض سهلية، فصخوره جيرية طرية. واما القداسة فمن تكريم الله تعالى لهذه الارض الطيبة بالانبياء والرسالات السماوية لهداية الناس.

واما التسمية طيرة "فهي عربية كنعانية، ولا ريب ، بحكم اسبقية الوجود العربي في بلاد الشام، وهو بكل اثاره هوية المنطقة الدامغة، رغم ما تعاقب عليها من غزاة ولان التسمية تطلق على عدة قرى متباعدة مكاناً في فلسطين ولبنان⁽³⁾ حيث كان مواطن العرب الكنعانيين⁽⁴⁾ ،

(1) بفضل الهجرة اليها من عرب وغير عرب، من داخل فلسطين وخارجها، وبفضل العديد من الصناعات الهامة، كالاسمنت وتكرير النفط والتبغ والدباغة وغيرها .

* المرجع في الارقام هنا «بلادنا فلسطين، الموسوعة الفلسطينية.

(2) واسمه التاريخي سهل سارونة.

(3) من ذلك طيرة بيسان الى الشمال الغربي من بيسان، وطيرة دندن الواقعة شمال شرق الرملة وشرق يافا بنحو 19 كم وفي الجنوب اللبناني قرية بهذا الاسم.

(4) تعرّف من سكن الساحل السوري منهم بالفنيقيين ، وهذا اللفظ تحريف اغريقي للفظ العربي " بني كنعان" موسوعة الخط العربي ص67.

وتلك القرى متشابهة موقعاً ، من حيث كونها تقع على ارض جبلية، تحف بها ارض زراعية خصبة، ولهذا يتشابه فيها نمط حياة سكانها.

قد يذهب الظن الى وضع احتمالات بأن الاصل في التسمية "طيرة" يعود الى جنور اغريقية يونانية او لاتينية رومانية او انها من اثار صليبية او سريانية، كما ذكرت الموسوعة الفلسطينية، وقالت بسريانية اللفظ. وما يساعد على هذه الاحتمالات، هو ان فلسطين وسائر منطقة الشرق الادنى كانت مسرحاً لكبريات الحوادث التاريخية، منذ اقدم العصور، لاسباب استراتيجية عسكرية واقتصادية ودينية، اذ لم يشهد التاريخ صراع القوميات وتناحرها على مصادر القوة الثلاثية العسكرية⁽¹⁾ والاقتصادية والسياسية كالذي جرى فوق ارض الوطن العربي في المشرق، أو كالذي يجري على الدوام بين العرب المسلمين وبين الطامعين في اوطانهم في ايامنا هذه. وكل من تلك القوميات المتناحرة ملكت المنطقة زماناً، وتركت بصماتها فيها، منها القومية التي كتب لها الامتداد دهوراً.

ومن الاسماء التي حملتها طيرة الكرمل اسم " طيرة اللوز".

نتوقف قليلاً عند هذا الاسم الاخير لنسأل عن مصدره وسببه. فمما يستلفت النظر ، قلة اشجار اللوز في اراضي الطيرة، وغلبة اشجار الزيتون، التي تمتد مسافة تزيد في انتشارها على اربعة الاف متر طولاً، كعضلة مدببة في طرفيها الشمالي والجنوبي، وتنتفخ مسافة الف متر تقريباً في وسطها . فهل كانت شجرة اللوز هي الاصل في الوجود والكثرة، والاسبقية على الزيتون، واليها نسبت القرية ، وبها تعرفت؟ ثم لما كانت شجرة اللوز من الاشجار التي لا تعمر طويلاً، وتتطلب عناية فائقة ورقابة مباشرة، لتعيش وليسلم ثمرها من العطب ، كان التحول الى شجرة الزيتون بميزاتها المتفوقة، في عمرها المديد، وعطائها الوفير، وقيمتها الغذائية والاقتصادية العالية، ولعل تعرضها للآفات التي تذهب بالمحصول، فذهبت العلامة الاصل "اللوز" وبقي الاسم؟ لعل هذا قد حصل فعلاً..

غير ان المتتبع للآثار الصليبية في المنطقة يشعر بان جهل الصليبيين باسماء لمواقع الاصلية حملهم على تعريفها وتسميتها بابرز معالمها الزراعية، فاطلقوا على حيفا اسم بلدة

(1) بسبب صناعة المعادن " البرونز او الشبهان" الذي استخدم قديماً في الحروب.

التوت، وعلى موقع تل السمك اسم موقع الجميزة نسبة الى شجرة الجميز⁽¹⁾ التي كانت في عهدهم، وفي اعتقادنا ان طيرة اللوز قد جاءت من قبلهم بهذا الاسم، وهذا التفسير هو الذي نميل اليه، ونرى النسبة والاضافة الى اللوز، اضافة عابرة لا يجوز التمسك بها، كما لا يجوز التمسك. باضافتها الى حيفا، لان حيفا معلم بشري حديث النشأة، من تأثير الانسان في البيئة وليست كالكرمل معلماً طبوغرافياً، بل هي كالطيرة جزء من الكرمل.

ونعود الى صراع القوميات لعلاقته التاريخية وتأثيراتها في اللغة والاسماء وتراث الشعوب واختلاط الاجناس، وخطر الصراعات وابعدها اثرأ تلك التي تحمل الطابع الاستيطاني والمنبعث بنوافع فكرية "ايدولوجيات"⁽²⁾ وقد يسميها بعضهم "رسالات". واذا كنا نعتبر حركات الموجات الخارجة من الجزيرة العربية، وتأسيس الامبراطورية الاكادية والكلدانية والعمورية البابلية والارامية والكنعانية مجرد تفاعلات داخلية في الوطن الواحد، فهي ليست من قبيل صراع القوميات، وانما من قبيل صراع العائلات في الشعب الواحد.

وأول الصراعات القومية التي يحتفظ بها التاريخ القديم فوق منطقة الشرق العربي هي حركة السومريين التي وقفت عند الرافدين ولم تتجاوزها . ومنها حروب الفراعنة التي تأثرت بها فلسطين مباشرة ، ولكنها لم تكن استيطانية، وانما كانت سطواً على الثروات واستعباداً للآخرين. ومثلها الحروب التي شنها "دارا" او "داريوس" الكبير ضد اليونان داخل اوربا.

وبعد ذلك اخذ شرقنا العربي يشهد الصراع داميا بين ابناؤه الذائدين عن حياضه، وبين الطامعين فيه من فرس ويونان ورومان وصلبيين ومغول⁽³⁾ ثم الاستعمار الحديث على نسق الغزو الفرعوني، ولكن بابشع صورة مزدوجة، سياسية اقتصادية تبشيرية صليبية، واخيراً

(1) الموسوعة الفلسطينية وان التسمية يونانية سيكامينون(توت) وشيكما "جميز".

(2) من Idoc فكرة Logy بمعنى مذهب او نظرية او علم، وبمفهومها الشائع تعنى برنامجاً سياسياً تبشيراً يحاول ان يغير الواقع لحساب رؤية جديدة ، ومصالح محددة .

(3) خضعت بلاد الشام للأقوام المذكورين في الفترات المبينة تالياً: دام الحكم الفارسي من عهد كوروش(-332 532 ق.م) أي الى ان هزمهم الاسكندر المقدوني في معركة ايسوس سنة 333 ق.م وحكم اليونان من سنة 332-64 ق.م وقد ازال حكمهم القائد الروماني بومبي الذي دخل القدس سنة 63 ق.م ودام حكم الرومان من سنة 63 ق.م- سنة 636 حتى الفتح العربي. أما الصليبيون فقد امتد وجودهم على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من سنة 1092م ولمدة قرنين من الزمان وكان خروجهم النهائي على يد المماليك في مصر. وهؤلاء هم الذين دحروا المغول عن بلاد الشام بعد انتصارهم عليهم في معركة عين جالوت.

الغزوة الصهيونية الاستيطانية، وهي اخطرها جميعاً .

لم يتعرض بلد من بلدان العالم لمحاولات التغيير القسري المتعمد، في ازالة الملامح الحضارية والاصالة السكانية، كما تعرض له بلدنا فلسطين: فكل امة غازية كانت تبذل جهدها في جعل فلسطين جزءاً من وطنها التي جاءت منه، على بعد الشقة بينه وبينها، وكثير من الناس يغفل امرين يشكلان عنصري القوة والوجود للإنسان الفلسطيني، الا وهما، صراع البقاء الفطري، والفيض الروحي المكتسب، اللذان يترجمان بحق الدفاع المشروع عن النفس ويحب الارض والامتراج بها والدفاع عنها حتى الموت.

ومن مظاهر التغيير القسري، فرض لغة الغزاة وثقافتهم على الشعوب المغلوبة، وبناء المستوطنات، وتحريف اسماء المواقع والمعالم بما ينسجم وطبيعة لسانهم وحروف لغتهم، واطلاق اسمائهم على بعضها، وهذا ما تأثرت به بعض المواقع والامكنة، او حمل اكثر من اسم، وقد يسترد اسمه الاصلي بعد رحيل من غيروا وبدلوا، وهذا ما كان سبباً في ان الطيرة اضيفت الى اللوز في العهد الصليبي، ثم عادت الى الكرمل الذي هو الاصل، ثم اضيفت الى حيفا في عهد الانتداب، ربما بشكل عفوي، واذ كانت الاشارة اليها في النواثر الحكومية تكتب معرفة بال التعريف ثم يوضع بعدها خط مائل ثم تذكر حيفاً، لتمييزها عن القرى الفلسطينية الاخرى التي تحمل هذا الاسم.

اما اصل اللفظ " طيرة " فهل هو من مصدر لاتيني؟ وهذا احتمال لورود كلمة Terra في القاموس بمعنى الارض، وفي القاموس⁽¹⁾ نجد :-

Terra Cotta الارض النضيج

Terre Firma الارض الصلبة

واذا كنا لا نعلم معنى الارض النضيج بالضبط ، الا اننا نلاحظ ارض الطيرة خصبة جداً في سهلها الزراعي ، وصلبة متماسكة جداً في الجزء المأهول بالسكان ، أنه جبلي ثابت صلب. وبذلك تجمع ارض الطيرة بين صفتي الخصب والصلابة، غير ان هاتين الصفتين تتكرران في كثير من مواقع الارض . وفي فلسطين تتكرر الصفتان والاسم كما ذكرنا.

(1) المورد - منير بعلبكي.

وإذا تأملنا فترة الغزو الروماني ، وجدنا هؤلاء ليس أكثر من مصاصي دماء يهتمون ببناء القلاع والحصون والمدرجات، الاولى لحمايتهم والتمكين لبقائهم، والثانية كمسارح للتمثيل والاحتفال بالمناسبات التي تخصهم، او للترفيه عنهم واستعراض عظمتهم . اي ان غاياتهم في البلاد لم تكن استيطانية بمقدار ما كانت لاستنزاف المنطقة بشرياً واقتصادياً لرفاهية الشعب الروماني في ايطاليا .

ومن ناحية اخرى، لا نجد في موطن الرومانيين ، ولا بين اباطرتهم وعظمائهم اسم "طيرة" حتي يمكن القول بان مصدر التسمية روماني جاء تذكراً بمكان عزيز عليهم، او تخليداً لعلم بارز من اعلامهم.

وما نقوله من احتمال المصدر الروماني ونفيه، نقوله في احتمال ان يكون اغريقياً ويونانياً ، وننفيه كذلك، وان امتد حكمهم للمنطقة مدة ثلاثة قرون (332-64ق.م) سبقت الحكم الروماني، فقد كان هؤلاء واؤلئك عالة على العرب الكنعانيين في حياتهم الفكرية والثقافية أيام ازدهار حضارتهم، وسيادتها في حوض البحر المتوسط، وعنها اخذوا ابجدية لغاتهم.

اما الصليبيون، ومعظمهم بريطانيون وفرنسيون وجرمان، فقد امتزجت حركتهم بلوني الغزو والاستيطان للمناطق الساحلية من بلاد الشام، لكن المقاومة العنيفة والشاملة، بل والمستمرة، التي جوبهوا بها، لم تدع لهم مجالاً للاستقرار، وهو الشرط الاساسي في توليد الحضارات . واذا علمنا انهم من اشقياء اوربا وانتهازييها، ادركنا انهم كانوا عاجزين عن صنع حضارة خاصة بهم، غير تلك الصفحة السوداء من سفك الدماء باسم الصليب⁽¹⁾ .

ولا ننسى ان اوربا عندما قذفت بهم الى الشرق كانت تعاني مأساة تمزقها تحت وطأة اشد عصورها ظلمة وتخلفا وانحطاطاً وعداء بين رجال الكنيسة وامراء الاقطاع . وكان بديهياً ان يأخذوا من المسلمين علومهم وحضارتهم، والتي صارت فيما بعد نواة نهضتهم الحديثة، اذ سرعان ما ظهرت آثارها في حياة شعوبهم ولغاتهم وعلومهم ومخترعاتهم وفلسفاتهم.

فتن الصليبيون بسحر الشرق وشمسه الدافئة، وحاولوا البقاء فيه، لكن دوافع الدين المضادة، والوطنية الاصلية في السكان المحليين، حاصرتهم داخل قلاع وحصون وحراسات (1) وضعوا الصليب على ملابسهم، وعلنوها حرباً مقدسة، تحت شعار تخليص القبر المقدس من ايدي المسلمين.

مكثفة، وتتابع الحملات للتعزير والتثبيت، لكنها باءت بالفشل، لأن الموت كان يتخطفهم من كل مكان، فعاشوا حياة رعب انتهت برحيلهم النهائي، دون ان يتركوا أثراً تذكر، غير تلك الاسماء على بعض الامكنة، وبأبرز معالمها النباتية، كتسمية حيفا ببلدة التوت و"تل السمك" بموقع الجميز، والطيرة بطيرة اللوز، نسبة الى الاشجار المعروفة، والمنتشرة بكثرة ملحوظة في تلك المواقع، الا ان تلك التسميات ذهبت بذهابهم، وعادت للامكنة اسماؤها كما اطلقها اهلها المؤسسون.

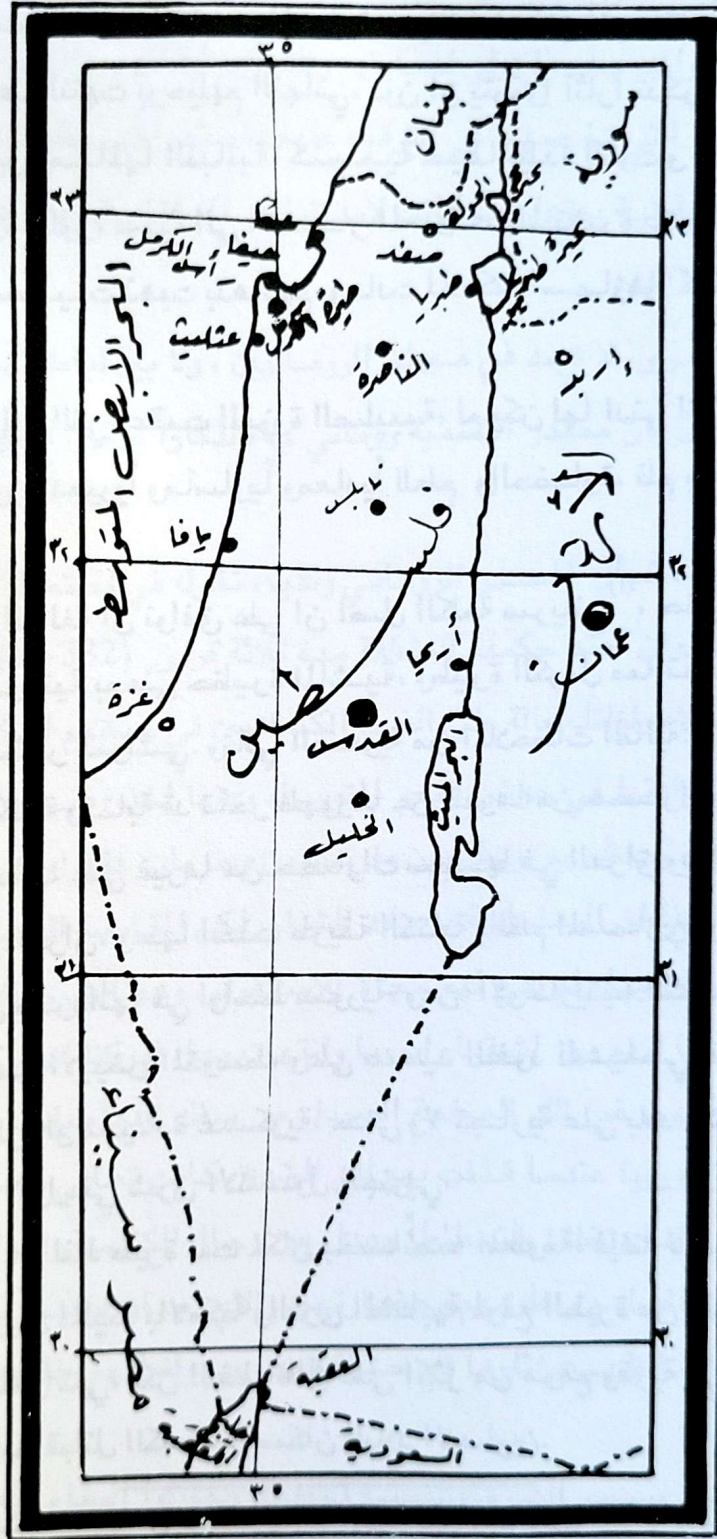
والحركة المغولية التي اعقبت الغزوة الصليبية، لم يكن لها ادنى اثر ايجابي على اي صعيد كان، الا ان يكون تدميراً ومأساوياً ومعادياً للعلم والحضارة، فلم يكتب لها البقاء في المنطقة.

ومن الصعوبة البالغة ان نوافق على ان اصل الكلمة سرياني⁽¹⁾، حتى ولو وجد اللفظ "طيرة" في اللغة السريانية بمعنى حظيرة الماشية، وطيرة الكرمل مما تكثر الكهوف فيها وحولها، واستخدمت حظائر للمواشي. وتأتي الصعوبة من الملاحظات التالية:-

ان السريانية كلغة وكتابة قد تأخر ظهورها عن غيرها من حضارات المنطقة، بل انها اتكأت في تكوينها ونشأتها على غيرها من حضارات سبقتها في العراق وبلاد الشام، فجاءت مزيجاً من البابلية في العراق، وعنها اخذت طريقة الكتابة بالقلم المسماري او الاسفيني، وعن الارامية في كثير من مفرداتها في اواسط سورية، وعن الاوغاريتية الكنعانية في فلسطين والساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط، وعلى صعيد النفوذ السياسي، فلم يكن للناطقين بالسريانية اي سيطرة او سيادة عسكرية، حتى ولا تجارية على بلاد الشام، وانما ظلت محصورة في موطنها الاول في شرق الاناضول الجنوبي.

وعلى افتراض ان لفظ طيرة نعت لمكان بخصائصه المعلومة، فإننا لا نجد لهذا اللفظ ما يماثله على ارض السريان المليئة بالامكنة والقرى المشابهة لموقع الطيرة من حيث وفرة الكهوف المستخدمة كحظائر للمواشي، لكن اللفظ اطلق على اكثر من موقع وقرية في ارض فلسطين، ارض العرب الاولين، ومن قبائل الكنعانيين سكان البلاد الاصليين.

(1) السريان طائفة مسيحية انشقت عن كنيسة انطاكية اثر خلاف نشب حول طبيعة المسيح عليه السلام، هل هو لاهوت ام ناسوت. ومن ابرز اعلامها "يعقوب البردعي" واتباعه هم اليعاقبة المنتشرون في شرق الاناضول وشمال سورية، لغتهم سامية تكتب بالقلم الكنعاني الفلسطيني ممزوجة بالخط الاسفيني البابلي، وكان ابتداء ابجدية لغتهم 22 حرفاً مأخوذة عن القلم الاوغاريتي.



خارطة فلسطين عام 1948م

تقع الطيرة على خط الطول 35° شرق غرينتش بقریباً من خط العرض 33° شمال خط الاستواء

المساحة والحدود

تفيد المراجع الفلسطينية بأن طيرة الكرمل هي الاولى في عدد سكانها بين قرى قضاء حيفا، وأنها الثالثة⁽¹⁾ في مساحة اراضيها، اذ تبلغ 45262 دونماً مربعاً، بما فيها الارض المأهولة بالسكان والبالغه 224 دونماً، ومنها 1026 دونماً للطرق الزراعية والوديان والسكك الحديدية. ملك اليهود منها 6553 دونماً هي اربعة مواقع اقيمت عليها مستوطنة " اخوزة صموئيل" وتبلغ نحواً من 4353 دونماً، والتلال 1300 وخربة الشلالة 900 دونم⁽²⁾ وتبلغ الارض المزروعة منها زيتوناً 4600 دونم في الارض السهل البالغة نحواً من عشرين الف دونم، منها التلال الصخرية قليلة الارتفاع جداً، وهي شريط ضيق مستطيل يبدأ من موقع تل السمك⁽³⁾ وينتهي باراضي عتليت⁽⁴⁾ على شاطئ البحر الابيض المتوسط والقسم الباقي الذي يزيد قليلاً على خمسة عشر الف دونم، فهو الارض الجبلية.

تتصل اراضي الطيرة من جهتها الشمالية باراضي مدينة حيفا، وبلد الشيخ⁽⁵⁾، ومن

(1) الاولى هي قرية شفا عمرو وتبلغ مساحتها 97606 دونماً، والثانية هي اجزم 46905.

(2) اقيمت مستوطنة اخوزا عام 1922م ومهد الانتداب لاقامتها بمعسكر للجيش كحماية لها، موقعها حيوي (استراتيجي، وسياحي هام، يعلو مباني قرية الطيرة ويعزل حيفا عن قرى جبل الكرمل : قدمها المندوب السامي هربرت صموئيل لعشيقته اليهودية "اخوزه" واليهما نسبت المستوطنة، ثم اغرى الانتداب اناساً بالتنازل عنها، وكانوا من المخاتير

(3) آخر مواقع حيفا جنوباً على الشاطئ.

(4) ميناء تاريخي صغير، فيه مبان اثرية قديمة، اتخذ منها الانجليز سجناً ونقطة بوليس ومن سكانها عائلات من الطيرة.

(5) تتصل بها من جهة وادي رشميا. فاعالي هذا الوادي تابعة للطيرة، وسائر له بلد الشيخ.

الجهة الشرقية⁽¹⁾ تتصل باراضي قرى الدامون⁽²⁾ وعسفيا⁽³⁾ ودالية الكرمل⁽⁴⁾، ومن الجهة الجنوبية تلتقي باراضي قرى عيني حوض⁽⁵⁾ وعثليت، ومن الغرب البحر المتوسط.



عراق الشيخ سليمان

- (1) ذكرت الوقائع الفلسطينية وبلادنا فلسطين الخريبة بين الحدود الشرقية للطيبة، على ان الخريبة هي بعض اراضي الطيبة وكانت تقطنها عائلة "ابوظاهر" الباش، ولهذه الحقيقة اثرها في حجم مساحة اراضي الطيبة، فتصبح مساحتها اكثر من 46 الف دونم، لتصبح الثانية مساحة بين قرى القضاء.
- (2) خربة مأهولة وبين سكانها قسم من عائلة الريان الطيراوية، يمر وادي فلاح من جنوبها على بعد 1كم، ووادي العين من شمالها على بعد 1.5كم، وتعتمد على زراعة التبغ الذي يتفوق على الفرجيني جودة ونكهة، وكانت مملوكة للحاج طاهر قرمان صاحب شركة السجائر في حيفا.
- (3) إلى الجنوب الشرقي من الطيبة والى جوارها اعلى قمم الكرمل بارتفاع 546م.
- (4) الدامون سكانها من الدروز وهي غير "دالية الروحاء" في اقصى جنوب الكرمل.
- (5) قرية عربية، على بعد 17كم جنوب حيفا وعلى ارتفاع 125م عن سطح البحر.

النشأة الجيولوجية

جبال الكرمل التي تحتضن الطيرة ، هي من سلاسل الجبال حديثة النشأة، يرجعها العلماء الى الحقبة الجيولوجية الثانية، تلك التي رافقتها تغيرات واضحة في تضاريس القشرة الأرضية وجرى فيها التشكيل الحديث للقارات والبحار والمحيطات، إذ برزت مناطق كانت مغمورة بالماء واختفت أخرى، بفعل ما أصاب الكرة الأرضية من انكسارات وانهيارات، فتزحزحت القارات وانفصل بعضها عن بعض، وظهرت بحار لم تكن من قبل مثل بحر الصين الأصفر، والبحر الأسود، والبحر الأبيض المتوسط، في أزمان مديدة متعاقبة، تقدر بملايين السنين ذلك تقدير العلماء واستقراؤهم من الطبقات الرسوبية والالتواءات التي أصابت سلاسل الجبال . وجبال الكرمل بما في كهوفها من المحارات وبقايا المتحجرات لبعض الأسماك والأحياء البحرية، شواهد على ما يقولون، يضاف إليها حياة الخضرة الدائمة التي تكسو ظهورها في جزئها الشمالي، حيث غابات الصنوبر الحلبي⁽¹⁾، والسرور البري⁽²⁾، والجميز⁽³⁾، والزعرور⁽⁴⁾

(1) هو غير الفستق الحلبي، ويسميه أهل الطيرة "السريس" اوراقه ابرية دائمة الخضرة وثمره مغلف بقشرة صلبة، وهو ما يعرف بـ "قلب الصنوبر" الذي يضاف الى بعض الأطعمة لغايات النكهة الدسمة، وتنشق القشرة عن الثمرة بعد أن تشوى على نار هادئة، وكانوا يتسلون به في سهرات ليالي الشتاء الطويلة. وتنتهي اطراف اغصانه الفرعية بثمره ذات حب متراكب يسمونها "البسيسة" ، تؤكل نيئة ونكهتها حرجية مستساغة.

(2) يصلح خشبه في صناعة السفن وآلات الطرب وفي بناء البيوت، ويقال له "الشربين" وذكرت بعض المصادر ان النبي "سليمان" عليه السلام، قد طلب من "حيرام" ملك الكنعانيين في صور، تزويده بأخشاب لبناء السفن، فأمدّه بأخشاب الارز والسرور - سفر الملوك الأول، الاصحاح الخامس-.

(3) او هو "التين الذكر" ثمره حلو، اشتهر خشبه بالصلابة والمتانة، كثر استعماله في بناء البيوت حتى قل وجوده. وقيل ان شجرته كانت مقدسة عند وثنيي ما قبل التاريخ. بلاهنا فلسطين ج 1 ق 1 ص 463.

(4) ثمره ضارب الى الصفرة ، صغير الحجم ونواته صلبة ضخمة نوعا، حلو الطعم.

والبلوب⁽¹⁾ والخروب⁽²⁾، واللوز⁽³⁾، وأشجار الفاكهة الأخرى؛ كالعنب والتفاح والخوخ والدراق والمشمش⁽⁴⁾ التي تملأ ظهورها، وكأنها ناطقة بأن عوامل التعرية، ماتزال هناك، ذات تأثير ضئيل جدا، بل لا يكاد يذكر لحدثة عهد النشأة والظهور للسلسلة المذكورة، والى هذه الحدثة نعزو نجاح بعض القرى المنتشرة على متنها، في زراعة التبغ، في كل من الدامون ودالية الكرمل وعسفا⁽⁵⁾.

برزت سلسلة الكرمل بما لا يزيد عن 546 مترا ارتفاعا يعلو فوق سطح البحر، في أعظم ارتفاع لها في جزئها الشمالي، قريبا من عسفا⁽⁶⁾ ثم تأخذ بالانخفاض التدريجي كلما اتجهت جنوبا شرقيا، حتى تختفي في الزاوية الجنوبية الغربية لسهل مرج بن عامر، قبل أن تظهر سلسلة جبال السامرة كامتداد طبيعي بعضها من بعض.

وكسائر تضاريس الأرض، كان تشكل سلسلة جبال الكرمل جراء العوامل الجيولوجية الباطنية التي أصابت، وماتزال تصيب كوكبنا الأرضي، وأدت الى انحسار مياه البحر المتوسط نحو خمسة آلاف متر في أعماق انحسار لها عن سفوح جبال الكرمل الغربية التي تحف بالطيرة من جهاتها الشمالية والشرقية والجنوبية، وتزداد رقعة الانحسار اتساعا كلما اتجهت جنوبا، لينبسط السهل الساحلي الخصيب.

يمتد السهل الساحلي على طول الشاطئ، منطلقا من حيفا مائلا كحد السيف، لاعوج فيه ولانتواء، حتى انه لا يعرف الموانئ الكبيرة والهامة حتى نهايته والتقاءه بالحدود المصرية.

(1) خشبه صلب متين يدخل في صناعة السفن، ثمرة طيب وحلو نوعا، ومنه ماهو مر الطعم، قشرة ثمرة صلبة، لونها أخضر أو ضارب الى السمرة القاتمة، كان الناس يفتنون به قديما، يؤكل نيئا ومشويا. وهو ثقيل غليظ، ممسك للبول.

(2) من أشجار الفاكهة، ثمرة مستطيل صلب، بني اللون قاتم ضارب الى السمرة، يؤكل نيئا، ولو لم يكن طازجا، او يدق ويطيخ ليصنع منه "الرب" ويخزن مؤنة سنوية، وعند الأكل يضاف اليه السمسم ويكون غذاء كاملا، او يدق ويصنع منه شراب حلو مرطب في الصيف، وفي عهد الثورة الصناعية الحديثة اخذ يدخل في صناعة الحلويات المجففة، مثل التوفي والنوفا.

(3) من اشجار البحر المتوسط، عرفه الكنعانيون قديما.

(4) من فواكه حوض البحر المتوسط، ونجاح زراعتها رهن بمناخه الحار والجاف والماطر.

(5) كان محصوله يباع لشركة التبغ كعقد مسبق. وكان ورقه طويلا عريضا.

(6) في الجهة الشمالية الغربية منها، اما ارتفاعاتها عند دالية الكرمل فتتراوح ما بين 458 و479 مترا.

التضاريس

إذا قدر لك ان تغادر حيفا من جهتها الجنوبية، باتجاه يافا، فسوف تغادرها من ممر بري ضيق، لا يصل عرضه مئة متر، بين البحر والجبل. وهو في الحقيقة ممر صناعي، إذ كان في أصله شاطئاً رملياً تغمره مياه البحر في اوقات المد ليلاً، لتصافح صخور رأس الكرمل. ثم امتدت اليه يد الإنسان، لتتخذ منه عام 1936م، بوابة برية سهلية، تصل حيفا بمدن الساحل الفلسطيني وقراه بطريقتين، احدهما سكة الحديد على محاذاة الشاطئ، حتى تصل بك الى العريش على الحدود المصرية الفلسطينية، وثانيتها طريق معبدة اسفلتية، تخترق السهل الساحلي ومدنه وقراه، حتى تصل بك مصر جنوباً⁽¹⁾. والى هذا الخط المعبد تنتهي فروعها التي تصله بالقرى على الجانبين. وأول هذه الفروع من الجهة الشرقية للخط، فرع يزيد قليلاً عن ألفي متر، وهو الواصل الى قرية الطيرة من جهتها الشمالية عبر أشجار الزيتون.

والممر البري المذكور، ينعطف قليلاً حول رأس الكرمل من الغرب، بما لا يزيد عن مئتين وخمسين متراً. أما الرأس فهو امتداد صخري متقدم باتجاه البحر، بظهر منبسطة بعض الشيء، وينهض عليه مقام "للخضر"⁽²⁾ عليه السلام، وتسير بك الحافلة لحظات لتدخل بك السهل الساحلي، فيكون البحر المتوسط عن يمينك، وجبال الكرمل عن يسارك، من نقطة

(1) كان غرض بريطانيا من ربط القطرين الفلسطيني والمصري بطرق برية ساحلية لغايات عسكرية محضة، هدفها الدفاع عن "قناة السويس" وعن مصالحها في المنطقة. كذلك كان غرض تركيا من انشاء الخط الحديدي الحجازي لتأمين السرعة في نقل قواتها البرية للقضاء على ثورات التحرر العربية، بعد ان نزعت تركيا في آخر عهدها بالخلافة الاسلامية الى العنصرية الطورانية.

(2) ذكر ابن كثير في تفسيره الآيات (65-82) من سورة الكهف، أن الخضر هو الرجل الصالح الذي آتاه الله تعالى حكمة وعلماً، ووجه اليه "موسى" عليه السلام، ليتعلم منه، فلقبه عند مجمع البحرين - اغلب الرأي أنه رأس "محمد" قريباً من مضائق تيران، حيث يلتقي خليج العقبة بخليج السويس - وتذكره العقيدة المسيحية باسم القديس "جيورجوس" وتظهر صورته على جدران بعض الكنائس فارساً مقاتلاً يركب حصاناً، ويصارع تنيناً خرافياً، لينقذ فتاة من اسره.

ولللخضر اكثر من مقام، منها واحد اقيمت حوله قرية الخضر الى الجنوب من مدينة بيت لحم على طريق الخليل. يقصد مقامات الخضر الأميون من بسطاء المؤمنين لتقديم نذورهم على نية القبول والتقرب من الله تعالى.

كرأس مثلث في الشمال⁽¹⁾ أحد ضلعيه سلسلة جبال الكرمل بطول يبلغ اثنين وعشرين كيلو متراً، وثانيهما سيف البحر المتوسط.

ومطالع السهل الساحلي، هي اول اراضي الطيرة، في موقع يقال له "العزيزية"⁽²⁾، تملكه عائلات طيراوية منها حجير والشايب والسلمان ولايفصله عن البحر، غير خيط رفيع من تلال صخرية مستطيلة خفيضة تظهر مسافات قصيرة بارتفاع بضعة أمتار، ثم تختفي مسافات اخرى، واول تلك التلال "تل السمك"⁽³⁾ من اراضي حيفا، في مقابل مقام الخضر، ومنها "تل علي الزايدان" و "تل خريس"⁽⁴⁾ مقابلا للقرية في الغرب وأخرها "تل الأقرع" في الجنوب، وفي هذا الموقع عيون ماء عذبة نازة⁽⁵⁾ ودون تلك التلال الى البحر كتبان رملية ناعمة،

(1) قاعدته في الجنوب تبلغ ثلاثين كيلو مترا طولا، أما مساحته فهي 3220 كيلو مترا مربعا، يرتفع قليلا عن سطح البحر. ومعدل سقوط امطاره في الشمال 800 ملم، تقل تدريجيا كلما اتجهنا جنوبا لتصل الى 250 ملم، تخترق السهل الساحلي الفلسطيني اودية وانهار منها: نهر العوجا الذي ينبع من جبال السامرة، ويصب شمال يافا. اقيمت عليه محطة لتوليد الكهرباء. ونهر الزرقاء الذي ينبع من اراضي قرية "ام الفحم" ويصب قريبا من قرية "قيسارية" التاريخية، وتجف مياهه في معظم أيام السنة. ونهر روبين الذي ينبع من جبال القدس، ويصب على بعد 14 كيلو مترا الى الجنوب من يافا. وعلى ضفاف "روبين" يحتفل السكان المجاورون له بعيد الربيع "عيد النيروز" او "عيد شم النسيم".

(2) يفصل العزيزية عن حيفا واد مشهور هو "وادي الجمال" وعلى سفوح هذا الوادي الجنوبية بعد ان تنبسط موقع "بوابة الدير". كما اقيمت عليه مدرسة "سمبل" كلية متوسطة تدرس مناهجها باللغة الانجليزية. تمتد حدودها الغربية الى البحر، أما الشرقية، فالى سفوح الكرمل.

(3) سمي كذلك لأنه كان مركزا لصيادي السمك القدامى. وتذكر الموسوعة أنه سمي بذلك لوجود كميات كبيرة من الأصداف البحرية التي كان العرب الكنعانيون "الفينيقيون" يستخرجون منها صيغ الارجوان.

(4) أقامت بريطانيا عليه مشغلا لصيانة الخط الحديدي ومراقبته، ولم يكن محطة لشحن البضائع ونقل الركاب، كما أقامت على القسم السهلي منه معسكراً لقواتها. وكان مركزا لمراقبة الأجواء أثناء الحرب العالمية الثانية بالأضواء الكاشفة.

(5) العين النازة هي التي يخرج منها الماء بلا قوة في الدفع، وينساب على وجه الارض ثم يفيض في التراب بون ان يشكل جبولا او ساقية.

هي الشاطىء الذي يضيق ويتسع حتى يبلغ نحواً من مئتي متر، في موقع يقال له "الكنيسة"⁽¹⁾، وفي هذه بئر مياه عذبة، وإلى الشمال منها على بعد خمسمئة متر، تقع بئر أخرى هي بئر "عودة"⁽²⁾ ذات مياه عذبة، وفي وسط الرمال أيضاً.^(*)

سهول الطيرة ذات تربة رملية طينية خصبة، وتنبسط كباطن الكف كما يقولون، وتخرقها من الشرق إلى الغرب ثمانية أودية، تسيل مياهها بضعة أيام في فصل الشتاء. وفي الأودية عيون مياه عذبة، تستقي منها القرية ومواشيها، وبعض البساتين.

أما الجبال التابعة للطيرة، وتحتضن القرية كالأمر الرؤوم، فتمتلك القرية منها نحواً من خمسة عشر الف لونم مربع، ومنتها يشبه سهولاً تزرع شتى أنواع الحبوب والأشجار المثمرة، إلى جانب الأشجار الحرجية، كما هو الحال في القرى الجبلية المجاورة، لكن الطيرايوين اكتفوا بزراعة ما يخصهم من المناطق الجبلية أشجار الفاكهة بأنواعها كالعنب والتين والتفاح والخوخ والدراق. واستغلوا الأحراش؛ يتخونون من أخشابها مصدراً رئيساً من مصادر الطاقة قبل

(1) تصغير كنيسة. فقد كان البناء في أول عهده ديراً صغيراً، وحين أسلم السكان هُجِرَ وتُركَ لعاديات الأيام، حتى تهدم ولم يبق منه غير اطلال وبقايا أقواس داخلية من جهته الشرقية، أما صحنها، وكان فيه البئر فقد اتخذ بركة، يلقي فيها الماء عامل مختص - من عائلة تيم قبل النكبة - يتقاضى أجره من أرباب المواشي التي ترد المكان للسقاية والابتعاد ونعتقد بأن مدفعية نابليون هي التي دمرتها أثناء حصاره مدينه عكا، وفي أواخر عام 1947 فجرت بريطانيا في البئر لغماً كبيراً، انتقاماً من أهل القرية بعد أن ضببطته محمولاً على ظهر شاحنة وجهت إلى موقع صهيوني تأديباً لمجرمي الصهاينة لاعتداءاتهم على المدنيين العزل من العرب، لم تكتف بريطانيا بقتل سائق الشاحنة "التركي بل تعمدت بالتفجير قتل ماشية القرية عطشاً.

(2) طمرها الانجليز في أوائل الأربعينات تمشياً مع سياستهم في التضييق على العرب.

(*) لم يفكر أهل الطيرة في استثمار الشاطىء سياحياً، لأمر تتصل بعقيدتهم وطبيعة حياتهم، فهم مسلمون ينفرون من العربي للأنثى والاختلاط، وهم فلاحون وأصحاب مواشٍ كثيرة، لاوقت للفراغ واللهو عندهم، فاتخذوا من عيون مياه الشاطىء موارد لمواشيهم، وكان الشاطىء ملكاً مشاعاً لهم ولذرائعهم، ولم يكن للقرية هيئة تنظيمية رسمية تشرف على تصريف شؤونها كمجلس بلدي أو قروي بسبب انعدام الحكومات الوطنية.

ان ينتشر النفط ومشتقاته، فكان الحطابون وعمال المشاحر⁽¹⁾ منهم، يقطعون الأخشاب ليستخدمها الناس في مواقدهم للطبخ والتدفئة، وفي تشغيل افرانهم قبل ان يتحولوا بها الى النفط وقودا.

وأية خصب الارض الجبلية الكرملية⁽²⁾ نجاح زراعة اشجار الصنوبر الحلبي⁽³⁾ في المواقع التي اقتطعتها بريطانيا، وفي غضون سنوات قليلة تحولت تلك المواقع الى غابة خضراء.

يبلغ ارتفاع جبال الكرمل حول الطيرة ما بين 458 و479 مترا واطلى قمة تقع الى الشمال الغربي من قرية "عسفا" بارتفاع 546، أما أمطاره فهي بين 600-700 ملم، ناهيك عن وفرة الرطوبة والندى، ومن الظواهر المناخية الملفتة للنظر، نزول الندى في أيام الصيف، في موقع "ابو الندى" بين الطيرة وحيفا، قريبا من موقع "السهلات" شمال شرقي الطيرة. ولعل نجاح الزراعة فوق متن الكرمل يعود الى تخلخل صخوره فهي بين كلسية وبركانية علاوة عن كونها حديثة النشأة كما اسلفنا.

اذا استثنينا أخاديد الأودية، العامرة بالغابات الحرجية الكثيفة وجدنا متن الكرمل هضابا متماوجة. اما السفوح الغربية منها، والمحيطه بالطيرة، فهي ذات ميل طفيف باتجاه البحر، باستثناء ثلاثة منها، تقوم عليها مباني القرية، وتتميز بانبساط ظاهر، هي "فرش الحلقة" في شمال القرية، و"القف"⁽⁴⁾ في وسطها، و"فرش الزلاقة"⁽⁵⁾ في طرفها الجنوبي. وخلف الزلاقة

(1) جمع مشحرة، من الشحار وهو السناج حين يتراكم على قعر قدر الطبخ الخارجي. وعمال المشاحر هم عمال الفحم، سموا بذلك لما يعلق بثيابهم من سناج الحطب المحترق ودخان، وحين يقومون بتعبئته في أكياس، بعد استواء حرقه.

(2) معنى الكرمل في الكنعانية القديمة "كرم الله" لما فيه من خصب وجمال.

(3) يؤخذ من قلب الصنوبر، يضاف الى الطعام للنكهة والدم النباتي، وقد اطلق الطيراويون على ثمره "القلوقز" كان يشوى على النار لاستخراج لبه الأبيض.

(4) القف لغة حجارة غاص بعضها ببعض، ولاخالطها سهوله، وهو جبل لكنه ليس بطويل في السماء، يرتفع نحو من 75 مترا ويشرف على ماحوله، على وادي العين وفرش المرقصة شمالا، وعلى وادي "ابو الجاع" ووادي "الدرج" جنوبا.

(5) الفرش من الجبل، ما انبسط ظهره وصار ممهدا صالحا للسير عليه.

على بعد أكثر من ألف وخمسمئة متر مجرى وادي مسلية، وعلى اكتافه الجنوبية ينتصب الكرمل، مثل جدار صخري، مستعرضاً في مواجهة القرية، وهذا الجدار هو "عراق البارود"⁽¹⁾ الذي يسير مع الوادي بامتداد يزيد على شكل زاوية شبه قائمة باتجاه وادي فلاح، حيث الانحدار الحاد الذي يستعصي على الصاعدين، الا زحفاً، وتعرجا، الى حيث اعالي السفح الشاهقة، موطن الغربان والنسور، فلا غرابة في أن تراه من شدة انحداره، صخورا عارية من الأشجار على حافته الغربية المقابلة للسهل.

وحين تدخل وادي فلاح تؤخذ بروعة مشاهده، وصمت المكان الرهيب، إلا من نعيق الغربان الباحثة عن فرائسها، والساعية في تدبير شؤون حياتها، واذا اطلقت صرخة تجاوبت اصداؤها من جنبات الوادي، وقد تتملكك الرهبة من مغاوره الكبيرة العالية، واشجاره الكثيفة على اكتافه، وقد تسمع دقات المطارق الحديدية الضخمة⁽²⁾، وهي تفتتت الصخر القاسي لاغراض البناء حجارة او شيئا، حيث توجد بعض المقالع "المحاجر" ومعامل الكلس، وكلما ارتقيت شعاب الوادي صعدا تجاه الشرق، انتابك شعور غريب، كأنك في عالم من عوالم الجن، منقطع عن عالم الإنس، وكذلك تنسى هذا الاحساس بالوحشة مما يليق به الوادي من آيات الفتنة تحت ناظريك، فالخضرة هي الغالبة حتى في شهور الصيف، اذ تتوارى الحشائش والأعشاب الميتة تحت اغصان الشجر الحرجي ونبات الصيف الجبلي، حتى اذا بلغت متن الجبل ادركت ان سحر الوادي ماكان إلا مقدمة مناسبة لسحر امتع وارحب، تنتظرك كمفاجأة سارة تنسى بها مشقة السفر وصعود الجبال، وأنها كانت مسرحا للسباع الضارية. وتترك هذا المكان، وهو معلم للطبيعة الوادعة الضاحكة على حدود الطيرة الجنوبية، واذا سرت شرقا صادفتك مواقع المغرقة، وتل الزعرور والشلالة وفرش محمود العيسى، لترى كيف أحالها الفلاح الطيراوي عبر السنين الى جنات فوق الصخور وبين الغابات. ثم ماتلبث أن تقف مأخوذاً بمنظر "العراق الأحمر" كمعلم للطبيعة الثائرة الغضوب، على حدود الطيرة الشرقية من جهة خربة الدامون، ولهذا "العراق" المستعرض من الجنوب الى الشمال شأن غريب، ذلك أن متن الكرمل ينخفض

(1) من العرق: أصل كل شيء، والجبل الغليظ المنقاد لايرتقى لصعوبته، وجمعه عروق واعراق وعراق.

(2) هي المهدات، مفردا مهدة، كتلة حديدية باحجام مختلفة لتفتتت الصخور.

كغورٍ من أمام قاعدته الغربية، لينتصب حادا يستعصي على المتسلقين، فلا يؤتى إلا من الخلف، أي من جهته الشرقية، ويعجب زوار هذا العراق من امر العسل ينساب على جبهته الغربية من أواخر الربيع حتى أواسط فصل الخريف، وما هو إلا من النحل الذي يتخذ من ثقوب فيها سكنا له، يمارس فيها حياته ويصنع شمعه وخلاياه. ولاغرو في ان يكون من اجود انواع العسل، لأنه من رحيق الأزهار البرية والاشجار الحرجية والمثمرة التي تملأ متن الكرمل، ولذا فهو يستحق تضحية المغامرين من عشاق الشهد الطبيعي وتجاره، فيأتونه، ويتكلمون ويتدلون اليه بالحبال، ويمدون ايديهم في تلك الثقوب، ويجنون من الشهد ما يستطيعون.

ومن غرائب هذا الموقع ذلك الغور الجبلي الذي يسمونه "عقدة العكرش"⁽¹⁾ لامتلأته بشتى اصناف الشجر الحرجية كاللزاب والصنوبر والبطم والسنديان والطيون والعليق والميرمية⁽²⁾، وكلها متكاثفة متشابكة يتحاشى الناس عبورها لصعوبة السير فيها. والعراق الأحمر بعيد عن وادي العين من جهة الجميزة القريبة من عين المغارة، ولكن الوصول اليه لا يكون إلا من جهة لوبية وأبي مدور "الذي تملكه عائلة العبويني".

وفي طرف من "ابو مدور" مقبرة واضحة المعالم، يسميها الطيراويون، مقبرة العرب لم أقف على خبر لها، الا انها التوكيد على وجود خربة "الشلالة"⁽³⁾ وأن حجارة من الفسيفاء وجدت في فرش محمود العيسى المجاور للمكان.

وإذا استثنيت سفوح الكرمل الغربية المطلة على السهل الساحلي في اراضي الطيرة،

(1) نبات من الحمض، او هو نوع من الحشيش، او العشب المقدسة، او نبات منبسط على الارض، له زهر دقيق ويزر وطعم كالبقول. ومنهم من يلفظ العين حاء، فيقول الحكرش، من الحكش، والراء فيه زائدة، والحكش: الملتوي على خصمه، والتواء الأشجار بعضها على بعض، وكلا اللفظين دال على صفة المكان وإنه لعقدة بالفعل.

(2) نبتة برية جبلية، ذات نكهة مستساغة، تشرب نقيعاً مغلياً ساخناً صرفاً، او مخلوطاً مع غيره كالشاي واليانسون، وتستعمل علاجاً لانتفاخ البطن والمغص. وتمضغ اوراقها نيئة لازالة الرائحة الكريهة من الفم. اخذ الناس يزرعونها في الحدائق المنزلية. ومنهم من يسميها "الميرمية" واما اسمها العلمي فهو "البهمن، وباللاتينية سلفيا salvia.

(3) مكن الانتداب الصهاينة من اقامة مستوطنة فيها اسموها بيت اورين Beit oren.

ورأيت صخورها عارية الا من بعض شجيرات "البلان"⁽¹⁾ او نبات الميرمية واذا استثنيت أخايد الأودية وهي العلامات المميزة بين المواقع، مثل علامات الترقيم في الكتابة، ثم قدر لك النظر من على متن الكرمل، وقفت على لوحة خضراء وكلما هبطت اليها تلونت بالازاهير المختلفة، والتمعت نجوما في الأرض، وادركت قدرة الخالق سبحانه وعنايته فيما خص به هذه البقعة المباركة من آيات الفتنة؛ من وادي فلاح جنوبا الى وادي رشميا شمالا، واستيقنت قدسية حبات العرق المتساقطة من جبين الآباء والأجداد وسواعدهم، حتى الآنوا صخور الكرمل، وأسهلوا وعورة وديانه واحراجه، حتى صيره لوحة فنية، خالصة لأبنائهم واحفادهم. ومن ثم تتضح بشاعة المؤامرة على الأمنين، كما تتضح جريمة نسيانها والتفريط بها والعودة عن استردادها، وان ذل التشرد والضياع لأهون جزاء على العيش بغير هويتها.

والحديث عن اودية الطيرة، استكمال للرسالة في التعرف على تضاريس ارضنا المباركة:

(1) نبات شائك لاسوق له، اغصانه متشعبة بلا حصر، دقيقة لدنة متشابكة، ينضد ويضغط باثقال حجرية ونحوها، ويتخذ مكانس خشنة للطرق والساحات الخارجية. يكثر وجوده في اقليم البحر الابيض المتوسط.

الأودية

يخترق الطيرة، البلدة والأرض، ثمانية أودية⁽¹⁾، وهي من الشمال إلى الجنوب كفر السامر⁽²⁾ وریشه وعمرو وعبد الله والعين وأبو الجاع ومسلية وفلاح، وكلها تجري من الشرق إلى الغرب، كلها تضاريس بارزة وذات أثر بالغ في حياة السكان الاقتصادية والاجتماعية، على الرغم من قصرها، وانقطاع مياهها في معظم أيام السنة.

لأودية الطيرة حظها في تاريخ السكان تماما كالسهل الساحلي، وربما كانت أبعد أثرا، وأكثر أحداثا، ذلك أن الأودية بأحواضها ومجاريها واكتافها بين الجبال، كانت في الأصل ملكا مشاعا، ثم تسارع الناس إلى امتلاكها بقانون الفلاحة والاستثمار والتقدم. وكانت الاستفادة من حشائشها واعشابها مراعي عامة للماشية، ثم الاستفادة الشخصية من اشجار البلوط والصنوبر والسنديان. وكانت هذه مصدر رزق لقطاع كبير من الطيراويين، حتى القيعان، فمنهم من استغل حصباءها وسيلة كسب شاقة لمعيشتهم، إذ كان الفقراء يقومون بتكسيورها بالشاكوش ونحوه، ويحولونها إلى حصمة "صرار" صالحة لأعمال البناء، إذ لم يكن في البلدة كسارة واحدة، وكان كل اعتمادهم في "باتون" السقف على رمل يؤتى به من شواطئ "عتليث" أو من شواطئ "عكاء" حيث الرمل فيها خشن مناسب للصب بالاسمنت المسلح، أما رمال الشاطئ الطيراوي، فهي رمال ناعمة لاتصلح إلا "روبة"⁽³⁾ لمعالجة الشقوق في السقف، وربما ادخلت كعنصر مساعد في صناعة الأواني الفخارية، ممزوجة بالطين الجيري. هذا عدا عيون الماء التي تستقي منها القرية وبعض بساطينها المنتشرة في بعض الأودية، وإن كان معظمها

(1) لم نعتبر وادي رُشِيمَا بين أودية الطيرة لأن معظمه يقع ضمن أراضي حيفا وبلد الشيخ، وللطيرة اعاليه فقط، ويدخل حيفا من طرفها الشمالي الشرقي. والاسم من الرشم بمعنى الرسم وأول ما يظهر من النبات. والرشم، محرّكة، سواد في وجه الضبع.

(2) تسميه بعض المصادر الفلسطينية كفر السمير. والصواب ما ذكرناه.

(3) من: راب الحليب: إذا تخثر وصار لبنا رابا. وفي عرف البنائين مزيج من الاسمنت والرمل والماء إلى درجة التميع. تعالج به شقوق الاسطحة والمادات الأرضية.

عيونا نزازة، وحفرت في بعضها أبار لجمع المياه لسقاية الماشية صيفا.

وأودية الطيرة باستثناء وادي "أبو الجاع" الداخلي، تتميز مجاريها باستواء نسبي حين تلامس الأرض السهل، وكأنها أحواض أنهار صغيرة، على ضيق في المساحة شديد، بما يحف بها من خضرة البساتين العامرة بالخضراوات المختلفة وأشجار الفاكهة كالتين والرمان والتوت واللوز والخروب والصبر⁽¹⁾ وغيرها. وكان أصحابها يهدون أقاربهم واصدقاعهم، ويأخذون منها حاجتهم ويبيعون فائض المحصول. فقد كان وفيرا على الدوام، بفضل التسميد والرعاية المستمرة.

أولاً: وادي كفر السامر:

يقع في الشمال بعيداً عن القرية بما يقرب من ستة كيلومترات، يبدأ من أواسط الكرمل الشمالية، من شرقي "الكبايير"⁽²⁾ ويبلغ طوله نحواً من أربعة آلاف متر. تسيل مياهه في الشتاء أياماً. ويمر بموقع "كفر السامر"⁽³⁾ الأثري، ويصب في البحر عبر موقع يقال له "باب النهر".

ثانياً: وادي ريشة:

متن الكرمل أرض تبدو منبسطة، ولكنها بأخاديدها وهضباتها متماوجة خضراء ضاحكة، بالأشجار التي تكسوها والمزروعات التي لاتفارقها. وكلما اتجهت الأخاديد نحو الأطراف تعمقت هابطة لتكون أودية، وأكثر تلك الأخاديد ما اتسم شقوقاً في سفوح الكرمل

(1) تشير إليه بعض الكتب باسم "الصبار" أو "الصبر" نباته الواح مستطيلة منها الشائك، ومنها بلا شوك، وثمره لذيذ الطعم له نوار اصفر قبل نضجه.

(2) موقع صحي بهوائه، جميل بمناظره الطبيعية، ومشرف على البحر، تقرب مساحته من ألف دونم، تنازل عنه مالكة "مصطفى محمود الباش" لأقربائه من آل عودة وهؤلاء فرع من الباشية لحقت بأبناء عمومتهم الذين سبقوهم بالنزوح من قرية "نعلين" ثم اعتنق قسم من آل عودة الديانة البهائية (الأحمدية) التي رعتها بريطانيا ثم تلقفتها الصهيونية للطعن في الاسلام وتفتيت المسلمين ومن مالكيه الذين تنازلوا « يوسف الجربوع ».

(3) لا يدري من تاريخه شيء، والاسم عربي كنعاني، وقد اتخذت خرائبه حظائر للماشية، وفي الموقع بئر ماء من جمع مياه الأمطار.

الغربية، وحظ الطيرة منها ثمانية اودية ذكرنا منها وادي كفر السامر في أقصى الشمال، ويليه وادي " ريشة" الذي يبدأ تكونه من حوامة الكرمل الوسطى، ويمر منها جنوب مستوطنة " اخوزة" ⁽¹⁾ ثم يتلوى باتجاه الغرب، حتى اذا اخترق السفوح الغربية، سار وكأنه يوازي وادي " كفر السامر" من الجهة الجنوبية، ومكوناً فاصلاً طبيعياً بين الاكتاف الجنوبية للوادي الاخير، وبين " خلايل الصعبي" ⁽²⁾ المغطاة بأشجار الخروب.

وفي وادي ريشة عين مياه عذبة، ذات نبع يدفع ضعيف، هي عين " ريشة" التي تسيل مياهها مسافة الفي متر باتجاه الغرب، لتسقي البساتين القائمة حول مجرى الوادي، ثم تستنفذ مياه العين، ولا تفيض في الارض، ليمضي الوادي من بعد جافاً، في غير ايام الشتاء الماطرة، وفي ارض سهل اكثر من ثلاث الاف متر، حتى يصل البحر بمياهه شتاء الى الجنوب من موقع باب النهر.

ووادي ريشة اوفر من سابقة مياهاً، واكبر منه طولاً بنحو الف متر تقريباً.

ثالثاً: وادي عمرو:

هو اقصر اودية الطيرة الواصلة الى البحر، وبداياته غير بعيدة عن سفوح الكرمل

الغربية، ويقع الى الجنوب من وادي ريشة. ويفصله عن خلايل الصعبي مرتفع صخري يقال له

(1) هي "أخوزة صموئيل" المذكورة في حاشية ص 11. وقد اقيمت على اربعة مواقع للطيرة؛ هي :

أ- جورة آل الريان .

ب- فرش آل زيدان .

ج- ارض لال البحيري- فرع من عائلة المصاروة - واخرى لال الدويري.

د- رشميا الاعلى، وفيه بئر رشميا؛ بدايات وادي رشميا وهو يتجه شمالاً وقبل ان ينعطف ليدخل

اراضي حيفا من الجهة الشرقية، حيث اقيم عليه جسر رشميا المشهور في حيفا، والى الجنوب

من بدايات الوادي، تقع عين "الصوانية" النَّزَاة. ولكن مياهها وفيرة الى حد ما، وعذبة، اما بقية

الوادي فهو لعائلة " ابو شام" من بلد الشيخ.

والى الجنوب من المستوطنة مواقع طيراوية هي ارض السهلات وفرش ابو الندى وتين الاربعين،

وارض محمود الداود حجير، المتاخمة لاراضي " دالية الكرمل".

(2) جمع خلّة : نبات بري يستعمل وقوداً. والموقع ارض صخرية تنبسط بين جبلين.

«دبة ظاهر»⁽¹⁾، نوقشرة جيرية حثانية طرية، اعشابها قليلة، الارتفاع ، وفيها بعض اشجار التين. وهذا الوادي شديد الانحدار، يخترق السفوح الغربية للكرمل. قليل الخضرة على كتفيه، ولا عين للماء فيه، استغل السكان صخور اكتافه للبناء، وفيه بعض المحاجر، وعلى بداياته اشجار حرجية عالية. وشلول الوعاوع الرهيب وفي الوادي على اكتافه الشمالية موقع " الهربات" وفيه هوة سحيقة، سماها الطيراويون " هوته" وهي على شكل بئر عميقة، ولكن بلا ماء.

رابعاً: وادي عبد الله.

اسمته بعض المصادر وادي الطيرة الى الجنوب من حيفا، وانه وادٍ شتوي صغير، يحمل مياه الامطار الهائلة على ربوات الكرمل الوسطى الشمالية وينتهي بها الى البحر، ويعرف هذا الوادي عند منشئة باسم وادي الكساب⁽²⁾، وقرب منتهاه وادي المصرة⁽³⁾، هكذا ذكرته بعض المصادر.

يبلغ طول هذا الوادي نحواً من ستة آلاف متر، ويبدأ من نقطة قريبة من رأس المهلل⁽⁴⁾ شمال شرق الطيرة ، ثم يتجه شمالاً، ويسير متعرجا في شبه نصف دائرة، قبل ان يأخذ سمته تجاه البحر، وفي هذا الوادي ، قبل ان يصل الارض السهل عين ماء عذبة نزازة، وفي اكتافه الجنوبية، مما يلي المنازل من الشرق مقالع " محاجر " للحجر السلطاني. بين وادي عمرو ووادي عبد الله، بقعة من اجمل بقاع الارض، فعندك موقع " الكباير" بميلان نحو الجنوب. اذ يبدأ متن الكرمل بالانخفاض التدريجي لتنشأ لوحة طبيعية، اشبه ما تكون لوحة فنية، فاذا استوت اول استواء لها في اليعقوبية⁽⁵⁾، رأيت هضبة تنتشر فوقها

(1) الدبة : مرتفع من الارض محدودب الظهر. الدباء : القرع، مفرده دبة

(2) لانه يكسب ماءً كثيراً، وهو الاسم الحقيقي لوادي ابي الجاع الذي سيأتي ذكره فيما بعد.

(3) كثير الصرار، وهو موقع لاناس من عائلة حجير. والطيراويون لا يعرفون واديا باسم " وادي الطيرة" والمعلومة هذه ذكرها الدباغ في " بلادنا فلسطين" ج 7 ق 2.

(4) موقع جبلي وقمته مدبية، وشديد الانحدار، من الجهة الشرقية الشمالية للقرية، يعلو فرش المرقصة مباشرة، وكل قمة مدبية يسونها رأساً والعراق جبل يشرف على ما حوله.

(5) من الجدير بالذكر ان ناسكا اشتهر باسم " القديس يعقوب ناسك الكرمل" ولا نعلم ان كان بين الاسم وهذا القديس علاقة ما.

اشجار الخروب، ويحوطها الكرمل من الشرق برؤوس بارزة شامخة في مهابة هي " رأس اسكندر" وعراق ابو حمده. ثم ينحدر امامك الجبل قليلا ليستوي مرة اخرى، ولكن يكون شبيهاً بقعر صحن من القاشاني، منقوشة بنقوش بديعة الشكل فتانة، بالوان الخضرة الغامقة او الفاتحة الضاحكة، من اشجار وزروع واعشاب. والحافة الشرقية لهذا الصحن عالية مكسوة باشجار الصنوبر، هذا الصحن هو موقع السياح الفريد بجماله وطيب هوائه النسبي شتاءً، وهو العامر باشجار الفاكهة والخضراوات الدائمة.

في هذا الموقع عين السياح النزازة، والى الشرق منها في اعلى الجبل عين ام الفرج التي يتواصل سيلها في ايام الشتاء، وتقع وسط مكان اثري، فيه غرفة وحوض منقوران في الصخر، والى الشمال الشرقي منها خربة الدير التابعة للطيرة، تحتوي على انقاض دير القديس " بروكار دوس" وبينها مقابر ونفق مقوس السقف. وألُهرْبَةُ مجاورة لموقع الكباير⁽¹⁾.

ويقابل خربة الدير على البحر باب النهر وبينهما مسابح الخياط. وباب النهر اشترت الجالية الالمانية قسماً منه واقامت لنفسها مستوطنة هي " الالمانية" تميزت العلاقة بينها وبين الطيراويين بالسخونة والقطيعة، بعد ان قتل حارس منها رجلاً من عائلة الابطح، فاقسم اهله ان لا يدفنوه او ينقلوه من مكان مصرعه الا بأخذ الثأر. ونفناؤنا قسمهم بقتل مختار الجالية" يوهانس" بعد ان ابدى عدم اكرامات بحادثة القتل، فقتله اثنان من اقرباء المقتول قتلاً مشهوراً.

واسموا مستوطنتهم " نيوها ردوف".
كان اهل الطيرة يقطعون هذه الاودية جميعاً عندما ينتقلون الى حيفا، في زهاب وايب، مشياً او ركوباً على الدواب، يوم لم يكن هنالك للنقل وسيلة اخرى. وكان دخولهم مدينة حيفا عبر وادي الجمال⁽²⁾ من جهة بوابة الدير⁽³⁾ بعد ان يجتازوا مدرسة "سمبل" وقبل ان يصلوا مقام الخضر عليه السلام. ووادي الجمال مما يلي مستوطنة اخوزه من الجهة الشمالية الغربية.

(1) بلادنا فلسطين ج7 ق2 على الصفحات 462 وما بعدها.

(2) سمي بذلك لانه كان سوقاً للجمال بعيداً عن قرية حيفا قبل ان تصبح مدينة.

(3) اسم لموقع غير خربة الدير المار ذكرها.

ذكره الدباغ باسم وادي المغارة⁽¹⁾ بين اربعة اودية في الطيرة.

وادي العين اطول اودية الطيرة، وابعدها اثراً في حياة سكانها ، واكبرها اتساعاً في مجراه، اذ يزيد طوله على ثمانية آلاف متر، ويبدأ تشكله بمجموعة هائلة من المنعرجات والاشاليل الجبلية، غير بعيدة عن خربة الدامون بمقدار الف وخمسمئة متر، وتتكاثر الاشجار الحرجية على منحدراته العلوية وينبسط قعره قبل ان يدخل موقع الخريبة من طرفه الجنوبي، الى ان يخرج منه، وتتحد منعرجاته لتشكل المجرى العام قبيل شجرة الجميز الوحيدة في المنطقة، ثم يسير قليلاً الى " عين القصب" وهي بدفع ضعيف جداً، والى الغرب منها بمسافة قصيرة تقع " عين المغارة" التي تستقي منها القرية، وسط الجبال، وتبعد عن منازلها مسافة اربعة آلاف متر، او تزيد قليلاً. وقد سميت بذلك لانها تتبع من وسط مغارة كبيرة، ومنها يأخذ الوادي الاسم ايضاً. "وادي العين" او وادي المغارة .

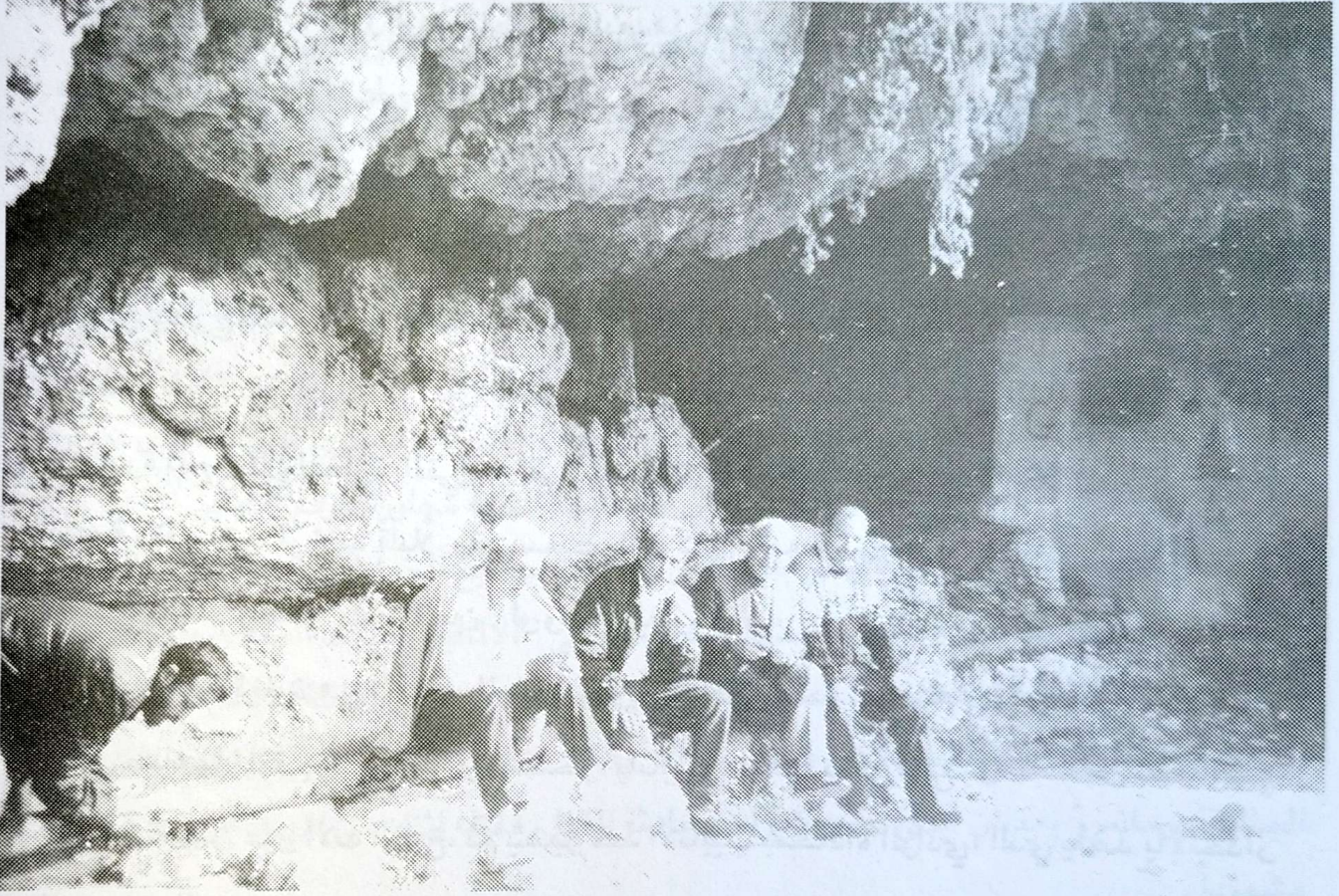
وعين المغارة هي المصدر الرئيس والوحيد الذي تعتمد عليه الطيرة في مياه الشرب⁽²⁾، وتنقل مياهها المتفجرة ينبوعاً من الصخر، بانابيب معدنية بقطر اربع بوصات، من نقطة النبع مباشرة، ومن غير آلات الضخ، ثم يسير خط الانابيب بمحاذاة الوادي، الذي يأخذ بالانحدار الطفيف والتدرجي نحو الغرب، وبالتواءات غير حادة، ثم يدخل القرية من طرفها الشرقي، حيث فرش " المرقصة" ورأس المهلل عن يمينه، وعراق "الشيخ سليمان"⁽³⁾ والقف عن شماله. وتكون الاشجار الحرجية قد اختفت من جانبيه، لتبدأ بالظهور اشجار التين والتوت ونبات الصبر والخروب والرمان، وقبل ان يغادر الطيرة يلتقي بوادي " ابي الجاع، ليمضي الى البحر في خط شبه مستقيم عبر اشجار الزيتون ثم السهول الغربية فالتلال من موقع يقال له " باب الجرف" حيث يستوي مجراه وينبسط ويبطئ في سيره، وباب الجرف حمل اسمه مما يجرف

(1) بلادنا فلسطين ج7 ق2 ص590 وما بعدها.

(2) ذكرت الموسوعة الفلسطينية ان الطيرة تستقي من اربعة عيون، هي عين المغارة، والقصب والسريسة وعبد الله، والحقيقة هي ما ذكرناه، فباستثناء عين المغارة كل العيون نزازة، تطفو مياهها على وجه الارض ثم تفيض، ولا يكون ذلك الاشتهاء.

(3) اشتهر بين السكان باسم عراق الشيخ دون اضافة سليمان اليه.

الوادي من الطمي على مر السنين، وفيه تختفي حصباء الوادي تحت ما يعلوها من ترابه الناعم ، ثم يعود الحصى الى الظهور فوق رمال الشاطئ.



عين المغارة

يخترق الوادي القرية وسط اشجار الفاكهة، وعلى شماله بستانان عامران مستطيلان محاطان بسياج عال من نبات الصبر، يحجب الاشجار عنّ يمر بجوارها، ومما يلي البستان الشرقي منهما، " البركة" التي تصب فيها مياه عين المغارة، ومنها يجري توزيعها ضمن شبكة من الانابيب الى حارات القرية.

وعلى من اراد الانتقال بين البلدة وحي القف ان يقطع الوادي من احدى طريقين، اولاهما من الشرق للآتي من حي "الزقزوق" ثم ينحرف في صعوده باتجاه الجنوب الشرقي

ليدخل ساحة المدرسة الوحيدة للذكور ، من جهتها الشمالية من باب فرعي . وثانيتها طريق الى الغرب من الاولى، للآتي من وسط البلدة، من جهة «الزاوية»، ومن نقطة قريبة من مركز توزيع المياه على الاحياء الجنوبية. وعلى المارين ان يجتازوا مقبرة قديمة فيها ضريح الشيخ " عبد الفتاح سلوم" وفي طرفها الجنوبي شجرة خروع ضخمة، ثم يصعد القف من سفحه الغربي، وعليهم ان يسيروا قليلا بانحراف نحو الجنوب الشرقي، قبل ان ينعطفوا نحو الشرق ليدخلوا ساحة المدرسة من المدخل الرئيس من جهتها الغربية. اما الصعود الى ظهر القف فمن طريق من صخر متراكب بعضه فوق بعض، درجات غير منتظمة، لكنها تجعل الصعود ميسوراً ومريحاً لجميع الاعمار من الاطفال حتى الشيوخ.

يقسم وادي العين الاحياء الجنوبية الى قسمين: شمالي وجنوبي، وطولياً من الشرق الى الغرب، حتى لتبدو احياء القف والزلاقة، وما بينهما ضواحي جديدة؛ وانها لذلك، فمبانيتها باجمعها حديثة في عمرها وطابعها، وهي مساكن لبيوتات فرعية شتى من عائلات منازلها في البلدة القديمة⁽¹⁾. وثمة ظاهرة للانقسام قد لا يكون وادي العين لها سبباً بالضرورة، وإنما سببها نظام الحياة القروية الزراعية الذي يقتضي توفر مساحات واسعة تستغل ببادر لدراسة غلال الحبوب الناضجة؛ كالقمح والشعير والذرة والحمص والقول والعدس والكرسنة والجلبانة⁽²⁾، كما يتخذها الصبية ملاعب لطفولتهم. كما تتخذ ساحات للأفراح والاعراس التي تكثر بعد الفراغ من موسم الحصاد ودراسة الغلال.

تقتطع البيادر في القرى من اراض غير صالحة للزراعة، وهي في الطيرة، في الحي الشرقي، تتوسط حي " الزقزوق " شمال وادي العين. واما الحي الجنوبي فبيادره مجموعتان؛ شرقية تنحصر بين وادي العين ووادي ابي الجاع بعرض يتراوح بين خمسة وسبعين متراً في

(1) ليس في الطيرة فواصل او عوائق طبيعية غير وادي العين.

(2) من اعلاف الماشية الجيدة، وقد تجرش وتنقع بالماء وتخلط بالتبن وتقدم لصغار الحيوانات.

رأسه الغربي وممتي متر في قاعدته الشرقية، وهي ثلاث مصاطب⁽¹⁾ سهلية مستوية، ولكنها صلبة غير صالحة للزراعة، تنبت فيها نباتتا العلت⁽²⁾ والخبيزة⁽³⁾، وعشبة "البابونج"⁽⁴⁾. ولكن بكميات قليلة جداً، وبعض اعشاب لا يزيد ارتفاعها عن بضعة سنتيمترات، سرعان ما ترعاها الماشية وتجف.

وللمصاطب المذكورة ثلاثة ارتفاعات مستعرضة على شكل درجات مكسوحة ومتدرجة في الصعود من الغرب الى الشرق، وكأنها التمهيد لظهور القف بصخوره القاسية المتراكبة. واما الغربية من المجموعتين، فهي بيادر "شلبك" ويفصلها عن الاولى وادي "ابو الجاع" القادم من الشرق، وبعد ان ينعطف باتجاه الشمال ليلتقي بوادي العين، وهذه البيادر اصغر مساحة من سابقتها، وهي أخذة بالتقلص بسبب زحف المباني السكنية من اطرافها⁽⁵⁾.

(1) المصطبة بفتح الميم وكسرهما، دبة من الارض على شكل درجات. والمصطبة في دور الفلاحين تعد للجلوس او منامات، من بلاط او اسمنت.

(2) نبات اوراقه خضراء مستطيلة مشرشرة، غني بالحديد والبلاستيديات المساعدة على التمثيل الضوئي، يؤكل نيئاً ومسلوقاً، ويعصر بعد السلق ويضاف اليه الادم والتوابل، كما يعمل اقراصاً بالعجين كالصفيحة مخبوزاً بالفرن، والبطي منه اطيب من المسقي نكهة، ويوصف نيئاً للمصابين بالقرحة.

(3) نبتة برية لا سوق لها، اغصانها طرية تنتهي بورقة دائرية مسننه، تؤكل مطبوخة بالادم والتوابل، وهي كالعلت في قيمتها الغذائية، ومن البقول الشعبية الشائعة، ومنها فصيلة زهرية، تكبر وتعلو بمقدار نصف قامة او اكبر اوراقها كبيرة وزهرها نوالوان متعددة.

(4) نبتة برية، ثبت نفعها طبياً، فادخلت في الصناعة الدوائية، وصار لزراعتها مختصون، توصف للكحة والسعال والذبحة الصدرية وآلام البطن والبرد وآلام المفاصل (الروماتيزم) وغيرها، وهي بلا سوق تنمو فوق الارض اغصاناً مكسوة بوريقات مستطيلة خضراء تنتهي بنور اصفر اللون فاقع، وهو المعتمد في الطب، يؤكل نيئاً طازجاً وعصيراً ونقيعاً مغلياً. يكثر البابونج في حواكير الطيرة، وفي السهول على جوانب الطرق الزراعية وفوق التلال، وفي الاراضي التي تترك بوراً.

(5) في الطيرة بيادر عامة لعائلات باجمعها موزعة في الحارات، وهناك بيادر خاصة بافراد لا يمنعونها سائلاً يحتاجها.

يلتقي الواديان؛ العين وابو الجاع، في مواجهة الحدّ الفاصل بين منزلين⁽¹⁾؛ احدهما لمحمد اسماعيل عمورة⁽²⁾ وثانيهما لمحمد حسن الناجي⁽³⁾، حيث يتحدان في مجرى واحد يزداد اتساعاً، وينهض نبات الصبر على جانبيه بمسافات قصيرة متقطعة، ليحمي خلفه اشجار الفاكهة المنزلية، وليكون سوراً طبيعياً لتلك المنازل. وقبل ان يغادر الوادي منازل القرية، يمر من امام بستان صغير مسيح بسياج عال من الصبر وسلاسل الحجارة، وبعده اشجار من التين على الجانبين، والى الشمال منه تمتد البيادر الغربية وحواكير التين والتوت، ثم يخترق مواقع الزيتون، وقبل ان يصل موقع "خروب قاسم" تقع عين "السريسة"⁽⁴⁾ في جهته الجنوبية على بعد اربعمئة متر او اكثر، وهذه العين نزازة تجف مياهها من اواخر فصل الربيع الى ان ينزل مطر الشتاء.

يخترق الوادي المتحد⁽⁵⁾ مواقع الزيتون بمسافة تزيد على الف وثلاثمئة متر، ماراً بمواقع خروب قاسم والعوج الشرقي، لينفذ منه الى السهل بعد خط حيفا يافا المعبد مباشرة مبتدئاً بموقع العوج الغربي، ومنتهياً بباب الجرف في الطرف الجنوبي من تل "خريس" ومخترقاً التلال الى البحر المتوسط..

(1) ذكر صاحب كتاب الطيرة بين عامي 1900 و 1948 أن الواديين يلتقيان في سهول الطيرة الغربية، وبين ما ذكره والواقع اكثر من الفي متر.

(2) هي دار ثانية للمذكور وسط حاكورة.

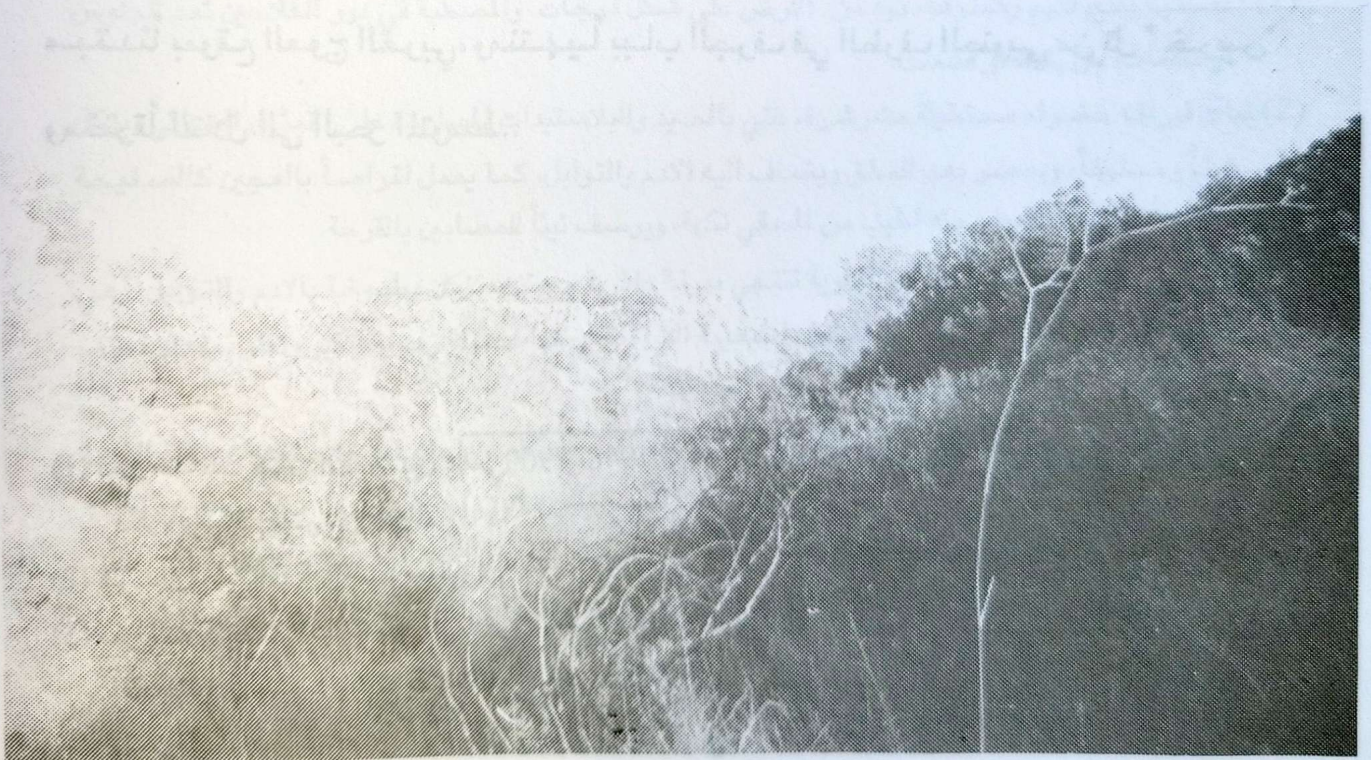
(3) منزل مؤلف هذا الكتاب يقع الى الغرب منه، وبينهما حاكورة لمصباح حيدر الناجي. وكان قد ازيل البناء القديم ليقوم ببناء حديث لم يكتمل بعد. ثم اتخذ منه المحتلون معبداً لهم.

(4) عين نزازة، والسريسة مفرد السريس، وهو الصنوبر البري.

(5) المكون من وادي العين وابي الجاع بعد التقائهما.



عراق الشيخ سليمان



عراق الاحمر



الجميزة الوحيدة في اراضي الطيرة



الطرف الشمالي من عقدة العكرش من جهة وادي المغارة



وادي العين قريباً من الطيرة



وادي العين في الجزء الاوسط منه

سادساً: وادي " ابو الجاع "

لا يدري إن كان لهذه التسمية من سبب او علاقة بحدث ما او بشخص معين، فالكنية توحى بشيء، لكن الاقدمين يشيرون اليه باسم الوادي " الكسّاب " لانه يأخذ مياه غيره، من مثل وادي الدرج، الذي يرفده بمياهه شتاء و" ابو الجاع " من الاودية الداخلية، اذ ينضم الى وادي العين في نقطة تقع بين بيادر شلبك والبيادر الشرقية، فهو رافد لوادي العين.

وادي ابي الجاع اقصر اودية الطيرة طولاً، واشدها وعورة في اعاليه ومن العادة ان تتأخر "حملة"⁽¹⁾ مياهه عن حملة وادي العين، ولكنها تندفع بكميات اكبر ولاوقات اقصر، وبهدير عال وصخب وتلاطم من تدافعها ومما تدحرجه من الحصى والحجارة الكبيرة، ولذلك يتسع مجراه ويتشعب في مقابل البيادر الشرقية. وكم تعذر على المارة اجتيازه اثناء عنفوان سيّله، وتظل مياهه بلون الطين يومين او ثلاثة قبل ان تصفو ويبين الحصى في القعر، خلافاً لوادي العين الهادىء. وما ذلك الا لضيق مجرى الاول واتساع مجرى الثاني .

تذهب بدايات هذا الوادي من غرب خربة الدامون، ومن شرق لوبية. وسط اشجار حرجية على سفوح ذات ميلان طفيف نحو المجرى الرئيس، والى ان يتعمق ويصير وادياً تقل الاشجار الحرجية، الى ان يبدو عاري الكتفين، الا من شجيرات البلان. وقبل ان يمر الوادي بالجانب الجنوبي للقف يجتاز موقع "الصفحة"⁽²⁾، وعراق الشيخ من جهتهما الجنوبية. والناظر من على هذين الموقعين يشاهد وادي الدرج الذي سبق ذكره، فتراه هابطاً من اعالي الكرمل ويلتقي ابا الجاع في ارض صخرية ترتفع قليلاً عن سطح البحر⁽³⁾. وقاع هذا الوادي خال من الحصى، فصخوره ملساء متراكبة، تراها فتحسبها درجاً صاعداً في الجبل الى ظهره،

(1) حملة الوادي الدفعة الاولى من سيّله، وكل دفع جديد، مصطلح محلي.

(2) مما يلي عراق الشيخ شرقاً، متن جبلي منبسط زرع تيناً بينه الخرطمانى الطويل.

(3) جرت الى الشرق منه محاولة استنباط للماء عام 1946، لكنها باءت بالفشل وكانت بالغة التكاليف، بعد النزول في الصخر مئات الامتار.

او هابطاً اليك يغريك بالصعود، ومن هنا جاءت التسمية.

بدايات وادي الدرج منحنيات لينة وغير حادة، تغطيها غابة كثيفة من اشجار الصنوبر البري والبلوط، وارضها منابت خصبة للفطر الجبلي⁽¹⁾ غير السام، وهذه البدايات تفصل بين موقعي لوبية والخرزقة⁽²⁾، وعندما يبدأ انحداره باتجاه الشمال يكون حاداً وعارياً الا من شجيرات البلان، ويسير مستقيماً واخوداً مكشوفاً بلا عمق ولا اتساع⁽³⁾.

اكتاف وادي ابي الجاع المواجهة للطيرة بلا اخايد، وملتفة على شكل حزام دائري عريض القاعدة، يتراجع الى الخلف كلما ازداد ارتفاعاً، حتى اذا بلغ نحواً من ثلاثمئة متر انبسط ارضاً شبه مستوية بمواقع اولها لوبية، فيها بستان الفاكهة وسط الاشجار الحرجية.

تندعم الاشجار على منحدرات الوادي، ولا ترى الخضرة الا عندما تقترب من عراق الشيخ والقف حيث ترى بستانين صغيرين يفصل بينهما ملعب المدرسة، على الجهة الجنوبية للوادي، وفي الزاوية الجنوبية الغربية للبستان الغربي توجد نقرتان صغيرتان في الصخر، ولا فاصل بينهما من الداخل، والى الشرق منهما نقرة ثالثة هي النوايس⁽⁴⁾ وهي اشبه بكهوف مصغرة، لا تتسع لمن اراد دخولها. وتمتلئ بالماء عذباً زلالاً يتسرب اليها من الاعالي عبر طبقات الصخور، كنا نغرف منها الماء بكلتا اليدين، فاذا امتلا وفاض ماؤها، تقطر قطرات، ونبت حول مساقطه عشب طحلي اخضر.

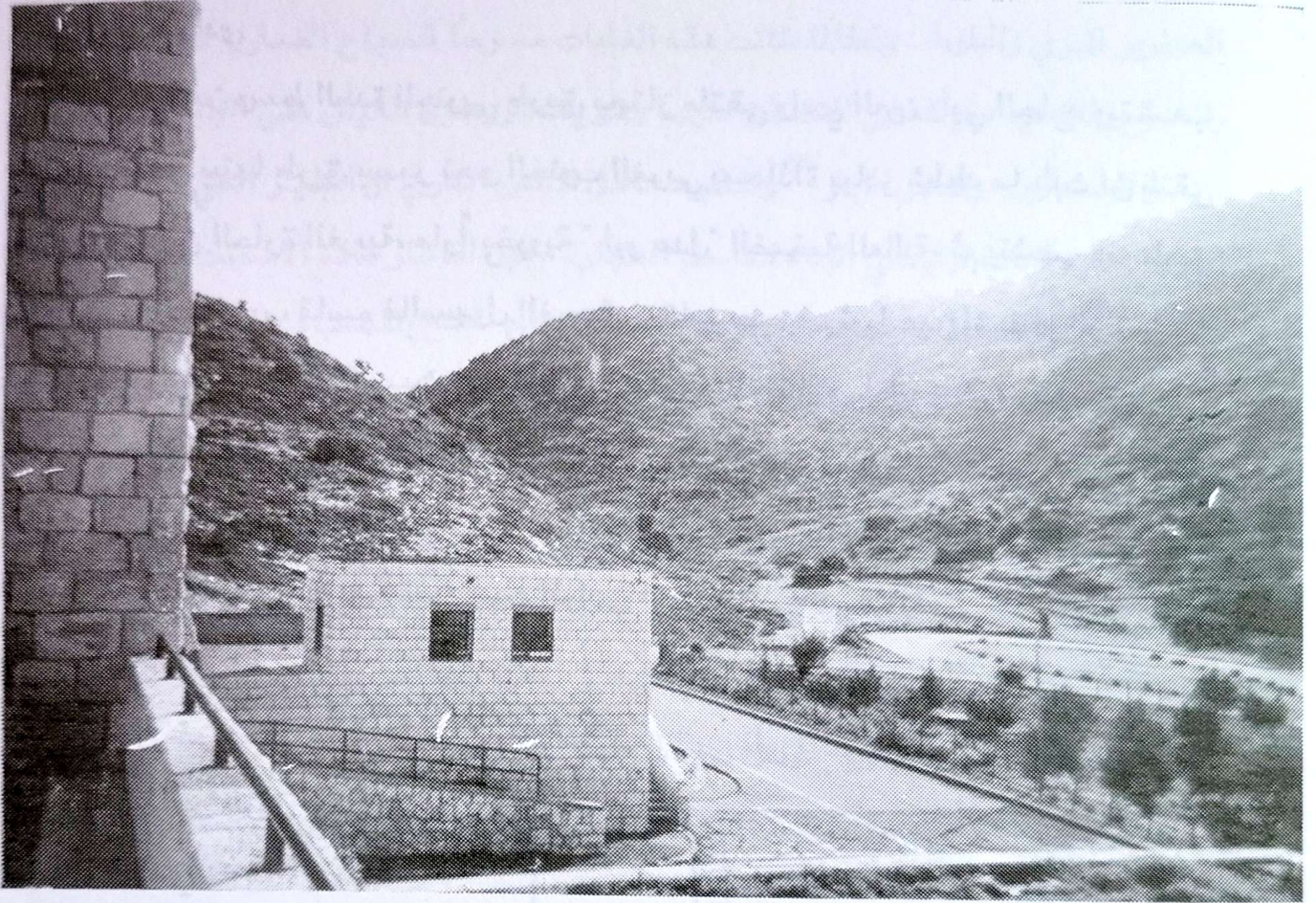
(1) يسمونه في الطيرة "الفقع" ومنبته "مفقهه" ينبت تحت الصنوبر البري وهو اجود انواع الفطر واطيبه مذاقاً، الى حد أنهم يطلقون عليه اسم "لحمة الفقير" يؤكل مشوياً ومطبوخاً، والخروج اليه بعد آواسط شهر شباط

(2) موقعان تابعان للطيرة على متن الكرمل.

(3) حدثت فيه معركة كبيرة بين القساميين والانجليز، سيرد ذكرها .

(4) من النوس : تذبذب الشئ؛ ناس ينوس نوساً ونوساناً : تحرك وتذبذب متديلاً وهذا ما تفعله الرياح بقطرات

ماء النوايس.



وادي ابي الجاع

والى الغرب من البستان ايضاً منبسطة من الارض زرع تيناً وخروباً، امتدت اليه المنازل السكنية، ويلى ذلك منازل عائلة العبويني وغيرها، يدور بها الجبل حتى ينتهي بفرش الزلاقة⁽¹⁾

(1) آخر المواقع السكنية في الحارة القبلية، فيه مغاور وكهوف ، وسفحه الغربي ينتهي بموقعي قدح ولحف المغر، ويشرف على رأس الزقاق السهلي.

سابعاً: وادي مسلية :

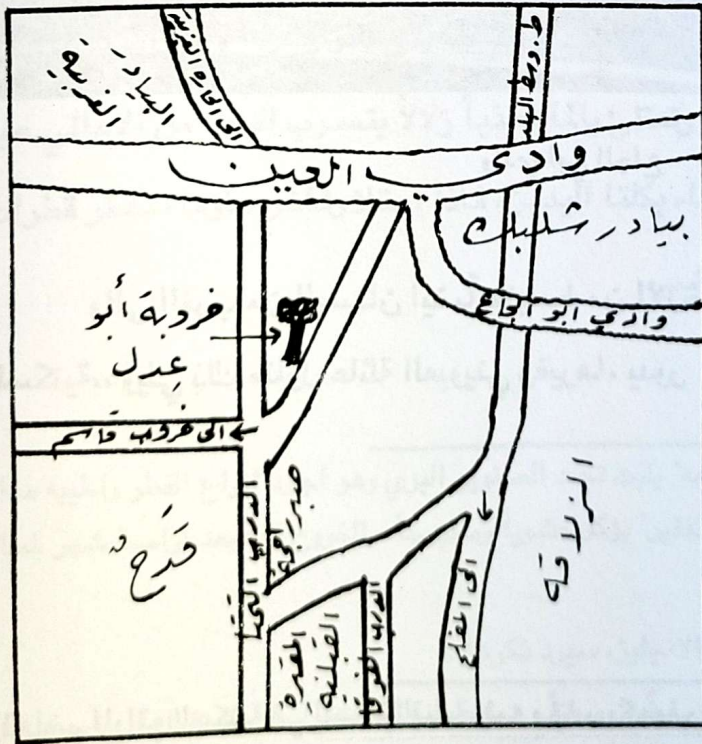
الى الوادي :

يخرج من وسط البلدة الجنوبي طريق يجتاز ملتقى وادي العين وأبي الجاع، ويتشعب طرقاتاً عدة، من بينها طريق يسير نحو الجنوب الغربي بمحاذاة بيار شلبك ما يلبث ان يلتقى بطريق قادم من الحارة الغربية، ماراً بخروبة " ابو عدل" الضخمة العالية، ثم ينشعب عنه طريق يذهب غرباً الى خروب قاسم فالسهول الغربية، ويتابع سيره جنوباً عبر اشجار الزيتون من موقع قدح وصبر " راجحة" حيث يعرف باسم "الدرب التحتا" وماراً من غرب مقبرة الحارة القبلية. ثم ينشعب مرة اخرى عند دخوله موقع " راس الزقاق " مكوناً مثلثاً متساوي الساقين؛ ضلعه الغربي يسير باتجاه " ابو طرومة" فالسهول الجنوبية، وضلعه الشرقي ينطلق الى موقع " حريق معمر" ومنه الى " مسلية" حيث الوادي الذي يفضي الى مواقع سهلية تنتهي بوادي فلاح جنوباً.

ومن خرج من وسط البلدة باتجاه الزلاقة انتهى الى وادي مسلية الى موقع يقال له "

المفلح" ولكن عبر طريق جبلي.

الوادي :-



يقع هذا الوادي المخيف من الجهة الجنوبية من الطيرة، بمسافة لا تزيد على الفي متر. ويقدر طوله بأكثر من خمسة آلاف متر.

يبدأ تكون الوادي من الأطراف الشمالية لموقع الشلالة، بمنحنيات وشعاب حرجية كثيفة وجنادل كأداء

قبل ان يفضي الى شلول "القيقة"⁽¹⁾ وعين " ابو حديد" ويشكل فاصلا بين لوبية والخزقة، ثم يبدأ الانحدار غربا عبر موقعي "المفلح" و " حريق معمر" حيث تنهض الغابات الحرجية كثيفة من الصنوبر البري والبلوط . ولطالما كانت هذه الغابات مسرحاً للسباع الضارية كالاسد والذئب والضبع والثعلب ، ثم قضى الانسان عليها وهو يلتمس سبل العيش على الجبال، فاحتطب وانشأ البساتين ، وحفر الابار⁽²⁾ واقام معامل الكلس الناري او الجير الحي⁽³⁾ حيث كان الاعتماد عليه كمادة اولية في البناء لتماسك الحجارة ، قبل انتشار مادة الاسمنت الحديثة .

على اكتاف وادي مسليه الجنوبية، وقبالة موقع المفلح ينتصب «عراق البارود» جهماً شامخاً ، ومستعرضاً يقابل البلدة ، ويحجب ضوء الشمس عن الوادي ، فيهيبط الظلام اليه قبل الغروب بنصف ساعة في فصل الصيف بخاصة ، وقبل ان يجري في الارض السهل ، تصادفك مغارات متوسطة الاتساع ، اتخذها الرعاة حظائر لمواشيهم واحاطوا مداخلها باسيجة من الحطب لصد عادية السباع ليلاً، ومنها مغارة الناطوف ، سميت كذلك لقطرات الماء التي تساقط نقطاً من سقفها ، وهي من الداخل تشبه قاعة تبلغ العشرين متراً طولاً ذاهباً في عمق الجبل باتجاه الجنوب ، واقل من ذلك بقليل عرضاً.

تسيل مياه وادي مسلية شتاء ، بتدافع بطيء ، ولكن لأيام أكثر من سائر الأودية

- (1) الشلول في سهل او جبل، اخنود مسطح مشعب الى اخاديد متلاصقة بسبب ما يعترض مسيل مياهها من صخور او نباتات قوية الجذور متكاثفة متشابكة تشل حركة من يسير في وسطها، والشلل بمعان منها اليبس في اليد وذهابها، ومنها مجرى الماء في وسط الوادي والشلل من الماء ما تتابع قطره، وفي اراضي الطيرة اكثر من شلول: القيقبة، والخصيب، والوعاوع. واشاليل وادي المغارة او وادي العين.
- (2) منها بئر فضل ذي المياه العذبة ، وبئر مسليه.
- (3) كانت كتل الصخر المفتت بالبارود والديناميت تحرق في اتون- فرن- يعمل بالفحم الحجري ، حتى تتحور وتصبح بيضاء بعد ان تلتهب جمراً ثم تترك اياماً لتبرد ، ثم تلقى في حفر ويصب عليها الماء ، فتتصاعد منها الابخرة "حارة" ، وتحرك باخشاب مسطحة ، بكل حذر ، حتى اذا صارت كاللبن الرائب في لونها وميوعتها تركت لتترسب شوائبها ، وهذا هو الجير المطفاً او البارد الصالح للبناء ، ويستخدم صرفاً دون مزجه بالرمل كما في الاسمنت ومنه ما يجفف ليصير شيداً يعالج بالملح والشبة والنيلة الزرقاء ، ويحل بالماء وذلك لطراشة البيوت او تضاف اليه مواد كيميائية لطراشة جذور بعض الاشجار وتضاف النيلة، لخفض درجة بياضه . وفي الوادي اربع معامل للكلس .

وذلك بفضل وفرة المنحنيات وكثرة العوائق الحرجية، وعين "أبي حديد" التي تغذي الوادي بالمياه فترة اطول، اذ ينشط دفعها مع سقوط المطر، وبعد ان يجري الوادي قليلاً في منبسط من الارض وسط الزيتون، في نقطة التقاء طريق رأس الزقاق الآتي من القرية، وطريق المفلح الذاهب في الجبل، وطريق زاهب الى وادي فلاح، تصادفك بئر عميقة، حفرت خصاً للاستفادة من مياه الوادي في سقاية الماشية وزراعة بعض الخضراوات. يتجه الوادي عبر الزيتون غرباً من موقع صوفان ليدخل السهل؛ وصوفان عن جهته الشمالية، وارض الزاوية⁽¹⁾ عن جهته الجنوبية، ثم يخترق موقع الملاحة⁽²⁾ غير بعيد عن تل الاقرع، ثم يمضي الى البحر.

ومسلية، على ما يتحقق لدينا، تحريف لاسم تاريخي هو ميثيليا، اذ تذكر المصادر الفلسطينية⁽³⁾ ان في جنوب الطيرة "خربة ميثيليا" عثر فيها على اساسات مبان اثرية، وخان وبنر وصهاريج ومدافن ومعاصر خمر، وتسمى عراق "البارود" رأس ميثيليا، ثم تذكر ... كانت تقوم على هذه البقعة قرية Magdiel في ايام الرومان.

وفي ظل غياب الحكومة الوطنية في فلسطين امتدت يد العبث الى تلك الآثار، حتى ان احدهم نقل بعض الحجارة لبناء منزله في الجانب الشرقي من حي الزلاقة.⁽⁴⁾ واكد اكثر من واحد وجود حجارة الفسيفساء متناثره في ذلك المكان باهمال وبلا تقدير.

(1) مواقع سهلية في الطيرة، وصوفان شمالي وجنوبي او قبلي .
 (2) موقع محاذ للتلال الصخرية التي نقر فيها الاجداد الملاحات، أجراناً - جمع جرن - لاستخلاص ملح الطعام من مياه البحر - بعد ان تملأها اثناء حالات المد ليلاً وتنحسر عنها نهاراً بالجزر، ثم تترك اياماً لتتبخر بفعل حرارة الشمس، تاركة الملح نقياً في الاجران، ثم لم تعد تكفي لسد الحاجة المتنامية، فتوجه الناس الى استخلاص الملح بالتكنولوجيا الحديثة، ويكفي تجارية. واعطى الانتداب امتياز احتكارها لليهود.
 (3) بلادنا فلسطين نقلاً عن الوقائع الفلسطينية ج7 ق:2.
 (4) هو نايف عبد الحمود كما حدثني بذلك ولده عبد الرؤوف.

ثامناً: وادي فلاح :

من القرية الى الوادي :

كان الوصول الى هذا الوادي بالسيارة عبر "الدرب التحتا" من قدح الى رأس الزقاق - فالى " ابو طرومة " وهذه الطريق ترابية يعترضها طريق معبد يصل معسكراً للجيش بالخط بين حيفا ويافا، وعلى هذا الخط يتابع السير جنوباً الى وادي فلاح واما الطريق الآخر فهو ترابي كله، ومن وصل بئر مسلية تابع السير جنوباً ليجتاز وادي مسلية من نقطة تتزاحم فيها اشجار الدفلى " وان كانت لمسافة قصيرة، بعد ذلك يسلك الطريق المحاذي لسفوح الكرمل الغربية، بمسافة الفي متر تقريباً، مروراً بمواقع " القرانيف" ⁽¹⁾ "فالخوانيق" ⁽²⁾ ماراً بمغارة الخوانيق الكبيرة ودار اليتيم العربي فخرية شيحا ⁽³⁾ على الترتيب، ثم يدخل حوض الوادي بانعطاف لين مع الجبل نحو الشرق.

الوادي :-

في اقصى حدود الطيرة الجبلية المتاخمة لحدود قرية عين حوض، واد عريض مجراه وحوضه الاسفل المفضي الى السهل ، اما مجراه العلوي فضيق نسبياً، غير ان اكتافه الجبلية، والشمالية منها بخاصة، اكثر اتساعاً وارحب انبساطاً، ولذا ينساب فيه الماء بطيئاً

(1) يوحي اللفظ بانه مشتق من الرباعي قرنف وجمع تكسير لقرنف، ولم اعثر عليه في المعاجم اللغوية، ولعله من الفاظ عربية غائبة. والموقع ثقل سماكة تربته كلما اقتربت من الجبل، وزروعه اقل نمواً ونتاجاً.

(2) جمع خانقاه : معربة دخلت الاسلام في المئة الرابعة الهجرية، وهي بمعنى اماكن انقطاع العبادة. وليس في الموقع ما يوحي بذلك، وقد تكون من الخانق بمعنى الشعب في الجبل والزقاق، ويلاحظ الناظر انشعابات رأسية في السفوح الجبلية المقابلة لهذا الموقع، ومن معاني الخانق نبات يقتل بعض السباع، فجاء الاسم خوانيق جمعاً على غير قياس.

(3) ما يعرفه الطيرايون عن هذا الموقع انه منسوب لقائد مملوكي اسمه شيحا جمال الدين، اتخذه قاعدة لحامية عسكرية اثناء الحروب الصليبية، ويعتقد انه تهدم بمدفعية البحرية الفرنسية اثناء حصار عكا في نهاية القرن الثامن عشر، فقد اتخذه العثمانيون قاعدة عسكرية لمراقبة نشاط السفن المعادية في البحر المتوسط. كان الموقع ضمن املاك عائلة ابي راشد، واتخذوا من خرائبه زريبة مستفيدين من مغارة تقع خلف اطلاله تتسع لمئات الرؤوس من الغنم ، يملكها عبد الرحمن الزعيتر ابو راشد وأولاده.

ولفترة اطول، ولسافة تزيد على سبعة الاف متر، هي طول الوادي.

يبدأ تكوّن الوادي بمجموعة شعاب تأتي من جنوب الشلالة وخربة الدامون، تتعمق هذه الشعاب وتتلاقى قبل ان تصل موقع وشاح⁽¹⁾، وهذا الاسم منحة من جبل وشاح الضخم بارز الارتفاع، وهذا الجبل عريض في قاعدته وجبهته، غير مسرف في علوه، وذو هامة بعمامة خضراء تذكر بعمامة اقطاب المتصوفة، وتخاله بهامته البيضاوية في شكلها شيخاً وقوراً وحارساً يرعى بنظراته العميقة وقسامته بنيته المواقع الكرملية الطيراوية، ولو كانت في اقصى الجنوب، وكلما تنعمت به، زادك احساساً بالفتنة الطاغية والعظمة الذاتية، اذ تراه متكئاً بتمطي على سجادة خضر حواشيها، او تراه مستقراً على اكتاف الوادي الجنوبية، يتقلده وشاحاً زينة له في نفسه وحلية لما حوله، بما تخلع عليه الغابات من حلل خضر سندسية، تلقي في الروع رهبة، من صمت الطبيعة وايحائها بأن الجبل شيخ متببل قد اختار الخلوة في احضانها كبعض الناسكين ومع ذلك يوطئ اكنافه لقطعان الماعز الاسود وكأنها الوشم في خد الحسان ليزيدهن حسناً، وللغنم الابيض فتحسبها لآلى بيضاء كحبات عقد متمواج. من خلف اشجار الزيتون البري في مواقع المغراقة والخرزقة وغيرها.

كل هضبات الكرمل وشاح يمنح المواشي اسباب حياتها في ساعات النهار، وفي الليل يحتضنها بمغاوره من البرد وعاديات السباع الكاسرة، وهكذا مغارة وشاح التي تتسع لاكثر من مئة وخمسين رأساً من الغنم لسعيد ابي راشد⁽²⁾ وكان الوادي ضنين بسكانه على كل سوء.

بعد وشاح يلتقى فلاح رافداً، هابطاً اليه من اكتافه الجنوبية، هو وادي "مسكر بابه" نو المجرى القصير العريض، وقد حوله مالكوه من عائلة ابي راشد الى سهل فوق الجبل، اما أنه "مسكر بابه" فلان فلاحاً سكر عليه الباب فلا يصل مجراه البحر ويمضي الوادي (1) الوشاح بضم الواو وكسرهما منظومتان من لؤلؤ يخالف بعضهما بعضاً، ومعطوف احدهما على الاخر، وأديم(جلد) عريض رُصع بالجوهر فيشد بين العاتقين والخصر. جمعه وشانج، وهذا الموقع وسائر الوادي ملك لال ابي راشد.

(2) هو الرجل الذي بقي من عائلة ابي راشد، ومعه ولده محمود الذي أقام في عسфия بعد وفاة والده ثم تزوج وانجب ذرية هناك.

اما أنه "مسكر بابه" فلان فلاحاً سكر عليه الباب فلا يصل مجراه البحر ويمضي الوادي غرباً، ويأخذ بالانحدار ليدخل الموقع المسمى باسمه، وتكثر جنادله وتبدأ حافته بالانفراج شيئاً فشيئاً، أما الجنوبية منها فتنبسط قليلاً باتجاه قرية عين حوض، ولنرى مغارة كبيرة لها فناء اكبر ومع ذلك لا تصلح لان تتخذ زريبة للمواشي لعلوها واتساع بابها، وهي مغارة " دار راشد" اما الحافة الشمالية فتنتصب مثل ضلع في زاوية حادة كلما اتجهت غرباً، ويشاهد الناظر من نافذة سيارته، وهي تسلك به طريقاً صخرياً نقرات في الصخر عالية، تفيض عسلاً ، لا يجنيه انسان قط لاستحالة الوصول اليه مشياً او زحفاً ، ولكن يستطيع ان يتنوقه مما يتقطر منه على الصخر بوسيمر بمقالع حجر القرطيان الابيض الصلب الثمين، واربعة معامل للكس، والى الغرب منها غير بعيد، وعلى ارتفاع متوسط تقع مغارة " النواطيف" ⁽¹⁾ التاريخية، وامامها نبات الصبر الخضاري النادر بلاشوك، وفي وسط المغارة جرن حجري كبير، ومن سقفها ينطف الماء الآتي من متن الجبل عبر الصخور.

قبل ان يلامس مجرى الوادي الارض السهل يلتقي بمنشعب له صغير، وبعد التلاقي بمسافة قصيرة تجد بئراً ارتوازية، يتفجر منها الماء ويدفع بالمولدات الكهربائية، وقد حفرها مالكوها من عائلة ابي راشد لسقاية مزروعاتهم ومواشيهم، ولسد حاجة القرية من مياه الشرب، بعد العجز الناجم عن الزيادة السكانية، لكن حكومة الانتداب سرعان ما وضعت يدها على البئر، واستأثرت بمياهها لصالح معسكراتها المنتشرة فوق ارض الطيرة، تاركة لاصحابها حق الحراسة وسقاية الماشية وري مساحة صغيرة لا تزيد على بونم واحد لانتفاع الحارس فقط، ثم يتابع الوادي سيره وتنشعب فيه الاشاليل واشجار الدفلى، وتتجافى الجبال عن جانبيه ويتسع حوضه قبل ان يدخل السهل الساحلي.

ومما يلفت نظر المشاهد مغارتان عن يمين وشمال، اتخذها المالكون من آل ابي راشد حظائر لاغنامهم، اما التي عن اليمين في الجهة الجنوبية فهي مغارة " ابو اصبع" (1) من النظفة: قطرة الماء الصافية، والمغارة شديدة البرودة من المياه المتجمعة في جرنها وسيأتي الحديث عن تاريخها في فصل لاحق باذن الله تعالى.

الضخمة في اتساعها والضيقة من مدخلها، وتتسع لأكثر من اربعمئة رأس من الغنم، وتذهب باتجاه قرية عين حوض. ويصعد اليها بدرجات اسمنتية تزيد على مئة وثلاثين درجة، بانقطاع قصير قبل الوصول اليها. واما التي عن شمال فهي مغارة الواد، فهي اقل من الاولى اتساعاً، اذ تتسع لنحو مئتي رأس من الغنم، ولكنها اوسع باباً والصعود اليها عبر طريق حلزونية ذات مصاطب صخرية، وستحدث عن تاريخ الوادي لاحقاً.

يدخل وادي فلاح السهل الساحلي من تحت جسر عال على الطريق المعبد من حيفا الى يافا، ليلتقي بعده بمسافة قصيرة في موقع "باب العجل"⁽¹⁾ بوادي البساتين القادم من اراضي عين حوض، والتقاء الواديين يشكل نقطة حدودية لقرى الطيرة وعتليت وعين حوض والمزار⁽²⁾. ثم يدخل اراضي عتليت من موقع "الدوستريه"⁽³⁾ تاركاً السجن⁽⁴⁾ على شماله، وبعد ان يمر بعين الدوستريه التي تشرب منها عتليت وماشيتها يتابع فلاح سيره عبر طرفها الشمالي ليصب في البحر المتوسط .

تذكر بعض المصادر الفلسطينية هذا الوادي بتشديد اللام، وتذكر اسم مغارة واحدة فيه حيناً وثلاث مغارات حيناً آخر. ويدعو الاعداء الوادي باسم "ناحال اورن Nahal oren ومستوطنة الشلالة بيت اورن Beit Oren ولعمري ان الذي وصف فلسطين بالارض التي تفيض لنباً وعسلأ، ربما مر بهذا الوادي، وشاهد المنظر عياناً.

(1) آخر مواقع الطيرة جنوباً.

(2) الى الجنوب من حيفا ب 19 كم، سميت كذلك من كثرة ما دفن منها من شهداء المسلمين في الحروب الصليبية.

(3) غير عربية، وقد تكون من كلمتين ؛ ذو بمعنى اثنين، وستريه بمعنى طريق أو مستقيم.

(4) كان نقطة للبوليس تتبعها القرى المحيطة بها، وقد شهد تعذيب العرب الاحرار.



وادي فلاح



فرش الزلاقه

السهول الغربية:

سهول الطيرة من اخصب بقاع الارض، اذ تجود فيها الزراعة البعل لمحاصيل البحر المتوسط؛ الصيفية منها والشتوية، على الرغم من انعدام الانهار والسواقي والآبار الارتوازية، وانما كل اعتماد الزراعة فيها على مياه الامطار الشتوية، والا على الرطوبة والندى في سائر ايام السنة، فقد كانت تعطي الغلال وفيرة بفضل ذلك ، وبفضل جهد الفلاح الطيراوي⁽¹⁾ وخبرته ومهارته الذاتية والمكتسبة الموروثة عبر السنين، الى درجة ان تكون الغلال والثمار وفيرة تزيد عن حاجة السكان في استهلاك وبنار، كما تكون من الصنف الممتاز الذي كان يصدر الي حيفا ويافا والقدس وطبريا وبيروت، حيث يلقي رواجاً ويصيب سعراً عالياً. وكثيراً ما كانت الثمار تباع وهي في باطن الارض او على اشجارها، قبل ان تنضج ويحين قطفها، فقد كان التجار يقصدونها من كل مكان لهذه الغاية.

تبدو سهول الطيرة مستوية استواء ظاهراً، لولا ان مجاري اوديتها تنطق بميلان طفيف فيها

(1) القياس في النسب الى طيرة طيري، كالنسب الى قبيلة: قبلي، بحذف تاء التأنيث وزيادة ياء مشددة. والجمع: طيريون وطيريين للمذكر السالم، وطيريات لجمع المؤنث السالم. على ان الشائع في النسب في مثل « جيزة وطيبة وديرة وريثة وطيرة » ، هو « جيزاوي وطيباوي وديراوي وريناوي وطيراوي » والرأي في هذه الصيغة وجوه ثلاثة:

أ- لم ترد في كتب النحو القديمة والحديثة ادنى اشارة الى الرباعي الذي ثانيه ياء مسبوقه بكسرة ومختوم بتاء التأنيث، اللهم القياس على النسب الى المنقوص الذي رابعه الف لينة وثانيه حرف ساكن كما في ملهى : ملهاوي فتحذف منه الف التأنيث ويزاد على آخره الف بعدها واو. وعليه نقول: طيرة طيراوي ، وطيراويون وطيراويات في الجمع السالم. وطيارنة في جمع التكسير.

ب- الشهرة، والشهرة قوة القاعدة" اشتهار الاسم المنسوب اليه بشهرة فياضة تمنع الخفاء واللبس عن مدلوله" شرح ابن عقيل والنحو الوافي " وغيرهما.

ج- الشواذ وشواذ النحو ظاهرة فيه جلية ومن شواذ النسب : رازي ومروزي وبحراني ويماني نسبة الى الري ومرو البحرين .

من الشرق الى الغرب، وهذا مما يحافظ على وضع التربة ويقلل من انجرافها ، كما يمكن مياه الامطار من الاستقرار فوقها حيناً، لتغور في باطن الارض، ويحيلها مخزوناً تمتص منه جنود المزروعات حاجتها في ايام الجفاف. اما نسيم البر والبحر والرطوبة والندى، فهذه نعمة مباركة، حباها الله تعالى الاشجار والمزروعات ، اذ سخرها عوامل طبيعية، اشبه ما تكون سقاية لها بالتنقيط، ولكن مجاناً بلا ثمن.

اما طبيعة التربة فرملية طينية، تساعد الحب والبذر على الانفلاق السريع، كما تساعد الجذور الشعرية على النمو وامتصاص الغذاء، كما ان هذا النوع من التربة، يفسح المجال للنمو الضخم امام المزروعات ذات الثمار الجذرية كالثوم والبصل والبطاطا والجزر واللفت والكرنب والشمندر ، ولعل تدني نسبة الملوحة في التربة الى درجة الانعدام تقريباً، على الرغم من محاذاتها لسيف البحر، يعطي الثمار مذاقاً لذيذاً وطعماً شهياً، كما يمنح الحب والبذر المخزون للبذار مناعة ضد عوامل التلف ، فلم يكن في القرية صوامع للغلال ولا المبيدات او وسائل التعقيم الحديثة، وانما كانوا يحفظونها في اماكن خاصة، ضمن بيوتاتهم، وتظل سليمة عاماً كاملاً.

سهل الطيرة في بداياته الشمالية، من جهة حيفا، من عند موقع الخضر كما ذكرنا، يبدأ ضيقاً ثم يأخذ بالاتساع التدريجي، حتى يبلغ نحواً من اربعة الاف متر، في مقابل مباني القرية، ثم يعود الى الضمور من عند وادي مسلية حيث يزحف جبل الكرمل قليلاً باتجاه السهل، ليسير في شبه خط مستقيم قبالة موقعي " القرانيف " و" الخوانيق " حتى وادي فلاح، ثم تكون في الجبل فرجة مستطيلة، هي حوض وادي فلاح. هذا ويلحظ الناظر من عل ان البحر هو الذي ينحرف ساحله، مبتعداً عن الكرمل كلما اتجهنا من الشمال الى الجنوب ، وانحرافه يسير لا يكاد يبين.

سار السلف القديم من اهل الطيرة، على مبدأ تحقيق التكامل الغذائي منذ الاف السنين، لغايات الاكتفاء الذاتي⁽¹⁾ فرتبوا السهل اقساماً ثلاثة، ترتيباً فنياً وموضوعياً: فجعلوا

(1) فكرة الاكتفاء الذاتي والتكامل الغذائي في العصور التاريخية السحيقة، كانت عليها الحياة البدائية القائمة على الغزو والصراعات المستمرة، فظهر نظام الممالك المدنية، الذي يكون فيه لكل مدينة ملكها وجيشها واقتصادها الذي تعتمد عليه في حالات الحصار الطويل. وكانت كل مدينة تحمي نفسها بأسوار تبنيها حولها، اما الطيرة ، فلم تكن ذات اسوار. بسبب الحماية الطبيعية لها : فالجبال من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة البحر، وكلها موانع كافية للحماية في تلك العصور.

والرقابة المستمرة، مثل : التين و الرمان واللوز والمشمش والتفاح والدراق، وكان شريطاً ضيقاً مما يلي المباني مباشرة، ولحماية هذه الاشجار الضعيفة في جنوعها واغصانها، جعلوها في حواكير ذات سياج عال من سلاسل الحجارة او نبات الصبر، حماية لها من الرياح العاتية التي تهب في اواخر الخريف، واثناء فصل الشتاء، وحماية لها من المواشي المنطلقة في غدوها ورواحها، اذ كانت تنطلق قطعاناً غفيرة الى السهل والبحر للعمل او للرعي والسقاية.

ومما يلاحظ على هذا الشريط الضيق للاشجار المثمرة، انه أخذ في الضمور بسبب التوسع العمراني، وهنا تبدو حكمة الاقدمين في هذا الترتيب الفني الموضوعي ، حيث جعلوا التوسع على حساب الاشجار التي لديهم عوضاً عنها فوق متن جبال الكرمل، وبذلك يسلم قطاع الزيتون والسهل المعد للمحاصيل الغذائية الاساسية كالقمح والشعير والذرة والسمسم والعدس وسائر المزروعات الشتوية والصيفية.

نقول ، وزيادة في الحيلة لحماية الاشجار المثمرة، رتبوا القسم الثاني زيتوناً. ومعلوم ان جنوع الزيتون واغصانه اشد قوة وصلابة من غيرها، بل واطول منها عمراً، فمنه الزيتون الرومي الذي يعود الى اكثر من الف سنة. وكان هذا القسم يتراوح بين عشرين متراً من طرفيه وثمانئة متر عرضاً، بطول يبلغ اربعة الاف متر.⁽¹⁾

وتلاحظ في الابتعاد بشجرة الزيتون عن شاطئ البحر حكمة علمية اخرى من شقين؛ اما احدهما فهي النأي به بعيداً عن مجابهة الجبهات الهوائية الجبارة، في اول خروجها عن سطح البحر، والمضطربة كاضطراب امواجه المتلاطمة، واما اخرهما، فهي الابتعاد عن الملوحة التي ترفع الحموضة في زيت الزيتون، فقد كانت نسبتها المتدنية- كما اشرنا اليها- اظهر ما تكون في السهول المتاخمة للشاطئ، وكانت مياه البحر تغمرها احيانا في حالات هياج البحر المصاحب لحالة المد ليلاً ولو تقدم غرس الزيتون قليلاً تجاه البحر لارتفعت في زيتته نسبة الحموضة، وافسدت نكهته اللذيذة، ومذاقه الممتع، وانه ليبدو مركزاً في لونه، دسماً في طعمه

(1) ازال الاحتلال الصهيوني اكثر من 90% من اشجار الزيتون، بحجة اقامة المساكن، وباستطاعته تفادي هذه الجريمة. وان الانتداب البريطاني الذي اتخذ منه ملاذاً لقواته وقوات حلفائه اثناء الحرب العالمية الثانية، لم يقطع زيتونة واحدة.

لا يحتاج الطاهي معه الي اي من انواع السمن، بل استعمال السمن البلدي، على توفره ورخصه، كان يعد في الطيرة ترفاً، الا ان يكون في اكلات معينة، كصناعة الحلوى مثلاً.

مما يلاحظ في سهل الطيرة خلوه من شجرتي اللوز والعنب، ولقد عللنا ظاهرة انعدام اللوز، وانعدام شجرة العنب بنفس التعليل، فهذه الشجرة قد قصرت زراعتها على متن الجبل، الذي احتفظ ببقايا من شجرة اللوز وبأشجار اخرى من فصيلتها كالتفاح والخوخ والدراق، وما ذلك الا لحكمة فنية تتصل بحياة هذه الاشجار وسلامة ثمارها، فهي ، والعنب بخاصة، من الاشجار التي تكثر امراضها، وتعطب ثمارها في الاجواء الحارة وذات الرطوبة الزائدة نسبياً، وأنها سريعة العدوى . ومعلوم ان الجبل يوفر لها الهواء النقي الذي تنعدم فيه اسباب التلوث من المستنقعات والجراثيم ، كما تقل فيه الاختناقات الناجمة عن ارتفاع الضغط الجوي الذي يعجل في نضج الثمر واتلافه.

الأرض ، مواقع وتاريخ واسماء:

كانت الارض ابتداء ملكاً للانسان مشاعاً، ثم انقسمت الى ملكيات تنقسم وتتضاعل كلما تكاثر عدده، واخذت تتحدد وتعرف بما يخلع عليها الاسماء من ذات نفسه وتاريخه وثقافته، وكلما ازداد عدداً، ازدادت ملكياته انقساماً، وما زالت تنقسم بحكم عامل الميراث. وارض الطيرة، كغيرها، خضعت لقانون الملكية التاريخي وتطوراته، لذلك نرى خارطتها مواقع باسما ذات مغزى في تاريخ الانسان الطيراوي، وذات رنين عذب في سمعه وضميره، فهو من اكثر الناس عشقاً للارض، ومن اوفرهم اخلاصاً لها. والطيراويون، كسائر ابناء فلسطين كنعوا⁽¹⁾ في ارضهم والتحموا بها، وامتزجوا بها روحانياً الى ما يشبه الاتحاد عند المتصوفة ، فهي كل ما لديهم هو اعظم من كل شيء، وانتماؤهم لها اكبر من اي شيء؛ فالطييرة عنوانهم وهويتهم تحت مظلتهم الفلسطينية اينما كانوا.

الطيراويون مسلمون بالفطرة، يرون الارض بعض عقيدتهم؛ عليها يؤدون مناسكهم ويقيمون شعائرهم، ومن وراء اخلاص العمل في اعمارها يبتغون مرضاة الله واليوم الاخر، وما رأوها غير نعمة إلهية وأمانة يحافظون على قدسيتها وطهارتها، وينأون بها عن ان يشركهم فيها من ليس على دينهم، فهم باجمعهم سنيون، ومن خرج على مذهبهم نبذوه ولو من اصلابهم . والطيراويون عرب، بكل ما في العربية من معنى، فطروا على الحرية والاستقلال، والإباء وصنعوا من حبهم للارض محاريب لهذه القيم العربية الانسانية ، وفي اقبالهم على العمل في الارض ترجموا تلك المعاني والقيم الى حقائق، هي في الحقيقة بعض مآثرهم؛ فبتملكها ونتاجها وحشائشها واعشابها، واشجارها المثمرة والحرجية، وبصخر جبالها وقطعان ماشيتها ونتاجاتها ومن عسل نحلها ومن صيد البر والبحر؛ تحرروا من كل خوف؛ من الجوع والفقر والمرض، كانوا في الزمن الماضي -كما يقولون- في راحة بال مطلقة حتى في اشد حالات العسر وسني القحط، يعزز هذا ايمان مطلق بالله تعالى ، وهكذا شأن الفلاح ،

(1) كنع : انقبض وانضم، وكنع بالثوب : لثق به.

يلقي بذاره متوكلا على ما يأتي به الله من رحمته في المستقبل الغيب، ثم يكون الشكر والتسليم بالقضاء والقدر خيره وشره. بذلك التحرر من الخوف كان استقلالهم باكتفائهم ذاتياً، قانعين بما بين ايديهم⁽¹⁾ ولم يشعروا قط انهم في حاجة الي اي معونة خارجية، ولا الى اي مظلة تحميهم، يحدهم في ذلك حسن الظن بالآخرين كصفة غالبية فيهم، فلم يفكروا بالاعتداء على احد، ولم يبدؤوا احداً بأذى، فلا غرابة ان نرى غضبتهم مضرية حامية لا تطاق حين يفضبون ويهبون للدفاع عن ارضهم وشرفهم ودينهم واعراضهم اذا ما تعرض اي منها لادنى مساس. وستحدث بشيء عن ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ذلك الواقع الذي عاشه الطيراويون، بابعاده النفسية والاجتماعية والقومية والدينية، منح الارض في الطيرة اسماء خالدة، لن تنسى مهما تقادم العهد وطال زمن الاغتراب، فمن تلك الابعاد اخذوا تعظيم الاباء والاجداد، فخلعوا على بعض المواقع اسماء الاقدمين البارزين، حتى بعد ان طويت اخبارهم طي النسيان، مثل : تل علي الزيدان وتل خريس وتل الاقرع، ويثر بثينه ويثر فضل ، وفلاح وعين ابو حديد وخروب قاسم وخروبة ابو عدل وزيتونة ام عرابي واليعقوبية واسكندر وخربة شيحا وخريبة يونس، وخلعوا على بعض المواقع اسماء منتزعة من صميم معجم العربية، لتتطابق وبكل دقة مع خصائص الموقع الجيولوجية، مثل الفرش والصفحة للمنبس من الجبل، ومثل العراق للمستقطع الناتئ الشامخ من الجبل، والشلول لما تكثرت فيه الاخاديد والعوائق، ومثل القف والزلاقة ورأس الزقاق ومسحب النمل، وابو الندى ودبة ظاهر ورأس المهمل، ولحف المغر⁽²⁾. والنواويس والنواطيف ومسكربابه ووشاح، كما اتخذوا من علامات بارزة في الارض اسماء لمواقع مثل: تينة البستان ، وعين السريسة وعين القصب وعين

(1) من آثار ذلك عدم ظهور اعلام في العلم والسياسة والتجارة او البطولة القومية وان كانوا مقاتلين من الطراز الاول، ويصدرون فائض نتاجهم الى الاسواق المحلية والخارجية.

(2) صخره طبقات ملساء ضاربة الى البياض متراكبة كأنها لحف رصف بعضها فوق بعض ، فيه عدة مغاور صغيرة، بينها مغارة كبيرة هي مغارة " التشتش " المهجورة بسبب حشرات " الدلم " وهذا في اللغة من دلم كفرح اشتد سواده في ملحوة، يشبه القراد الذي يلتصق بالدواب ويمتص دمها.

المغارة وعين ابو حديد والصوانية ووادي رشمياً، والخوانيق والملاحه والعليقة⁽¹⁾ والشلالة والقيقة.⁽²⁾

وفي الطيرة مواقع ارض باسمااء موروثة لا يعرف من تاريخها شيء مثل ارض الكرم والزمر والزاوية والحلبيات والعوج وهسليه والعديل ولوبية والخزقة والمغراقة.

السهل المنكوب:

جرت بريطانيا على سياسة تدمير الارض الزراعية العربية حين لم تفلح اغراءات البيع والتنازل، وتلجأ الى التضييق على الفلاح الفلسطيني بالضرائب الباهظة على الارض والمحصول واغلاق ابواب التصدير واستيراد المواد والسلع الزراعية لكساد المحصول الوطني، حتى تصبح الارض من بعد عبثاً على كاهل الفلاح. وامعاناً في سياسة التضييق في الطيرة، استغل الانتداب موقع البلدة الساحلي وتحصنه بجبال الكرمل، وقربه من ميناء حيفا، فعمدت الى سلخ اكثر من 80% من الارض الشمالية للطيرة⁽³⁾، بموجب قوانين الدفاع، واقامت عليها معسكرات لجيوشها، ونشرتها على جانبي الخط الرئيس بين حيفا ويافا، ثم ما لبثت هذه المعسكرات ان تفاقم خطرهما برفعها نسبة البطالة بين ابناء العائلات التي انتزعت ارضهم، وصرنا نراهم يصطفون في طوابير⁽⁴⁾ امام تلك المعسكرات للعمل فيها، بدلاً من العمل في الارض، واغراهم النقد المعجل الذي يدفع اليهم مع نهاية كل شهر، فانصرفوا عن نقد مواسم

(1) العليق: نبت يتعلق بالشجر، مضغه يشد اللثة ويبرىء القلاع (داء يصيب الفم) وضماده يبرىء بياض العين ونورها والبواصير، واصله يفتت الحفا في الكلية.

(2) القيقب: شجر حرجي، يستخدم خشبه في صناعة سروج الخيل واغصانه قوية لدنة له ثمر حلو اذا نضج.

(3) الارض السهل من بوابة الدير شمالاً الى العديل جنوباً، وكلها ارض خصبة. وكان باستطاعة بريطانيا ان تلجأ الى الارض المشاع غير الصالحة للزراعة لكنها لم تفعل.

(4) كانت شركة باصات الطيرة تنقل ثلاثة الاف عامل يومياً من الطيرة صباحاً الى المعسكرات وتعود بهم مساء. بينهم عمال من غير اهالي الطيرة، من عمالة وافدة من قرى بعيدة او اشقاء من خارج فلسطين.

الأرض المتتابعة بفترات متباعدة نسبياً، مثل مواسم البيدر⁽¹⁾ والفاكهة والخروب والخضراوات الشتوية والصيفية والزيت والزيتون⁽²⁾ وأنها لمواسم تبقي الفلاح في أعلى درجات الاستعداد للبذل والعطاء، وتقديم البرهان على صدق الارتباط بالأرض والانتماء للوطن، والولاء للقيم الانسانية النبيلة. ولكن في ظل غياب الحكومة الوطنية التي ترعى مصالح المواطن وتبصر له مشاعر الوعي الوطني، ظهرت طبقة بلا أرض، وصُرفت عنها إلى الوظائف الدنيا والعمل العضلي الشاق، فقل حماسها للأرض ووعيها لقضاياها المصيرية، واصبحت بلا ابداع ولا تطوير، لأنها تؤدي العمل رتيباً، أو خلف الآلة الصماء وفي أعمال الانشاء والبناء، لأن سياسة حكومة الانتداب غير الوطنية كانت تهدف من وراء ذلك شل الادمغة وكفها عن الاشراف والتصميم والتخطيط، وكل حظها التنفيذ الموجه، لأن الانتداب كان يبغى من وراء السياسة تلك، طيب الإقامة المؤقتة وانجاح مخططاته في تهويد الأرض، وكف يد الانسان العربي عن أرضه وتجهيله في علم فلاحتها وتطويرها واستغلال كنوزها.

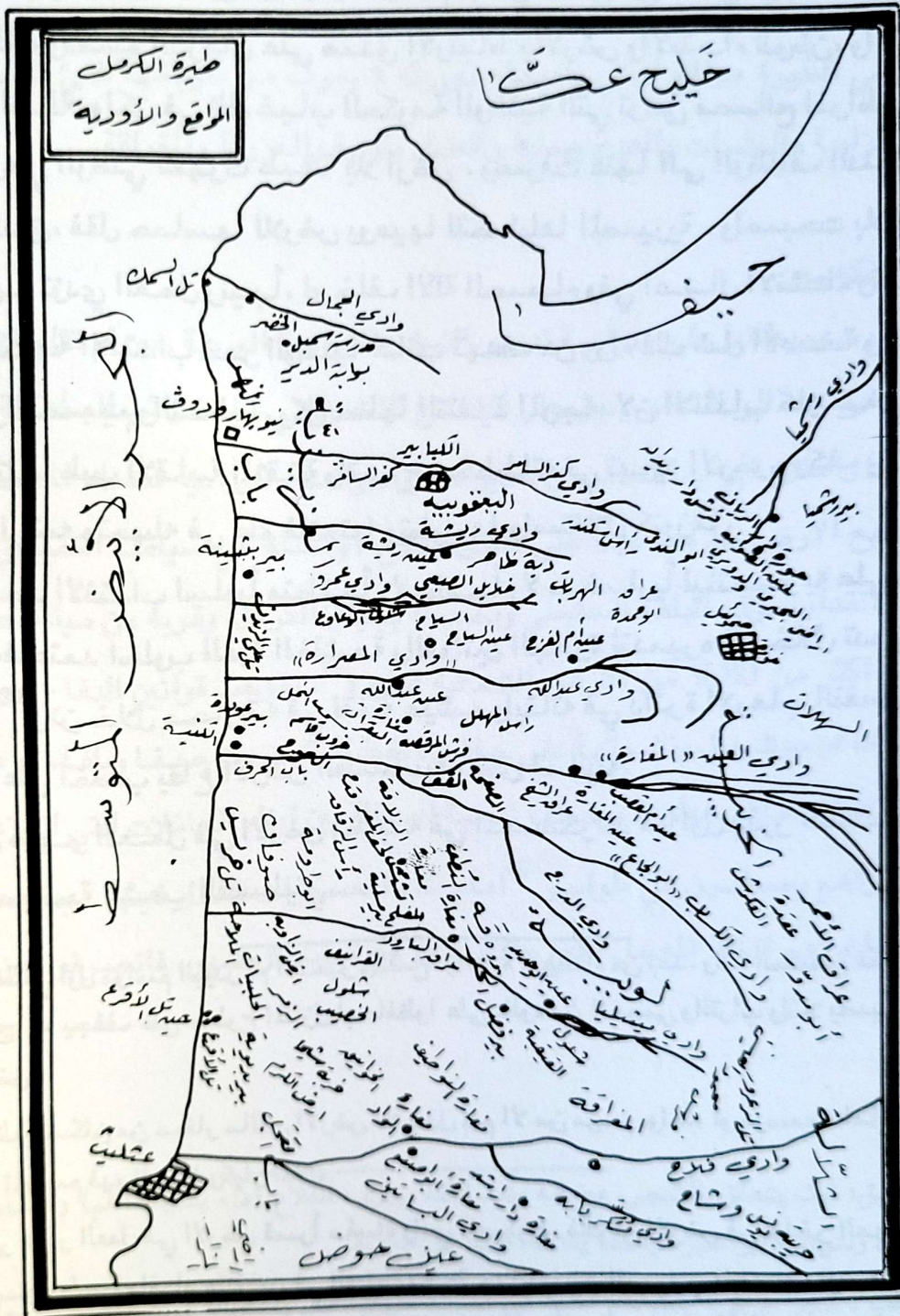
لم يجد الانتداب اسلوباً منطقياً ولا علمياً ولا حضارياً لينتصر به على الانسان الفلسطيني، فاعتمد اسلوب القوة الغاشمة والقوانين الجائرة لتدميره من خلال تدمير أرضه ومصادرتها⁽³⁾ ومن خلال محاربتة في لقمة عيشه وابقائه في دائرة الارهاب النفسي، ونشر المعسكرات على اخصب بقاع الأرض الفلسطينية بعض اساليبه.

وان هجر العمل في الأرض وطلبه في المعسكرات هو اول بنور الضعف المادي والهزيمة السياسية للشعب الفلسطيني.

(1) كانت القطاني اول مواسم البيدر ثم الشعير والقمح، والذرة البيضاء من بعد. واما السمس فكان يقطع بعد ان ينضج، ثم يجفف على سطوح المنازل ليحافظوا على خلوه من الحصى والتراب ولئلا يضع المحصول في الأرض.

(2) كان معظم السكان من صغار مالكي الأرض فلا دخل لهم الا من موسم واحد او موسمين، اما نوو الدخول متعددة المواسم فهم الوسط وكبار الملاك.

(3) من صور هجر العمل في الأرض قسراً مأساة وادي الحوارث، ذلك ان الأرض في اواخر العهد العثماني كانت تسجل باسماء افراد متنفذين في السلطة بحجة حمايتها من الضرائب الباهظة مثل عائلة "سرسق" و "الثبان" البيروتية، وفي عمل مسرحي عرض الانتداب أرض وادي الحوارث البالغة زهاء اربعين الف دونم للبيع بالمزاد العلني بقرار صادر عن محكمة نابلس لاستيفاء ديون مزعومة على عائلة الثبان، وفي 1929/4/27 احيل البيع على شركة "كيرنكايمت" اليهودية واجبر اهل الوادي العرب المالكون على العمل في تعبيد الطرق، بعد هدم منازلهم وترحيلهم الى خيام قريبة من مواقع العمل.



طيرة الكرمل : المواقع والأودية

المناخ:

الأمطار ودرجات الحرارة

يتحكم في مناخ الامكنة تضاريسها وقربها او بعدها عن البحر، وطيبة الكرمل تخضع لهذه القاعدة المناخية، فهي قرية ساحلية يسودها مناخ حوض البحر الابيض المتوسط الذي تقع على شاطئه الشرقي، وهي ذات سهل ضيق وجبال يتراوح ارتفاعها بين 479,458م، ولهذا نجد فيها ازواجية المناخ، تجمع بين خصائص السهول والمرتفعات.

ترتفع درجات الحرارة والرطوبة النسبية في السهل صيفاً، بينما تكون ماطرة ودافئة شتاءً، وتتأثر بنسيم البر والبحر، في ليل ونهار، وفي صيف وشتاء، مما يمنحها الاعتدال وتلطيف الاجواء ، فلا تلج ولا صقيع ، الا ان يساقط البَرْدُ زخات متقطعة من شتاءٍ لآخر، وللحظات معدودات . وفي الاربعية، تهب في العادة الرياح الشرقية عاتية ، تحطم اغصان الزيتون، وتحدث اضراراً فادحة ، وتتدنى درجات الحرارة في اواخر الليل وساعات الصباح، وقد لا تعجب من شباب يمارسون هوايتهم في السباحة في مياه البحر في بعض ايام الشتاء، وفي مثل هذا الطقس المثالي قلما يحفل الطيرايون بالملابس الصوفية السميكة او المعاطف الثقيلة الا عندما يشتد برد الاربعية.

وربيع الطيرة، ربيع الساحل الفلسطيني؛ اعتدال في حر وبرد، وارض ضحوك تحت سماء زرقاء صافية، ولا برد الا في الهزيع الاخير من الليل، سرعان ما يتلاشى مع اشراق الشمس.

والصيف اعتدال في الطقس مطلق، اذ ترتفع درجات الحرارة قليلاً، ويختفي كل اثر للبرد، ويخرج الفلاحون للنوم في حقولهم وعلى بيادرهم، وليقضوا حاجاتهم من محاصيلهم. اما الخريف فهو مرحلة تحول وانتقال مناخي من الحرارة الى البرودة ، ولولا الرياح السافية التي تعصف باوراق الشجر، لكان ربيعاً ثانياً، ولكن من غير ارض ضحوك، وفي اواخره يكون اعداد الارض للزراعة الشتوية.

ظهر الجبل يكاد يكون سهلاً آخر ولكنه مرتفع ، فيه زيادة ملحوظة في البرد شتاء

وفي الاعتدال صيفاً ؛ فلا رطوبة ولا جفاف، وفي الصيف يهب النسيم عليلًا. وخضرة الجبال بالاعشاب والاشجار دائمة الخضرة تجعل الامكنة لوحات فنية ومنتجات ممتازة وان لم تستغل لهذه الغاية.

ومن نعم الله تعالى التي لا تحصى على ارضنا الفلسطينية ظاهرة الندى، وهي على متن الكرمل وسهول الطيرة اوضح ما تكون ، اذ تتجمع قطرات الندى حبات لؤلئية على الحشائش واوراق الاشجار والمزروعات، تمدها بأسباب الحياة والنماء والعطاء وتملا النفس غبطة وسروراً. قدرت ليالي الندى فوق متن الكرمل ما بين 180-250 ليلة ومعدل سقوط الامطار في السهل يتراوح بين 700 و800 ملم، اما في الجبل فيتراوح بين 600 و700 ملم، والمعدل العام لدرجات الحرارة فهو بين 18 و21 درجة مئوية اذ تهبط في شهري كانون الاول والثاني الى ما بين 10 و13 درجة مئوية ، بينما ترتفع في شهري تموز وأب الي ما بين 24 و26 درجة مئوية واذا تجاوزت هذه المعدلات فذلك استثناء وفي حالات نادرة جداً.^(*)

في داخل البلدة تتأثر درجات الحرارة والبرودة بطبيعة تضاريس الارض، وذلك ان الطيرة الأم تقوم على ثلاث جبيلات صغيرة، وهي اشبه ما تكون بمثابة اصابع لجبال الكرمل واذرع مغروزة في السهل، وتلك الجبيلات هي الزلاقة في الجنوب والقف في الوسط وفرش الحلقة في الشمال، وهي بارتفاعات معدلها 75 متراً، وبهذا الارتفاع تكتسب مزيداً من البرودة شتاءً ومزيداً من الاعتدال صيفاً، وبهذا تتميز عن المنازل المنتشرة على الارض والسهل ولكنه تميز طفيف.

اما درجات الحرارة على متن الجبل فلا تباين فيها، فالمتن منبسط بوجه عام، واذا استثنينا بدايات تكوين الاودية ومنحنياتها ومنحدراتها اللينة الطفيفة فانك لا ترى غير ربوات متعانقة وليست قمماً شاهقة.

(*) الارقام عن الموسوعة الفلسطينية. ج.3 ، ص642.

اللوحة الصماء

المواقع الجبلية	المواقع السهلية	المغاور	العيون	العراقات	الروؤس الجبلية	الخراب	الأودية	الآبار
أبو سدود ، أبو الندى	أبو طرومة ، أرض الزاوية	أم سيف (1)	أبو حديد	أبو حمدة	اسكنبر	الدير	أبو الجاع	بيشة
أرض البحيري والنويري	أرض الكرم باب الجرف	التشتش	أم الفرج	الأحمر	مسليا	الخريبة	أو الكساب	بديوية
أرض محمود الداود	باب العجل مثل الأقرع	الخوانيق	تل الأقرع	البارود	المهل	الشلالة	الدرج	رشميا
تل الزعرود ، جوردة	تل خريس، تل علي الزيدان	سخور أول أو	السريسة	الشيخ		كفر السامر	ريشة	عودة
دار الريان ، الخريبة	تينة البستان، الحليكات	دار راشد	السياح			الكنيسة	عمرو	فضل
الخرزقة، بنة ظاهر	خروب قاسم، الخوانيق	طابون أو	الصوانية			مسلية	العين أو	فلاح
السياح ، الشلالة	درب البحر براس الزقاق	أبو اصبع	عبد الله			(2)	كفر السامر	الكنيسة
شلول القيقية ، الصفحة ،	شلول الريمان، الزمر، شلول	مغارة الشيخ سليمان	القصب				فلاح	
عقدة العكرش ، فرش الحلقة	الخصيب ، العديل ،	مغارة العين	المغارة (3)				مسلك باب	
فرش دار زيدان ،	العزيرية ، العليقة	الناطوف					مسليه	
فرش الزلاقة، فرش القف،	العوج: الشرقي والغربي	التواطيف					المصرارة أو	
فرش محمود ، العيسى ،	قدح، القطعة، مسح	الواد					عبد الله	
القود ، الكباير ، لحف المغر	النمل مسلية ، المصرارة	وشاح						
لويبية، المغراقة ، الملح، وشاح اليعقوبية	الملاحه نوادي فلاح							

- (1) تقع على الطريق الصاعد الى منازل عبد المحمود في الزلاقة وتفصل بين منازل لعائلات أبي راشد وعمورة والعبويي.
- (2) اشارت اليها بعض المصادر على أنها خربة الشلالة لجوارها منها .
- (3) كل عيون الطيرة نزاة بلستتنا عين المغارة.

ملاحظات

تاريخ	وصف العمل	المدة	الوقت	الملاحظات
15/10/2023	تجهيز الموقع	10:00 - 12:00	10:00	تم تجهيز الموقع
16/10/2023	تأسيس الأساس	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس الأساس
17/10/2023	تأسيس الجدران	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس الجدران
18/10/2023	تأسيس السقف	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس السقف
19/10/2023	تأسيس الأرضيات	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس الأرضيات
20/10/2023	تأسيس النوافذ	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس النوافذ
21/10/2023	تأسيس الأبواب	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس الأبواب
22/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
23/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
24/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
25/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
26/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
27/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
28/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
29/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
30/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل
31/10/2023	تأسيس المداخل	10:00 - 12:00	10:00	تم تأسيس المداخل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول: أبن الحياة

أ- الحياة النباتية:

فلسفة واقعية:

تجود في ارض الطيرة الكرمية الساحلية، في سهل وجبل زراعة اصناف من نبات شتى، وبفضل الموقع الجغرافي المتميز، والتربة الرملية الطينية، والمناخ المعتدل، تجود فيها نباتات حوض البحر الابيض المتوسط.

ومن نظرة الى قائمة الفصائل النباتية، ونسبة وجودها وزراعتها، والى المساحة المستغلة، وطريقة استغلالها، يتبين ان اهل الطيرة يركزون على المزروعات الالوية التي تقوم عليها حياة الانسان والحيوان ، وانهم في قريرتهم كخلية النحل الوديع، حركيون في حركة دائمة، ويعيدون عن الجمود والاسترخاء، وانهم في الزراعة متخصصون بارعون، ومطورون مهرة ومبتكرون مبدعون ؛ بالامكانات المتاحة والتقنية البسيطة ضمن مساحة الارض الضيقة وطبيعة التضاريس القاسية ؛ وكأنهم يتعمدون بذكاء واصرار تحقيق التوفيق بين الطموح الفطري في العيش الكريم ؛ ومبدأ الاكتفاء الذاتي ؛ ضناً منهم بارضهم وكرامتهم ومستقبل اجيالهم ؛ فلا تدمير لأرض ؛ ولا تفريط بها ؛ ولا تضيق على نفس ولا تضيق لولد.

يعلم الطيراوي انه فلاح المواسم ؛ وتبعاً لهذا الواقع تخضع مدخولاته الاقتصادية ؛ وتنضبط حركته وهدأته ، ويسير منهاج حياته ، ورغم ذلك ما كان يرى متبرماً من حياته ، ولا زارياً بنفسه ، ولا ساخطاً على قدره ، ولا كان يخشى ما يسمى بالبطالة المقنعة ، فما بين الموسم والموسم عمل لا وقت للفراغ فيه ، حتى في ايام المطر ، تراه ينعطف الى الوان من حياة الدفء العائلي والتواصل الاجتماعي ، واحتفالات الزواج والنشاط الترويحي ، استعداداً لنشاط زراعي جديد.

الطيراوي فلاح دؤوب ، ورغم زحمة العمل وتتابعه ، ما كان ينسى ربه وعبادته وتأدية شعائر دينه، ولا يتأخر عن واجب وطني ، ذلك انه انسان واع يعمل على تحقيق ذاته وحماية نفسه، واعلى دراجات وعيه ايمانه بربه الذي ينسحب على ارضه وعمله وقومه ، ومن حسن ايمانه توكله علي ربه، كسائر بني جنسه والفلاحين امثاله ، يُلقي الحبّ، ويحرث الارض، وينفق على زرعه بسخاءٍ، وفي قرارة نفسه بذرة التوكل على الله بموسم خير.

اما الربحية والثراء ، فلم يتجاوز اهل الطيرة بها واقع الارض ومعطياتها ولا عهدهم بما عند الله من رزق، إنه المنطق السليم الذي يحكم الامور بابعادها، الجهد والمادة والايمان بالغيب ، ثم النتائج برضى مطلق من ايمان عميق، او هي القناعة كنز لا يفنى كما يقولون، وفي هذا الايمان سرٌ وجود المرء واستمراريته وصلابته. والطيراويون بهذا واقعيون بعيدون عن الاطماع والعدوانية، بعيدون عن الترف، بعيدون عن الخيال والاحلام المجنحة، فلشج المياه الجوفية مثلاً، عزفوا عن زراعة ما يتطلب سقياً كثيراً كالحمضيات والملفوف والقنبيط، الا في اضيق الحدود والامكانات المتاحة. ولضيق الارض السهل لم يفكروا بزراعة ما يتطلب مساحات من الارض واسعة، ما دام من الكماليات، لئلا تتأثر المساحة المخصصة للمواد الضرورية ولقد ضحوا باللوز المحيط بمنازلهم عندما اعترض زيادتهم السكانية، ولنفس السبب لم يزرعوا البرسيم واكتفوا بالاعشاب البرية وحبوب الاعلاف وبالتبن ونخالة الدقيق لما شيتهم.

ولعل اصطفاء شجرتي التين والزيتون، وخصهما بالاكثار منهما، والعناية بهما، لدليل على ان هذا الانسان واقعي ، وبعيد النظر لما فيهما من قيم غذائية وتخزينية واقتصادية، ولما تتمتعان به من عمر مديد ومن صعوده الجبل واستثماره لاحراجه وتربته وصخوره وينابيعه لدليل على ان الطيراوي انسان عملي نشيط.

انسحبت هذه الفلسفة الواقعية على الحياة الحيوانية، فاكثر الطيراويون من تربية الماعز، لانه الانسب لطبيعة الارض الجبلية ولم يستغنوا عن الضأن لفوائده الاساسية، واكثروا من اقتناء البقر لحاجتهم اليه في الحليب ومشتقاته، وفي العمل ، وفي لحومها وجلودها، واما الجمال فكان اقتناؤها محدوداً بمقدار الحاجة، وطبيعة الارض وبما تحتاجه من عناية وغذاء فرضت محدوديتها والحاجة والنظرة العملية وخصائص الحمير والخيل والبغال ، هي التي

جعلت الاكثار من تربية الحمير اكثرأً بيناً على تربية الخيل والبغال.

ومن الجدير بالذكر ان تربية الماشية، كانت في خدمة الانسان مباشرة في غذائه وكسائه وتجارته، او في خدمة غير مباشرة ترتبط بحياته الزراعية وسنتحدث عن هذا الانسان في موضع لاحق من هذا الكتاب ، عن ايمانه بقومه وحياته الاجتماعية . وتسهيلاً للبحث عن الحياة النباتية، قسمناها الى الاشجار والحبوب والخضروات والاعشاب البرية.

الاشجار:

في ارض الطيرة اشجار حرجية برية هبة من السماء واخرى جوية⁽¹⁾ تزرعها يد الانسان.

ذكرنا انه توجد في ارض الطيرة مزروعات حوض البحر الابيض المتوسط، وان تضاريس الارض وواقعية الانسان الطيراوي وفطرته العملية هي التي فرضت عليه اصناف مزروعاته، وتوزيع نسبتها بحكمة بالغة ودقة متناهية ليحفظ لنفسه الحرية والاستقلال والامن الغذائي.

وفيما يتعلق بالقسم المشجر ، نجده نحواً من 5800 دونم او ما يعادل 13% من المساحة الاجمالية للارض البالغة 45262 دونماً ويحتل الزيتون المرتبة الاولى من الكثرة، حيث بلغت مساحة ارضه 4600 دونم او ما يعادل 80% من مساحة الارض المشجرة زراعةً ، ويليه الخروب بنسبة 9% ثم التين بنسبة 5% فالعنب بنسبته 1.5% والصبر بنسبة 1% ويتوزع الباقي بين اللوز والتفاح والمشمش والرمان والتوت، وهناك اصناف لم يبق منها الا القليل، وربما الشجرة والشجرتان كالعنبر والنوم والجميز والخروع.

وسنتحدث باختصار شديد عن التين والخروب والزيتون :

التين : يزرع التين في الطيرة ؛ في الارض السهل القريبة من منازل القرية ، وفي الجبال. والطريقة الرئيسية لتكاثره هي اعتماد العقل ، التي تؤخذ من فروع تامة النضج بعمر سنتين وبطول 25-30 سم، تزرع في مشتل، ثم تنقل الى مقرها الدائم بعد شهرين او ثلاثة حيث

(1) جوية وجوانية، داخل البيت عكس البري والبرانية: خارج البيت.

تكون قد ضربت جذورها الشعرية في التربة.

مما كان يلاحظ فرقاً بين تين السهل والجبل ضخامة حجم الشجرة والثمرة في تين السهل وضالتها في تين الجبل، والتبكير في نضج ثمار تين السهل وتأخره في تين الجبل. والتين في الطيرة اصناف، وثماره اشكال ومذاقات ، وان اتحدت في التركيب والفائدة. وسقايته بماء السماء، تبقي له نكهة وحلاوة تفوق تين السقي.

وأصناف التين واسماؤها في الطيرة تتبع اللون كالسوادي والبياضي والخضاري ، او تتبع الشكل كالخرطماني لطول ثمرته، والسباعي لسبعة خطوط رأسية في ثمره، وهو بين الخضرة والسواد، أو انها تتبع المذاق كالحماضي لحموضة فيه ذات نكهة لذيذة، كلما تم نضجه زادت نكهته، والعسالي، لما فيه من طعم العسل حتى في اول نضجه، او تتبع فصل نضجه من السنة، كالشتاوي الذي لا ينضج الا شتاءً. اما الغزالي ، فلاندرى سبباً لتسمية هذا الصنف القريب من السباعي شكلاً.

وبعض البيئات العربية تطلق على التين اسم البلس⁽¹⁾ ربما لما يتركه في الفم من حلاوة، أو للثمر الناضج منه، وأما غير الناضج فهو الدفور⁽²⁾ اذا احمر باطنه، وهو النفل⁽³⁾ ان نخرته الدودة وسقط تلقائياً على الارض.

زرع التين في الطيرة لقيمه الاقتصادية والغذائية، ثم جرى استعماله علاجاً ناجعاً في السعال المزمن الجاف، اذا نقع " القطين" منه مدة سبعة ايام في زيت الزيتون فيفطر المريض كل صباح علي ثلاث تينات فانه يشفى⁽⁴⁾.

يؤكل التين طازجاً ، كفاكهة شعبية، على الريق، وغذاء ضمن وجبة الطعام مطبوخاً مربى (تقلي) او مجففاً قطيناً⁽⁵⁾ ويعتبر التين من أغنى مصادر الفيتامينات أ، ب، ج (C,B,A) كما

(1) ثمر كالتين، او هو التين نفسه، كما في المعجم اللغوية.

(2) من الدفر : الدفع في الصدر، وفي التين ارتفاع الحمرة الى باطن الثمر وقد يسمونه عجراً .

(3) النفل : الزيادة ، فهو زائد عن المطلوب، والدفور والنفل في علم التين مصطلحان ريفيان.

(4) الصيدلية الشعبية للعلاج بالاعشاب. عبد الحميد الجوهرى ص 78.

(5) إذا ترك الثمر على الشجر يذهب ماؤه، ثم يقطف ويترك في مكان جيد التهوية ليزداد جفافاً. ثم يبرق ويحفظ خزيناً، وقد يعلق مشكوكاً بخيط .

يحتوي على نسب عالية من الحديد والكلس والنحاس، وكلها مواد بانية لخلايا الجسم، ومولدة لخضاب الدم... وكل 100 غم من تين طازج يعطي الجسم 70 سعراً حرارياً اما القطين فتركز فيه السكريات، ويعطي الجسم 268 سعراً، وهو مفيد جداً للحوامل⁽¹⁾.
ومما تجدر الإشارة اليه ان تين الجبل قلما تنخر ثماره الدودة، وأنه يحتفظ بنضارته - وقتاً اطول.

الخروب⁽²⁾: من الاشجار المعمرة، منه البري العقيم الذي لا يثمر، ومنه الجوي وثماره قرون مبسطة طويلة، تبدأ نموها خضراء مزة الطعم، ثم تصبح بنية اللون ضاربة الى السواد عند نضجها، اما بنوره، فصلبة قاسية، وقد تلقى البذرة منها في تربة، عن غير قصد زراعتها، ثم تثبت بعد حين، خشب الخروب قوي، وثمره من اغنى الثمار بالسكريات والمعادن، ويحتفظ بسلامته اكثر من عام قبل ان يفسد.

يؤكل الخروب فاكهة نينة طازجة. او «رُباً»⁽³⁾ مطبوخاً يتحمل التخزين مدة طويلة، او يدق ويفنت وينقع، ثم يشرب نقيعه كمرطب طبيعي حلو وفعال في الصيف، ويسمى الرُب منه «دبس الخروب» وهو غذاء كامل، اذا اضيف اليه السمسم، او الطحينية كما جرت عليه العادة في الطيرة. كما يستعمل «الرُب» علاجاً مليناً للمعدة والامعاء، ومادة قابضة للاسهال نون ادنى مضاعفات سلبية. وهو مفيد في هبوط القلب وضعف الكبد.

زرع الخروب في الطيرة في الارض السهل، وعلى سفوح الجبال، ومحصوله جيد وغير على النوم، واعتبر تجارة رابحة ومصدراً لا بأس به من مصادر الدخل القومي للقرية، في عهد الانتداب البريطاني، اذ كانت كبريات الشركات الاوروبية⁽⁴⁾ تتنافس في شرائه من القرية بوساطة عملاء معتمدين ، لادخاله في صناعة الحلوى.

(1) الصيدلية العشبية، ص 207.

(2) ورد في المعاجم: الخروب او الخرنوب بفتح الخاء وضمها شجر شائك بري نو حمل كالتفاح، وشامية... عريض وله رب وسويق.

(3) باضافة قليل من الماء ثم يغلى - دون اضافة السكر- الي ان يتحلل ويصبح سائلاً لزجاً.

(4) من ابرزها شركة رويال Royal صانعة توفي «رويال» الشهيرة.

الزيتون: شجرة الزيتون شجرة مباركة، ورد ذكرها في القرآن الكريم اكثر من مرة ، وقد لقيت العناية والتقدير في بلادنا فلسطين منذ آلاف السنين فالمشرق العربي بعامة ، وفلسطين بخاصة ، تُعرف منذ القديم بمنابت الزيتون، والتاريخ يشير الى العرب بان لهم فضل نقل زراعته الى المغرب العربي اثناء فتوحاتهم الاسلامية، ومن ثم كان انتشار هذه الشجرة في جنوب اوربا، وفي البلدان التي يسودها مناخ حوض البحر الابيض المتوسط.

للزيتون بين اشجار الطيرة نصيب الاسد في الكثرة، وهذا الامر لم يأت اعتباراً، وليس حديث عهد فيها، فالقصد اليه والتخطيط له منذ آلاف السنين، اذ قامت زراعته على فلسفة تتصل بوجود السكان ومستقبل أجيالهم :-

اولاً: لثمر الزيتون قيمة غذائية عالية، بمحتوياته واستعمالاته في الطبخ، او على المائدة بما لا غنى عنه لربات المنازل .

ثانية: يدخل الزيتون في عدد من الصناعات الكيماوية والدوائية، فيدخل في صناعة الصابون مثلاً، ومنه تستخلص مادة الغلسرين.

ثالثاً: يوصف زيتة كملين للمعدة والاعصاب، ويدهن به الجسم وتلك الاعصاب ، ومن الناس من يشربه على الريق للتقليل من الرمل او لتسهيل اخراج الحصى من المسالك البولية، كما تعجن به « اللبخات»⁽¹⁾ الحارة وتوضع كمادات⁽²⁾ على الدامامل لتنفجر ويخرج منها صديدها، وتعجل في شفاء المصاب، أما ورقه الاخضر فيغلى بالماء ويتمضمض به المصاب بارتخاء اللثة فتشدد ، ويأتي العلم الحديث مؤخراً ، ليؤكد ان زيت الزيتون يزيل في طريقه عبر الشرايين والاوردة الدموية، كل الدهون العالقة بجدرانها الداخلية، سواء أكانت من لحوم حيوانية او زيوت نباتية، انه يخرجها من الجسم قبل ان تتحول الى «كوليسترول»⁽³⁾ يهدد حياة صاحبه بالشلل الوعائي "الشلل النصفي".

(1) اللبخة الطيبة، نخالة تعجن بالزيت ساخناً وتعمل اقراصاً ، وتوضع على الموضع المصاب.

(2) الكمادة او الكمادة، من الكمدة : خرقة اذا غمست بزيت ساخن او حشيت بها اللبخة، يشتمى بها من الريح ووجع البطن.

(3) مادة دهنية، تتكون في القلب من الاغذية الدهنية ، وانعدامها من الجسم ضار به كزيادتها فيه عن النسبة العادية.

هذا ما نعلمه، وهناك ما لا نعلمه من فوائد الزيتون واستطبائاته، تشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعلمه اللدني، اي من لدن حكيم خبير، حين قال في القرن الاول الهجري الموافق للقرن السابع الميلادي: كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة⁽¹⁾ فلا يهولنك بعد اليوم الاعلام المعادي لك ولزيتك الوطني المبارك، ترويحاً للزيوت النباتية المستوردة، ليغزوك اقتصادياً في عقر دارك.

رابعاً: لزيت الزيتون وظيفة اجتماعية حيوية هامة قبل ان يعرف النفط والكهرباء والغاز كمواد متفوقة وفاعلة في الاضاءة ، فقد كانت السرج ذات الفتيل تضاء بزيت الزيتون ليلاً، ولقد ادركنا نماذج منها من معدن التوتياء مخروطية الشكل وتطفاً عادة بغطائها. زيت الزيتون اول من اضاء الدرب امام ركب الحضارة العالمية، منذ بدأت مسيرتها واشاعها من ارض منابت الزيتون.

وأهل منابت الزيتون في شرقنا العربي، يسمون حثالة⁽²⁾ الزيتون بعد درسه وعصره جفتاً⁽³⁾ ويتخونونه وقوداً للتدفئة واحماء الطوابين وتشغيل الافران شتاءً، حيث يكون حطب الغاب رطباً او مبتلاً، لقد كان البديل الامثل للطاقة الحرارية الحديثة بالنفط والكهرباء عاشت به الطيرة قرناً طويلاً.

خامساً: الزيتون من الاشجار المعمرة، اذ يبلغ متوسط عمر الزيتون ، نحواً من سبعمئة سنة ، فلا تستغرب اذا قيل لك: ان في الطيرة زيتوناً رومانياً ، اي منذ عهد الرومان، والزيتون الرومي زرعه اجدادنا ايام حكم الرومان في شرقنا العربي. ذلك ان هذه الشجرة المباركة قلما تصاب بالافات التي تصاب بها غيرها من الاشجار، فالعصارة التي تجري فيها زيتية لا تصلح لنمو البكتيريا والطفيليات الضارة، ولهذه الميزة الفريدة يستعمل زيت الزيتون مادة حافظة لبعض اطعمة التخزين والالات المعدنية من العطب

(1) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه، وللبيهقي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنتمدوا بالزيت، وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة.

(2) من الحثل والحثل هي الشئ الضاوي والزوان والقشارة، ومن الزيتون ما ذكرناه.

(3) من اجفت المال اذا جمعه، ويجمع الجفت ولا يستغنى عنه وان كان حثالة.

الناجم عن التاكسد بالتعرض للهواء المشبع بالرطوبة.

سادساً: لا يحتاج الزيتون الى عناية مركزة وجهد كبير، واذا استثنينا التسميد الفتري بالزبل، والحرارة السنوية مرة واحدة فانه بعد سقاية المطر لا يحتاج الى اي شئ اخر حتى موسم قطافه.

سابعاً: لا يتأثر الزيتون بزراعة الحبوب والقطن بين اشجاره، ولهذا نرى ارض الزيتون في الطيرة ذات موسمين؛ احدهما شتوي فيه القمح والشعير والبقول والعدس ونحوها، والاخر خريفي هو ثمر الزيتون وزيته.

ثامناً: للزيتون شهرة عالمية تبعاً لمكانته عند اهل الديانات الاسلامية والمسيحية واليهودية، فالزيتون في الاسلام شجرة مباركة. قال تعالى « الله نور السموات والارض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة، الزجاج كانه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية»⁽¹⁾ وهي عند المسيحيين رمز لارض المهد للمسيح عليه السلام وقيامته، فاتخذوا من خشبه صلباناً وتمائيل مقدسة، وصناعة سياحية لحجاجهم.

اما اسفار الحاخامين اليهود ، فتذكر في خاتمة قصة الطوفان، ان نوحاً عليه السلام.... عاد فارسل الحمامة من الفلك ، فأتته اليه الحمامة عند المساء حاملة غصن الزيتون فاصبح فيما بعد رمزاً للسلام العالمي.

ولما كانت الطيرة باسلامها وعروبيتها بعيدة عن قلب حكومة الانتداب وعقيدتها، لم توفر لها مناخاً سياحياً، فظل استغلال الزيتون⁽²⁾ سياحياً في الطيرة طاقة مختزنة الى ان اجتثها الاحتلال الصهيوني البغيض بعد عام 1948م.

تاسعاً: للزيتون قيمته الاقتصادية ، بسبب ما تقدم بيانه من الحاجة اليه غذائياً وصناعياً وبوائياً وسياحياً، ولهذا كان الفلاح الطيراوي، يؤتي اليه في موسم الزيت، ولا يغادر قريته ليعرض بضاعته على الناس، وكأن الله تعالى قد عوضه عن اهمال حكومة الانتداب المعادية له ولشعبه وارضه واقتصاده، فأغناه عن دعمها المعلوم في التسويق والحماية

(1) سورة التوبة :آية 35.

(2) سفر التكوين ، الاصحاح 8-12.

الجمركية، وهذا بعض ما نرمي اليه في حديثنا عن اكتفاء الطيرة الذاتي ؛ فالى جانب استهلاك الزيت كلياً، كان يعتبر ثروة هائلة ودخلاً مضموناً ، وان لم يكن ثابتاً ، اذ كان وفيراً في عام، وقليلاً في العام الذي يليه.

وان كنا نرى، من جهة ثانية ، في اقبال الناس على فلاحه الارض ، سبباً اخر في انصرافهم عن التفرغ للصناعات الفنية والسياحية ، كما هو الحال في مدن كالقدس وبيت لحم والخليل، وبعد الطيرة المكاني عن الاماكن المقدسة ، له اثره في عدم زيارة السائحين لهذه القرية النائية نسبياً .

نسي الطيراويون، اذ لم يشهدوا فجر زراعة الزيتون الاولى، غير انهم لم ينسوا ابسط طرق تكاثره، ونعني بها طريقة التكاثر بـ « القرامي»⁽¹⁾ وهذه هي الأرومات⁽²⁾ التي تقطع من ساق الشجرة مع جزء من الجذر ، ثم تزرع في الارض الدائمة مباشرة . وكان الحصول على القرامي في الطيرة امرا ميسورا ، فقد كان لها زيتونها البري على جبال الكرمل ملكا مشاعا ، يغشاه من اراد ، ويقطع منه ما يشاء ، ثم يغرس في ارضه ، حتى اذا ضربت القرامي في التربة جنورها ، ونمت اغصانها وتفرعت ، قام الى تركيبها وتطعيمها ببراعم من شجرة مرغوب فيها. وظهور الزيتون برياً في الجبل ، ربما يؤيد القول بأن موطن هذه الشجرة جبلي ، ثم نقلت الى السهول . وقولنا هذا لا ينفي حقيقة نجاح زراعة الزيتون في الارض الجبلية، كما هو الحال في سائر المناطق الجبلية المحيطة بالبحر المتوسط .

ادرك الطيراويون بالخبرة المكتسبة بأن تقليم⁽³⁾ الأشجار دائمة الخضرة ، يقلل من نموها الكلي ، وبتالي من محصولها ولذلك لم يلجأوا الى تقليم الزيتون والخروب او تقنييهما⁽⁴⁾ لأمرين اثنين : اولهما ان الزيتون بالذات لم يعرف عدوا اشد خطرا عليه من الرياح العاتية، فقد كانت الرياح تذهب بجرء منه تحطيماً ، ثم يتخذونه حين يجف وقوداً ، ومن هنا كان عدم

(1) جمع قرمية بكسر القاف: عقدة اصل الحنطة، ثم استعملت لغيرها.

(2) جمع أرومة ، بضم الهمزة وفتحها ، الأصل.

(3) التقليم: القطع بوجه عام

(4) التقنيب للشجر، اذا قطع منه مايؤذيه

التقليم للزيتون له ما يسوغه، فما تذهب به الريح منه يعتبرونه تقنيا طبيعيا وان كان قسريا لا يراعي الاسس العلمية ، ثم انه كان يصيب الاشجار التي تقدم بها السن واشتدت فروعها ، أما الصغيرة ذات الفروع الطرية ، فغالبا ما تسلم من التحطيم فهي الأكثر طواعية للانحناء أمام عاصفة الرياح .

وعدم تقليم الزيتون في الطيرة لا يعني اهمال القوم له كليا ، فقد ذكرنا التسميد الفكري والحراثة والتعشيب ، ونضيف الى ذلك حراسته من الماعز ثاني العدوين بعد الريح ، فاذا ما نفشت الماعز بين اشجاره وعاثت بأغصانه الطرية قضمًا ، نشبت الخصومات عنيفة، كذلك ما كان يراعى في قطافه ، اختيار الجذادين⁽¹⁾ المهرة ، واستعمال عصي الجداة⁽²⁾ بمواصفات خاصة ، كأن تكون لينة ومستدقه من احد طرفيها ، ويكون الامسك بالطرف السميك ، وهي عندهم بأطوال متعارف عليها ، ف "التقصيرة" للزيتونة الفتية⁽³⁾ وللأغصان الطرية ، وهي قصيرة في طولها رفيعة في عودها ، وفي متنها انحناء طفيف من الأعلى . ثم الجداة ، وهي عصا متوسطة في طولها وشكلها وتستخدم في قطف ما لاتصل اليه "التقصيرة" والجداة هي الغالبة في الاستعمال واخيرا العراد⁽⁴⁾ لرؤوس الزيتون العالية والاطراف البعيدة عن متناول الجداة . أما الزيتون النصب الحديث سنًا وحملًا⁽⁵⁾ ، فتقطف ثماره بالأيدي بولا شيء سواها ، ولا يسمح لغير الاطفال بتسلقه ، لقطع ثماره الداخلية ، ومن هنا ندرك الحكمة من المثل : غصن الزيتون دليه وغصن التين عليه ؛ اما الزيتون فحتى يمكن قطفه باليد ، وأما التين فلحمايته من ايدي الاطفال والعاثين.

والطيراوي في طيرته، نواق للزيت بفطرتة وخبرته ، فاذا ما ذاق طعم زيت حكم عليه ، بأوصافه ومستوى جودته وطبيعة ارضه احكاما بالغة الدقة وهو معتد بأصالة احكامه

(1) الجداد : المختص بقطف الزيتون بالعصا وصوابه الجذاذ من الجذ: القطع

(2) الجداة: وصوابها الجذاذة ومعناها القطع المستأصل.

(3) الزيتون الفتية ما تجاوزت سن الثلاثين، وما دون ذلك فهي نصابة

(4) او العرادة : الهراوي يشد بها الفرس والجمال، والگرد: الصلب الشديد المنتصب وعرد النبات إذا طلع وارتفع

(5) يقال للثمر وهو على شجره حمل.

وسدادها، فيعرف ان كان الزيت فغيثاً⁽¹⁾ جيء بثمره من الشجر الى الحجر، او كان مكموراً⁽²⁾ قد مضى على قطفه ايام قبل درسه وعصره . او قال لك هذا من ارض صفتها كذا وكذا ، ويعلمك ان كان نقياً صافياً قد اخذ من وجه البئر⁽³⁾ او من بدايات السيل من فم "الفرازة"⁽⁴⁾ او من قعر البئر ، او من اخر عملية العصر ، فيقول لك تبعا لذلك ، هذا زيت خفيف ، وهذا ثقيل . والخفيف ما اصفر لونه وصفا وزادت ميوعته ، والثقيل منه ما خالط خضرته بعض اصفرار ، وقلت ميوعته ، وازداد تماسكه وهو الى السمن ، في النكهة اقرب . واما اذا اضطربت نكهته واختلفت الى الرطوبة ، فهو الزيت المقت او الكمر وبالتنوق يحكم على نسبة الشوائب فيه ، فيقول لك : هذا من وجه البئر ، وهذا من قعره ، وهذا من اخر ما عصر ، وفيه سيكون "العكر"⁽⁵⁾ .

يتزامن موسم قطاف الزيتون ، مع جولة حراثة الارض الخريفية واعدادها لموسم شتوي جديد ، وهذا يعطي فلاحنا فرصة التوفيق بين الحراثة والقطاف ووقت المعصرة التي يظل على اتصال بها . فاذا جاء دوره وقررّ قطف زيتونه ، خرج اليه بأهله واطفاله ، واستعان بجيرانه واقرب الناس اليه ، وان لم يكن جدّادا استأجر امهر الجدادين وانشط الجوّالات⁽⁶⁾ ، وخرج بالملاحف والبطنيات المهترئة لينشرها تحت الشجر لاستقبال الثمار المتساقطة ، فيسهل جمعها، ثم اتى بغلّته الى المعصرة ، وغالباً ما ينتظر يوماً او بعض يوم حتى يأخذ دوره . في موسم القطاف تنتشر البعّارات اللواتي يلتقطن من الزيتون ما غاب عن عين

(1) لم ترد في المعاجم اللغوية، ومن استعمالاتها تدل على معناها شذخ الثمر وهرسه فوراً دون ابطاء.

(2) برّ أرطب في الأرض ، أي اصابته رطوبته من مكثه فيها ، والبسر هو التمر إذا نضج .

(3) في المعاصر القديمة يتسخلص الزيت بتفريغه من حوض المكبس بواسطة انبوب يصب في بئر عميقة ، ثم يترك برهة لتترسب في القعر شوائبه قبل تعبئته في اوعية التخزين .

(4) الفرازه في المعاصر الحديثه تفصل الزيت عن شوائبه .

(5) زيت ترسبت فيه شوائبه ، فاستوت، وهي في العادة من قشر لم يدرس جيداً وهو "الطرطب" ايضاً ، ومن الناس من يرسله الى المصينة لتصنع منه صابوناً من الدرجة الثانية للغسيل ، ومنه قولهم معتكر المزاج: من توترت اعصابه .

(6) اللواتي يلتقطن الثمر بأجر او من غير أجر ، جال ببصره ، تتبع الشيء

الجداد والجوالات ، اذهب بعيدا بالجدادة ، بعد ان يتحول العمال من تحت شجرة الى اخرى ، ومن كرم الفلاح الطيراوي، أنه لا يرى ما تلتقطه البعارة من خلفه حقا له بل يبارك عملها ، ويرى انه ادخر بذلك عند الله معروفاً ، اذ حفظ نعمته عليه ، ولم تذهب في الارض سدى ، ويسره ان يرى كيسها ممتلئاً عند الغروب .
معاصر الزيتون:

في الطيرة اربع معاصر ، تعمل على مدار اليوم ، مدة تزيد على شهرين وعمال الواحدة فرقتان ، او وريتان تتناوبان العمل . اما المعاصر فهي:

1- معصرة ابناء عبد الحفيظ الاحمد وشركائهم ، وهي احدث الاربعة، وتقع في الحارة القبليّة ، على طريق فرعي ، يصل شارع الوسط بمنازل لأفراد من عائلات عمورة والناجي والعبويني وتيمّ. وهي خاصة بعصر الزيتون وحده .

2- معصرة "أبو شقرة" وهي معصرة ومطحنة⁽¹⁾ وهي اقدم المعاصر العاملة في عام 1948م، ومن يدخلها يشاهد مراحل تطور المعاصر، ففيها "المكبس" الذي يدار بأيدي الرجال ، بعد ان ترصف فيه القفاير⁽²⁾ المحشوة بالزيتون المدروس ، وهي التي يضغطها المكبس من اسفل الى اعلى ، فيخرج منها الى قاعدة المكبس ، ليذهب العصير عبر خرطوم من التوتياء الى بئر خاصة قريبة، حيث يمكث الزيت قليلاً حتى تترسب شوائبه ، ثم يؤخذ الصافي النقي شيئاً فشيئاً ، بمغراف⁽³⁾ من التوتياء التي لا تضدأ ، ويعبأ في أنية التخزين.

كل ما في هذه المعصرة يبدو عليه القدم، منصة الطحن وقمعها ، وحوض دراسة الزيتون، واذا سألت صاحبها عن تاريخها ، حدّك كيف كانت تدار بالحصان ، في اول عهدها ، وعن عمل المكبس كيف يعمل بيد رجل واحد ، حتى اذا ارتفعت اسطوانة المكبس

(1) مصطلحها الشائع بأبور الطحين ، ومنها قولهم حمار البابور ، الخاص بنقل الطحين.

(2) جمع قفير : كيس دائري مجوّف، من خيوط قنبية مجدولة بإحكام ، تملأ بالزيتون المدروس المفرغ في "البئر" ثم يرصف بعضها فوق بعض على قاعدة المكبس.

(3) المغرفة ، وخصت بهذه الصيغة لضخامتها النسبية .

الضاغط، واشتد الضغط ، ساعده عامل اخر . ثم يحدثك عن شقاء العامل قبل ظهور المعصرة الحديثه بميزاتها التقنيّة ، فهي تعمل بمولدات ضخمة، تنقل الحركة بالكهرباء من المولد الى سائر اقسام المعصرة ، بوساطة اقشطة جلدية مناسبة ، ثم يقول لك : نحن الان في نعمة من الله عز وجل ، وقد يحدثك عن الأجر فهو من الزيتون عشره ، وورد⁽¹⁾ الطحين قرشان اثنان عن المدّ الواحد⁽²⁾ ويتخلصون من الجفت⁽³⁾ بيعا للمصبنة في آخر الموسم او لاصحاب الافران وقوداً لأفرانهم . وستجد في فناء المطحنة ، رحوين⁽⁴⁾ تالفين بالاستعمال سنين عديدة ، وقد اتخذها الناس مقاعد للانتظار ، ولاشك في ان الزائر يتأذى سمعه من صوت الآلات واصطفاق الاقشطة وهدير الرحوين العالي .

3- معصرة "توفيق الزين" وهي خاصة بالزيتون وحده ، وتقع شرقي المنزل مباشرة ، بارتفاع قليل وهي الثانية في القدم.

4- معصرة "الحلبي" معصرة ومطحنة ، تقع في الحارة الشمالية ، على الجانب الشرقي من الطريق الرئيس الذي يخترق البلدة من الشمال الى الجنوب.

وافضل الزيت الفغيش ، وهو الذي من الشجر الى الحجر وأردؤه الكمر: وهو الذي طال مكثه بعد قطفه حتى عُصر ، وهو الذي ساء طعمه وفقد حرارته، وله في الحلق رطوبة وكراهة ، وجاء على اللسان ثقيلاً ، وهو غير الزيت الذي احتفظ بكامل حموضته وطبيعة سيلانه وتماسكه، ويعبرون عنه بالثقل ، واما ما يسمونه خفيفاً ، فهو الذي نزعته منه الحموضة بالمعالجة الكيماوية لاغراض صناعية. وينزع الحموضة تقل جزئياًته تماسكاً ، فتزداد سيولته ميوعة. وهذا الامر الذي لم يعرفه فلاح الطيرة، ولم يفكر بالوصول اليه، لأنه يفقد الزيتون أصالته.

(1) بفتح الراء ، مردود الشيء وعائده ، وبكسرهما الاسم من الارتداد.

(2) المدّ : صاعان اثنان كيلاً، او ما زنته عشرون غراما من القمح.

(3) ما يتبقى من بذر [نوى] الزيتون وقشره بعد عصره ، وي طرح اكواما خارج المعصرة.

(4) مثني رحا : حجر ضخم دائري ، ويعملان متقابلين في المعصرة ، والواحد منهما فوق الآخر في المطحنة، اسفلهما ثابت والثاني هو المتحرك.



رحى معصرة الحلبي للزيتون ، سحبه الطيراويون هناك الى موقع الكبابير

تسمع على السنة الناس في الطيرة مصطلحات كالجرجير والقحقيح والعجمة⁽¹⁾ والجفت، وفاض البد⁽²⁾ عنده، أما الجرجير من ثمر الزيتون فهو ما فسد على غصنه وتهضم⁽³⁾ لبّه وصار طريا ، ثم تساقط على الارض ، وهذا يؤخذ ويؤكل مملحا لأنه غدا حلوا بغير حموضة ، وباردا لا حرارة فيه ولا حرقة . وأما القحقيح من ثمر الزيتون فهو الذي جف على غصنه ، وتغضنت قشرته وتجعدت ، واصبح لونه ضاربا الى البني الفاتح ، وقلمّا التقطه احد حتى صاحبه . واما العجمة من الزيتون فهي كالنواة من التمر ، الا انها اشد منها صلابة، وهي خشنة الملمس وشكلها مستطيل او مدور بطرفين مدبيين من غير شق في الوسط، وهي

(1) العجمة ثلاثية الحركة بالفتح، من العجام، نوى كل شيء.

(2) وردت في المعاجم اللغوية بمعان كثيرة منها: التعب وبيت الصنم والنصيب من كل شيء، وهو حوض خشبي مستطيل الشكل، مبطن بالتوتياء التي لا تصدأ ووضعه مائل افقياً، وفي نهاية ميلانه ثقب يفتح ويغلق حسب الحاجة لاستخلاص الزيت الذي ينساب من الزيتون المدروس تمهيداً لتعبئته بالقفاير ونقله الى المكبس ، وعليه يكون بمعنى النصيب من المحصول لصاحبه.

(3) الهضم نقص في البطن، وذبول وهزال في الشيء .

مادة الجفت الرئيسية بعد عملية العصر، ومن الناس من يقصها من طرفيها وينقبها ويتخذ منها مسابح. واما قولهم فاض البد عنده، فهذا كناية عن وفرة المحصول وعن الغنى، ومثل يقال فيمن اسرف في الانفاق .

والطييرة بلدة لها تركيباتها الاجتماعية وطبقاتها الاقتصادية كاي بلد آخر فيها من لايملك زيتونة واحدة او دونماً من الارض واحداً، أو انه يملك القليل وله طموحاته في رفع مستواه المعيشي ودخله الاقتصادي، ولذلك ترى امثال هؤلاء يطلبون الزيتون حيث وجد خارج الطييرة كحيفا والرامة⁽¹⁾ على سبيل المثال ومن اهل القرى بوحى النائية نسبياً مثل قفين⁽²⁾ وعارة⁽³⁾ من ياتي الطييرة بزيتونة ليعصره في معاصرها الحديثة.

وثمة شجرتان من المعالم الشجرية البارزة في الطييرة، وذواتا شأن، وان كانتا في مرتبة ادنى من سابقتها، وهما شجرتا العنب والصبر.

اما شجرة العنب فقد خص ظهر الكرمل موقعا لها هروباً بها من حر السهل وآفات الزراعة، ولم تزرع في السهل الا مؤخراً، في موقع " بئر بديوية. في بستان لاسرة من عائلة "سلوم" ضمن اشجار من فاكهة شتى وزراعتها في الجبل على نطاق ضيق بمساحات متناثرة كالارخبيل البحري⁽⁴⁾ اذ لم يكن متن الجبل سهلاً كله، وانما استصلحت منه قطع بالجهد البشري، ثم زرعت اشجار مثمرة، دون المساس بالثروة الحرجية . ومعلوم ان الامراض الشجرية، تقل نسبياً حيث تكثر الغابات التي تنقي الهواء، ومن هنا جاء محصول العنب،

(1) قرية جبلية، تقع الى الشمال الشرقي من عكا باتجاه صغد، تبلغ مساحتها 53 دونماً، اما اراضيها فقد زرع معظمها زيتوناً .

(2) قفين: هكذا ضبطتها الموسوعة الفلسطينية على صيغة مثنى "قف" تقع الى الشمال الشرقي من طولكرم، على بعد 22 كم تبلغ مساحة اراضيها 23.755 دونماً، ذهب معظمها باتفاقية رودوس، والزيتون في مقدمة اشجارها المثمرة، ترتبط بعدة قرى منها " يعبد".

(3) عارة وعرعة، قريتان صغيرتان متقابلتان على كتفى وادي عارة، وهما على ارتفاع 90 متراً عن سطح البحر وتقعان في القسم الشمالي الغربي من جبال نابلس ووادي عارة حيوي هام، فهو منفذ خطير الى مرج ابن عامر .

(4) الارخبيل : مصطلح جغرافي يطلق على كل مجموعة جزر بحرية متجاورة.

قليلاً ، وان كان جيداً ، فلم يكن يفي بحاجة السوق المحلية، وكان الاعتماد في سد النقص من هذه الفاكهة الهامة، علي ما يرد سوق الخضار في حيفا وعلى الرغم من قلة انتشار شجرة العنب في الطيرة، الا ان اصنافاً منها قد ظهرت فيها واشتهرت؛ مثل الشصلي والزيني والريحاوي والدريلي او هو الحلواني، وكلها فصائل مستوردة بعيدة المنشأ عن الطيرة .

يؤكل العنب طازجاً او عصيراً او مطبوخاً مربى « تطلي » او مجففاً زيبياً، والزبيب لم يكن ليحضر في الطيرة، نظراً لاستهلاك كامل المحصول في موسمه.

ومن ناحية القيمة الغذائية نجد العنب أغنى الفواكه اطلاقاً، فله دور فعال في بناء الجسم وترميم انسجته، وفيه من الفيتامينات : "أ،ب، ج، A,B,C" وفيه من المعادن من؛ بوتاس وكلس وصوديوم ومغنيسيوم وفوسفور وغيرها، مما يجعله من الاغذية الواقية وهو مفيد بقشرته ولبه وبزرتة، للصغار ولل كبار على حد سواء.

واما الصبر فهو المتأرجح بين اعتباره شجراً او نباتاً عادياً، لأن الواحه هي الجذر فيه والسوق والورق والغصن المثمر، ينمو بعلأ ويعيش طويلاً ، واكثر ما يكون نجاحه في الاماكن الدافئة ، يتأثر الصبر بالثلوج كثيراً، واذا سلم منها فإنه لا يعرف المرض

يؤكل الصبر فاكهة طازجة ، ومطبوخاً مربى ، وهو من فاكهه الخريف واكثر ما يلفت الانتباه ان الواحه الشائكة هي الغذاء المفضل للجمل .

زرع الصبر في الطيرة لقيمتة الغذائية العالية باحتوائه على كثير من المعادن والفيتامينات ، وقديما قالوا: الذ الفواكه الصبر ، اتخذه الناس في الارياف سياجا لبساتينهم ودرهم المتطرفة . وهو في الطيرة اصناف ثلاثة ، البلدي كما ترى في الشكل ، والواحه ذات شوك حاد وهو السائد الوفير ، والخضاري والافرنجي بثمرته الصغيرة الحمراء القاتمة ، والواح الاخيرين بلاشوك ، وقد وجد على قلة في وادي فلاح.

ومن دواعي الفخر بالخلق الاسلامي ظاهرة الوقف في سبيل الله ؛ اشجار من تين وصبر، ما كان ثمرها يمنع عن احد في اماكن متفرقة ومعلومة بين اشجار الطيرة ، فيقولون هذا صبر سبيل وهذه تينة سبيل ، تماما كما يفعل الموسرون في وقف الارض وعيون الماء ، وفي الطيرة من ارض الوقف لوجه الله، ينفق ريعها على مسجد القرية وصيانتها، ارض تعرف

باسم "القطعة" وتبلغ مساحتها نحو من أربعين دونماً ، وتقع على يسار الداخل الى الطيرة من جهة حيفا .

وبالصبر نختم الحديث عن زراعة الاشجار المثمرة في الطيرة، واخترنا الخروب والتين والزيتون والعنب والصبر ، لتمييزها بالكثرة والاهمية في هرم البناء المعيشي والاقتصادي . وكل شجر له وجود في الطيرة بعدها ، يعد ثانوياً دون ان يكون عنه غنى، ولكنه يظل جهدا خاصا ومحدودا بحسب الحاجة المنزلية الموسمية.

الاشجار البرية:

تعتبر الطيرة بما لها من سهل وجبل من البلدان القليلة التي تتكامل فيها الحياه النباتية . ومن اهلها من اختار حياة "الوعر"⁽¹⁾ وبخاصة اذا كان من اصحاب الماشية او من المقيمين القاطنين على الرغم من شح المرافق العامة كالدكاكين والمدارس والمياه ، وعلى الرغم من خطر السباع الضارية ، وان كانت أخذة بالانقراض ، إلا أنهم يرون فيها ، الى جانب مصالحهم الحيوية الخاصة ، انها تحقق انسجاما مع فطرتهم على الحرية وعشق الطبيعة والتمتع بحياة شاعرية ، وسط الغابات وانفاس اشجارها العطرة الزكية ، ومنها يتمتعون النظر باللوحة الفنية الرائعة للسهل العامر بالخضرة والورود والازهار البرية في ربيع وصيف ، ومنها يرقبون قوارب الصيد الوطنية ، والبواخر بأحجامها المختلفة ، حتى عابرات المحيطات من السفن العملاقة ، وهي تمخر عبابه داخله في ميناء حيفا، او خارجة منه في كل اتجاه في عرض البحر ، ومن اعالي الكرمل يزداد مدى الرؤية الأفقية اتساعاً ، وقد يشيعون القطار خارجا من حيفا او قادماً من يافا لمسافات بعيدة . وكلما صفا الجو في ايام الربيع والصيف ازدادت رحلة البصر طولاً وامتعة .

وفيما ذكرنا من اسباب مادية اقتصادية ومعنوية نفسية يكمن السر في وجود الحياة الدائمة في الكبابير وكفر السامر والسياح ووادي فلاح ، ووجود حياة موقوتة بموسم زرع

(1) هكذا شاع لفظه ، وصوابه "التوعر" بتسكين العين وهو ضد السهل ومنه اوعر المكان او الطريق اذا صعب وعسر فيه السير ، لما فيه من عوائق طبيعية . والواعر جبل.

وفاكهة في سائر مواقع الطيرة الكرملية، أو تنبعث فيها الحياة نهاراً بالرعاة وماعزهم، والحطابين ودوابهم، وباصحاب المشاخر وعمالهم، والمشتغلين باعداد الارض وفلاحتها وتجديرها، واستصلاحها، والباحثين عن خيرات الارض من فطر وبلوط، وجناة الميرمية والبلان والزعرور، وبالمتنزهين من شباب يافعين، يقضون اجازاتهم وايام العطل المدرسية بين احضان الطبيعة، وانك لترى طلبة المدارس، وهم جد قليلون، يستخدمون السير على الاقدام اميلاً على الطريق الوعر يقرأون دروسهم ويستذكرونها في صباح ومساء .

واما حاجات سكان الجبل الضرورية والتموينية، فكانوا يقومون بشرائها بالجملة، وتأمينها اسبوعياً عندما يؤمّن طيرتهم لصلاة الجمعة في المسجد، او لزيارة اقاربهم اللورية والاعیاد وشتى المناسبات كالافراح وتقديم التهاني والتعازي. واما الماء فقد كان يؤتى به من ابار جبلية مثل بئر "فضل" في موقع " الخزقة" و " بئر رشميا" في اعالي وادي رشميا، او من عيون النبع مثل عين " ابو حديد " وعين " رمشيا" او من العيون النزازة مثل "عين القصب " وعين " الصوانية".

لقد استيقظ الانسان علي وجود الاشجار البرية هبة من الله تعالى لا تحتاج الى عناية ابدأ. والكرمل بحكم نشأته الجيولوجية الحديثة تجود فيه أصناف من الشجر سخاءً بغير حساب، من ذلك السرو والصنوبر البري والسنديان والبلوط والزعرور وهذه اصناف تلتقي نشأتها في مناخ واحد، وذات خشب قوي يستفاد منه في الصناعات المختلفة، ولكنها تفترق عن بعض في شكل هيكلها، وهيئة اوراقها، وتصميم ثمارها، فثمرة السرو كروية لا نفع منها، وثمرة الصنوبر البري ينتهي طرف غصنها الجديد بها، وهي غضة خضراء يسمونها " البسيصة" فاذا ⁽¹⁾ اكتمل نموها صارت مخروطية الشكل، لونها بني فاتح، وقشرتها على شكل فلوس السمك، لكنها خشبية صلبة تنطوي على حب اسموه " القريش" ⁽²⁾ الذي يصنع منه " القنبز" واما الصنوبر الحلبي، فقد زرعه اليهود مؤخراً في مواقع جورة آل الريان وفرش آل

(1) كالملبس على لوز الا ان حجم القنبز بحجم حبة السمسم.

(2) واذا افرغت الثمرة من الحب اسموها " الزل".

زيدان ورشميا وارااضي البحيري والوييري⁽¹⁾ وعرفت ثمرته باسم "القلوقز" والحب الابيض المستخرج منها هو قلب الصنوبر.

وينتشر السنديان في احراشنا في صورتين اثنتين اولاهما في صورة البلوط الجوي، وتتغلف ثمرته بكأس غطاء يربطها بغصنها وتكون خضراء، حتى اذا نضجت مالت الى السمرة وصارت حلوة اللب مستساغة الطعم، وهو المعروف ببلوط " ابو رمعاني" والثانية في صورة البلوط البري او " المعازي" نسبة الى ثمره المر ولا يأكله غير المعزى. ويظل صغير الحجم. وودق البلوط البري خشن كالجوي ولكن ارق منه. اكل الناس البلوط قديماً كبعض غذائهم وكانوا يستطبون بثمره لعلاج بعض الامراض الباطنية، اذا نقع اياماً ودق بقشره وثمره وغلي بحسب ما يريدون.

والزعرور او كما اسميه بكرز الجبل، لكنه بونه حمرة ولذة وطراوة وحلاوة، ولا لمعان لثمره مثل الكرز، والدوم بثمره قريب من الزعرور. اما الجميز شقيق الاسكيدنيا شكلاً في ثمره الا انه اطيب مذاقاً وان كان اصغر منه حجماً.

ولديك من الاشجار البرية القيقب والخلة والبلان الشائك بكثرة، واكثر ماكان حطب الغابات يتخذ وقوداً للتدفئة وتشغيل الافران واحماء الطوابين او تحت مراجل الطبخ الكبيرة، وقد ذهب العثمانيون بالكثير من الاشجار البرية الضخمة عندما اخنوا بمد الخطوط الحديدية، كوصلات تثبيت القضبان الحديدية، اما البلان الذي ينتشر بكثرة على السفوح الجانبية للكرمل، تصنع منه المكناس الخاصة بكنس البيادر والطرقات العامة والساحات الخارجية، وهذا يذكرنا بظاهرة النظافة كطابع عام للشوارع الرئيسية والطرقات الفرعية والزقاقات بين الاحياء والدور، اذ كان من بين واجبات المرأة اليومية، بعد ان تفرغ من تنظيف منزلها وفنائها، تخرج لتنظيف ما يقابل المنزل من الطريق او الشارع او الزقاق، لئلا يشير المارة الى المنزل واهله بما يرونه عيباً كبيراً. هذا ما كان يلمسه الزائر ويرتاح اليه على الرغم من ان جميع الطرقات - غير الشارع الرئيس - كلها ترابية غير معبدة.

ونذكر الميرمية او المريمية كما يسميها بعضهم، والتي تعتبر من بركات الارض، ثم

(1) هذه المواقع هي مستوطنه آخوزا صموئيل بعد تسريبها للصهاينة.

أغرم بها الناس استطباباً وعلاجاً وقائياً للمغص وانتفاخ البطن، ثم صارت شراباً يومياً يضمن تحضير الشاي للنكهة أيضاً، وأخيراً منع الاحتلال الصهيوني خروجها من فلسطين لسببين أولهما الحرب الاقتصادية والتضييق على الإنسان الفلسطيني وحرمانه من خيارات أرضه وثانيهما لما ثبت من نفعها طبيياً، فأخذ يعمل على زراعتها وحمايتها، وتزويد المصانع الدوائية بها. وجدير بالذكر أن أجود أنواع العسل الطبيعي ما اعتمد النحل في غذائه على رحيق زهرة الميرمية.

ومن الأشجار البرية المثمرة شجرة البطم الجبلية، وكانت على قلة في انتشارها، واهتمام الناس بها قليل كقلة اهتمامهم بشجرة الحرير النباتي الذي يجف ويساقط على الأرض ثم تذروه الرياح ويذهب هدراً.

ومن الأشجار التي نجحت زراعتها شجرة "زهرة الحناء" بزهرها الأصفر الفاتح، وأريجها العطر إلى مسافات بعيدة، لكن عمر الأزهار لديها قصير لا يتعدى أشهر الصيف وكان انتشارها قليلاً جداً.

ومن النباتات البعلية التي ينتشر وجودها في الأماكن القريبة من الطيرة نبتة الخوصلان، واسمها العلمي البُصيل أو العنصل. أوراقه سميقة مستطيلة تقاوم الجفاف، وكان ينقل إلى القبور لعقيدة راسخة: وأن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم (سورة الإسراء: آية 44).

المزروعات:

في هذا المقام نحصر الحديث في فلاحه⁽¹⁾ الارض ، اي في شقها وحرارتها ، وما يستتبع ذلك من اعمال الزراعة كالبذر والنكش والتعشيب الى آخر ما هنالك من اعمال .
وسنسير مع المزروعات في خطين: اولهما الحبوب والزراعة الشتوية ، وثانيهما الخضروات والزراعة الصيفية.

اولاً: الحبوب

أ- للاستهلاك البشري:

يركز الفلاح الفلسطيني في المقام الاول على القمح المادة الرئيسة في غذاء الشعب . ثم تأتي الحبوب الاخرى كالذرة البيضاء⁽²⁾ والعدس والسوسم والذرة الصفراء والحبلة ، في مرتبة ثانوية ، لكن لا غنى لهم عنها ، لانها مواد تكميلية لحاجات النفس وبناء الجسم . وكل منها يزرع للاستهلاك المحلي وتصدير الفائض منه.

القمح غذائنا:

يتميز الوطن العربي بالقمح غذاءً رئيساً يتصدر المائدة العربية ، وهو كالارز في شرق اسيا والذرة البيضاء والبطاطس في اقطار اخرى . وحديثنا عن القمح فوق المائدة الطيراوية ، يبين لنا اي جانب هام يؤمنه القمح في تحقيق الاكتفاء الذاتي والامن الغذائي الذي تنعم به هذه

(1) بفتح الفاء إذا لم تقصد الحرفه، والا فهي الفلاحه بكسر الفاء

(2) لم يستخدم اهل الطيرة الذرة البيضاء او الشعير الا في سنوات المحل وربما استخدمها الفقراء لرخصها . وعجينها ضعيف غير متماسك ولذلك يخبز اقراصا ويقال لها طراميز الذرة - جمع طرموز - وقد يرقق الرغيف قليلا ، فيسمى «كردوشاً» - جمعه كراديش - والذرة البيضاء افضل علف للدجاج البلدي .

القرية الأمنة الوداعة.

اجود اصناف القمح في الطيرة " الزريعة الصفراء" حبته شبه مستطيلة وشبه كروية لامتلانها ، دقيقه ابيض ناصع اذا قشر ، والا فهو ابيض ضارب الى الصفرة الذهبية، عجينه قوي متماسك ولهذا يخبز " معروكاً" ⁽¹⁾ او مشروحاً، وتطيب به الحلوى كالزلابية والعوامة والقطاير ⁽²⁾، والملاتيت ⁽³⁾ والعصيدة ⁽⁴⁾ والقراقيش ⁽⁵⁾، وصفائح الحلبة ⁽⁶⁾ والكعك الشعبي بانواعه؛ ما كان منه بالجوز او العجوة -التمر الاسود الطري- او مبسوساً ⁽⁷⁾ بالسمن البلدي او زيت الزيتون، وقد يعجن بالحب، وجرت العادة على تطيبه بجوزة الطيب واليانسون والمحب كذلك تطيب به كل المعجنات وماكولات الخبز، كالمناقيش ⁽⁸⁾ والصفيحة باللحم ⁽⁹⁾ او بأوراق الزعتر

(1) هو " الكماج ، كلمة غير عربية ، فالكاف والجيم لا يجتمعان في كلمة عربية واحدة والمشروح هو "الرخو" كما يسمى في الطيرة وفي غيرها.والزريعة الصفراء حين يخبز قوالب بالطريقة الحديثة يكون اجود انواعها.

(2) فطائر الحلوى الرفيعة شبيهة بالبقلاوة في رقاتها وحشوها ، وتبس بالسمن. اما فطائر القلاج " او المحشوة بالقشدة" الكريما" فلم تكن شائعة في الطيرة.

(3) جمع ملتوتة، وللت الشد والسحب والدق، وهو ما يفعل بالخبز الساخن بعد اضافة السكر والزيت ، يقال : فلان كثير اللت والعجن، اذا كان كثير الكلام.

(4) تحضر العصيدة باضافة الدقيق رشاً خفيفاً ، وشيثاً فشيثاً على ماء يغلي في قدر فوق نار هادئة مع التحريك البطيء، حتى يصير سبيكة اشد تماسكاً من العجين العادي، ثم يسكب في صينية ذات حافة، من الرمنيوم او نحاس مبيض بالزنك وتؤكل ساخنة فور المجازها.

(5) رقائق محلاة بالسكر الذي تعجن به، مع مقدار مناسب من السمسم. تخبز في فرن حتى يحمر وجهها قليلاً، تخرج صلبة، ولكنها تظل هشة.

(6) الصفيحة منها رغيف بولغ في رقه، ثم دهن بالزيت ورش بالسكر، وطوي رقائق مع نشر الحلبة المغلية بين طبقاته، وتغلى الحلبة حتى تذهب مرارتها.

(7) من « البس» حين يلت الخبز او الدقيق بالسمن او الزيت.

(8) عججين يرق وينقش بالاصابع حتى لا ينتفخ، ثم يضاف اليه الزعتر المطحون و" المحوج" بالسمسم والسماق، والمخلوط بزيت الزيتون ثم يخبز.

(9) لم يستعملها اهل الطيرة الا اقراساً مثلثة مغلقة، اما الشامية المفتوحة فلم يستعملوها.

الاخضر الطازج ، واقراص " السنبوسك" (1) والسلق والسبانخ مثلثة الاضلاع، وكذلك مأكولات العجين المطبوخ بالمرق او اللبن كالمفتول (2) و" الشوشبيرك" (3) المطبوخ باللبن.

وشاع "الصاج" (4) في الخبز زماناً، ثم قل الاعتماد عليه لاسباب تتعلق بخطر تعرض الخبز للنار طويلاً ، ولطول ما يستغرقه من وقت، اذ يكون الخبز عليه رقيقاً رقيقاً ، ولكثرة ما يستهلكه من حطب، كما يتطلب استعماله تدريباً ومهارة ليظل الرغيف رقيقاً شهياً، ثم أخذ شيوعه بالانحسار شيئاً فشيئاً ، داخل البلدة مع ظهور الفرن الحجري، لما يتميز به هذا الفرن من الاقتصاد في الوقت والوقود وسلامة الفرن، لكن الصاج ظل وسيلة الخبز في الجبل، واداة للقلي رئيسة وخبز الصاج يسمونه "شراكاً" .

خبز ولا كالتابون (5):

في المثل العربي " مرعى ولا كالسعدان" جاء ثناء على ذلك المكان في طيب نبتة وجودة هوائه بما لا يعدله مرعى على الرغم من كثرة المراعي، ونقول في الطابون قياساً طباقاً في الجودة، على كثرة اصناف الخبز وتعدد اشكال الافران، يظل الطابون متقدماً على غيره، مهما تقدم العلم، وطورت التكنولوجيا وسائل الخبز الآلية، ومهما تذرعوها بالنظافة التامة، قد يبلغون النظافة بالالة، غير ان الجودة التي تصنعها الروح الانسانية، ذلك ما لا سبيل الي بلوغه، تلك الجودة الحاصلة في خبز الطابون، هذا التراث الحضاري في ريفنا الفلسطيني، تكنولوجيا بدائية بسيطة، فن وخبرة واصالة.

(1) صفيحة كسابقتها ولكنها بالشحم لا باللحم. والكلمة تركية .

(2) ويقال له الكسكس والمغربية نسبة الى جهة اصلها يوضع المفتول من برغل وطحين وماء في مصفاة خاصة فوق قدر محكمة الاغلاق مملوءة بالمرق والحمص والبصل. فينضج المفتول بالبخر المتسرب عبر ثقوب المصفاة.

(3) يسميه بعضهم "اذان الشايب" والكلمة تركية معناها : المعجنات المحشوة باللحم وغيره.

(4) كلمة معربة، اداة حديدية مقعرة دائرية الشكل، اذا كفيت على نار كانت للخبز، واذا قلبت على قعرها صارت مقل، معروفة في كثير من اقطار العالم.

(5) يصنع الطابون على مراحل، في المرحلة الاولى تصنع القاعدة الدائرية بحافة قليلة الارتفاع، ثم يأخذ بالارتفاع التدريجي بحلقات دائرية، ثم تضيق هذه الحلقات شيئاً فشيئاً الى ان تنتهي بفتحة الباب العلوي.

يصنع الطابون من تراب، او من طين جيرى، وكلاهما مجبول بالتبن وباحجام وارتفاعات مناسبة لاتساعه واستيعابه من ثلاثة ارغفة الى اربعة ، وينثر الحصى الاملس في قعره بحجم حبات اللوز الكبيرة، وتسمى حجارة "الرُصف"⁽¹⁾.

والطابون في شكله العام، تجويف دائري، نصف كروي. بابه من الاعلى ذو غطاء منفصل يسمونه "القنزعة" ويغمره الوقود من القصل⁽²⁾ او سمد الحيوانات ، او من الجفت. ويزيل الطابون في اليوم مرتين، مرة في الصباح واخرى في المساء، ليظل محتفظاً بحرارته الداخلية، ويستعان على تحريك الوقود بخشبة مبسطة تسمى "المقحار"⁽³⁾ وبالمقحار يستعان على اخراج الخبز الناضج ايضاً.

يرى بعضهم خبز الطابون سيد انواع الخبز قاطبة، لاستواء الرغيف بالنضج والسبك، وللنكهة المتميزة التي يوفرها الطابون ، اذ لا يعرض فيه العجين على النار ابدأ وانما ينضج بحرارة حجارة الرصف والهواء الساخن المضغوط. ولعل فكرة طنجرة الضغط قد قامت على فكرة الطابون، او من فكرة انضاج المفتول بالبخار المضغوط الصاعد من طنجرة المرق تحته. وحين يذكر الطابون يتبادر الى الذهن في ريفنا العربي أكلة المحمر او المسخن بالطابون. والمطاعم التي تعتن بالتراث الشعبي، تروج لذاتها في اعلامها، بأكلة المسخن بالطابون، لان المسخن ما تزال اكلة الضيافة المفضلة في ريفنا العربي، تقدم لكل عزيز، وللعلم فإن هذه الاكلة لا تزكو الا بالزيت "الفغيث" وبالصيصان البلدية، ولذلك نعدّها اكلة خريفية، تحتفل بها الاسرة وتستقبل زيت الموسم الجديد.

وما ذكرناه انما هو اطعمة شعبية، برع فيها الانسان الفلاح ونوع فيها، وهي من مادة القمح وحدها، لتتأكد بركة الارض وقيمتها التي لا تحد ولا تعد. واذا قلنا انها بدقيق قمح "الزريعة الصفراء" فهذا لايعني ان اهل الطيرة لم يستعملوا الاصناف الاخرى في صناعة نفس الاطعمة. غير اننا ذكرناها كأعلى الاصناف جودة، ويلى الزريعة الصفراء في الجودة

(1) الحجارة المحماة، رصفه يرصفه: كواه بها.

(2) التبن الخشن من عقد القمح او الشعير، مما يقلت من حجارة النورج.

(3) زبل الطابون: اضاف اليه الوقود، ولو لم يكن من الزبل البلدي.

"الهوراني" و "ابوفاشي" واخيراً النورسي نو الحبة الرفيعة الطويلة، وهو الذي هجرت زراعته في العقود الاخيرة التي سبقت النكبة لسمرة دقيقة، ورداءة عجينة وقلة محصوله. اما اقل هذه الاصناف غلة فهو "الزريعة الصفراء" واوسطها الهوراني، واعلاها "ابوفاشي" فمن بذر منه كيلاً⁽¹⁾ عاد عليه بخمسة عشر كيلاً في الموسم الجيد، ولا تهبط غلته عن ستة أكيال في السنوات العجاف التي يقل فيها المطر، او يصاب فيها المحصول بالـغرق او "الحمرة المطرية"⁽²⁾. والمعدل العام لغير هذا الصنف يتراوح بين عشرة اكيال واثنى عشر كيلاً في اعلى سنوات الخصب. وكثرة غلة القمح وقتها، تكمن في تعدد سوق نبتته، وابوفاشي او فر الاصناف سوقاً. ويدخل البذر كعامل ثانٍ في وفرة الغلال، فكلما تباعد الحب جاء دليلاً⁽³⁾ ممثلاً السنابل، وهذا الامر مرتين بمهارة البذار الذي غالباً ما يكون هو الحراث نفسه، او صاحب الارض او من ينيبه عنه من بنيه واهله. كذلك يدخل المطر والحراثة والتعشيب والمرض عوامل ذات أثر في تحديد كمية المحصول وجودته. وكان الفلاح الطيراوي يضع هذه العوامل في حسبانها، ويتفوق كعامل بشري في الحراثة والبذر والتعشيب الذي يسبق نضج السنابل واصفرار الزرع لئلا يتقصف ويذهب حبه في الارض، وكانوا يراعون هذا في الشعير والعدس والكرسنة والجلبانة، وفيما عدا ذلك من عوامل المطر والمرض يظل على ثقة بالله تعالى الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

بركات الله تعالى في الارض والانسان:

"وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم" البقرة:22، ابراهيم:32 "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب" الطلاق:3، كلام الله هذا هو بعض عقيدة المؤمن بالفطرة، فيه سر توكله على ربه، وسر سخائه في رزقه، ولأهل الطيرة في ذلك عادات واحتفالات، لا يختلفون فيها عن سائر أبناء الريف الفلسطيني، ومن عاداتهم ما يرقى

(1) الكيل اثنا عشر صاعاً شامياً، والصاع اربعة ارطال أو ما يعادل عشرة كيلو غرامات.

(2) غالباً ما يصيب القمح والشعير بعد مطر غزير في نيسان، فتحمر السنابل ويتوقف امتلاؤها، والحمرة هي السنة الشديدة واليها ينسب المرض.

(3) الدل: السكينة والوقار وحسن المنظر.الدليل بتشديد اللام.

الى المثاليات، ومن احتفالاتهم ما يبلغ حد الروحانية البهيجة التي لا تعرفها غير المجتمعات الاسلامية، وسنسير معهم من البداية، من شهر نيسان، ونيسان هو " ابو السبل"⁽¹⁾ كما يقولون ومن النصف الثاني منه تمتلئ السنابل ، وتبدأ بالانحناء من ثقل فيسارع الفلاح الى تأمين حاجة اهله من " الفريكة"⁽²⁾ مؤنة عام "كامل" فكنا نشاهد اعمدة الدخان الابيض وألسنة اللهب قبيل الغروب. تتصاعد هنا وهناك وانك لتسمع هسهسة القمح المحترق يشوى على النار، وتشم منه رائحة شوائه تزكم الانوف، وقد تنجذب اليه، فاذا استأذنت أعطيت بفرح، وان تناولت شيئاً منه بالتحية والسلام، عد ذلك توددا منك ومحبة، واستزائوك في الاخذ. وسترى المرحبين بك اسرة باكملها تتحلق حول نار الفريكة ، منهم من يشوي، ومنهم من يفرك، ومنهم اطفال يمرحون ويتصايحون ويؤمرون بالابتعاد عن النار، انه منظر بهيج ولا ريب وتعدد الحلقات في عرصات البيوت اعظم بهجة، ان الشعب يعيش حياته ويحيي عاداته في اسعد لحظات عمره.

وفي المثل يقول فلاحنا في ريفنا العربي " في أيار اسحب منجلك وغار"⁽³⁾ لان في شهر ايار تنضج المزروعات الشتوية، وان تفاوت النضج اياماً بين مبكر ومتأخر ، وفيه تصفو السماء وتسطع الشمس، ويشتد الحر ايداناً ببدء موسم الحصاد، فيخرج الى الحقل في الطيرة فلاحها وعاملها وفقيرها، ويزدان السهل بزينة زرعه واهله العاملين في كل ارجائه، يعبون السعادة من اعذب مناهلها واصفى مشاربها، واذ هم نشوى ينسون انهم بعض موكب الطبيعة في يوم عيدها الاكبر، في يوم كان مقداره زهاء مئة وعشرين يوماً في كل عام، انه عيد مواسم الفلاح ويبدأ يوماً بالحصاد وأنه لعيد مبارك غير مرسوم بقانون مكتوب، ولا محدود بزمان ومكان، الا انه هو الموسم زماناً والسهل والبيدر مكاناً. وكل أخذ منه بحظه، مسرور به؛ الفلاح بغلته، والعامل بأجرته والفقير بما التقط.

في موسم الحصاد، تتسع في قرينتنا دائرة الحياة ، لتشمل المنازل والبيادر والحقول

(1) السبل : من السيلة: السنبلة: الزرعة المائلة. ومن معانيها : المطر.

(2) الثمر الناضج قبل جفافه، وتؤكل نيئة طازجة، رطببخ مجففة كشوربا سائلة او جامدة، او مناسف بالسمن البلدي كالارز.

(3) مثل عامي وصواب اللفظ " غر" فعل امر. اجوف سكن آخره فحذف وسطه.

معاً، اذ يخرج الفلاح بنسائه واولاده، وبالحصادين، والغمارات⁽¹⁾ والقلاعات⁽²⁾ كل معه زواتته⁽³⁾، ان كان راكباً اخفاها في خرج⁽⁴⁾ دابته، والا علقها بما يتنكب من عصا او آلة.

في موسم الحصاد، تفتح الطيرة فصلاً جديداً من كتاب حياتها السنوي، لا يخلق على مر الدهور، لما فيه من فورة الاحياء وانطلاقتهم، حيث ترى الناس منبئين في كل ارجاء السهل، وهم في غدوهم ورواحهم كمساحب النمل، يغنون خفافاً ويعودون في المساء ثقلاً، وتسمعهم يدقون الارض باقدامهم، على الطرقات الزراعية، على غير نغم، كل يسعى لهدف قريب او بعيد. وتسمع في السهل بين ما تسمع، ألعاناً من التراث العربي، في حوران وشرقي الاردن، تتجاوب اصداؤها في ارجاء السهل الفسيح إنها اهازيج الحصادين. إنها هدير آلة الحصاد الوحيدة من انسان ومنجل، اهازيج الحصاد يستعان بها على التعب والعرق المتصبب من الجباه السمر، والجائزة هي ان يتحولوا من حقل الى حقل، فالاجر مفر، والموسم قصير، والمنتظرون على القائمة كثر، والعجز في عدد الحصادين كبير. والحصادة الالية لم تنتشر بعد، والاعتماد على اليد العاملة الوافدة من حوران وشرق الاردن.

يغدو الحصادون الى العمل بعد صلاة الفجر، هذا ان لم يصلوها في الحقل الذي يبيتون فيه، لمباكرة الندى قبل ان يسبح على اشعة الغزالة، والندى عامل مساعد يحول دون تقصف الزرع والسنابل، فلا يذهب بعض المحصول في الارض ويصعب التقاطه. يصطف الحصادون صفاً واحداً عند خط البداية، يلوون سوق القمح بيد و يحصدونها بالاخري، ثم يلقونها رزماً محزومة⁽⁵⁾ ببعض سوقها ويلقونها خلفهم اكواماً دون اكرثا ولا

(1) الغمارة او الغمار : من جمع اكوام القمح او الشعير من خلف الحصادين.

(2) القلاعة: في القرية من تجني البقول والقطاني الناضجة، قلعاً باليد.

(3) الزاد يصطحبه العامل الى مكان العمل.

(4) كيس من شقين، يوضع على ظهر الدابة، يستعين به الفلاح في نقل متاعه.

(5) من الحزم: ضبط الأمر وتوثيقه، ومحزومة: مضبوطة ورزم شيتين: جمع بينهما ورزم الشيء: جمعه في ثوب.

رحمة، وكل كومة يسمونها "غمراً"⁽¹⁾ واذ تنظرها من خلفهم تخالها جثثاً صرعى مناجلهم. ويا للروعة! فان النفس لا تسر برؤية الجثث الا في الغمورة، ولا يكافأ قاتل في غير هذا المشهد البديع.

واذا متع النهار، وتطلق الحصادون حول مواثدهم زواداتهم، وهي غالباً ما تكون اطعمة خفيفة؛ فيها اللبن الرائب والزيتون والبيض والبصل والبرتقال، حين يجلس الحصادون لتناول فطورهم، يقوم الغمارون والغمارات، بجمع الغمور، على ابعاد متساوية، في تجمعات مستطيلة عالية يسمون التجمع الواحد "الحلة"⁽²⁾ وهي التي ستحملها الى "البيدر"⁽³⁾ وسائط النقل المختلفة؛ الحمار والجمل والطنبر⁽⁴⁾ والعربة التي تجرها الخيول، والشاحنة الحديثة التي تنقل في المرة الواحدة ما تنقله قافلة من خمسة جمال. وهذه هي عملية الرجادة التي تعني في اللغة التقاط السنابل.

وبعد نقل الحبل الى البيادر، ينبث في الحصيد اللقاطات، يلتقطن حظهن فيما تساقط من السنابل بالتغمير والحصيد، والنشيطه منهن تلتقط في الموسم الواحد مؤنة عام كامل. ثم يأتي الرعاة بمواشيهم، في عملية تمشيط، وتأكل ما تبقى من السوق قائماً بعد الحصيد.

البيادر:

حياة الريف ثلاثية الابعاد، او المجالات مكاناً؛ منزل الفلاح وحقله وبيدره. والبيادر هذا البعد الثالث في الطيرة، هو الارض الخلاء شتاءً، وهو المبقلة الصغرى⁽⁵⁾ ربيعاً، وهو ملاعب الصبية والفتيان. وهو ساحات الافراح والمناسبات العامة، وهو لدراسة المحاصيل الزراعية في مواسمها. وقد جرت العادة ان تعد مسبقاً للدراسة، فتزال منها الاشواك والاعشاب والحصى.

(1) الغمر: من غمر يغمر تغميراً، اذا دفعه ورماه، وهو وصف مطابق لما يقوم به الحصاد. وجمعه غمور، وصواب القول: غمّر به تغميراً وفي الطيرة يطلقون على الذين يجمعونها: الغمارون للذكور والغمارات للنساء.

(2) بفتح الحاء وكسرهما: من حل المكان وبه. جمعها حلل وحلال، والمصطلح ريفي يحمل معنى التكريم لما رزقهم الله تعالى.

(3) اسم من بادر للحب الذي يداس، وللمكان الذي يداس فيه.

(4) نصف عربة بعجلتين، والعجلة الواحدة من خشب ضمن اطار من حديد، قعرها عريض، وحافتها قائمتان، يجرها بغل او حصان او حمار.

(5) المبقلة الكبرى هي السهل.

ليغدو بعد ساعات زبدًا أبيض يعلو موجاً عالياً يزيد عن المتر ارتفاعاً . وقد يعاود التذرية مرة أخرى امعاناً منه في فصل الحب عن تبته، ثم يقوم بالكربلة⁽¹⁾ ليفصل القصل⁽²⁾ ثم يأتي نور الغريلة⁽³⁾ ليفصل عن القمح ما خالطه من دقيق الحصى والتراب. وأتوا حقه يوم حصاده:⁽⁴⁾

في ظلال هذه الآية الكريمة ، حديثنا عن عادات اهل الطيرة واسلامهم وعروبتهم . ذلك ان الكرم في الأمة العربية ،خلق فطري حميد ، اقره الاسلام وباركه وهذبه، بالزكاة فريضة وبالإحسان سمواً ، ونظاما بكيفية وحداً ادنى ، يكافأ فاعله ثوابا بمقدار ما يعطي من ذات يده وعرق جبينه وخالص نيته ، بما لا يعلمه الا الله العليم الوهاب.

وطيرة الكرمل كأي بلد فيها من يملك ومن لا يملك ، فيها الأرملة واليتيم والمقعد ، والفقراء والمعوزون والاغنياء والموسرون ، ومن اقام فيها زمانا رأى في العلاقة بين معظم الفقراء ومعظم الاغنياء رابطة حميمة وسراً علويًا، لم تبلغه غير المجتمعات الاسلامية ، ولم تنص عليه ارقى القوانين الوضعية ، بل لم تتضمنه "جمهورية" افلاطون⁽⁵⁾ الوثنية ، ولا "المدينة الفاضلة" لفرانسيس بيكون⁽⁶⁾ المسيحية.

الفقر في المجتمع الاسلامي ذو صبغة كريمة ، فيه الشفقة والرحمة والتقدير

(1) الكربلة: تهذيب الحنطة وتنقيتها، والكربالة بكسر الكاف، آلة كالغربال ، ولكن بثقوب اوسع، إطارها الدائري من خشب وسيورها جلدية.

(2) قصله: قطعه، وقصل البُر: داسه. والقصالة من القمح إذا نقي فيرمى به.

(3) الغربال : آلة كالربالة، ولكن الثقوب اضيق، وهو ما ينخل به الحب ، اما ما ينخل به الدقيق فهو المنخل.

(4) سورة الانعام آية: 141

(5) فيلسوف يوناني عاش بين (428-347 ق.م) في كتابه الجمهورية يرسم مدينة تخيلها مثالية ينتفي فيها الظلم والشقاء . ويسند القيادة فيها لطبقة الفلاسفة والمتعلمين ، وعامة الشعب التجار والمهنيون ، والعبيد فيها هم الطبقة الدنيا ، عليها ان تقوم بخدمة الأسياد واعمال البناء والانشاء ، وبحدود لا تتخطى طبقة حقها وقدرها .

(6) فيلسوف وسياسي انجليزي (1561-1626م) يعتبر احد علماء البحث التجريبي الحديث، قلّد افلاطون في كتابه المذكور ، ولكن بمنظور مسيحي.

والتواصل بين من يعطي ومن يأخذ ، هذا هو واقعه في الطيرة دون مبالغة ولا اختلاف ، ولا نقول بتعميمه واطلاقه ، والتأكد منه ومشاهدته فيها ميسور لكل باحث ، ومن كان ماراً بالقوم على بيادرهم ، سيقف عند أناس يكيلون غلتهم بالصاع⁽¹⁾ الشامي ، وسوف يسمع ويرى الكيال يكرر رقم الصاع مرّات حتى يمتلئ ويقذفه في الكيس ، فإذا قذف فيه الصاع الأول قال: واحد وكرر القول الى ان يقذفه ثم يقول اثنان وهكذا حتى اذا بلغ العاشر قذفه في كيس الزكاة ، أي عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : فيما سقت السماء العشر، وما سقي بنضح او غُرب فنصف العشر.⁽²⁾ وقد تسمع احدهم يقول : ادعوا الى الكيل فلانا انه اهل تقوى ، وفي يديه بركة . واذا بدأ الكيل قالوا له : اربص⁽³⁾ واعرم⁽⁴⁾ ولعمري انها نفس مؤمنة طيبة، ترجو الله ان يتقبل طاعتها في فريضة الزكاة ، وكل اهل الطيرة شافعيون ملتزمون بمذهبهم ، فيخرجون زكاة الحبّ مما يقتات به ويدخر ويستتبهه الادميون ، حتى الزيتون اذا بلغ نصابه⁽⁵⁾ ، ومن لم يبلغ لديه نصاب ، تصدّق احساناً .

واذا كان الفلاح مدينا على حساب البيدر، او الى حين "الطلاع"⁽⁶⁾ كما يقولون وتلك في الريف ظاهرة قديمة تمتد الى ازمنة البيع بالمقايضة ، وترعرعت في ظلال شحّ النقد ، فيستدين الفلاح ، وان كان موسرا من البزاز والسمان ، والقصاب والاسكافي ، وربما تعاقد

(1) وحدة الكيل للحبوب، بمقدار عشرة كيلو غرامات .

(2) بنضح بما يشبه الناعورة ، والغرب: الدلو اي سقي بأجر . رواه جابر بن عبد الله . وعلاصحيح مسلم : فيما سقت الانهار والغيم العشور ، وفيما سقت السانية نصف العشور والسانية: بئر يخرج منها الماء بوساطة الدابة .

(3) الربص : الانتظار مع الضغط على الحبّ.

(4) اجعله عرمة فوق حافة الصاع الى ان لا يثبت من الحب شيء عليه .

(5) هو ما بيّنه الحديث الشريف " ليس فيما دون خمسة او سق صدقة" والوسق ستون صاعا من صواعات المدينة المنورة وهذا النصاب يعادل 652 كغم ، وهو نصاب الزيتون ايضاً اذا لم يعصر ، ثم الزكاة من زيتة مهما بلغ ناتجه .

(6) بفتح الطاء المشددة وتخفيف اللام : ما يطلع للعيان من الغلة على البيدر.

على الحلاقة له ولابنائهم مع المزين⁽¹⁾ والمعسر قد يستلف بذاره ، او يبيع من غلته "بيع السلم"⁽²⁾ بمال يستعين به على قضاء حاجات اهله ، وسيء الحظ من الجاه العسر الى شريك يضارب بماله على الربع او الثلث مقابل خبراته وجهده وتعب عياله. وائياً ما كان حجم الغلة ووفرة المحصول ، فإن الدين والمضاربة هما اكبر هموم الفلاح ، واكبر لص يخطف في وضع النهار غلة الفلاح ودمه وسعادته.

وحين يبدأ الفلاح الزكاة يبدؤها بالمستحقين من الاقربين، ثم بمن يليهم من الناس دون تمييز الا بمستوى الحاجة ، مما يتبقى بعد سداد الدين اذا بلغ النصاب وقد يتصدق نافلة⁽³⁾ يكدح الفلاح من اجل مملكته التي يتولى تصريف شؤونها وتأمين العيش الكريم لرعيته ، الذين هم اهله وعياله وأحب الناس طراً الى قلبه . ونظام الحياة في المجتمعات واحد، مع احتساب فوارق الاتساع في عدد الافراد ورقعة الأرض . ولكل مجتمع مشكلاته الحادة التي تتطلب حلاً جذرياً او مبرمجاً على مراحل، وفق خطة مدروسة ضمن الظروف والامكانات المتاحة . وفي الريف تحتل المثل السامية والقيم الاجتماعية مكانة عالية في النفوس ، وللقول الشائع : الدين هم في الليل وذل في النهار ، وطأته الثقيلة ، ويحتفل بالخلاص منها من كان مديناً ، فلا غرو في ان يكون صرف الدين عن كاهل الفلاح ومملكته الصغيرة بضربة واحدة على البيدر نصراً عظيماً ، اما تأمين الغذاء والكساء عاما كاملا يراه الفلاح واسبرته فتحة مبينا . وبهذا المعنى تكون زكاة الزروع والثمار ترفع شكر المؤمن لربه الذي بيده الرزق والخير كل الخير.

ولا ريب في ان الفلاح هو بطل العائلة الاسطوري ونجمها المحبوب، وهو الآب الرحيم ، وبهذه الخصائص يفرض الهيبة والطاعة والاحترام على اهله ، بعاطفة سامية ، تتدفق من

(1) اليزان: تاجر الاقمشة . القصاب: اللحام والجزار . والاسكافي: صانع الاحذية وكل ذي حرفة فهو اسكاف والمزين: الحلاق

(2) من المعاملات الشخصية في الاسلام ، وهي بيع أجل (القمح) بعاجل (المال) كأن يستلف الفلاح مبلغاً معيناً من المال ، مقابل كمية معينة تعادل قيمة المبلغ على حساب البيدر .

(3) كل عباده يؤديها المسلم زياده على الفريضة فهي نافلة.

الاعماق ، يكرمها العرف والتقليد الاجتماعي ، ويغذيها الاسلام ويوجهها وجهة مشرقة على الدوام . وفي هذا التشابك الروحي الصّرف الذي يسود الأسرة ، نشهد انتصارها على البيدر جهداً مشتركاً بين افرادها ، وسيكون قطف ثماره والاحتفال بتحقيقه شاملاً لهم جميعاً .

ان التلاحم العضوي والسلوكي الذي تنعم به الاسرة المسلمة ، هو في موضع حسد من كثير من المجتمعات ، والحديث عنه يطول ، وحين نؤكد وحدة الاسرة وجهدها المشترك في العمل نرى احتفالها بدخول الغلة عليها انعكاساً لتلك الوحدة وذلك الجهد ، وحقاً لكل فرد فيها بالمطالبة بتحقيق احلامه المجنحة التي تراقصت في مخيلته ، ربما شهورا طويلة .

في ليلة دخول الغلال منزل الفلاح تبدأ المطالبات بتنفيذ الوعود المقطوعة والمستجدة وهي غالبا ما تكون بالكسوة والطلق والأساور واستقبال العام الدراسي الجديد .، وكلها ليست بذات بال امام مشاريع الأسرة الكبرى كاستبدال الثيران الهرمة باخرى فتية ، او زواج ولد أو توسع في البناء .

وقبل شروق شمس اليوم التالي لإدخال الغلال ، تدب الحياة مبكرة في ارجاء البيت ، كل له عمل مرسوم يقبل عليه بفرح غامر، غالباً ما يكون اعداد مؤنة البيت من السليقة⁽¹⁾ كيلا او كيلين للبرغل والجريشة والسميد الناعم للكبة ، وفي هذا تكون الزوجة سيدة الموقف بخبرتها ومهارتها ومكانتها بين ابنائها ، فهي التي تراقب الحلة⁽²⁾ والموقد وتقدر الماء والكميات المطلوبة والنضج ونشر المسلوق بعد انزاله تحت اشعة الشمس الحارة ، وهي التي تضع الحراس من ابنائها لحماية السليقة من الدجاج والحمام والعصافير ، وتراها في ارق عواطفها واعذب سعادتها وهي تلبي طلبات الأطفال في صحن من السليقة محلى بالسكر ، وهي تقول: خذ واطعم رفاقك .

في ذلك اليوم يخرج الفلاح الى السوق في ابهى حله وثيابه ، وهي من القمباز⁽³⁾

(1) ومن اسمائها الشائعة بليلة .

(2) قدر معدنية ضخمة بحلقات يمسك بها شخصان او اكثر لانزالها عن الموقد وهي ملأى بما فيها .

(3) لباس للرجل طويل يلتف به ، ويثبت بزنانر من نفس القماش واحيانا بزنانر آخر من جلد او بكرم مقصب .

والسترة⁽¹⁾ والسروال⁽²⁾ والكوفية⁽³⁾ والعقال⁽⁴⁾. هكذا الفلاح الطيراوي في يوم عيده يقول لمن يراه مسرفاً في هندامه : إن الله يحب ان يرى أثر نعمته على عبده. تأسيماً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفلاح في يوم عيده ينسى التعب والألم والعرق، اذ يرى نفسه منتصراً في معركة الشرف ، ولا يعرف هذا إلا فلاح مثله او بصير منصف ، واهله الذين يتباهون به قائلين : خيركم ، خيركم ، لاهله⁽⁵⁾....

لا يحتفل الفلاح بالغلّات الاخرى احتفاله بغلة القمح لقيّمته الاقتصادية ، ولأن له الصّدّاره على المائدة . وما بعد القمح من المزروعات ان هي الاموادّ تكميلية يزرعها للمؤنة ثم يبيع فائضها ، ولا ينسى فلاحنا اهله وعياله كلما ادخل غلّة ، فيوسع عليهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً.

وبعد القمح يحتل الشعير المرتبة الثانية في اهميته والاكثر من زراعته ، واذا كان الفلاح يزرعه غذاءً لدوابه وللتجارة ما تبقى ، ولذلك يركّز على اجود الأصناف ، واعلاها غلّة ، وكان الشعير "نو الحبة الطويلة الممتلئة" هو الوحيد بلا منازع ، قصبته ثخينة ذات لمعان ونضارة اكثر مما لقصبة⁽⁶⁾ القمح الرفيعة، واما حبّته فتنتهي قشرتها بسفّير⁽⁷⁾ صلب سميك⁽⁸⁾ وسنبلته طويلة وسيقانه اكثر من القمح تفريعاً، ولذلك تراه اخفّ منه وزناً ، فالكيل منه يعطي

(1) هي " الجاكت بلفظها الاعجمي،

(2) لباس لنصف القامة الاسفل ، فضفاض يشد على الخاصرتين بالدكة ، ومن كثرة تفضنه يتدلى بين الرجلين.

(3) من الكفاء ، سترة من اعلى البيت الى اسفله من مؤخره ومن اسمائها العامية، الحطة، والشماغ وغير ذلك.

(4) ما تثبت به الكوفية على الرأس ، وعقيل كلّ شيء اكرمه ، فهو صفة الكرامة للرجل.

(5) حديث شريف

(6) قصبة القمح او الشعير هي سوقه

(7) السفّير او السفير من الشجر : ما تساقط من ورقه بعد جفافه. والقمح والشعير اذا اسفر زرعه استحصد ، والسفّر : الكنس ،

(8) ومنهم من يفضل ما كان بلا سفير ويراه اكثر وزناً وعلفاً يقبل عليه الدجاج

خمسة وعشرين كيلا في اعلى السنوات العادية ، ولا يقلّ عن عشرة اكيال في سنوات الجذب والاصابة بالمرض . وكلما ازداد الشعير تفرّعا قلّ سوقه ارتفاعا ومع ذلك يظل يعطي اكثر من القمح تبناً.

يزرع الشعير في الطيرة للاستهلاك الحيواني اصلاً ، وكذلك الذرة البيضاء ، وان كان هذان الصنفان من الحبوب يزرعان للاستهلاك البشري في بعض المجتمعات . والطيراويون كغيرهم لا ينسون أيام "سفر برك"⁽¹⁾ التي طحنوا فيها الذرة والشعير واكلوا "الطراميز"⁽²⁾ و"كراديش"⁽³⁾ الذرة والشعير ، واكلوها ساخنة، ملتوتة بالزيت طيبة، عندما عزّ القمح في ايام الحرب العالمية الاولى واستأثرت به الحكومة التركية لجيشها وشعبها على الرغم من القحط الذي اصاب المشرق العربي، ونفق بسببه كثير من الدواب.

واعداد الارض للشعير وزراعته ، وطرق العناية به ودرسه وتذريته كالقمح تماما ، وأما الذرة في هذا كله فلها شأن اخر ؛ اذ كانت تبذر بذرا دليلاً، ومنهم من يزرعها تخطيطاً بأثلام متقاربة.

لا تحتاج الذرة الى كثير من العناية ، ولكن قطفها يحتاج جهداً مشتركاً بين مجموعة من العمال، بين من يقطف العرائيس⁽³⁾ بسكين أو منجل وبين من يتلقى المقطوف بمقطف من الخوص⁽⁴⁾ ، وثالث ينقل المقاطف الممتلئة الى واسطة النقل مباشرة ، لنقل المحصول الى البيدر إن كان وفيرا ، والا نقل الى البيت حيث يستخرج الحب بالوفض والنفض⁽⁵⁾ .
قلما تزرع الذرة في الطيرة للتجارة ، ولو ان ارضها موائمة جداً لنجاحها اذ يبلغ

(1) المصطلح تركي بمعنى النقيير العام ، وهو كلمتان : سفر العربية من سافر . وبيرك : اتحادي ، شاع استعماله في الحرب العالمية الاولى ، اي في اواخر الحكم العثماني ، اذ اخذ يسوق الرعية الى الحرب سوقاً اجبارياً

(2) الطراميز : جمع طرموز ، والكراديش : جمع كردوش ، مصطلحان من مصدر غير عربي او من لغة عربية كالكنعانية القديمة

(3) جمع عرنوس . رأس قصب الذرة الذي يضمّ الحبّ

(4) ودق النخيل

(5) اوفض الشيء : بسط له بساطاً يتقي به الارض واستوفضه : طرده. والنفض : التحريك

وزن العرنوس اكثر من اوقيتين بالعيار الشامي، ربما لقلّة طلبها في السوق ، ولقلّة تبنيها ورداعته، ولما يسببه قطفها من حكة جلدية من جراء زغبرها⁽¹⁾ المتطاير ، ثم لصعوبة الخلاص من سوقها ، فقد كانوا يتركونه للماشية والدواب او الاطفال الذين يجمعون الديدان من قصبها ، لصيد العصافير بالفخاخ .

والسمسم من الحبوب في مرتبة ثانوية ، يقلع بجنوره بعد نضجه وقبل ان تجف وتشقق اجراسه⁽²⁾ لئلا يتساقط حبه ويذهب في التراب . واذا بلغ المحصول المنزل جعلوه ضمماً ونشروه على السطوح لتجففه الشمس، حتى اذا انشقت الاجراس عن الحب، عمداً الى اخراجه بالوفض والنفض وكذلك الحلبة ، تقطف بأجراسها ناضجة جافة ، ثم يستخلصون الحب منها فركاً باليدين.

واما الحمص والعدس وسائر الحبوب الأخرى ، فقد كانت تدرس بالنورج . وباستثناء تبين الفول ، فان تبين الباقي هو التبين الاحمر ، وهو اجود اصناف التبين واغناها فائدة للماشية والدواب.

على البيدر تتمدد حياة الناس في الليل والنهار فيزحفون اليها بالخفيف من فراش النوم لحراسة المحصول كغرض رئيس ، ثم تتلون بالسهر الى ما بعد منتصف الليل ، حيث يأخذ الرجال بيتب بعضهم بعضا الهموم والمشاكل واخبار الساعة في القرية والعالم ، وهم في غمرة النجوى ، لا يشعرون بصخب الصبية من حولهم يلعبون "الغميضة" وما يروق لهم من العاب التراث ، حتى اذا تعبوا تحلقوا ليسمعوا من قصاص متحذلق ما حفظ عن جدته من روائع الاساطير: عن الجن والعمفاريت والغيلان، والشاطر حسن، وعلي بابا، واميرات الاحلام، قبل ان تستسلم عيونهم الصغيرة للكرى.

بقي ان نعلم ان الخوف انما يكون من سطو الطراق من الغجر الذين ينزلون بين الزيتون من اواخر الربيع الى اواسط الخريف⁽³⁾ ، هذا اذا كان المدرس عرمة كبيرة. ويكون الخوف من حريق قد ينشب في اي صورة، عندئذ تتعالى صيحات الاستغاثة، وفي هذه الحالة،

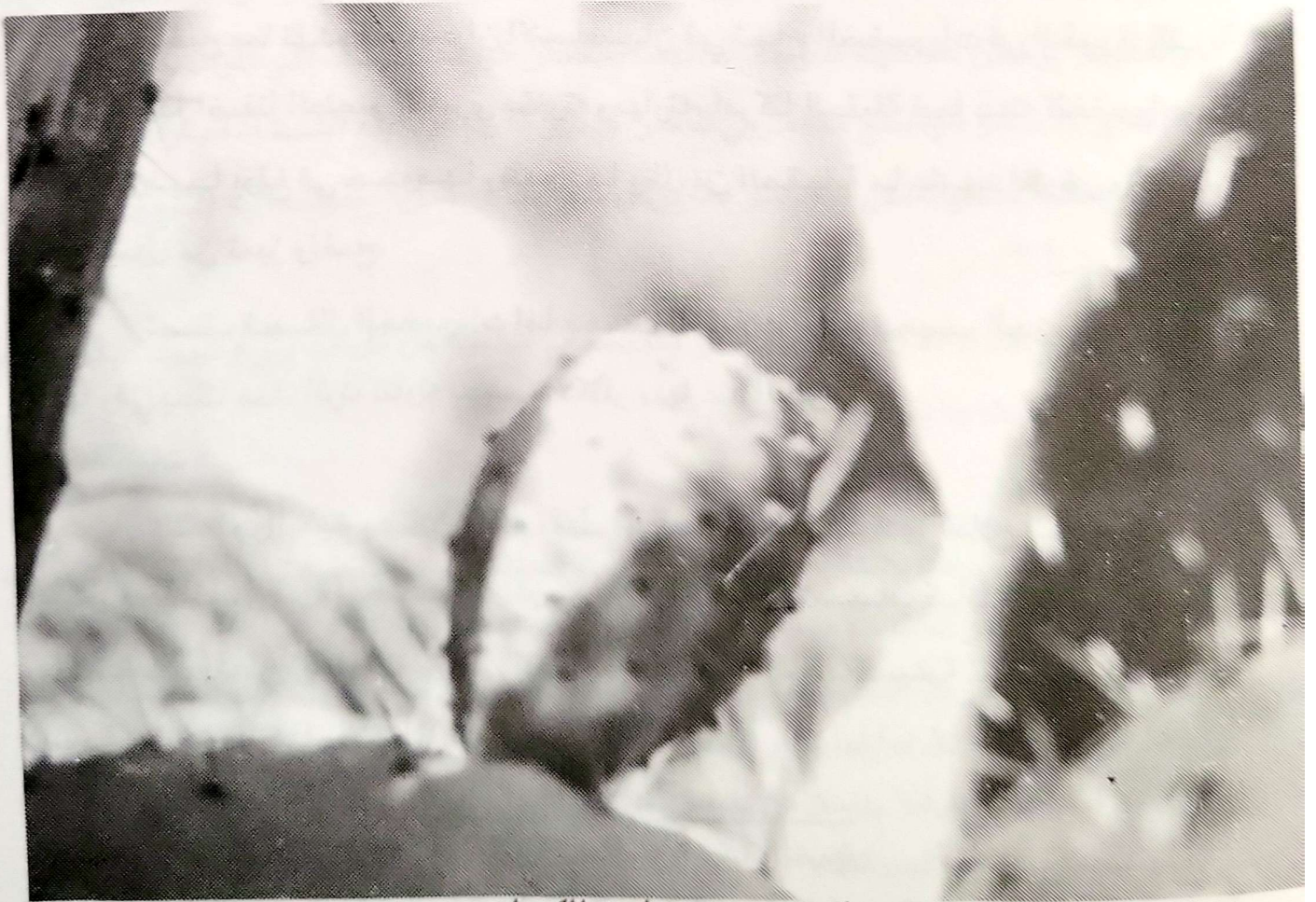
(1) الرقيق من الورق ، واذا تطاير من الذرة البيضاء والتصق بالجلد ازعجه وأسموه : العرمط او العرموط جمعه عراميط . وهو الزغب ايضا . صفار الشعر والريش ولا مفرد له ، ويتدرع القاطفون باكياس لاتقائه

(2) الجرس في الزرع ما انطوى على حب . واذا جف سمع له صوت.

(3) كان في الطيرة اسرة غجرية عرفت بالاستقامة، وكانت تتعاطى مهنة الحدادة وصناعة الغرابيل. وتنزل في الزيتون الجنوبي في "قدح" وتلك اسرة "حسن ابو مايا".

التي قلما تحدث ، يخرج لاطفائه كل من رأى رجلاً كان او امرأه خوفاً من امتداد الحريق الى بيادر اخرى بوتري ضروباً من المروعة والشجاعة والجرأة في اقتحام النيران واخمادها بالماء والتراب والبطانيات...

اما النهار ، فعلى البيدر حياة عمل دائم، بفواصل للفطور والغداء وتناول الشاي، حتى اذا استعر الحر جاشت نفوس الدراسين وكلهم من الشباب المتوثب، فرفعوا عقائرهم بمقطوعات غزلية بالعامية، يسترحون بها ويستعينونها على مواصلة الدراسة ونسيان التعب، ولا ينطلق جانب بصوت الا وتداعت له سائر الجوانب بالاصوات، واذا بالبيدر ساحة للطرب باعذب الالحن لجمهور غير موجود الا المغنين على البيدر انفسهم، وكان صدحهم يبلغ نورته في التتابع والاختلاط والحماس عند "شوط الحلة" بعد العصر، حيث تجنح الشمس الى المغرب وتخف حدة حرارتها ويستعصي القش على التحطم والانكسار السريع، تحت حجارة النورج، ولا يعدو الغناء منهم ان يكون ايداناً بانتهاء يوم اضافوه عند "المعلم" صاحب العمل ، وكعهد لاستئناف العمل في الغد القادم.



كوز صبر من طييرة الكرمل

ثانياً: الخضروات

تندرج طبيعة الارض ومعطياتها ضمن الارض الخصبة عالية الجودة في الزراعة بوجه عام، وفي زراعة الخضروات بوجه خاص، فليديها التربة المناسبة، رملية طينية يسرع فيها تشقق البذر وتمدد الجذور الشعرية وامتصاص الغذاء بيسر . وليديها الجو الملائم، وهو العنصر الثاني في الاهمية وشروط النجاح، فلعوامل البيئة تأثيرها الكبير على خواص الثمار وطعمها، فكلما ازداد المطر وكثر الغيم صارت الثمار قليلة الحلاوة رديئة الصفات، فارتفاع نسبة الرطوبة له تأثيره الفسيولوجي في النبات، ويؤدي الى قلة حلاوة ثمار الفاكهة بالذات، كما انه يشجع نمو الامراض الفطرية التي تسبب نقصاً في كمية المواد الغذائية الممتلئة فيها، وكلما توفر الاعتدال في كميات المطر والحرارة والرطوبة تكونت للنبات ثمار صلبة، لها لب حلو الطعم زاكي النكهة.

يتضح مما تقدم العنصران الاساسيان في نجاح الخضروات في الطيرة؛ التربة والمناخ، واذا اضفنا العنصر البشري بخبرته ومهارته، ادركنا الحقيقة فيما بلغته الخضروات من نجاح، ومهما بولغ في حجومها وطعومها يظل من الحقيقة ما يشهد للارض والانسان والمحصول من تميز واضح.

تصنف فصائل الخضروات اما بحسب العائلات⁽¹⁾ واما بحسب الجزء الذي يؤكل⁽²⁾ منها وفي بحثنا هذا، أثرنا تناوله بحسب الاكثار منها عند الطيراويين:

أ- القثائيات:

الشمام والبطيخ يحتلان المقام الاول في فصيلة القثائيات لدى الفلاح الطيراوي ، نظراً لجودة الصنف ووفرة المحصول والموسم المبكر، ولهذه الاسباب كانا يزرعان للتجارة والاستهلاك المحلي، يقبل الناس على تناولهما لاعتبارهما فاكهة صيفية مرطبة، اذ الماء فيهما بنسبة عالية جداً، هذا بالاضافة الى قيمتهما الغذائية.

(1) اسماء لمصطلحات لا تفيد غير المختصين: كالصليبية والمركبة والخيمية .

(2) كالجذرية والدرنية والبصلية والورقية والثرمية والسوقية والزهرية وكلها مصطلحات شائعة بين الناس معروفة

وقد بلغت وفرة الانتاج منهما، ان تصدره الطيرة، لسد حاجة القضاء، ثم يصدرون الفائض الى مدن اخرى مثل يافا والناصره وبيروت. ثم يعوبون بارباح مجزية. وللبطيخ اشكال ومذاقات عرفها الطيراويون، منها المحيسني الاخضر الفاتح والمضلع، ثم البوطي الابيض تقريباً، وكلاهما ذو قشرة سميكة، ولكن بنكهة مفضلة. ثم القزاي السريع الكسر، ومن هنا جاءت التسمية. ومنه فصيلة مستطيلة الحجم هو الدحموس، وفي السنوات الاخيرة التي سبقت عام 1948 انتشر النوع الامريكي لنجاحه على الصعيد التجاري. كان التجار من خارج الطيرة بأتون الفلاح الطيراوي ويساومونه على ثمار مقتاته⁽¹⁾ قبل نضجها، فاذا باعهم اشترط عليهم بالرجعي⁽²⁾ ليطعم اطفاله الحروش⁽³⁾ وصنعت زوجته من رجعي البطيخ كبيساً⁽⁴⁾.

أما الخيار والفقوس⁽⁵⁾، والقرع الاخضر واليقطين الاحمر، فعلى الرغم من زراعتها على نطاق تجاري، إلا أنها ظلت دون البطيخ والشمام اهتماماً واكثراراً. واذا كان الخيار والفقوس يؤكلان كفاكهة طازجة إلا أنهما يتخذان كبيساً يضاف الى الموائد كمقبلات، اما اليقطين الاحمر فيصنع منه مربى فاخر، ويكثر تناوله في ايام الشتاء الباردة ليشيع في الجسم دفناً داخلياً. لكن الاخضر منه يؤكل محشياً ومشوياً يضاف اليه الثوم والتوابل، او يؤكل حيساً⁽⁶⁾.

ومن عادة الفلاح الطيراوي ان يستصفي لنفسه من كل ما يزرع اجود البذر للعام القادم، ويبيع منه ما يفيض.

(1) المتقأة: ارض زرعت بالقثائيات، وفيها يزرع الفلاح صنفاً رئيساً كالبطيخ ثم يزرع اصنافاً اخرى لسد حاجة اسرته، من قثائيات وغيرها كالذرة الصفراء وعباد الشمس والمكانس.

(2) هو الجيل الاخير من القثائيات ويكون صغير الحجم، مصطلح فلاحى.

(3) اوهو الحروش - ويقال له الجعابير او البعابير ايضاً.

(4) ومن اسمائها "الطرشة" والمخلل من إضافة الخل اليه.

(5) ومنهم من يطلق عليه اسم القثاء

(6) واللفظ الشائع حوس والصواب ما ذكرناه لانه يعني الخلط بالسمن وغيره.

ب- القرنيات:

من هذه الفصيلة البامياء والفاصولياء واللوبياء والبازيلاء، ويزرعها الطيراي على قلة، لسد حاجة البيت، وللبيع ماتبقى، ولا يخص بها حقلاً الا انه يضمها مقتاته يخص بها أهله وانه ليهتم بالبامياء لطول زمن عطائها وارتفاع سعرها النسبي.

حياة المقائي⁽¹⁾ بعض امتدادات الحياة الريفية، وهذا التعبير اكثر ما يكون صدقاً وجلاء في طييرة الكرمل، اذ يخرج الفلاح الى المقتاة ببعض بنيه، ان لم يستأجر لها ناطوراً⁽²⁾ متفرغاً على اجر معلوم، وينصب فيها الخصاص⁽³⁾ في موضع يشرف منه على سائرها. وينشر فيها الفزاعات⁽⁴⁾ باشكال مختلفة لاختافة بنات أوى والارانب البرية وحتى الحرامية في الليل. وبالفخاخ القوية يقضي على الخلد⁽⁵⁾ الذي يزحف تحت الارض ويأتي على الثمار، ويسارع الى رش الاوراق بالكبريت الاصفر كلما ظهرت عليها الطفيليات والحشرات القارضة التي تلتهم الاوراق و النور قبل انعقاد الثمر، ثم لا يغفل عن قلع الاعشاب الضارة كالنجيل والمدادة التي تنافس الزرع غذاءه وتضعف المحصول. هذا ولا يترك ثمرأ يتلف بعد نضجه ، بل يتصرف به اولاً بأول.

حياة المقائي متنفس النفس الحبيسة رهينة البيت في أيام الشتاء، اذ تجد فيها حررتها حين تخرج الى الشمس والهواء والسماء الصافية، والى رؤية الناس في الحقول كالفراش المبتوث. وعلى الرغم من قصر عمرها الا ان الناس يحيونها بأخلاقيات وأداب محببة؛ الناس في المقائي كرماء، يبذلون للضيف أنفس ما عندهم ونفوسهم عطشى للصدقات الجديدة؛ فقد يكون جارك في المقتاة رجل من حارة بعيدة قلما تلتقيه في غير ايام المقائي ، وقد يكون عربياً

(1) جمع مقتاة ومقتاة - بالهمز والتسهيل. والقثاء هو الخيار ونحوه واقتأ المكان: اذا كثر به. والقثا: أكل ماله صوت.

(2) حافظ البستان بوظيفة الحراسة والرش والتحويش ، الكلمة معربة.

(3) جمع خص : البيت من القصب، وقد يجعل من طابقين بقوائم خشبية من الخوص : الخلل والخرق في الباب. ومن اسمائه العرزال.

(4) من الفزع: وفزاعة الحقل من خشبتين علي شكل صليب وتموه بملابس.

(5) دابة عمياء تشبه الفأر وتعيش تحت الارض ، جمعها مناخذ ، أي من غير لفظها

وافداً من بلد بعيد . ويتهادى الاقرباء والاصدقاء،ومن لم يزرع في عامه مقثاة لا يرى نفسه من خيرات العام محروماً .

الناس في المقائي بأمانة وشهامة ، فاذا ما غاب ناطور بسبب ما قام جيرانه بأمر مقثاته خير قيام، وفيهم نخوة ومروعة اذا ما شبَّ حريق في حقل قمح او شعير ولو كان حصيذاً، طاروا اليه.

وليل المقائي يحلو فيه السمر ، حيث يجتمع النواطير المتجاورون هنا وهناك في خصاصهم بالتناوب ، ليقطعوا وحشة الليل باحاديث السرى ، وليصلوا انقطاعهم عن الناس باغاني العشق والغزل بالصوت الخفيض العذب الندي ، ويقوم الناطور المضيف بواجبات الضيافة فيشقق بطيخة او شمامة او يعد الشاي لضيوفه نزولاً عند رغبتهم ومطلبهم حين يرتفع التكليف من بينهم وتقع المحبة، وبين حين وحين يقوم واحد منهم بجولة تفقدية ، يدور فيها حول المقائي، وباحدى يديه صفيحه من تنك يقرعها بحجر او خشبة لطرده بنات اوى والارانب البرية التي تزحف الى المقائي تحت جنح الظلام ، او في الليالي القمرية لا فرق عندها في ذلك. وتراهم يعبون من ذلك الكأس الى وقت السحر ، لياؤوا كل إلى فراشه ، وغالبا ما يستيقظون على اشعة الشمس تتسلل اليهم عبر جفونهم؛ سلام عليكم في اليوم الجديد.

جوار المقائي يخلق صداقات، وصداقاته تنشى الفة ومحبة وتجعل من المتجاورين اسرة، فاذا ابطأ رسول البيت بزودة الناطور طعاماً جاهزاً، طبخ الناطور لنفسه ما اشتهى من بامية او لوبياء او فاصولياء او كوسا او قرع اخضر او بندورة يقلبها بالادم والبيض والبصل، وقد تخلو من التوابل احياناً، وربما دعا اليها جيرانه للمشاركة في الطبخ والنفخ والزاد، فاذا وضع القدر على النار⁽¹⁾ وشاطت⁽²⁾ الطبخة من كثرة الطباخين، التهمها الاكلة بنهم، وبالحب الذي يؤلف بين قلوبهم ، وبالجوع الذي هو امهر الطباخين . ثم يختمون غداءهم بما

(1) هي موقد الاثاقي- الحجارة الثلاثة قبل انتشار اليريموس .

(2) احترقت او تلفت.

تيسر من حلوى المقاشي حتى اذا ملأوا البطون حمدوا الله وقالوا⁽¹⁾ ثم ناموا فأغفوا ساعة من نهار.

مواسم الصيف كلها امتدادات لحياة الريف، بينما مواسم الخريف والشتاء فيها ضمور وانحسار، فبعد اعداد الارض وزراعتها، لا يخرج الفلاح اليها الا قليلاً؛ اما للتعشيب واما لتفقد المحصول في سلامته ونموه، حتى اذا اكتمل نضجه، أتى بالقلاعات⁽²⁾، لجمعه. وكان التركيز على الجذريات كالجزر والشمندر والكرنب واللفت والفجل، ثم على البصيليات من بصل وثوم، ونجحت زراعة البطاطا البلدية، وكانت بأجمعها تتصدر اولية التسويق في سوق الخضار في حيفا، والبندورة منها بخاصة اذ ينصرف اليها الدالون⁽³⁾ وتجار الجملة. وعلى الرغم من نجاح الفصيلة الورقية- الملفوف والملوخية والسبانخ والبقدونس والنعناع- فان زراعتها قد انحصرت في موقعي بير بديوية وبير بثينة، لحاجتها الى الماء الوفير، وقد المحنا الى شح المياه الجوفية، وانعدام المياه الجارية في الطيرة. وفي الموقعين المذكورين يخرج الماء بالسانية⁽⁴⁾ ونستثني البقدونس والنعناع اذ لم يزرعا الا للاستهلاك المحلي في مساكن⁽⁵⁾ صغيرة منزلية، ومن الزهريات نجحت زراعة القنبيط في الموقعين المذكورين، ولكن حظها في الانتشار ضئيل كحظ الفصيلة الورقية. وكان اعتماد الطيرة في تأمين هذه الفصائل مع الفليفلة والباذنجان

(1) من القيل : النوم تحت الظل عند الظهيرة.

(2) قلع الشئ : نزعه من أصله، وكان القلع بالايدي ، وينظف المحصول مما علق به من تراب قبل تصديره.

(3) جمع دلال: الجامع بين متبايعين بصوت عالٍ.

(4) ويسمونها في الطيرة " الحناتة " من الحنين : صوت الطرب في حزن وفرح، وهي بئر يخرج منها الماء بوساطة دابة مربوطة الى ذراع خشبية معلق بها دلوان اثنان، ويتولى تصريف الماء عامل مختص. وتشبه الناعورة في عملها ، غير ان الناعورة باذرع مثبتة على دولاب كبيرة تدور بقوة تيار النهر، كما هو الحال في نواعير حماة على نهر العاصي، واذرعها هي التي تحمل ما تغرف من مياه النهر وتصبها في قناة تصل البساتين .

(5) حقل صغير لا تتجاوز مساحته بضعة امتار.

على سوق حيفا، وعلى ما يردها مباشرة من صرفند⁽¹⁾ والطنطورة⁽²⁾ من الملوخية بالذات ، واما الباذنجان فمن مواقع فلسطينية اخرى مثل بتير⁽³⁾ .

الزراعة : خبرة وفن

كانت الطيرة في مسيرتها الزراعية تنشى لنفسها علماً في الزراعة غير مكتوب ، علماً قائماً على الخبرة المكتسبة والعمل الميداني، وقد اثراه الانسان فيها بذكائه ونشاطه، ومن حديثنا عن فلسفته الواقعية، نراه ينطلق في الزراعة بارادة واعية ، فلا قدسية للروتين عنده، وانما يصغي للأفكار الجديدة، ويسمح لها بالدخول في حياته لتتلاقح بما لديه من ارصدة ضخمة تشكلت عبر العصور التي واكبها ، وانه ليعمد الى المراجعة والتقييم في كل موسم بشمولية ، فيعطي ويأخذ ويطور في الالة والاسلوب ، ويستبدل في البذار وينوع.

وعلى الرغم من كل العوائق والمثبطات التي اعترضت سبيله، كان يحرز قسبة السبق على نظرائه، حتى على من جاؤوا يستعمرون الارض من بلاد بعيدة، وهم مزودون بالتكنولوجيا الحديثة والعلم والمال⁽⁴⁾ وكان لنتاجه اولية التسويق في حيفا ويافا والقدس وطبريا والناصره وبيروت.

علينا ان نسلم بأمرين هامين ضمن اسباب التفوق الزراعي في الطيرة، من جهة الارض: هما التربة والمناخ، ولغيرها من القرى مالها من تربة ومناخ. وعلينا ان نسلم بأمرين هامين من جهة الانسان يتمثلان في الاحتراف والتنافس الشريف.

(1) صرفند العمار: الي الجنوب من حيفا على بعد 25 كم، ارضها زراعية وتبلغ 5.409 دونمات، دمرها الصهاينة

، وهناك صرفند الخراب في قضاء الرملة، نكبت بالانتداب ، إذ دمرها بسبب مقتل جندي بريطاني .

(2) الى الجنوب من حيفا على بعد 30 كم، فيها خرائب وقلعة اثرية، اراضيها زراعية تبلغ 14.520 دونماً ،

ولها ميناء صغير ومن اهلها من يعمل بصيد السمك .

(3) من اعمال القدس، الى الجنوبي منها وعلى بعد 8 كم.

(4) اكد لي الثقات من اهل الطيرة حصول القرية على شهادة التقدير في المرتبة الاولى ، في المسابقة التي

اجرتها حكومة الانتداب بين مزارعي لواء الجليل سنة 1946 وقد فازت بها الطيرة كأفضل تجمع زراعي

بين عرب ويهود. وكانت لجنة التحكيم من رئيس محكمة حيفا السيد محمد البرادعي رئيساً، ومن

قاضي الصلح السيد احمد الخليل ورئيس بلدية حيفا اليهودي شبتاي ليفي عضوين.

اما التربة والمناخ فقد تحدثنا عنهما واما الاحتراف فان الطيرة قضت العمر قرية زراعية لم تقم فيها دولة ، ولم تكن في يوم من الايام قسبة مركزية لاقليم . بساحلها المستقيم لم يجعل منها ميناء بحرياً لينصرف اهلها الى الملاحة البحرية والتجارة والصناعة ، فلم يكن امام السكان غير التوجه الى الزراعة حرفة لمعاش . ومن خصائص الاحتراف ان يحصر المحترف اهتمامه في حرفته ، وان يظل معها على اتصال دائم؛ فيتابع اخبارها وتطورها والمستجدات على ساحتها لينمي مواهبه ويرفع من كفاءته ، واما التنافس الشريف فهو من خصائص الانسان دون غيره من الكائنات بوتتأتى من الفروق الفردية التي تجي بأناس مبدعين متفوقين بمكاسب مادية او معنوية ، فتغري نظراءهم بالمحاكاة وتحملهم على المحاولات واي ضربة حظ في محاولة ناجحة من شخص ، تلهب حماس الاخرين وتذكي قرائحهم للتطوير ، وهكذا دواليك .

ولقد قلنا ان فلاح الطيرة هو فلاح المواسم ، فلا بد انه يمارس التخطيط السنوي لعام زراعي كامل ، وانه يمارسه لمعاشه واجتماعه ومشاريعه الآنية والمستقبلية ، ويجدول الاديون للخلاص منها ، فكان يحتفظ بمفكرة الجيب الزراعية ، يقرأ ما عليها من ارشادات ، ويدون عليها المواعيد وكل ما له وما عليه ، ويؤرخ عليها كبريات الحوادث المحلية والقومية والعالمية ، ومن كان امياً اعتمد على الخبرة والذاكرة وتعاقب الفصول ، وعلى اخبار المجالس الخاصة والعامية وان التخطيط من شروط النجاح التي أخذ بها الفلاح الطيراوي وأفاد منها في احترافه ، قبل انتشار القراءة والكتابة .

قد يبدو اتباع الاسس العامة والاعمال الدورية التي تنظم العمل الزراعي ، ضرباً من الرتابة التي لا مجال للابداع فيها ، وهذا ما يبدو منسجماً مع التنظير ، لكن الممارسة واحتمالات الخطأ والتوفيق شيء آخر ، فاذا اضفنا اليها توالي انتصارات الفلاح الطيراوي ، حكمنا له بالابداع وان تصبح الزراعة علماً قائماً بذاته لا تتسع له المجلدات ، كما ان قيام المشاتل وحقول البحث الزراعي لخير دليل على وجود التقدم والابداع وسنة التطور في هذا المجال الحيوي الهام ، وفلاح الطيرة لم يسعفه الحظ في الكليات الزراعية ولا محطات البحث الزراعي ولا الدعم الحكومي ، جعل من خبرته ونشاطه وذكائه خير عون له في احراز التقدم المستمر .

ومن العلوم التي تحتسب له :-

اولاً: نظام المراوحة او الدورات الزراعية:

في هذا النظام تبدو فاعلية التخطيط السليم ، ويقوم على راحة الارض عاماً كل اربعة اعوام، حتى لا تنهك التربة وتفلس من الغذاء ويضعف المحصول. ويظهر النظام بوضوح عند من ملك اكثر من قطعة ارض ولنفترض رجلاً ملك اربع قطع من الارض، فانه يزرعها على النحو التالي:

رقم القطعة	السنة الاولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
١	قمح	بطاطا	قثائيات	قرنيات	-
٢	قثائيات	قمح	جزريات	-	قمح
٣	بطاطا	جزريات	-	قمح	قثائيات
٤	سمسم	-	قمح	قثائيات	ذرة

يظهر من الجدول المتقدم ان فلاحنا الطيراوي غالباً ما كان يترك الارض بوراً للراحة بعد زراعتها قرنيات او جزريات ، لان هاتين الفصيلتين اكثر الفصائل امتصاصاً للغذاء، وكأن الامر تعويض عن السماد الكيماوي المركز- وهو المعلوم من الاسواق، واذا وجد فهو بسعر مرتفع - الذي يعوض الارض ما تفقده بالزراعة من غذاء.

وبالمراوحة وترتيب الفصائل كان يراعي في محاصيل الدورة ان يكون بعضها مما يعزق، حتى تنهياً للارض فرصة مقاومة الحشائش والحشرات، وانه لا يجمع بين محاصيل تصيبها حشرات او امراض واحدة، او انه يجعلها متعاقبة في ارض واحدة عامين او اكثر.

ثانياً: نظام التسميد:

من صحيفة تجارب الفلاح الطيراوي غير المكتوبة ان التسميد لم يكن اعتباطاً ولا

عشوائياً، وانما يتبع فيه ما يلي :

1- تسميد التربة بمعدل 1.5-2 طن للدونم المربع الواحد.

2- نشر السماد فوق التربة بنسب وكميات متساوية في اواخر الصيف، ثم الحرث الاول⁽¹⁾ ويكون حراثة قلب، حتى ينزل السماد الى العمق المطلوب ثم تأتي حراثة الشق ليختلط السماد بالتراب ويتفتت.

3- تعريض السماد لاشعة الشمس والهواء لحكمة ادركها الفلاح، وتتمثل في قتل بعض الجراثيم الضارة، ولتخفيف حدة حرارة السماد نفسه حتى لا تموت بها الجنود الدقيقة للنبات، ولذلك بنوا ملاحظة صادقة، وهي ان الارض اكثر عطاء واجود انتاجاً في العام الثاني والثالث اللذين يعقبان عام التسميد، ويعلون ذلك بان السماد لم يبلغ مفعوله في عامه الاول.

4- يقدرون لزبل الغنم من 8-10 سنوات في الارض ولزبل البقر من 5-6 سنوات، ولزبل الخيل من 4-5 سنوات وذلك بحسب صلابة السماد وتماسكه ومكثته حتى يستنفذ مفعوله.

5- كان السماد يجمع في القرية اكواماً خارج الاحياء السكنية في مزابل مكشوفة ويعلمون ان ذلك يفقد السماد بعض قيمته الغذائية، ولكن بنسب ضئيلة، ورغم ذلك كان السماد يباع بسعر عالٍ لقيمته في عملية الزراعة.

ثالثاً: نظام الحراثة:

ذكرنا حراثة القلب، او هي السكة الاولى التي يمهدها الفلاح ارضه للزراعة الصيفية. واما زراعة الحبوب الشتوية فلا يحتاج الا لسكة واحدة يصحبها البذر. وفي زراعة الخضروات الصيفية يقرر الفلاح مسبقاً عدد مرات الحراثة، ونوع العود⁽²⁾ وعدد السك وعمق نزولها في التراب، ونوع الدواب⁽³⁾ وعددها، مراعيّاً مراحل العملية الزراعية ونمو النباتات، وفي كل ذلك يتفق التقدير والحساب والاداء. وبعد حراثة القلب تأتي حراثة الشق اثلاماً ومعاني⁽⁴⁾، وهي

(1) يعبرون عنها بالسكة الاولى، وحراثة الشق هي الثانية.

(2) إما من الخشب لسكة واحدة، واما من الحديد بسكة او سكتين ويسمونه البلق. يضم الباء وتضعيف اللام

(3) استخدم الطيرايون الثيران والخيل والبغال. واستخدم الحمار علي قلة، وفي الحالات الطارئة غالباً.

(4) جمع معناة: من العون، وهي المساحة التي لا تزرع كفاصل بين المساحات المزروعة تسهيلاً للمرور والتحويش.

التي يعقبا الزرع مباشرة وينتظر اياماً حتى ينجم الزرع ليقوم بعملية التتبع⁽¹⁾. ولا يكف عن مراقبة النمو الى القدر الذي يؤدي فيه عملية الحراثة على البيت⁽²⁾، والتفريد⁽³⁾. وكل فلاح يضع في حساباته احتمالات غرق المزروعات، وهي في الاسابيع الاولى من عمرها بالمطر الغزير ينزل في اواخر اذار واول نيسان احياناً. وفي هذه الحالة يعالج الكارثة بعملية زرع جديدة، وكأنها الخطة المرنة التي ترصد الاحتمالات والمعوقات والبدائل في حراثة القلب يتعقب الفلاح الاعشاب الضارة لاستئصالها كالنجيل والمدادة والعاقول، ولا يطمئن الى بلوغ الهدف الا اذا نزلت السكة في التربة نصف متر عمقاً، ولهذه الغاية وللسرعة معاً ابتكر نظام "البسك"⁽⁴⁾ وفيه يستخدم عدداً من الخيول قد تصل الى سبعة تجر محراثاً حديدياً بسكتين اثنتين، وفي هذه الحراثة تقلب التربة بطناً لظهر، ويكون التراب كتلاً كبيرة تتفتت بالمطر والحراثة اللاحقة.

وفي حراثة الشق يستخدم الحصان لسرعته ووفرة نشاطه على الرغم مما يتصف به من الحران والجموح، اما الثيران⁽⁵⁾ فهي المفضلة في زراعة الحبوب، اذا زرعت عفيراً⁽⁶⁾ لهدونها وطواعيتها، ويحرص الحراثون على تكافؤ الثورين في القوة، لنلا يحدث اعوجاج في الاثلام، والا انطبق المثل القائل: الثم الاعوج من الثور الكبير، ذلك ان الزراعة فن يدخله عنصر الجمال الهندسي في تنسيق الاثلام، ليضمن فيها الجمال الظاهري الى الجمال الباطني في جودة الانتاج وسلامته. ويجمع الثورين ويضبط سيرهما عمود خشبي املس مناسب في طوله

(1) عملية زرع جديدة في الجود (جمع جورة) التي لم يتم زرعها اي بدل النبتة الميتة.

(2) وفيها يضم التراب الي سوق النبتة حتى لا تنقص بفعل الريح.

(3) قلع النبت الضعيف والابقاء على اقوى نبتة او نبتتين.

(4) وصواب المصطلح "البشك" ومن معانيه السوق السريع وخفة نقل القوائم وان يرفع الفرس حوافره من الارض ولا تنبسط يداه.

(5) في الريف الفلسطيني يطلقون على ثيران الحراثة اسم العمالات (جمع عمال) صيغة المبالغة من "العمل" واللفظ تمييز لها عن التي تقتنى للحومها. والقياس اللغوي لجمع عمال: عوامل.

(6) العفر: بتسكين الفاء وفتحها: ظاهر التراب. عفر: مرغ، وسميت الزراعة التي تسبق نزول المطر الوسمي عفيراً، لان الرياح تعفر ظاهر التراب بالحراثة.

وسمكه، يسمى النير⁽¹⁾ الذي يوضع على رقبتيهما، والنير يوصل بناطح⁽²⁾ العود الذي يفصل بين الثورين بوساطة الشرعة⁽³⁾. اما الحصان فيشد الى العود بماسورتين واقشطة جلدية، او بجنازير حديدية خفيفة تثبت بالكدانه⁽⁴⁾ التي توضع في رقبته، وهي ذات حلقتين على جانبيها. والحراث يستحث الثور على السير اذا تلكأ بأداة اسمها المنساس⁽⁵⁾ وهي عصا خشبية مستقيمة، ينتهي احد طرفيها بمسمار لوخز الدابة، وينتهي الطرف الثاني بفرضة حديدية مثلثة الشكل تشبه قطاعة⁽⁶⁾ الحلواني، يزيل بها ما يتراكم على السكة من تراب يحول لونها في التربة الى العمق المطلوب. اما الحصان فيستحث بالرياح الذي يضم باليدين الى مقبض المحراث ويستخدم في تغيير وجهة السير ايضاً. ويعرض الفلاح سكته على الحداد كلما تاكل رأسها المدبب، ليعالجها بالنار والطرق والسقي.

ومن الجدير ذكره ان الفلاح الفلسطيني بعد ان رأى نفسه وحيداً اعزل في مواجهة الانتداب الغازي والاطماع الصهيونية الخبيثة، قرر في طيرة الكرمل فيما قرر التمسك بالارض بمضاعفة جهده ورفع كفاءته في استثماره ارضه وزيادة انتاجها، فاستغل خبرته في تقلبات المناخ الدورية واعداد التربة بالحراثة والتسميد وطرائق البذر العشوائي والاسقراط باليد

(1) التعبير اللادع : نير الاستعمار، كناية عن قسوة المستعمر في ادارة البلاد المستعمره وسياسته القمعية لشعبها.

(2) هو الجزء الخارج من السكة باندفاع الى الامام نحو الاعلى ليربط بالنير

(3) الشرعة: حبل مجدول من جلد اوقنب . من الشرع: الوتر من جلد، ومنه شراك النعل . وشرع الحبل أنشطه (جعله انشوطه) وادخل قطريه في العروة.

(4) طوق من جلد مخيط محشو بالقش، والكدن : التنطق بالثوب والشد به. والكدان(بتخفيف الدال المعجمة): شعبة من الحبل تفضل من العقد.

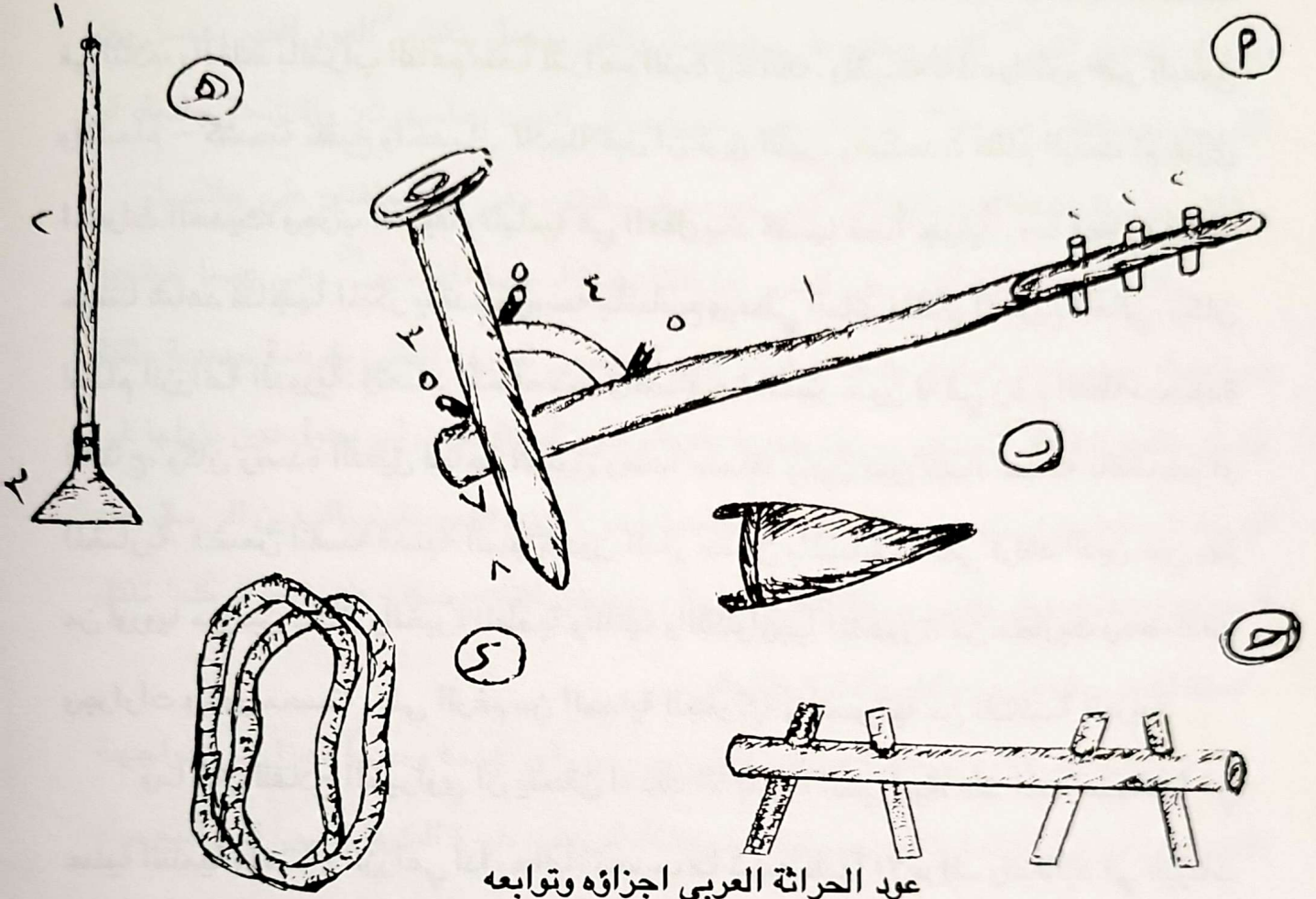
(5) النس : السوق والزجر، ولزوم المضاء في كل امر، وسرعة الذهاب والمنسة والمنساس: آلة النس.

(6) المشحاف ايضاً بلغة الدهانين.

في اثلام، والخلط بالتراب الناعم منعاً لتزاحم النبت وتكاثفه، ونقيعه بالماء والثوم-بذر البطيخ والشمام - كشحنة تلقيح واخصاب للجنة قبل ان ترى النور، واستحدث نظام البسك ثم شرى المحراث الحديث، وجرب استبقاء البامية في الحقل بعد قصها قصاً جزئياً . وما اعظم دهشته حينما شاهد نتاجها المبكر يتقدم موسمه بأسابيع ويعطي العائد المادي السريع العالي. وكان لنظام الزراعة الدورية، وتعدد المحاصيل وأصنافها اكبر عون له في زخم العطاء وجودة الانتاج، وكان رصده الدقيق لحاجة السوق رصداً مسبقاً يحول دون كساد سلعته بالتضخم او المضاربة، فضمن لنفسه قسبة السبق، دون انذار مسبق بالمسابقة ، على اولئك الذين جي بهم من اوروا مزودين بالمال والخبرة العلمية والفنية والتكنولوجيا المتطورة، من محارث وحصادات وجرارات وبنور محسنة وعلى الرغم من الحماية الجمركية والتسويقية من المنافسة العربية.

وما كان للفلاح الطيراوي ان يتحقق له ذلك الا بالمرأة الطيراوية، فقد ادت اسهامها في عملية التنمية والانتاج الزراعي اداءً عالياً، بحسب ما تمليه عليها الاعراف والتقاليد في البيئات الزراعية العربية، فتؤدي بين ما تؤديه من اعمال زراعية متوائمة مع فطرتها الانثوية، الى جانب وظيفتها الاساسية كسيدة بيتها الاولى، مثل حلب الماشية المنزلية، واعداد الزاد للعاملين في الحقل والمرعى ، والمشاركة الفاعلة في الزراعة والتبعية والتفريد والتعشيب والتغمير والتحويش ، وكلها اعمال لا تتطلب جهداً عضلياً ، ولكنها توفر على الرجل الوقت الذي يتفرغ فيه للاعمال الضخمة الباقية.

ان تاريخ القرية الفلسطينية الصامت انما هو تاريخ رجل وامرأة كلاهما عامل منتج، كل في حقل تخصصه وميوله، وفي طيرة الكرمل هذا مثاله:



عود الحراثة العربي اجزائه وتوابعه

أ - العود :

- 1- الناطح، الذي يمتد بين الثورين، ويثبت بالنير، وبه يتم السحب .
- 2- الزغاليل، ج زغلول، عددها ثلاثة، لاطالة الناطح وتقصيره.
- 3- الذکر، الجزء الرأسي، يقع عليه ضغط الحراث، ويثبت به الناطح.
- 4- البرك : قطعة قوسية الشكل لتثبيت الناطح بالذکر.
- 5- البلعات، جمع بلعة، وهي اسفين تمكين التثبيت. وعددها ثلاث.
- 6- الكابوسة، التي يمسك بها الحراث، ويضغط عليها بيده.
- 7- الوصلة، قطعة صغيرة من الذکر تسبق اللسان.
- 8- اللسان، يثبت السكة المعدنية حشواً.

ب- السكة المعدنية

- ج- النير: القطعه التي توضع على رقبتى الثورين.
- د- الشرعة: حبل مجدول على طوقين لربط النير بالناطح.
- هـ- المنساس : وأجزائه

- 1- ابرة النخز 2- العصا أو القضيب 3- العبرة.

ثالثاً: النباتات البرية

الحديث عن النباتات البرية في الريف جزء لا يتجزأ من الحياة النباتية الزراعية، نظراً لإسهامها المباشر في الأمن الغذائي والاقتصاد القومي ، مع فارق كون الاولى زراعة عملية بالجهد البشري ، وكون الثانية زراعة هبة من السماء ، تأتي الرياح اللواقح بينورها ، ثم تنبت بعلا بماء المطر ، ثم تنمو بالندى الكثيف وضوء الشمس ، ولذلك انحصر موسمها في اواخر ايام الشتاء الى اواخر ايام الربيع . ولا ننسى أن صيدلية الطب الشعبي ومحلات العطارين في الحواضر ، ممتلئة بقائمة لاحصر لها من الازهار والورود والاعشاب والنباتات معظمها بري يؤتى به من السهل والجبل والصحراء ، فهي تسهم اسهاما محمودا لدى الكثيرين في صناعة العطور والعلاجات الدوائية ، بل ان بعض النباتات قد ثبتت فاعليتها العلاجية كزهرة البابونج والميرمية ، فزرعها المختصون وبعض الناس في حقول خاصة لغايات التجارة الدوائية ، ومنها ما ثبت انه غذاء مفضل، فاصبح تجارة ضمن السلع الغذائية وحفلت به الموائد في معظم البلدان ، مثل الفطر "المشروم" الذي يباع في المحلات التجارية .

وارض الطيرة من سهل وجبل من اغنى بقاع الارض المقدسة ، بتلك النباتات ، وهي من الأهمية بحيث يطلبها الناس في مواسمها ، وتخرج النسوة لجلبها في شكل مجموعات يقال لهن البقالات . فيجلبنها من مواقعها المتناثرة في ارجاء الارض الطيراوية ، فبعض تلك النباتات ينحصر وجوده في اماكن محدودة ومعلومة ، مثل اللسينة او لسان الجدي⁽¹⁾ والشומר⁽²⁾ في مواقع وادي فلاح ومسكّر بابيه ووشاح، ومثل الفطر⁽³⁾ الذي ينبت تحت اشجار الصنوبر

(1) تشبه اللسان شكلا ، وتؤكل لفاً بالارز ونحوه ، وهي ادسم ما تكون حين تطبخ معها "الفوارغ" - الأمعاء

الغليظة - او نثر بينها اللحم وقطع الدجاج

(2) نبات خيمي كالبقدونس وورق الجزر لذيذ الطعم نيناً ، يدخل في صناعة بعض الادوية المضادة للسعال
بخاصة

(3) ورد ذكره على ص 23، وهو غير المشروم واكبر منه حجما والذ طعماً ثمرته دائرية الشكل بلون الخضاب

المنتشرة فوق جبال الكرمل والعكوب⁽¹⁾ الذي ينتشر على قلة في مواقع السهل الجنوبية في بير بديوية وما حوله. وهناك نباتات ورقية تنبت في منطقة الحواكير المنتشرة في المواقع التي تلي منازل القرية غرباً، وفي مواقع سهلية أخرى مثل السلق والحميض⁽²⁾ واللوف⁽³⁾ والجعدة⁽⁴⁾ والقرصعنة. وثمة نباتات ورقية أخرى نالت شهرة وانتشاراً واسعاً، ويكثر انتشارها في كل مواقع السهل، حتى على البيادر، مثل الخبيزقوالعلت.

واشهر النباتات الورقية وأكثرها رواجاً في الاسواق نبتة الزعتر، وتنتشر على سفوح الكرمل في شكلين، بورقة عريضة وهو البلدي المفضل في صناعة الدقة وآخر بورقة رفيعة يسمونه الزعتر الفارسي تميزاً له عن البلدي والدقة⁽⁵⁾ تمتلئ بها الدكاكين الشعبية والمحلات الكبيرة في المدن، وكلا الشكلين يدخلان الصيدلية الشعبية كعلاج في بعض الامراض الباطنية، ثم نبتة الميرمية التي توصف للمغص وانتفاخات البطن، وكثير الاقبال عليها، حتى صارت تضاف الى الشاي لنكهتها وقيمتها الطبية، وصار لا يستغني عنها من اعتاد شربها من الناس. واما نبتة حصا البان، القريبة من الزعتر الفارسي في شكل ورقته، فقد زاد الاهتمام بها كبعض نباتات الزينة لداخل بعض المؤسسات العامة، ثم زرعت في الحدائق المنزلية، بعد ان كانت برية محضة، ويوصف نقيعها المغلي علاجاً نافعا في تصلب الشرايين.

وكل الذي تقدم ذكره من نباتات برية، كان الطيراويون يطلبونه غذاء لهم، تراه على موائدهم، دون ان ترى له عرضاً في اسواقهم، فقد كانوا يجلبونه للاستهلاك الفوري، وعلى قدر الحاجة، دون زيادة للاغراض التجارية، كما نشهدا اليوم في اسواق الخضار في المدن، يقبل عليها الناس في مختلف طبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، وكل من هذه النباتات نوقمة غذائية مركبة لا بأس بها، لانها تحوي المعادن والفيتامينات، وتقل فيها المواد النشوية.

(1) نبات شائك، ويقال لثمره الناضج بيض العكوب، والافهوسمالبخ العكوب، ويؤكل، امشاطا مقلية حيساً ومطبوخا باللبن يضاف الى الارز.

(2) السلق والحميض يجعلان حشوة اقراص، ومن الناس من يعاملها كورق العنب.

(3) ورقته مستطيله، تؤكل حيساً، وذو حرقة لاذعة خفيفة محببة يخفف الزيت من حدتها.

(4) نبات كاللوف، لكن ورقته دائرية مشرشرة، يؤكل حيساً طازجاً او مجففاً.

(5) هي الزعتر الجاهز للاستعمال.

والاكثار منها مفيد في تخفيف الوزن.

وهناك فصائل نباتات برية اخرى؛ سوقية ودرنية وزهرية وقرنية، قلما يحفل الناس بها. ومن الفصيلة السوقية السناريا⁽¹⁾ والبسباس⁽²⁾ ولسان العصفورة⁽³⁾ والهليون البري الذي يؤكل نيئاً ومقلياً، وهذه الفصيلة لا يؤكل منها الا سوقها بعد ان تجرد عنها اوراقها. ومن هذه الفصيلة ما لا يؤكل كالشوكيات ونبته القديرة⁽⁴⁾ التي تتخذ سيقانها مكانس ناعمة لنفض الغبار. واما الفصيلة الدرنية فمنها صابونة الراعي⁽⁵⁾ وسكرة العجوز⁽⁶⁾ وتفاح الجان⁽⁷⁾ وتكثر في منطقة الحواكير، ومن الفصيلة الزهرية نبتة البابونج ذات القيمة الطبية العالية. والدرهمة⁽⁸⁾ وكعب الغزال التي تؤكل زهرتها على الفور. اما القرنية مثل الصنبيعة⁽⁹⁾ والقرينة⁽¹⁰⁾ والعوينة⁽¹¹⁾ والحبلق فكان انتشارها في السهل وعلى سفوح الكرمل، الا الحبلق فقد كان على التلال الجنوبية او قريباً منها.

وهذه الفصائل قلما يحفل الناس بها، ولا يخرجون في طلبها الا ما جاء اتفاقاً عندما يخرجون في طلب الفصيلة الورقية، لكن القرنيات هي المحببة لدى الصبية، يخرجون في طلبها ضمن جولاتهم ونزهاتهم الربيعية ويأكلونها طازجة على الفور.

(1) نبات شائك يؤكل طرياً، واذا ترك رعته الابل.

(2) نبات خيمي، ينتهي بزهرة وريقاتها بيضاء صغيرة.

(3) اخذت اسمها من طبيعة شكلها، على شكل لسان مدبب، رقيقة القصب.

(4) ينتهي سوقها بسنبلة وهمية طويلة اي لا حب فيها.

(5) نبتة ورقية درنية، تسمى الزعوط ايضاً، يطبخ ورقها كورق العنب، واما الدرنة فتقشر، وتغسل بها الايدي، ويكون لها رغوة خفيفة كالصابون.

(6) درنتها في مثل حبة البندق او اكبر قليلاً، ذات طعم حلو مميز، وتدل عليها وريقاتها المستطيلة اذا نبتت بين السلاسل الحجرية في منطقة الحواكير.

(7) ثمرتها تشبه ثمرة الخوخ الاصفر، يؤكل لبها ويلفظ بذرها، ولتسميتها اسطورة تقول ان اكل البذر يصاب بالجنون ولو بعد حين.

(8) نبتة سوقية تنتهي بزهرة ذات لوائر ملونه بنقط بيضاء هي حبيباتها الصغيرة.

(9) هي الجلتون كما تسمى في بعض البيئات.

(10) قرنها املس قرسي على شكل هلال. ذات نكهة ممتازة.

(11) ثمرتها حلوة بعض الشيء، ويؤكل سوقها وورقها ونورها الزهري طازجة.

هذا ، لم يخطر على بال أحد قط ان يتجر بأي من هذه الفصائل على الرغم من وفرتها وجودتها.

وهناك انواع من نباتات واعشاب ضارة معروفة لدى الفلاح وتأخذ قدراً كبيراً من جهده ووقته وماله، كالنجيل والمدادة وغيرها⁽¹⁾ لأنها تهدد المحاصيل وحياة المزروعات، نراه ينظر اليها عدواً طبيعياً ضارياً، يتحداه دورياً بعناد، يقف في وجه طموحاته في العيش والتفوق والابداع، ولذلك يتوجه اليها لاستئصالها بحراثة القلب والقلع والنكش والتعشيب والمراقبة المستمرة.

ومن غير ما ذكرنا " خصوة الثعلب"⁽²⁾ وثمره هذه النبتة توصف علاجاً مضموناً ضد اليرقان دون اي اثار جانبية اومضاعفات سلبية، وذلك بضخ سائلها⁽³⁾ في أنف المصاب، ثم يترك ورأسه بانحناء الى الامام مدة عشرين دقيقة تقريباً، ليخرج من خياشيمه سائل اصفر، هو المرض نفسه واعراضه الظاهرة، ثم ينقطع السيالان تلقائياً، ثم يسترد المصاب عافيته ولونه الطبيعي شيئاً فشيئاً بعد ايام قلائل، ولا بد له من الراحة والاستجمام اياماً اخرى للنقاها التامة واستئناف نشاطاته الاعتيادية، وتكثر هذه النبتة في مواقع السهل المختلفة.

وثمة نبتة اخرى يسمونها " الكركمة" وهي ذات سوق متفرعة قصيرة، تنتهي بسنبلة وهمية ابرية، تستخدم كعلاج فوري من الاحتقان وهيجان الدم تفادياً من ضربة الشمس، وذلك بادخالها الى الانف ووخزه من الداخل بابرها، فيسيل الدم رعافاً قسرياً.

ومن نوات السوق نبتة القريص، ويكثر وجودها في الاماكن الداخلية المهجورة وفيما يلي المنازل مباشرة. ويتحاشى الناس لمس هذه النبتة، لأنها ان لامست الجلد اصيب موضع اللمس بحكة فورية مزعجة.

وهناك ضروب من فصيلة الفطر كريهة الطعم كريهة الرائحة، وربما لا رائحة لها، تعافها النفس البشرية، وحتى البهائم تعزف عنها ولا تقربها، ومنها زلطومومة العجل اوفسو الكلاب، وكلتاها تشبه كمأة الصحراء ولكن اصغر منها حجماً.

ومن النباتات البصلية البرية التي تكثر بين المقابر نبتة الخوصلان، وهي ذات اوراق طويلة عريضة سميكة اطول النباتات البرية الورقية عمراً.

(1) منها العاقول وابو رويس والدحيرجة.

(2) مستطيلة مهضومة الوسط طولياً وتسمى " اذن الحمار".

(3) بالضغط عليها وفتحها من ناحية عنقها على فتحة الانف.

رابعاً: الورود

عرف الطيراويون معظم الورود والازهار والرياحين الشائعة في الوطن الفلسطيني، ماكان منها برياً، هبة من الله تعالى، تزين به الارض في ايام الربيع ، فتبدو ضاحكة في مكان بازاء سجادة مزركشة في نفس المكان. فما اكثر الاقحوان الابيض الذي تتخذه البنات الصغار تاجاً على رؤوسهن او اكليل زفاف في العابهن. وما اكثر الاقحوان الاصفر الذي يجعلون منه قلائد زينة لاعناق الصغيرات وصدروهن، وبالاقحوان الاصفر يصبغ الناس البيض المسلوق ابتهاجاً بخميس الاموات⁽¹⁾ كما جرت عليه العادة الشعبية وبوريقات الاقحوان، كان الصبية يلعبون لعبة الحظ او التنبؤ بالمستقبل "سبع ضبع" او "ولد بنت" او "ناجح راسب" حيث يقوم احد اللاعبين بنتف الوريقات ورقة ورقة مبتدئاً بذكر ما يختاره الاخر لنفسه، وكل يتمنى ان يكون صاحب الحظ السعيد، وهذه اللعبة لا تتطلب مهارة، ولا تعني خاتمها شيئاً، لكنها تملأ فراغاً، وتجلب متعة.

ومن الورود البرية ذات اللون المثير، وردة الدحنون بلون الدم الاحمر القاني، قد كثر وجودها مع الاقحوان في كل المواقع وعلى جوانب الطرق الزراعية، واما نبتة الدفلى الغضة بسيقانها، والنضرة باوراقها، والباسمة بلون وردتها الزهري ، فقد نزلت الاودية، حيث تصمد الازاهير ذات الجذور الشعرية، امام سيل الامطار الجارفة.

اما ورود الزينة المنزلية، فهي من اختصاص المرأة، وفيها يظهر علو كعب المرأة الطيراوية في فن الزراعة والتصنيف والتنسيق، حيث تتقدم في هذا المجال، وهي كسائر جنسها، تملك احساساً دفيناً بحكم فطرتها، انها تدخل مسابقة فنية، فتبذل قصارى جهدها

(1) او خميس الاسرار عند بعض الطوائف، وهو الخميس الثالث من شهر نيسان، وقد جرت العادة فيه ان تخرج النساء لزيارة القبور.

في استحضار الالوان النادرة والرائح العطرية النافذة، ولا تغفل عن سقي وتسميد مناسب، وحماية من عبث الاطفال، وتعنى بالمزهريات والاصص وتوزعها على المداخل والشرفات، وتتحدث مع صويحباتها بلهفة عما رأت من صنوف وما سمعت من اسماء ثم تعتذر لهن عن قصورها في بلوغ طموحاتها غير المحودة، ومهما بذلت من تواضع، وشى حسن المنظر بما تنطوي عليه هذه المرأة من رهاقة حس وسلامة نوق.

واليك قائمة بما شاع ذكره وكثرت رؤيته في البيوت الطيراوية، زعيمان، بعيثران⁽¹⁾ الحبق او الريحان، والخبيزة، والساعة، وزهرة الحناء، السوسن والعطره "شيبة ابي بكر" والسجادة والفل والقرنفل والمنثور والنرجس، والورد الجوري بمختلف الوانه والياسمين البري او البلدي والعراقي والعنبر.

(1) وفصيح اللفظ عبيثران وعبوثران.

ب: الحياة الاقتصادية

1- بؤرة حضارية

إذا تجاوزنا تاريخ الحياة على الأرض ومراحل تطورها، الذي يقاس بملايين السنين، إلى الإنسان العاقل⁽¹⁾ الذي تنتمي إليه السلالات البشرية الحالية صانعة الحضارة وحاملتها، رأينا بدايات حضارتنا، كما يراها الدارسون، قد خط الإنسان الزراعي سطورها الأولى. فمنذ بدأ الإنسان نشاطه في اعداد الأرض بالعصا والفأس الحجرية، وبمراقبة المزروعات واقتلاع الاعشاب الضارة، فإنه بحسب تعبير الدراسين " كان يصنع الثورة الانتاجية الأولى"⁽¹⁾. ونحن على اتفاق مع الاستنتاج المنطقي الذي يرى بان استئناس الحيوان يتبع قيام الزراعة بالضرورة، ان لم يكن مصاحباً لها باعمال الحراثة والنقل. " ومن الثابت ان الكلب كان اول حيوان استأنسه الانسان، وكان ذلك في العصر الحجري الاوسط⁽²⁾ لغايات الصيد والحراسة.

والدراسات الاركيولوجية⁽³⁾ تؤكد وجود الانسان في فلسطين منذ اربعين الف سنة فقد عثر في جبل الكرمل في كهفي طابون وسخول⁽⁴⁾ على عدة بقايا عظمية⁽⁵⁾، تعود الي تلك الحقبة من الزمن، ومن المسلم به ان الحضارة تتبع نشأة التجمعات السكانية، مهما كانت بدائية.

وباعترافات الدراسين. فان الشيء الذي تستطيع ان تؤكدوه هو ان الانسان استطاع في

(1) الانسان دراسة في النوع والحضارة. محمد رياض ط، 1974 ص 428.

(2) المصدر السابق ص 457.

(3) الدراسة الاثرية للمخلفات الحضارية القديمة. والمصطلح اغريقي.

(4) ما في كهف طابون يعود الى 40.000 سنة وما في كهف سخول يعود الى 35.000 سنة، ويقعان في سفوح

الكرمل المطل على البحر المتوسط من اراضي الطيرة حيث الكهوف كثيرة وعظيمة الاتساع.

(5) الانسان دراسة في النوع والحضارة ص 107.

العصر الحجري الحديث ان يعرف استئناس الحيوان، في منطقة ما، لعلها الشرق الاوسط، ولم يحل منتصف الالف الثالثة (2500 ق.م) حتى كان الانسان في مناطق العالم يعرف استئناس الكلب والقط والدواجن ... (1).

وذكر الشرق الاوسط والكرمل، يحملنا على الاعتقاد الجازم بأن فلسطين كلها كانت بؤرة حضارية متقدمة في تاريخ البشرية، في مجالات الحياة الرئيسة؛ الزراعية والحيوانية والصناعية والفكر، وانها شهدت فجر الثورة الزراعية كأول فتح حضاري للانسان، بحكم موقعها ضمن المثلث الكبير؛ القوقاز والهند ومصر.

ولنا أن نتصور طول الحقبة الزمنية، التي اعقبت استئناس الحيوان، والانسان يصطفي لنفسه منها ما يناسب طبيعة بيئته ومناخها، ويقضي على اعدائه واعدائها من الحيوانات المفترسة، حتى سلمت له قطعانه وكثرت، والى ان غدت مع الايام ركيزة من ركائز الاقتصاد العالمي، كما نشهده حالياً وانها لتتنوع اصنافاً تبعاً لتقسيمات الاقاليم بحسب خطوط العرض، وهي اقاليم قطبية ومدارية واستوائية. حظيت الصحارى في العالم القديم بالجمال حيواناً يتوأم مع حرها وجفافها ورمالها.

وامامنا نصوص من الدراسات الاثرية، نتحدث عن الحضارة الناطوفية في سفوح الكرمل بفلسطين على وجه خاص، تعود الى ثمانية الاف سنة قبل الميلاد (2) ولا ريب في انها تتحدث عن انسان الكهوف الكثيرة عظيمة الاتساع، والتي تنتشر في المواقع الجبلية للطيرة، لعلها هي التي هجرها الانسان واخلاها ماشيته، ليقيم غير بعيد منها، في بيوت الطين التي اقامها قريبة من حقوله الزراعية المتنامية، وأبناء الطيرة الاولون، بالاعتبارات المذكورة، هم من صناع الحضارة الانسانية وروادها الاوائل، تماماً كأبناء اي قرية عربية فلسطينية، تعود في نشأتها الى تلك العصور السحيقة.

ولما كانت فلسطين تقع في المنطقة المعتدلة الشمالية من الكرة الارضية، فمن البدايات ان تعيش فيها حيوانات الاقاليم المعتدلة وطيورها وحشراتنا بصورة رئيسة، وعلينا ان ندون

(1) المصدر السابق ص460.

(2) الانسان : دراسة في النوع والحضارة ص433.

الملاحظة التالية:

ليس في فلسطين مناطق رعوية تؤهلها للانتاج الحيواني تجارياً قادراً على المنافسة في سوق التجارة الدولية، وتبعاً لضيق الارض الزراعية، فقد اتسمت تربية الحيوان فيها بالمحدودية، للضرورة العملية والاكتفاء الذاتي في الاستهلاك الحيواني المحلي، حتى ان صحراء النقب وبئر السبع ، فانها للبدو وابلهم على قدر الحاجة.

هذا، وتتعرض تربية الماشية في شمال فلسطين بعامة، وفي جبال الكرمل منها بخاصة لتقنين تفرضه طبيعة الجبال الوعرة، والبيئة الزراعية في السهل الضيق، بحيث ينحصر الحديث عنها، في الماعز والضأن والبقر والخيول والحمير، ثم الابل على قلتها.

2- الانعام

لم يستغن فلاح الامس عن بقرة يحلبها معظم ايام السنة، ولا عن زوج، على الاقل، من الثيران للحراثة، ولا عن بهيمة تحمله وتحمل اثقاله ومتاعه ونتاج محاصيله الزراعية والحيوانية. اما الحليب فلنفسه وعياله وللحامل والرضيع والفتيم، وللبيع ما زاد منه، ويتناولونه شراباً سائغاً سخيناً صرفاً او ممزوجاً بالشاي والقهوة والكاكاو، او فتة بالخبز او القرشلة⁽¹⁾ او مطبوخاً بالارز⁽²⁾ بحتة او سحباً محلى بالسكر، او يحول لبناً رائباً للاكل طازجاً او مطبوخاً اكلات مختلفة، وان كان لبن الشياه⁽²⁾ هو المفضل عليه احياناً، الا انه هو المتوفر في السوق دائماً، وعندما يشح لبن الشياه او ينقطع شتاءً، وقلما اتخذوا من حليب البقر جبناً الا ان زيده وسمنته هي المفضلة بجودتها، فتراهم يحمدون السمنة البقرية، وفي الحقيقة انه لا يذهب من الانعام شئ سدى، جلودها وعظامها وقرونها واضلاعها ورؤوسها، بكل ينتفع الانسان وانتفع به فلاح الطيرة، ولهذه الفوائد مجتمعة مع النسل ايضاً، يحتفظ بالمواليد بمقدار الحاجة، من ذكورها واناثها، وللبيع ما زاد منها.

وبهيمة النقل لدى الفلاح غالباً ما تكون من الحمير او البغال في المرتبة الثالثة. اما

(1) نوع من الكعك يحضر بقوالب خاصة، يكون صلباً ويظل هشاً.

(2) جمع شاة: الواحدة من الغنم للذكر والانثى. من الضأن والماعز.

الخيل فللحرثة اكثر ماتقتنى ولدراسة المحاصيل الزراعية اما الجمل فلنقل الغلال بصفة عامة، وللحبوب بخاصة، وكان وجودها هو الاخير في قائمة الانعام في الريف الزراعي من حيث الكثرة. وضيق الارض الزراعية والرعية كان يشكل عبئاً في تأمين الغذاء للماشية التي تتطلب منه كميات كبيرة، تبناً وعلفاً، من الشعير والكرسنة والجلبانة، مما يشكل عامل ضغط على تربية الانعام، مع عامل ضاغط آخر يتمثل في جهالة السياسة الاقتصادية في ايام العهد العثماني، ثم في جنوح الاتراك الى التعسف والاضطهاد في اواخر ايامهم، ثم جاء الانتداب اشد ظلماً واعتسافاً، وفي الوقت الذي شهد فيه الغرب ثورة صناعية شاملة، كان شرقنا العربي في صراع مع اسباب الضعف والتخلف والتمزق، فحرم فلاحنا من الدعم الحكومي الذي يفتح امامه افاق التقنية التي تمكن عاملاً او عاملين من ادارة مزرعة باعداد من الماشية كبيرة، كما لم يضمن لانتاجه التسويق المنظم، فشغل بمصيبته المثلثة عن النمو الطبيعي والابداع، وبذلك لم تستغل الانعام في فلسطين لاغراض تجارية. ولكن تربيتها بما كانت عليه بالحجم والكيفية، تعد ركيزة هامة في بناء الهيكل الاقتصادي وسلامته، اذ تؤمن الاكتفاء الذاتي.

ومن وسط الظلمات الكثيفة، ابتكر فلاحنا نظام "العجال"⁽¹⁾ لرعي البقر أو الدشارة⁽²⁾ لرعي الحمير، كاسلوب يوفر عليه الجهد والوقت والعلف، ليتفرغ للعمل الأهم في الحقل، اذ يسرح بالقطيع الواحد راع واحد، لقاء اجر سنوي معلوم غيرما يصله من "العيدية" في العيدين. كان تجتمع القطيعين صباحاً في وادي العين، في مقابل البيادر الشرقية في الحارة القبيلية، ثم ينطلق العجال اولاً فالدشارة ثانياً، يسيران في دربين مختلفين، لتلا اجتماعهما في مكان واحد في المراعي العامة على التلال الممتدة على شاطئ البحر بمساحة الف وثلاثمئة دونم مربع.

يستعين الراعي على مهنته، بكلب مدرب يصحبه، وحمار يركبه ويضع عليه الخرج، وفي

(1) من العجل : ولد البقر، وجمعه عجاجيل، لم يرد لفظ عجال في اللغة بمعنى قطيع البقر، مما يستدل على انهم اشتقوه من اللفظ الخاص لفظاً عاماً.

(2) كلمة غير عربية، لم ترد في المعاجم من الدشر والداشر ما ترك بلا رعاية او حماية.

شقيه طعامه وشرابه، ويقضي سحابة نهاره في مراقبة القطيع وضبطه، او في العزف على الشبابة⁽¹⁾، او المجوز⁽²⁾ او اليرغول⁽³⁾ او يرد به ماء الكنيسة عند الظهيرة، ثم يعود به الى القرية قبيل الغروب، ويكون مسؤولاً عن فقدان اي رأس وهلاكه.

وأصل فكرة الرعي على هذا النحو، جاءت من حرية الحيوان في الرعي، ولأن تركه سائباً يشكل خطراً على المزروعات والاشجار فأنشئوا في الطيرة نظام "المخضر" اي حارس الخضرة في البلد، واعطيت له صلاحية حجز الدابة السائبة التي تدخل الزرع، ويدفع له صاحبها غرامة نقدية معلومة عن كل ليلة تبثت في حظيرته، ولا ريب في أن ذلك اسلوب حضاري ينم عن حرص الانسان على المصلحة العامة وعن الرغبة في عدم الاعتداء على ممتلكات الاخرين، كما ينم عن الانضباطية والخضوع للنظام العام وعن تدبير اقتصادي سليم. ومما تجدر الاشارة اليه عادة خصي⁽⁴⁾ ثيران الحراثة، حفاظاً على قوتها الجسدية وضبط سيرها اثناء العمل. وفي الطيرة كان يُجري العملية جراحون ليسوا باطباء، على الرغم مما تسببه من الام حادة للحيوان، أو نفوقه أحياناً.

وانحصر عدد الخيل والبغال بمقدار الحاجة؛ اي للنقل والركوب والحراثة وجر العربات، وقل اقتناء الخيل الاصائل للمسابقات حتى انعدم وجودها او كاد في النصف الاول من القرن العشرين، وما كنت ترى منها غير الكدش⁽⁵⁾ العاملة، ولهذا لم تعرف الطيرة نظام الاصطبلات

(1) آلة موسيقية بدائية - هي الناي - من قصب مجوف او انبوب معدني مثقب بطول 40سم تقريباً من آلات النفخ.

(2) آلة موسيقية من قصبين تضمان معاً، وفي كل قسبة زمارة.

(3) هو المجوز اذا الحقت به قسبة غير مثقبة، فتخرج منه النغمة مجسمة رخيمة.

(4) تنزع الخصيتان من الحيوان او الانسان لقتل النشاط الغريزي والاحصاب فيه. ومن اخبار الملوك والرؤساء

الاقدمين انهم ماكانوا يسمحون لغير النساء والخصيان بالدخول على الحريم وخدمتهن، وكان النحاسون -

تجار الرقيق- هم الذين يقومون بالعملية للعبيد للبيع بسعر عالٍ من اجل الخدمة في القصور.

(5) جمع كدش من الخيل: المستخدم في العمل، والكلمة دخيلة على العامية العربية.

ولا السائس⁽¹⁾ المختص او الحوذي المتفرغ.⁽²⁾

واقترنت الابل بمقدار الحاجة ايضاً، واكثر ما كانت تستخدم في ايام الحصاد لنقل "القش"⁽³⁾ بالاجرة، وما كانت تترك سائبة الا اذا عقلوها بخطامها⁽⁴⁾ وكذلك الخيل والحمير لا تترك سائبة الا مشكولة⁽⁵⁾ ومع ظهور الشاحنات الالية، قل الاقبال عليها، حتى غدت عبئاً على اصحابها، فانصرف الناس عنها.

ولقلة انتشار الخيل والابل، لم يوجد في الطيرة من يصنع السروج⁽⁶⁾ واللجم⁽⁷⁾ والركابات⁽⁸⁾ ولكن وجد فيها الحلاسون⁽⁹⁾ للزيادة النسبية للحمير على الخيل والابل.

واذا ارادوا من الفرس بغلاً استدعوا مختصين من البرامكة. واذا اضفنا الضان والماعز والطيور الداجنة والارانب والنحل وكذلك الكلب والقط الى قائمة الحيوانات النافعة، امكنا تصنيفها بحسب اغراض الانتفاع بها على النحو التالي:

- 1- حيوانات للعمل لطواعيتها وقدرتها الجسمية وهي الثيران للحراثة، والخيل والبغال والحمير والجمال للحراثة والدراسة والنقل والركوب وجر العربات والسباق.
- 2- حيوانات للحومها والبانها واصوافها واوبارها وشعرها وجلودها، وهي الضان والماعز والنوق والبقر الطوب، والنسل _ ايضاً، اما الارانب فللحومها وفروها. علماً بانه لم تتوافر اخبار، بل لم يرد قط عن اجيال سبقت ان اهل الطيرة اكلوا لحوم الخيل والحمير والبغال لحرمة شرعية، بل لان نفوسهم تعافها اصلاً، مع توفر البديل

(1) من يعنى بتربية الخيل والمسؤول عن اصطبلها.

(2) الحوذي من يقوم بتركيب الحذوة لحافر الحصان.

(3) مصطلح ريفي يطلق على القمح والشعير بعد الحصد وقبل الدرس.

(4) كل ما وضع في انف البعير ليقتاد به.

(5) اشكل الدابة شد قوائمها بحبل؛ يداً برجل ليعيق حركتها، فلا تبتعد ولا تتخطى الحواجز.

(6) ما يوضع على ظهر الخيل لركوبها.

(7) ما يكم به فم الحصان.

(8) جمع "ركاب" وهي حديدة مثبتة في السرج يوضع فيها الفارس رجله عند الركوب.

(9) جمع حلاس وهو صانع الحلس، وما يوضع على ظهر الحمار لركوبه.

الافضل من المواشي المذكورة. وربما اكلوا تلك الحيوانات في عهد موعلة في القدم. كما لم يؤثر عنهم انهم اكلوا لحم الخنزير، وعلى الاقل منذ تحريمه شرعياً، ولهذا السبب وحده لم يفكروا بتربيته ابداً.

3- حيوانات- طيور داجنة- تقتنى للحمها وبيضها وريشها كالدجاج والحمام والبط والاوز والحبش⁽¹⁾.

4- حشرة النحل كان الاهتمام بها لشرابها غذاء وبناء.

5- حيوانات نافعة بذاتها لاغراض شتى؛ كالكلب للصيد والحراسة ومساعدة الراعي في عمله والصيد في صيده، وكالقط في مطاردة الفئران وقتل الافاعي. او اشباعاً لميول شخصية محضة او لعاطفة دفيئة لها اثرها البعيد في تعزيز عاطفة الرفق بهذا الحيوان الاليف. والاسلام هو الدين الوحيد الذي تضمنت نصوصه وصايا الرفق بالحيوان.

3- أصدقاء وأعداء

اقام الخالق سبحانه سنة التوازن لاستقامة حياة الانسان، وديمومتها على وجه الارض، وما يبدو فيه التناقض، فهو في خدمته ايضاً، من حيث يشعر ولا يشعر، وتحت مظلة التوازن هذه يعيش الاحياء فيما بينهم معارك طاحنة خفية كالتي بين الطفيليات، او مكشوفة كالتي بين الحيوانات العليا، حتى ان الانسان لا يشذ عن قاعدة التوازن هذه فيما بين نفسه، او مع العجماوات دفاعاً عن نفسه وسلامة ماشيته وزرعه. وبارادة وتقدير من الله تعالى، استطاع الانسان الحفاظ على نفسه وسط الاجواء المناخية والبيئية القاسية، وانتصر على كل الوحوش المفترسة التي سبقت وجوده على سطح الارض وذلك بفضل ما زوده به الخالق من عقل يفكر ويخطط ليستعين بالبيئة على البيئة، وبالحيوان على الحيوان. ومن وحشية بعض انواع الحيوان استباح لنفسه قتلها بقانون الدفاع عن النفس غير المعلن، ذبحها لغذائه وكسائه

(1) الدجاج الرومي. ويسمى الذكر منه : الديك الرومي، كالدجاج شكلاً واكبر منه حجماً، وكذلك بيضه، ويشار اليه باسم بالحبش.

قبل ان تآذن به السماء وتنظمه عند ظهور الاسلام.

وبالملاحظة والتجربة، احقاباً طويلة، استطاع الانسان ان يصنف الحيوانات فئات ثلاثاً؛ فئة تقتل لخطرها، وفئة تهمل لانعدام النفع منها والضرر ظاهرياً، وفئة يستبقونها ويحافظ عليها لعظم نفعها وهي الانعام، وقد سبق الحديث عنها.
أ- ما يقتل لخطرهِ:

وهي الاعداء الوحوش المفترسة، واشدها خطراً في اقليم البحر المتوسط والمناطق المعتدلة؛ الاسد والنمر والضبع والثعلب وابن أوى والافعى. ومن الالباء والاجداد سمعنا كثيراً من الروايات عن صراعاتهم مع تلك الوحوش الضارية بما يشبه الاساطير. ويذكرون لاشقائهم في الكرم روايات مماثلة، حتى غدا هذا الجبل بكهوفه وغاباته وبساتينه اكثر اماناً، وأخصب مرتعاً لقطعان ماشيتهم، اذ انقرضت الاسود والنمور والذئاب والضباع، وظلت بقايا من الثعالب وبنات أوى والافاعي، تظهر من حين لآخر ثم تختفي، وهي في طريقها الى الانقراض، ولو بعد حين، وكانوا يستعملون لقتلها البلطة والحجر والموسى والخنجر والعصا، ونيران البنادق بعد ان ظهر البارود وعم انتشاره، وجرى الترخيص باستعماله، وأسهم الرعاة والحطابون والصيادون وحراس البساتين في القضاء عليها اسهاماً كبيراً.

وقريب من هذه الفئة المفترسة في العداوة، حيوانات مؤذية وضارة بالمحاصيل الزراعية، يعم انتشارها المعمورة باسرها، والانسان معها في صراع قديم، ولن يوفق في القضاء عليها؛ كالفأرة والجرذ والنسناس⁽¹⁾ وقد استخدم معها السموم المختلفة والفخاخ والمصائد الحديدية المسننة ذات الشبك، كما قاوم العقرب بالقتل المباشر، وكافح القراد⁽²⁾ بالقطران والذباب بالنظافة، والدبابير بالحرق والخنق داخل مساكنها واغلاق مداخلها واما الحشرات الدقيقة والقوارض آكلة اوراق الزرع والفطريات التي تنخر سوق الشجر او تتلف

(1) من فصيلة القط، واكبر منه حجماً، واكثر غاراته على الدجاج ليلاً.

(2) حشرة تعلق بأدبار الحيوانات وجلودها، وتعيش على مص دمانها.

سوق الزرع او وتأتي على الاوراق والزهر والثمار-كالمن والنمل الطيار بالذات «وام علي»⁽¹⁾ والبياض الدقيقي، فقد استخدم الطيرايون في مقاومتها، الجنزارة⁽²⁾ والكلس ومسحوق الكبريت الاصفر، وبعض المبيدات الحشرية الصيدلانية.

وعرف شمال فلسطين الجراد الطيار القادم عليهم عبر الصحارى البعيدة، اذ كانت ارجاله⁽³⁾ تتبع الخضرة، لا تبقي ولا تذر، وكانت مقاومتها شعبية جماعية، فلم يمكنه من الاستيطان في ارضهم، وكان ظهوره في سنوات القحط وعلى ندرة.

هذا العرض السريع لتاريخ الحيوانات الضارة يضاف الى قائمة الكفاح وصوره في سبيل البقاء، وانتصار الانسان فيه انما يمثل الانتخاب الطبيعي لهذا النوع المؤهل لإعمار الارض، بأضخم آلة زوده الله بها، وهي العقل، اذ انتصر على اعدائه، واعداء انعامه ومزروعاته، وهو ما تدونه الشعوب في سجل تاريخها وحضارتها وتأثيرها في البيئة.

ب- ما لا ضرر منه ولا نفع:

في اقليم البحر المتوسط، وسائر الاقاليم المدارية، فئات من صغار الحيوان والحشرات، ليست بذات خطر على زرع، ولا نفع منها ظاهراً فمنها حيوانات تتغذى على الحشرات، او منها حشرات تتغذى على حشرات او على اوراق الاعشاب بلا تعيين ومنها نودم بارد ينام في فصل الشتاء، ومهما تكاثر لا يشكل خطراً على زرع ابدأ، وهي في الطيرة اكثر ما تكون انتشاراً في الارض الخلاء والاماكن المهجورة، والحواكير ومواقع الزيتون، وفي الحقول وبطون الاودية القريبة من السهل، وبرزت تلك الحيوانات الحزنون والسحلية والحرياء «أم بريص»⁽⁴⁾ والقنفذ و«النيص»⁽⁵⁾ الذي ينتفخ بجلده لآخافه اعدائه، ويطلق من ريشه سهاماً

(1) دويبة بجناحين ملونين بحمرة منقوطة بنقط سود صغيرة، وهي من الخنافس الطيارة، دمها سائل اصفر ذو رائحة كريهة.

(2) مزيج كيميائي سائل سام.

(3) رَجُلُ الجراد: سرب الجراد، او القطعة العظيمة منه، جمع على غير لفظ الواحد. ومن الناس من يأكله.

(4) دويبة تشبه الحزنون شكلاً، الا انها زهرية اللون، واصفر منه حجماً، وتظهر على سقوف المنازل المأهولة وجدرانها احياناً.

(5) من النَّيِّصِ: الحركة الخفيفة، وقيل هو اسم للقنفذ.

إِبْرِيَّةٌ كاحدى وسائله الدفاعية. ولدينا من البرمائيات السلاحف⁽¹⁾ والضفادع.

وابرز الحشرات الصراصيرُ الراجلة غير الطيارة، واشهرها الجعل⁽²⁾ الاسود الذي يتوالد ويعيش وسط الروث الحيواني، ثم العنكب و فرس الملائكة⁽³⁾ والبزاقات والرخويات، ومن بينها الديدان العسوية، هذه الفئات لا يلتفت الانسان اليها، لحركتها الموضعية البطيئة، بل يتركها حتى تموت تلقائياً باكمال دورتها الحياتية القصيرة.

وفي أيام الربيع والصيف وحيثما سار الانسان في ضواحي الطيرة، وعلى جوانب الطرق الزراعية، تعرض له الطبيعة من حوله اصنافاً من الحشرات اللطيفة، تتراقص على رؤوس الخرفيش وسائر النباتات الشوكية، واكثرها الجندب والجندج⁽⁴⁾ اللذان يتواثبان ويغنيان للشمس أغاني الغزل، واناشيد الشكر على نعمة الدفء العظيمة، في وقت الظهيرة، عند اشتداد الحر، تحت ظلال الشوك، وقد يعبان من كأس السعادة، ذكراً وانثى، ثم يكملان الترانيم في الليل بصريير لا انقطاع فيه.

ومن سار في رابعة النهار، ربما تستعذب اذنه سماع ازيز ناعم يشدها اليه، واذا تتبع مصدره، وجده معزوفة من جناحي الطيزين⁽⁵⁾ «أبي خميرة» الاسود، أو «أبي فضة» البراق بلونه الاخضر المشرب بالحمرة الفاتحة الزاهية، وان الواحد منهما ليحوم حول رأس الزائر وبين يديه ترحيباً به على طريقته الخاصة، وقد يستغرب تنقله من زهرة شوكية الى اخرى، ليمتص من رحيقها، وليأخذ قسطاً من الراحة ساكناً سكون المحب بين يدي محبوبه، إنه في حزن الوطن ومحرابه. وكثيراً ما يفسد عليه الاطفال صلواته وسعادته، حين يمسكون به ويربطون رجله بخيط، ثم يطلقون له العنان بالدوران حول الرأس، بينما هو يعزف لحن الالم والاحتجاج على تطفلهم واعتدائهم على حرите المقدسة، ثم لا يلبث طويلاً حتى يموت هماً وغماً.

(1) جمع سلحفاة: حيوان مدرع بصدفة صلبة هي جلده، معمر يبلغ 150 سنة في المتوسط، يخفي رأسه وذيله داخل صدفته عند الخطر، ومن اسمائها عند العامة: القرقة.

(2) جمعه جعلان، بكسر الجيم وسكون العين، دويبة سوداء. ضرب من الخنافس.

(3) حشرة ضامرة الجسم مستطيلة، اطرافها عسوية رفيعة خضراء اللون بطيئة الحركة.

(4) من فصيلة الجنادب، واصغر منها حجماً.

(5) من الصراصير الطيارة، لم يرد في المعاجم، واشتقاق الاسم من اسم الصوت الذي يطلقه.

ومهما قلنا في عبثية الطفولة وقسوتها مع الحيوانات اللطيفة التي يحبونها كالطيزين والعصفور والكتكوت، فإننا نعتذر عنها بالبراعة الطاهرة.

والحديث عن الحياة الحيوانية في طيرة الكرمل، تعد الخلاصة لتاريخها الحضاري، وكما كانت عليه في النصف الاول من القرن العشرين هو آخر مراحل تطورها في الريف الفلسطيني. فبالملاحظة والحاجة والتجربة، أخذ الانسان يرتقي في استخلاص المنافع من الحيوان، ويستبقي لنفسه منه ما يشاء، ويحسن صحبته بالرعي والعلف والسقاية والعلاج بيطرياً، والحماية من العوامل الطبيعية القاسية ومن الحيوانات المفترسة، الى ان اصبح نافع الحيوان ثروة من تجارة وصناعة. وارتقاء الانسان في استخلاص المنافع يعد تطوراً ايجابياً، وحضارة تنطوي على ابتكار طرق بارعة عديدة لحماية نفسه من تقلبات الطبيعة⁽¹⁾ وتضمن له قوة الاستمرار.

وأبناء الكرمل منذ عهد الكهوف يواكبون مراحل التطور؛ يؤثرون ويتأثرون، حتى خرج العالم من عصر الثورة الصناعية، وبدأ سيرهم المقيد بعجلة السير التركيبية بطيئاً وبدائياً. وعلى الرغم من ان الانتداب البريطاني جاء لاجهاض المسيرة الحضارية في فلسطين وتفريغها من كل قيمة ومعنى، الا ان وجوه الانتفاع بالارض والحيوان في طيرة الكرمل، يعطي الحياة الانسانية اجمل صورها، والحضارة اصدق معانيها وهي أن يعرف الانسان نفسه، وان يعمل بوظيفته طبقاً لما يعرف، ليكمل بعضه بعضاً من اجل الامن والسلام العام. وكل ما عدا هذا التعريف الذي نرتثيه، انما هو وصف للسلوك الانساني فردياً او جماعياً، سلمياً او عدوانياً⁽²⁾.

(1) صناعة الجوع: عالم المعرفة العدد 64 : ص 103 ونراه تعريفاً جزئياً للحضارة.

(2) اكثر ما يعرف مفهوم الحضارة الآن بأنه " المفهوم الذي يعبر عن مجموعة النظم والقوانين والمنتجات المادية والمعنوية لاي مجتمع، الانسان : دراسة في النوع والحضارة ص 173 ، وهذا نعت خارجي يخلو من النقد والتقييم .

4- الاغنام: الضأن والماعز

أرجأنا الحديث عن الاغنام، لأهميتها الاقتصادية والاجتماعية في حياة طيرة الكرمل وللضخامة النسبية في اعدادها، واذا كانت لا تتعدى حاجة السوق المحلية الاقليلا، واصبحت حيفا بعد ان عظم شأنها وكثر سكانها المتنفس الاول في استيعاب الفائض الحيواني، كما اصبحت سوقا لانتاج الطيرة الزراعي.

ولقد تأثرت تربية الاغنام في الطيرة بأهم اربعة عوامل :-

- 1- ضيق الارض الزراعية ، وغلقها في وجه الماشية ، ثم حصر المراعي في المواقع الجبلية على متن الكرمل . وكانت اعدادها معرضة للضمور والاضمحلال من جراء المحاولات الناجمة عن استصلاح مساحات لا بأس بها لصالح الأشجار المثمرة ، ولولا الطبيعة الوعرة القاسية ، لشملة الاستغلال للاغراض الزراعية.
- 2- وفرة الكهوف الوسيعة لإيواء الأغنام وحمايتها من البرد والمطر وعاديات السباع الضارية واكثر الكهوف انتشارا واعظمها اتساعا ، تلك الموجودة في المواقع الجنوبية ، في وادي فلاح ، حيث مغارات الواد و«ابو اصبع» والنواطيف ، ومغارة وشاح في جبل وشاح و كلها تتسع لمئات الرؤوس من الاغنام . وأما الاقل عددا واتساعا فهي مغارات في «حريق مَعْمَر» واحف المَعْر. والفئة الاخيرة تتسع لما دون المئة من الاغنام.
- 3- الميكانيكية السهلة في تربية الاغنام التي لا تعرف التعقيد، ولا تتطلب الايدي العاملة الكثيرة ، اذ يتولى رعي الشلية⁽¹⁾ وهي تعد بالمئات ، راع واحد ثم يعود بها مساءً ، ليقوم بطلبها صاحب الشلية وزوجته ويكملان الحلب في الصباح . ثم تقوم الزوجة بمهمة تصنيع مشتقات الحليب ، كما يقوم الزوج ، أو أحد ابناؤه بتوريد الانتاج الى السوق ، وربما تولى الامر النساء المتقدمات في السن ، في ساعات الصباح الأولى . ولقد عرفت حاقله الصباح التي تقلهن الى حيفا بـ «باص اللبانات».

(1) من الشلو: العضو والجسد، واشلى الدابة اراها المخلاة لتأنيه، واشلى الناقة: دعاها للحلب ، ولأن الشلية من الاناث التي تحلب ، فاستعير المصطلح لها.

وإذا جاء موسم جز الصوف للضان ، وقص الشعر للماعز ، وهو عادة في شهر ايار ، قام بالعملية المالكون وبنائهم ورعاتهم في يومين او ثلاثة أيام ، ثم يأتيهم وسطاء مصانع الغزل والنسيج ، فيشترون ما عندهم ، بعد أن يستبقي «الطراشون»⁽¹⁾ لانفسهم ما يحتاجونه .

جزّ الصوف للضان وقصّ الشعر للماعز ، عادة ورد ذكرها في أخبار ارض الرافدين ، فقد كان بين أعياد الآشوريين والكلدانيين وغيرهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، يوم لجزّ الصوف جماعياً . وجزّ الصوف في الطيرة لم يكن له عيد مرسوم ، ولم يكن عادة تقليديه متوارثة مجهولة الاسباب والابعاد ، فيقولون : بجزّ الصوف يكسب الخروف ، اي يكسب صحة وقدرة على الحركة ، ويقولون: الصوف حام والصوف حار ، الا ترى ان الانسان في الصيف يتخفف من الملابس الصوفية؟ اليس الخروف روحاً يجب ان نحافظ على صحته ونشاطه؟

ومن تقدير العناية الإلهية ان يترتب على الجزّ والقص فوائد مادية للناس جميعاً .

وتلك الميكانيكية التي توفر الجهد والوقت لا تعرف التعقيد في عمليات تصنيع المشتقات ، فالقربة من جلد شاة ذبحوها وأكلوها ، تعلقها زوجة الراعي بأغصان شجرة ، ثم تاخذ بالخضّ لاستخراج الزبدة والسمن والمخيض او «الشنيّة»⁽²⁾ ان القربة هي المخض الذي لا يتوقف بانقطاع تيار الكهرباء ولا يتعطل بكسر اثناء العمل ، وقد لا تعيق العامل عن عمل

ثان ، مثل تناول الطعام او اسكات طفل تحمله المرأة وراء ظهرها .

وعندما يتوفر الجهد والوقت يتضاعف العمل ، او يدفع بالانسان الى البحث عن عمل اخر ، فتتعدد مصادر الدخل ويكثر المال ، ومن هنا كانت تلك الميكانيكية ، ذات اثر بعيد في حياة «الطراشة» ومعظمهم من عائلة ابي راشد في المرتبة الاولى ثم من عائلتي عمورة وعلوه ، وقلّة من عائلات ابي عيسى ودرباس وحجير . اذ تعلموا الزراعة وابدعوا في فلاحه الارض ، وكانت اقامتهم بجوار اغنامهم قد مكنتهم من مهمة الاشراف الدائم على حقولهم

(1) تطرّش بالبهيم: اختلف بها بين اماكن الرعي، والطراشة على وزن فعالة. صيغة مبالغة مثل جؤالة وسيارة .

(2) من الشنّ: كل لبن يصبّ عليه الماء حليبا كان او حقينا ، والشنّه (بهاء) القربة الخلق ، ويصح ان يقال له

«مخيض» لانه حصل من خضّ

التي لا تبعد كثيرا عنهم، فجاد انتاجهم ، وبذلك جمعوا بين العاملين الرئيسين في الانتاج الريفي ، اي بين الزراعة والتربية الحيوانية ، فاصابوا بهما ثراء ظاهرا تمثل في تملكهم كثيراً من قطع الاراضي وقطعان الماشية، وفي قلة خروجهم من قريرتهم التماسا للرزق عمالا في مصانع حيفا والمعسكرات البريطانية .

4- عامل بشري فني: وهو الراعي المحترف ذو الخبرة في التربية الحيوانية ، حين قدم بها الطيرة ، ولم يجد منافسا له فيها ، فتمسك بماشيته ، وحافظ على تكاثرها ومال بها الى الكهف المهجور لايوائها ، والمرعى المشاع لاطعامها ، وجد في تجارة مشتقات الالبان ، وشرى الارض وفلحها والتصق بها، وشارك في الحياة الاجتماعية. وفي اعتقادي ان ذلك الراعي القادم من الصحراء ، هو الذي احدث الانقلاب الخطير في حياة الطيرايين ، وجعلها ذات وجهين: احدهما زراعي والآخر حيواني، يكمل احدهما الاخر ولا يستغني عنه ، فزاد الانتاج زخما والمجتمع تفاعلا.

لم يكن لغير الواقعية ثمة سلطان في تغليب عدد الماعز البلدي على الضأن، فطبيعة الارض الجبلية الوعرة تتطلب لرعيها وللسير على صخورها حيوانا خفيف الوزن سريع الحركة، كالاغنام من بين الحيوان؛ فلا الابل ولا نوات الحافر ونوات الظلف الكبير تصلح لها وإن الماعز اكثر من الضأن تناسبا للمواقع الجبلية ، لأن الاخيرة يعوق حركتها ارتفاع الوزن وكثافة الصوف الذي يعلق باغصان الشجر ، فيتأذى به .

5- «ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تاكلون» سورة المؤمنین: 21

لا تجد غير الاسلام دينا ، ولا غير القران الكريم كتاب دين، يربط الانعام بالعجلة الاقتصادية الى جانب عجلتي الاجتماع والدين. وذلك بمقتضى الحقائق التالية:

أ- «الله خالق كل شيء».....الزمر: 62

ب-«والانعام خلقها لكم».....النحل: 5

ج-«فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر».....الحج: 36

د-«لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم».....الحج: 37

وليس بخاف على احد ان فلسطين هي مهد الدين السماوي الواحد، وبخاصية الحقائق هذه، تبدو ايمانية شعبها، والتزامه باوامر الله عز وجل، وهذا يترك آثاره في نظرتة الى الحياة والعلاقات مع الكائنات الاخرى.

ومن قبل اجملنا القول في الحياة النباتية والتربية الحيوانية، وكيف بلغ بها الطيراويون حدّ الاكتفاء الذاتي من حاجات الانسان الاساسية، اي من الغذاء والكساء والمئوى، غير ان التصرف بالانتاجين الزراعي والحيواني، ما زال يتطلب المزيد من القاء الضوء على تفاعل الانسان الفلسطيني الريفي بالبيئة. ومن الموضوعية بمكان ان نضع بين يدي القارىء الاعتبارات التالية ذات العلاقة بالطيرة كواحدة من الريف الفلسطيني.

1- بدائية التصنيع ومحدوديته، وتبعاً لحجم الثروة، لم يتعد التصنيع عتبة السوق المحلية الى افاق التجارة الخارجية، ولا يخفى ان الصناعات الريفية في العالم، هي النواة للتصنيع الالكي المتطور، كما لا يخفى ان الزراعة هي الأساس لاقامة النهضة الصناعية، وهذا ما حافظ عليه الطيراويون عبر تاريخهم الطويل.

2- قلة صور التصنيع الريفي، فلم يتفرغ الطيراويون للتصنيع المعقد الذي يتطلب وقتاً يصرفهم عن ارضهم وماشيتهم، كالدباغة والغزل والنسيج والمعلبات، لا نعدام الكهرباء والميكنة الحديثة والمعوقات التنظيمية والادارية الفوقية، في المئة السنة التي تبدأ بمنتصف القرن التاسع عشر، فتركوا الامر ليستكمل في المدن، ومن الطيرة الى حيفا -المدينة التجارية الصناعية - كانت تنقل المواد الخام من اللحوم والجلود والصوف والشعر والالبان والخضروات والزيوت، لصور التصنيع القائمة المتعددة.

3- المبادرة الذاتية في الاعتماد على النفس، فيما لا مندوحة عن توفيره غذااءً أنياً، او مؤنة سنوية، بما يترتب على ذلك من معرفة بأساليب حفظ الأطعمة وتخزينها، في عصور سبقت معرفة العالم وسائل التبريد والتكييف الحديثة، ولا ننسى مبادراتهم في تأمين حاجات المنازل الأولية من صميم انتاجهم وبيئتهم.

اما جوانب الاستهلاك الحيواني فهي:-

أ- في الغذاء: تتميز المائدة الشعبية في الطيرة بالاطعمة الدسمة للميل الشديد نحو ادخال اللحم كعنصر اساسي في الطبخ، وكأنهم ، بالفطرة يحققون لانفسهم التوازن الغذائي في الصحة الجسمية بعناصرها الثلاثة : مواد بانية ومواد واقية ومواد للطاقة الحرارية. وذكرنا الخضروات من قبل وحضورها في المائدة الشعبية ، وحضور الغذاء الحيواني ربما كان اكثر توفرا على المائدة الطيراوية، نذكر منه المقالي والصواني شرحة وشقفا وكفتة والشواء على الفحم والكباب والمحشي من الخراف والجداء والطيور الداجنة على اختلاف انواعها. والمعاليق⁽¹⁾ بين قلي وشواء واذا طبخت فمع البطاطا والحمص.

وللطيرويين طريقتهم في التصرف بأطراف⁽²⁾ الذبائح ، وبالكروش والفوارغ⁽³⁾ والاكارع⁽⁴⁾ وهي طريقة اهل الريف الفلسطيني الذين يببالغون في طبخ هذه الاعضاء ، والمرأة هي التي تتولى مهمة تنظيفها وطبخها، حيث تنعدم محلات الرواسين⁽⁵⁾ وتبرز مهارة المرأة الطيراوية في تقديم الكرش على هيئة شخاتير⁽⁶⁾ محشوة بالارز مقلية او مطبوخة باللبن، وفي طبخ الاطراف باللبن او تحميرها بالفرن بعد نزع الاطراف والزموع⁽⁷⁾ وقليل من البيئات غير الريفية تهتم بالفوارغ ، لتقدم على المائدة محشوة بالارز ومقلية او مطبوخة باللبن ، او بين ورق العنب والكوسا للنكهة والدسم.

(1) جمع معلق ، وهو جهاز التنفس (الرئتان) مع الكبد والطحال، و«الحلية» وهذه هي النهاية الدهنية فيه، مليئة بالدرنيات، أما المريء والقصبه الهوائية فلا تؤكلان

(2) الأطراف من البدن: الرأس واليدين والرجلان، ثم غلبت على اليدين والرجلين.

(3) الامعاء الغليظة.

(4) جمع كراع وتجمع على اكرع، والعامه تجمعها على كراعين.المستدق من قوائم الدواب

(5) جمع رؤاس : من يبيع الاطراف والكروش او ينظفها حرفة تعرفها المدن الكبيرة

(6) جمع شختور لفظ ليس من العربية يطلق على القارب الصغير

(7) جمع زمعة: قطعة زائدة وراء الظلف، وفي كل قائمة للشاة او الارنب والظبي زمعتان كأنما خلقتا من قطع

القرون او الشعرات المدلاة في مؤخر الرجل جمعها زمع، وزموع جمع على غير قياس

يكثُر الطيرايون من تناول اللحوم في الاعياد ويوم عاشوراء⁽¹⁾ وفي حفلات الزفاف والنور⁽²⁾ والمناسبات وفي قرى الضيف المطلق من كل زمان. وتهب رياح الايمان والتراحم في النفوس مرسلة دافئة في الاضحيات والنور ، فيتهادى القوم وَيَصِلُونَ الارحام ويتصدقون على الفقراء من حولهم ، ثم تحتفل الاسرة بباقي الذبيحة أو الاضحية⁽³⁾ كما تشاء .

وتتاج الحيوان من الحليب ومشتقاته، مع بيض الدواجن له اثره البعيد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الريف، وتحدث عن اثاره في الطيرة، حيث تتولى المرأة ترويب اللبن وعمل الجبنة واستخراج الزبدة من الحليب ، والسمن من الزبدة، ومن تقدمت بها السن قامت بتسويق النتائج الى محلات الالبان وباعة الحلوى في حيفا ، في ساعات الصباح الاولى، حيث ينطلق الزوج بالشلية الى المرعى، او يذهب الى العمل وينطلقن مبكرات الى حيفا بباص اللبانات، وهو الحافلة الأولى بعد شروق الشمس .

وفي الطيرة، كما في الريف تتولى المرأة امر تربية الدواجن فهي التي تبني الخم⁽⁴⁾ وتعنى بنظافته ، كما تقوم بمهمة العلف والتبييت والتقاط البيض والترقيد ، وعزل الدجاجة المريضة او معالجتها ، ولها مطلق التصرف بالبيض، وهي التي تستبقي من الفقس الجديد الاناث من الفراخ ، وبرأيها تذبح الديوك. وكثير من العائلات الفقيرة تعتمد على الدواجن اعتمادا كبيرا في حياتها .

وازاء هذه الحقائق الناصعة نرى المرأة الطيراوية تسهم اسهاما كبيرا في ادارة عجلة الحياة والنظام الاقتصادي ، وتنفي عن هذا المجتمع المسلم تهمة الزعم بأن وظيفة المرأة هي النسل ، وانها حبيسة جدران وقطعة اثاث كما يحلو الوصف لمرضى المنظرين والمتأدبين، انها

(1) هو العاشر من شهر المحرم، صامه النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، ويستحب صيامه والتوسع على الأهل بالنفقة، وذبح الدجاج هو الشائع فيه، وفيه صادف خروج موسى عليه السلام من مصر ، واستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، في معركة كربلاء في العراق.

(2) النذر في غير معصية جائز ، والوفاء به واجب مستحب. ومن النسوة من تقي بنذرهما في مقام الخضر عليه السلام ، قريبا من حيفا .

(3) جريا على ما يتداوله، العامة تلت للحباب والقرايب، وتلت للفقراء والمساكين وتلت للاهل.

(4) الخم: قفص الدجاج. اخمة فيه: حبسه فيه.

الحرية الأمانة التي تحقق التوازن الوظيفي بما لا يعدّ فوضى أو أباحية جاهلية، بسيكولوجية الجنس في ادق خصائصه.

ويدخل العسل في الطيرة باسهم ضئيل في اقتصادياتها المحلية، فهو الاقلّ انتاجا والاكثر قيمة والأعلى سعرا، نظرا لقلّة المشتغلين به، ولعدم اتباع اساليب التربية والانتاج الفنية الحديثة، فلم تكن هناك المصانع المتخصصة، وانما هناك جهود فردية من بعض اصحاب المواقع الجبلية، او سكان الاطراف، وهو من اجود الانواع، لاعتماد النحل في الغذاء على رحيق الازهار الحرجية والبرية معظم ايام السنة، ولا يحتاج الى طعام صناعي كالسكر. والعائلات الموسرة تحرص على تخزينه مؤنة سنوية، لعلمهم بانه غذاء ودواء⁽¹⁾. لعل انصراف الطيرايين الى الزراعة في المقام الاول والى تربية الماشية في المقام الثاني، ثم تأتي التجارة الصغيرة والمهن اليدوية، هو الذي حال دون الارتقاء بتربية النحل وتطويرها وتنميتها.

ب- صناعة الالبان ومشتقات الحليب: فلسطين هي الارض التي تفيض لبنا وعسلا منذ اقدم العصور، فلا بدّ من ان يكون الانسان فيها من مؤسسي الحضارة الزراعية والحيوانية مكملاً لحياته وعطاء الحضاري في المجالات الاخرى كالكتابة والتجارة والمعادن. وما شاهدنا منه في صناعة الالبان حتى منتصف القرن العشرين؛ ان هو الا امتداد لتلك الاساليب الناجحة وتأكيد لصحتها وسلامتها. وهذه هي نظرتنا اليها في الريف الفلسطيني، ونفخر في الطيرة بان صناعة الالبان رمز للحضارة البدائية الامينة صحياً والبعيدة عن اساليب الغش الذي تحمله المدنية الغربية، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنها تعني مهارة المرأة الطيراوية الصانعة، ونظافتها وتقديرها لمراحل العمل بدقة، وللحرارة المطلوبة نون اللجوء الى ميزان الحرارة، قبل صناعة الميزان وبعده، وعلى ضوء اسلوبها ومهارتها سارت صناعة الالبان المتطورة الحديثة في العالم كله. مع الاعتراف بان لكل امة تجاربها وعلومها وثقافتها في هذه الصناعة، ولكننا نتحدث عن السبق الحضاري تاريخياً.

اولاً: اللبن الرائب:- يصفى الحليب بقطعة من القماش «الشاش الخفيف» ثم يسخن حتى 90

(1) قال تعالى في النحل يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس» النحل: 69 وفي الشرق

والغرب صنفت كتب تبين قيمة العسل الغذائية واستطبائاته

درجة مئوية، حيث يبدأ بالارتفاع داخل القدر ، فتأخذ المرأة بالتحريك قليلا قليلا مدة يسيرة ، ثم يبعد عن النار ليبرد الى درجة ٤٠م خلال مدة لا تقل عن ساعتين، حيث تضاف «الروية»⁽¹⁾ المحتوية على البكتيريا المساعدة على تحويل السكر الى حامض ، ثم يلف الاناء بقماش للتبريد البطيء.

لم تكن المرأة الريفية في حاجة الى التعليلات العلمية ، لكنها تصل الى النتائج المرجوة بأساليب تجربتها المقننة ، بغير كتاب ، ولا تخطيء ابدا.

ثانياً: صناعة الجبن:- يسمى الجزء الذي يؤخذ من المساة⁽²⁾ المدارة والمساة هي التي تنزع من الكرش اقساماً ، ثلاثة اقسام في الغالب ، ثم تجفف.

يغلي الحليب الى 70 درجة مئوية ، ثم يبرد الى مادون الاربعين بقليل⁽³⁾ ثم يذاب فيه قدر كاف من المدارة ليترك الحليب ساعة حتى يتخثر في كيس من القماش الخام مدة عشر دقائق لفصل المصل⁽⁴⁾ عنه ، ثم يفرغ في اكياس صغيرة مربعة الشكل، او في كيس يقطع فيما بعد، وتوضع فوقه الاثقال من الحجارة للتخلص من الميصر، في مدة ساعتين ، ثم تخرج الاقراص من القماش ، ويضاف اليها الملح وافرا للحفاظ على صلابته وتماسكه وسلامته من العطب، ومن ثم يؤكل طرياً، واذا ما أريد تخزينه مؤنة سنوية، قامت المرأة بتقطيع الاقراص ارباعاً وتغليها بماء مملح بمقدار «طيشة» البيضة .

ثالثاً: صناعة السمن البلدي:- تستخلص الزبدة اولا من الحليب بخضه في الشن، ثم توضع الزبدة في اناء على نار هادئة ويضاف اليها قليل من الملح ، حتى اذا تميّعت اضيف البرغل المجروش لامتصاص الشوائب وترسيبها في قعر الاناء ، ثم يغرف من السائل ما يطفو على سطحه اولا باول ، وقد يضاف اليه الكركم ليصفر لون السمن ، او تلقى فيه بعض الاعشاب

(1) تكون الكمية منها من لبن هانت، وبمقدار يكفي لترويب الحليب المراد ترويبه .

(2) تؤخذ من الانفحة، القسم الرابع من كرش جدي لم يأكل بعد علفاً ولا عشبا ، وسميت مدارة من الدور والدوران في الحليب المراد تجيينه.

(3) تقدير درجات الحرارة بدقة متناهية دون الاعتماد على ميزان الحرارة .

(4) مصل مصلا ومصولا: واللبن: صار في وعاء او خرقة ليقطر ماؤه .

العطرية مثل عشبة «الفيجن» غالبا ليجمع بين السلاسة والرائحة الزكية.

(رابعاً: اللبنة وتخزينها: المرأة في الريف عاملة منتجة ، ومربية فاضلة ومدبرة منزل ممتازة فاذا جاءت مشتقات الالبان التي ذكرت ، على ايدي اصحاب المواشي ، فان إعداد اللبنة وتخزينها مؤنة سنوية، هو ما تقوم به ربة كل منزل بغير شهر نيسان يكثر اللبن ويكون اكثر تركيزا ، فتطلبه على دفعات وتضعه في كيس خاص لتفصل عنه المصل، وكلما اقلت فيه دفعة ، اضافت اليه قليلا من الملح وحركته وعقمت باب الكيس بالملح ، حتى اذا تم لها ما تريد من الكمية وتوقف خروج المصل، جعلته كرات صغيرة في مرطبات زجاجية ، وغمرته بزيت الزيتون ، وتحدث حديث خبير عن الكميات بحسب نوع اللبن ان كان من الضأن حصلت على الثلث مما تلقي في الكيس ، واذا كان من الماعز حصلت على الربع ، ولبن نيسان اوفر تركيزا وعائدا من لبن ايار حيث يقل الربيع وتجف الاعشاب ، واذا ارادته خاليا من الدسم حصرت في لبن الماعز صرفا، واذا ارادته دسما قدرت لذلك كميات من النوعين لتحصل على ما تريد بحسب الطلب ، ثم تقول: جبنة الماعز ولبنه ادوم للتخزين عمرا لانه الاقل دسما ، والدسم دهن يتأخر خروجه، واذا خرج ترك فراغا ينفذ اليه الهواء بجراثيمه ويفسده.

وهذا هو علم التجربة الذي لا ينقض ، حفظته الاجيال قبل تدوين العلوم. ومما يحفظ لصالح المرأة الريفية، انها في طيرة الكرمل مثلاً تؤدي واجباتها، دون ان يخطر على بالها التوفير المادي بمقدار حرصها على توفير الامن والسعادة لأهل بيتها ، انها تهتم بالروحانيات اكثر من اهتمامها بالماديات.

الغذاء الحيواني على المادة:

ذكرنا جانبا من تصرف الفلاح وتناوله للحوم . ونستطيع القول بان طعام الفلاح بسيط كحياته ، خال من التعقيد كخلوها ، انه وان كان ينفق عليه بسخاء ، الا انه لا يعدو مأكولات الوجبة الواحدة، من غير وليمة جامعة، وبذلك يتجنب تلبك المعدة واضطراباتاها ، وزيارة العيادات والمستوصفات . وحين يتبارى اهل المدن في تعدد المأكولات وبيالغون في اتقانها في شهر رمضان المبارك ، نرى الفلاح يلتزم خط التوحد فيه، واذا اضاف شيئا ، فهو المقبلات التي يعدها لشهره هذا، ثم الفواكه او الطوى والمرطبات ، وهذه من قمر الدين الدمشقي او

عرق السوس والتمر هندي .

واعداد الطعام في الريف ابرز مهمات المرأة ، حيث لا خدم ولا عبيد ولا حشم ، ولا مطاعم ، ولا اعتداد بالمعلبات . ولديها من الناتج الحيواني يحتل البيض والحليب الطازج ركنا واسعا وهاماً على مائدة الفطور ، اما البيض فهو وجبة سريعة مقلية بالزيت او السمن او مشوياً بالحرارة في الطابون او مسلوقة او عجة ، وقد تقدمه مطبوخاً باللبن⁽¹⁾ على غير مائدة الفطور ، وتقدمه المرضع لرضيعها بعد الشهر الرابع «برشتا»⁽²⁾ واذا سئلت عن السبب اجابت : هكذا انسب لمعدة الصغير حتى تهضمه، وبالببيض والحليب تقوى العظام وتنمو الاسنان ويبرك في المشي. وغني عن البيان انها تنطق بلسان العلم المكتسب بالملاحظة والتجربة، قبل ان تتوّن العلوم.

و«الفقاعية»⁽³⁾ من اشهر المأكولات الشعبية التي يدخلها اللحم واللبن وهي «الشاكيرية» بالمفهوم الشامي وكان ابتداؤها بالبرغل قبل التحول عنه الى الارز الذي عم انتشاره بازدهار التجارة العالمية، ومن اصنافه في السوق الفلسطيني الارز الرشيدى المستورد من مصر، ومن أكلات الحليب المعروفة البحتة⁽⁴⁾ والمهلبية⁽⁵⁾ ومن اللبن اللبنيّة⁽⁶⁾ ولا تخلو المائدة في الصباح من مشتقات الحليب الاخرى ، ومن المسلم به طبخ الخضروات في الطيرة بلحم الضأن غالباً حتى يدخلها الدسم. وفي الطيرة كما في سائر القرى يعدون اكتناز الجسم دليل صحة وعافية، اذا كان صاحبه لا يشكو آلام المفاصل ، وحينئذ ينسبونها الى البدانة المفرطة ، اما السكري والجلطة والكولايسترول وارتفاع الضغط وآلام الظهر والمفاصل ، فلا حسابان لها على المائدة ، اذ لم يكن لدى الناس وعي بها ، وانها لتعتبر من امراض العصر الحديث.

(1) ويسمونها « الكعاكيل» تكسر البيض وتسقط في اللبن يغلي على النار حتى تنضج بمحاحها (صفارها) وزلالها

(2) البيض المسلوقة قليلاً ، أي قبل ان يكتمل تجمده .

(3) من فقاعات اللبن يغلى باللحم ، ويصب اللبن على الارز المفلل الذي يقدم في جاطات الصيني بدلاً من

السدور المعدنية في اكلة المنسف .

(4) الارز مطبوخاً بالحليب الطازج ، وقد يضاف على طبخها الجاهز السمن البلدي لمن رغب.

(5) او السحلب من النشا او دقيق الارز بالحليب وقد يضاف اليها القرفة ونحوها.

(6) الارز المطبوخ باللبن .

ب- في الكساء: لا نملك دفع القول بان الاقدمين لبسوا جلود الحيوانات وفراعاها لباسا رئيساً لدرء غائلة البرد، قبل ان يصبح الكساء سترا للعودة وزينة، وما نشهده اليوم من المعاطف الجلدية والفراء والقبعات والاحذية التي يبالغ الانسان في زخرفتها واناقتها، انما هو امتداد وتطوير لميراث قديم، وستظل مصانع المدينة في الدباغة والجلود تعتمد على الارياف الزراعية والاقاليم الرعوية ومناطق الصيد في رفدها لها بالمواد الخام الجلدية.

ولعل دفء الساحل الفلسطيني، وارتفاع الحرارة النسبي في الطيرة صرف الانسان فيها عن لبس الصوف والفراء حتى في ايام الشتاء، واستغنى عن ذلك بالكتان والحريير المستورد الذي يقاوض به المدينة مقابل الجلود والأصواف والشعر، ويعزز هذا القول ما ورد في التحقيقات الأثرية من ان تل السمك الواقع على الشاطئ بين الطيرة وحيفا كانت فيه مصابغ الاقمشة⁽¹⁾ باللون الارجواني المستخرج من الاصداف البحرية، حتى أخذ الموقع اسمه من كثرة الاصداف البحرية فيه.

بعد هذا لا باس من القول بان خروج الانسان القديم من كهوف الكرمل ابان ازدهار الحضارة الناطوفية، كان من الكهف الى الطين، ثم الى الحجر ليعيش حياة الاستقرار الزراعي بجوار حقله، ذلك ما صرفه عن نسج الصوف وغزل الشعر واعتماد جلود الحيوانات في صناعة البيوت، واذا فعل شيئاً من هذا فإلى فترة وجيزة، ثم تحوّل بها الى التجارة التي سار بها حتى دخل القرن العشرين. وعلى الرغم من عتماد الطيرة على المدينة في الالبسة، الا انها لم تستغن عن الصوف في صناعة الفراش واللحف والمخدات فاحتفظت به لنفسها، فقد اعتاد الفلاح النوم على فراش الصوف فوق الحصير لأنه الانسب لطبيعة عمله وحياة عياله، فهو الأكثر دفئاً والاطول عمراً والاسلم لعظام الجسم، اذ يقلل من التعرض لالام الظهر وتقوسه، كما انه يفسح المجال لنوم اكبر عدد من الاولاد في الغرفة الواحدة، ونحن نعلم ان الفلاح يرغب في كثرة النسل ويتباهى به لاكثر من سبب، لهذا لا يحفل الفلاح بالأسرة والتخوت التي تشغل حيزاً كبيراً وانفاقاً مضاعفاً، فلم يحفل بها الا الموسرون او القلة من اهل الريف.

وكان صنع الفراش واللحف والمخدات من مهمات المرأة الطيراوية الى ان تزاومت عليها

(1) الموسوعة الفلسطينية ج 2 ص 300

الاعمال ، واصبح التنجيد مهنةً لرجال متخصصين متفرغين فتخلت عنها للمنجدين الذين ظلوا يمارسون مهنتهم حتى اواسط القرن العشرين، واحتفظت لنفسها بإعداد الشراشف والوجوه وتطريزها وزركشتها.

ومن مظاهر الاعتماد على الاخرين في اللباس في العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين عمل الطاقية ، اذ كانوا يلتمسونه في القرى الدرزية المجاورة ، ويأتون بها من الكتان مطرزة بالالوان الزاهية ، للولاد بخاصة ، وما من سبب في ذلك الا الفراغ الكبير لدى المرأة الدرزية، وتزاحم الاعمال على المرأة الطيراوية ، اما طاقية الصوف للطفل وجرايات رجله⁽¹⁾ وغطاء خروجه في الشتاء ، فقد ظل من عمل المرأة لانه لم يكن غزلا او نسيجا وانما عملا بـ«السنارة» السريعة ، ونظرا لما للطفل من مكانة في نفوس الأمهات .

اما الجلود فلم يظهر من صناعاتها غير صناعة الأحذية ، بالمواد الخام التي تستوردها جاهزة من حيفا كالنعال والجلود المدبوغة ، والقوالب والابر والمسامير وخيوط القنب وغراء اللصق والشاكوش والسكين . وفي الطيرة عدد لا باس به من الاسكافيين في كل حارة من حاراتها ، وكان للمواطن ثقة عالية بالصناعة المحلية لجودتها ومتانتها .

وشهدت الربابة على قلة في الطيرة ، هذه الالة الموسيقية الأم للالات الوترية كانت قطب الرحي للسّمّار في جوف الليل ، وتؤنس الراعي وسط الجبال في العصور الخوالي. لم تكن الربابة صناعة محلية وانما يؤتى بها جاهزة من عند الاخرين. والكدانة ذلك الطوق الجلدي لرقبة الحصان كانت من صناعة الحلاسين المحلية.

6- الصيد

اذا استثنينا صيد البحر، لا نرى صيد البر ذا وزن في اقتصاد الوطن العربي، لبعده عن الأقاليم القطبية والاستوائية، ولضيق المراعي، وأما صيد الصحراء ، فلا يعدو كونه متنفساً لنوي الهوايات ، وربما كان الساحل السوري من افقر اجزاء الوطن العربي في الصيد البري، فهو إما جبلي في سوريا ولبنان ، واما سهلي زراعي في فلسطين، ولهذا الطابع الجغرافي لم (1) ويسمونها الكلاكيل جمع كلكول .

تشهد الطيرة في سهلها وجبلها الغزلان وحمير الوحش البرية، وحتى لو وجدت في زمن سابق، لقضت عليها سباع الكرمل قبل ان يقضي الانسان عليها، فاقتمر الصيد على الطيور البرية والعصافير من قبل عدد ضئيل من الهواة ، يمارسون هواياتهم في ايام العطل الرسمية واوقات الفراغ النادرة وربما اصطاد الرعاة صدفة ببنادق الصيد المرخصة للدفاع عن الماشية والنفس من الوحوش المفترسة.

وخرج الصيادين الى الصيد في الجبال كان لصيد الطيور التي بحجم الدجاج او الحمام ، ومنها الحمام البري والقطا المرقط «الرقطي» والدراج والحجل والشنار والشرقرق وتقال الخشب، ومن الطيور الاصغر حجما طيور مهاجرة كالفري والوروار الاوروبي والنورس الاسود، وبعض انواع الخطاطيف كبيرة الحجم تملأ سماء القرية في شهر اذار ، وأما اللقلق الافريقي الذي يسمونه في الطيرة حوام الخميس⁽¹⁾ فانه يقضي شهر نيسان على الساحل الفلسطيني ثم يتجه شمالا شرقياً حتى اواسط سوريا الجنوبية ، ثم يغير طريق عودته الى وطنه عبر بادية الشام وجنوبي البحر الميت فسيناء ومنها الى السودان.

وللاطفال في الطيرة صيد العصافير الصغيرة من بين المنازل والمواقع المحيطة بالقرية واشجار الزيتون ، يصطادون بالفخاخ والملاطش⁽²⁾ الشبكية والغرايبيل⁽³⁾ والدبق الاخضر.

ومن العصافير مقيمة ومهاجرة ، فاما المقيمة فاشهرها الدوري⁽⁴⁾ والشحيتي او الفسفسة لصغر حجمه والسمان والبليقي وابو الحناء والحمري او الطيون الذي يشبه الطين الاحمر بلونه . ومن العصافير المغردة التي يصطادونها لعذوبة صوتها وفرط جمالها الشحورور

(1) هو خميس الاموات ، وهو يوم الخميس الثالث من شهر نيسان ، ويقابله عند المسيحين خميس الاسرار ويستعد الناس له بسلق البيض الوانا بالاقحوان الاصفر والبرقوق الاحمر او بقشر البصل.

(2) يشبه القفص العادي ، وتوضع فيه الحبوب والديدان لاغراء العصافير بدخوله ، حتى اذا دخلت من بابا انطبق الباب عليها .

(3) يوضع الغرابيل مكفياً على الطارة ، وتنتثر الحبوب تحته ، ويرفع من نقطة فيه على خشبة بطول مناسب وترتبط بخيط يجذبه الطفل عندما تدخل العصافير لالتقاط الحب من تحت الغرابيل .

(4) ويسمونه في الطيرة: الدوري

والبلبل والعنديلين والقمرى. اما «عروس التركمان»⁽¹⁾ فلجمالها الفريد. واما الطيور المهاجرة فاكثرها الزرزور والسنونو والحسون التي تعبر سماء فلسطين في فصل الخريف باتجاه مصر.

ومن الطيور المطلوبة للقتل البومة التي يتشام القوم بها ولتحريم اكلها شرعا لأنها من نوات المخب. وتطارد القبرة لأنها تفتك بحبوب الفلاح ، وتعشش وسط الحقول ، اذ تهبط اليها من الجبل عند نضج الحبوب . تصاد القنابر وتؤكل وهي بطيئة الطيران. اما الطيور الجارحة ، وموطنها اعالي سفوح الكرمل الغربية المطلة على البحر المتوسط، واكثرها انتشارا غراب الغاق، وقلما يرى الصقر الشاهيني والعقاب، وأما النسر الاسمر الفلسطيني فيظهر بين حين وآخر لأنه يطوف بسماء الوطن المقدس باستمرار.

7- صيد السمك:

يتوقع القارئ عن بلد ساحلي كالطيرة ان يرى لصيد السمك فيه دورا بارزا في حياة اهله واقتصادهم ، لكن الامر كان على خلاف تلك التوقعات ، ونعزوه للاسباب التالية:-

- 1- نجاح الزراعة والتربية الحيوانية مما صرف الناس عن ركوب البحر اياما وربما شهورا بعيدا عن مصالحهم الحيوية التي تتطلب اشرفا مباشرا ومراقبة مستمرة ، مع ما يصاحب ركوب البحر من مخاطر وقلة عائد مادي. نسبياً.
- 2- استقامة الشاطئ المقابل للطيرة وعدم صلاحيته لرسو السفن فيه.
- 3- بعد الطيرة عن الشاطئ بمقدار يتراوح بين ألفي متر عن طرفها الشمالي وثلاثة آلاف متر عن طرفها الجنوبي ، وصعوبة تأمين حراسة الزوارق.
- 4- نشاط حركة الصيد في حيفا بفضل مينائها ، وفي عثيث على نطاق تجاري محلي ، وتزود الطيرة بما تحتاجه من هذا الغذاء الهام.

ولهذه الاسباب مجتمعة لم نر في الطيرة زورق صيد واحد، ومن رغب في اتخاذ صيد

(1) عصفور بطنه اصفر وجناحاه ورأسه ملون باسود وابيض وبني ، وطائر الشرقرق اجمل من عروس التركمان منظرأ .

الاسماك حرفة دائمة ، تحول الى عثليث. وفي هذا الميناء الأثري الصغير استوطنت أسر طيراوية بكاملها لتلك الغاية ، وأما من احتفظ بصيد السمك هواية عنده ، اشبعها بالسنارة والشبّاك واستخدام أصابع الديناميت ، لكن استخدام اصابع الديناميت ينطوي على مخاطر جسيمة ، فمن اخطأ التقدير في الرمي انفجر الاصبع بين يديه فترك فيه عاهة مثل بتر اليد او فقدان العين، وربما فقد الحياة ، كما رأيت بأمر عيني حالة واحدة عام 1946م حيث شاهدت صيادا⁽¹⁾ مزقت جلده شظايا الديناميت، ثم فارق الحياة وهو محمول على السلم كتنقالة فورية ، فوق اكتاف الرجال ، مات قبل ان يصل المستشفى لكثرة ما نزف من دمائه قبل وصول الرجال اليه.

والذين اتخنوا من الصيد حرفة او شبه حرفة هم ممن لا يملكون ارضا ولا شاة ولا بعيرا ولا تجارة.

يكاد المنزل⁽²⁾ ان يكون سوقا مركزية لبيع السمك المستورد من حيفا بأنواعه المعروفة في الساحل الفلسطيني الشمالي مثل البوري والسلطان ابراهيم والكبان والسفّرنى والغنبار وسرطان البحر والسردين أما حرنون البحر فلم يكن له رواج في السوق الطيراوية. وتصرفت المرآة الطيراوية في اعداد السمك وعرضه على المائدة اشكالا عديدة بين الصواني شواء او بالطحينية او مقلية او مقلوبة مع الارز، واكثر الصواني من السردين وسرطان البحر ، ويسمونه السرطعون أيضاً.

8- التجارة

في اعتقادنا ان الطيرة لم تعرف من اهلها تجاراً كباراً نوي تجارة برية او بحرية واسعة ، فلم تكن في يوم من الايام قصبه لنولة او اقليم ، ولا تقع على طريق تجاري وسيط بين قطرين . وموقعها الجغرافي لم يساعدها على ذلك، ولذلك جاءت فيها التجارة ضامرة بلا

(1) اسمه طاهر درياس

(2) ساحة عامة تتوسط البلدة، اتخذت موقفا للباصات والتكسيات بمساحة تقدر بتسعمئة متر مربع، وقد عبّدت بالاسفلت مؤخراً.

طموح ، وان كانت تشكل دعامة هامة في اقتصاديات العديد من الاسر ، وتؤدي وظيفتها على الوجه الاكمل فتلبي حاجات مجتمع ريفي زراعي، يخلو من الطبقات المتفاوتة كالاسر المالكة والارستقراطية او البورجوازية المتميزة والطبقات المتوسطة، والمنسحقة كمال تتوفر فيها مادة معينة وفيرة تشتهر بها، وتشكل فيها دعامة اقتصاد بارزة، فالماشية، ومنتجاتها التي تحدثنا عنها، لم تكن بحجم التصدير الذي يكفي مدينة حيفا وحدها، وخروجهم بمنتجاتهم الزراعية الى يافا والقدس والناصره وبيروت، لم يتعد اياماً معدودة في العام، وبكميات قليلة جداً، والخروب، دون سواه هو الذي يصدر بكميات كبيرة، وتقصده الشركات العالمية، واما الزيتون وزيته، فهو الوحيد الذي كان يرجى له تجارة رائجة مزدهرة لو توفرت له الحكومة الوطنية. واذا كانت الاقطار العربية، قد نكبت بجهالة الاتراك واهمالهم المتعمد لها، فقد اعقبهم الاستعمار عدواً شرساً للزيتون وأهله، وعمل على تدميره في الطيرة باتخاذ مخابى لقواته ومعسكراته، مقابل تعويضات سنوية زهيدة⁽¹⁾ لهذا لم تشهد تجارة الزيت نمواً منذ منتصف القرن التاسع عشر، الا بطريقة عصره بالآلة. الحديثة.

وقولنا هذا لا ينفي وجود عدد هائل من الدكاكين في الطرق الرئيسية داخل البلدة واحيائها، وبما يمكن ان نسميه سوقاً عامة، وشرياناً حيويماً فيها. وقد شهد نشاطاً ونمواً ملحوظاً في اربعينات القرن العشرين.

والطابع الغالب على الدكان شموليته، فهو سوق مصغرة، ترى فيها جناحاً للاقمشة واخر للنوفوتيه وكلف الخياطة⁽²⁾ وثالثاً للمواد التموينية والبهارات. ومن منتجات الالبان؛ اللبن الرائب والجبنه والسمن . وترى فيها القرطاسية والحاجات المدرسية، كما تجد البنور والمكسرات والمواالح والسكاكر وحلوى الطفل، او تجد فيها الحبوب والادوات المنزلية، واذا اهل رمضان والاعياد امتلأت بما يحتاجه الناس احتفاء بهذه المناسبات المباركة.

وكنت ترى الفواكه المستوردة في مواسمها كالبرتقال والموز وقصب السكر والبلح في العديد من الدكاكين .

(1) كان الانتداب يدفع مبلغ نصف جنيه عن النونم الواحد في الارض المشجرة ومثلها للارض المفتوح.
 (2) لم يكن في الطيرة خياط واحد للالبسة الرجالية، وانما كان ذلك من مهمات الزوجة قبل ظهور الخياطين في حيفا. اما الالبسة النسائية فظلت خياطتها من مهمات المتفرغات وغيرهن داخل البلدة.

قلما نجد في الطيرة دكاناً متخصصة بصنف او صنفين غير ادوات مواد البناء .
ومما يدخل في باب التجارة، وهو بالعمل اليدوي اولى حجارة البناء ، فقد كثرت المقالع،
المحاجر - في وادي فلاح ووادي عبد الله وصناعة الكلس او الشيد، وقد راجت وكثرت معاملها
في الاربعينات، في وادي فلاح ووادي مسلية ، وكانت على نطاق تجاري جيد.
اما الفحم فقد ضعف انتاجه والاتجارُ به ، وكسدت سوقه بعد ظهور النفط. ومما
يلاحظ في الاصناف الثلاثة الاخيرة، انها كانت لزيادة الدخل لدى معظم العاملين ، ولم تكن
المصدر الوحيد في دخلهم.

9- الحرف اليدوية

بظهور النفط والكهرباء، شهدت الحرف اليدوية في الطيرة تراجعاً وضموراً ، فعلى
الرغم من مرور خط الضغط العالي لشركة كهرباء « روتنبرغ⁽¹⁾ » من الاراضي الطيراوية، فقد
حرمت الطيرة كغيرها من القرى العربية من التزوّد بالكهرباء بينما زوّدت بها المدن الرئيسية
والمستوطنات اليهودية ، مهما صغر حجمها وقلّ عدد سكانها.
وعلى الرغم من تحوّل الطيرة الجزئي ببعض الحرف اليدوية الى حيفاً ، التي استقطبت
نوي الخبرة والكفاءة الفنية من بلدان اخرى ، فقد احتفظ الطيراويون لأنفسهم بالحرف اليدوية
ذات الحاجة الماسة فكثرت بينهم الخبازون والقصابون والحلاقون والبناعون وصانعو الاحذية ،
وقليل من التجارين والحدادين والمنجدين وصيادي السمك، واسهم انتشار الالة الحديثة
والكهرباء في ضمور هذه الصناعة في الطيرة وتمركزها في حيفا.
وتعثرت صناعة الفخار التي قامت على الشاطيء ، ولم تشهد نمواً او تطوّراً على
الرغم من توفر الرمل والجير المادة الخام المجانية ، الا ان اعتمادها على الدولاب الخشبي الذي

(1) بنحاس روتنبرغ، يهودي روسي، مؤسس الشركة عام 1929م، باسم شركة كهرباء فلسطين، وهو صاحب امتياز استغلال مياه نهر الاردن واليرموك عند موقع جسر الجامع، حيث أقام اليهود مستوطنة "نهارايم" ومدة العقد 70 عاماً، والارباح مناصفة بين الشركة وبريطانيا، دون النظر للوجود العربي صاحب الارض والمياه، وسمح للاردن فقط بتزويد مدينتي السلط وعمان بالكهرباء.

يدار بالرجل ، حكم عليها بالبطوء في الانتاج وقلة الارباح .

والمشتغلون بالحمص والفول وتقديم المدمس في الطيرة موجودون منذ عهد بعيد، لكن ظهور المطاعم المتخصصة قد تاخر الى الاربعينات، اي بعد ان كثرت العمالة الوافدة، من داخل فلسطين والاقطار العربية المجاورة، واكثرها من مصر والاردن للعمل في الحقول. واما السوريون واللبنانيون ، فكان اكثر عملهم في معسكرات الجيش البريطاني ، فأنزلتهم حكومة الانتداب في معسكر خاص ، عرف باسم «كامب السوريين» على طريق حيفا من الجهة الشرقية في موقع العزيزية.

ومن البداهة ان يكون البناء وصناعة المحاريت، من اهم الحرف اليدوية واقدمها انتشاراً في الطيرة، فكان فيها البناؤون والدقاقون للحجر بالوجه الثلاثة؛ الطبزي⁽¹⁾ والمسمم والحمصي، وعمال الطراشة والدهان والقسارة . ولانعدام الكسارات في البلدة، كان الفقراء يقومون بجمع الحصى من الاودية وتكسيروها وبيعوها، وربما تولى الامر اصحاب العمار بانفسهم، وعندما نشطت الحركة العمرانية في الاربعينات، حصل عجز ظاهر في البنائين، فاستدعى الناس البنائين من العرب، ذوي الخبرة والكفاءات في ابنية الطراز الحديث بالاسمنت المسلح للسقف، اما الجدران فقد ظلت من الحجر.

واشتغل اناس بالسمكرة وتصليح موقد " البريموس" وعمل اباريق التوتياء، ووجد الحلاسون والمنجدون. ومن كرم النفس ، لم يمنع الطيراويون منافساً لهم في مهنة شائعة لديهم، فقد نزلت في زيتون الحارة القبليّة، عائلة " ابو ماياها" النورية، واشتغلت بالحدادة العربية وامضت في الطيرة بضع سنين، على الرغم من وجود عدد لا بأس به من النجارين والحدادين صناع المحاريت من امثال حسن العيسى، ونمر الصفوري وفرعون العبويني ومصمود عبد الحليم وهاشم الغزاوي واحمد علي باكير، وفهد علي باكير وغيرهم. وان كان بعضهم قد تحول بمهنته الى حيفا.

واستجابة لنوعي التطور الاجتماعي السلبي والمتغيرات المعيشية على الارض الطيراوية وفي العالم ظهر المقهى كحل للتسكع في الطرقات قبل ان يستفحل خطره بين افراد الطبقة

(1) الطيز : ركن الجبل: ومن حجارة البناء ما اصلحه الدقاق من جهة اضلاعه فقط، واغفله من النقش.

العاملة الحديثة، من اجل تدمير الارض الخصبة بالمنشآت العسكرية، التي اقامها الانتداب فوق الارض الزراعية، وبين اشجار الزيتون، ومن نظام العمل المحدود بثمانى ساعات خمسة ايام في الاسبوع، لبعضهم او ستة ايام لبعضهم الاخر، فقد كان الاحد يوم العطلة الاسبوعية لحكومة الانتداب، مما ترك فراغاً للعمال يقطعونه في المقهى حول طاولات القمار او التسلية بالنرد الورقي: "الشدة".

وبالمذايع الحديث العامل بالبطارية السائلة⁽¹⁾، والذي رافق نشأة المقهى، استهوى افئدة الناس بغناؤه واخباره، وازداد الميل الى سماعه مع نشوب الحرب العالمية الثانية، فاستقطب الرجال من مختلف الفئات والمستويات .

انتشرت المقاهي حول الشارع المعبد الوحيد في الطيرة، وكانت الكراسي فيها خشبية قشبية، صغيرة الحجم قليلة الارتفاع، والتزمت بتقديم القهوة والشاي والكاكاو والتمباك "العجمي" على "الأرجيلة". ولم تتجاوز ذلك الى المسكرات، وان نشط القمار فيها ليلاً وسراً ، فكانت وبالأعلى كثير من البيوت، اذ كان بعض المقامرين يبيعون املاكهم بالميراث، ويخسرون معها كرامتهم ومكانتهم الاجتماعية.

بلغت المقاهي عشرة عرفت باسما اصحابها من غير لافتات؛ ثلاثة⁽²⁾ منها عند مدخل البلدة الرئيس الشمالي، واثنان⁽³⁾ حول مدخل المنزل ، جاء احدهما كمنتزه باشجاره . واربعة⁽⁴⁾ نشأت قريباً من ثاني المسجدين، واما العاشر⁽⁵⁾ فهو الذي افتتحه صاحبه في الحي الجنوبي التجاري، نسميه هكذا تجاوزاً، اذ لم يكن تجارياً بالمعنى الدقيق للكلمة.

9- وسائل النقل

اول وسائل النقل في التاريخ هو الانسان نفسه؛ الرجل بظهره وكتفيه، والمرأة برأسها. وما زلنا نشاهد واسطة النقل الأدمية في كل بقاع الارض، مع التنبيه الي ان المرأة تون

(1) كانت تشحن بالكهرباء في حيفا كلما ضعفت شحنتها .

(2) مقهى "ابو حمود" و"المصاروه" وساجع تيم".

(3) مقهى "دار الهندي" ومقهى "حسن الشمسي" وهو شبيه بمنتزه.

(4) من الشرق الى الغرب: مقهى "غانم" و"دارمحبوب" و"نايف العبد" و"ابوشعواطة".

(5) مقهى "رضوان الزعوط".

الرجل استخداماً، وغالباً ما تحمل لنفسها ولا تؤجر رأسها، وإذا عملت ففي الحقل غالباً، ونأت بنفسها عن الاحمال الثقيلة ، وفي الريف الفلسطيني يشيع مثل عند المرأة كما نسمعه في طيرة الكرمل " على راسك غرارة ولا بايدك صرارة"⁽¹⁾.

وفي جنوب شرق اسيا يكثر ظهور هذه الوسيلة الأدمية، وسيلة كسب لعيش ، في جر العربة التي تنقل الناس وامتعتهم بين الاحياء في المدن الكبيرة، وتعرف هذه الوسيلة باسم " العتال"⁽²⁾ وقد ظهرت في الطيرة من غيرها لها ، اي من العمالة الوافدة كما ظهرت عربة اليد في نقل الامتعة والاشياء الخفيفة واعمال البناء.

واستعملت الدراجتان؛ الهوائية والنارية للركوب الشخصي داخل القرية وخارجها. اكثر وسائل النقل شيوعاً، واقدمها استعمالاً، العربة ذات العجلات التي تجرها الدواب من الخيل والبغال والحمير، كوسيلة انتاج، وربما تكون الوحيدة للأسرة الفقيرة ، والعربة هذه هي الشائعة في الريف الفلسطيني، واصغر انواعها حجماً الطنبر نو العجلتين، وهو عرض القاعدة، ويجره حصان او بغل. اما الاكبر حجماً فهي باربع عجلات ويجرها حصانان ، ويضيفون اليها معرشة خشبية كاشاحات لنقل الاحمال الخفيفة كالتبن والقش والصوف. واستعملت في الطيرة لجميع اغراض النقل بما فيها نقل الركاب قبل ظهور الحافلات الآلية. اما الحنطور الذي شاع⁽³⁾ استخدامه في حيفا والمدن الاخرى ، فلم يأخذ به الطيراويون لعدم صلاحيته في القرية او الحاجة اليه، وان كان منهم من استأجره لزفافه في يوم عرسه، مع الموسيقى التي تصدح بين يديه كمظهر من مظاهر البذخ والعظمة الزائفة.

ورؤية العربة لم تلغ رؤية الحصان والبغل والحمار والجمال، ووسائل النقل الاولى وعوامل اساسية في الاقتصاد الداخلي والاستعمال الخاص والعام، الى جانب استخدامها في الاغراض الزراعية والمنتجات الحيوانية الاخرى.

(1) الغرارة في الوزن تبلغ اثني عشر كيلاً. والصرارة من الحجارة : الحصة.

(2) العتلة: القطعة او الكتلة بالحديد يستعين بها العتال على الحمل ، وبها سمي.

(3) عربة باربع عجلات يجرها حصانان، لصندوقها الخشبي جلد يطوى وينشر بحسب الحالة الجوية، اولى ووسائل النقل المتطورة داخل المدن، ومجمعها في حيفا على " ساحة الحناطير".

والجمل في الطيرة حظ كبير في الاقتصاد، إذ يقتنى للنقل أكثر من اقتنائه للحومه والبانة، فقد مر زمان كان فيها الجمل الوسيلة المعتمدة في نقل المحاصيل، وسيظل يذكرنا بالهودج للظعائن أو العروس المغتربة، كبعض تراثنا القديم، وإن كان جيل المتأخرين لم يشهده في قريتهم منذ أواسط الثلاثينات.

في مطالع الثلاثينات من القرن العشرين، كانت طيرة الكرمل في مقدمة القرى في المشرق العربي في استخدام الشاحنة الآلية⁽¹⁾ للنقل العام، ولعلها أول قرية فلسطينية ملكت حافلتين اثنتين للركاب منذ الوهلة الأولى، وما إن أهل عام 1938م حتى تأسست شركة بإصاات الطيرة من ستة مساهمين هم حسن الزهرة وحسن العبد وكامل عبد الله من عائلة عمورة، ونمر الزعيترو والحاج يوسف من عائلة أبي راشد، واحمد حمد ابو غيدا. وسرعان ما نمت هذه الشركة⁽²⁾، واتسع نشاطها حتى غدت من كبريات الشركات العربية في فلسطين، تملك إحدى عشرة حافلة، تسعة منها عاملة واثنتان موقوفتان رهن البيع، وكانت لها طموحاتها في التوسع والنقل البري عبر الاقطار العربية، وابتدأت توسعها بمد خطها من حيفا الي باب العجل، حيث تلتقي اراضي الطيرة باراضي عتليت وعين حوض جنوباً.

ازداد اعتماد الطيرايوين على المركبات الآلية، لما تمتاز به من اقتصاد في الوقت والجهد والنفقة النسبية الى نفقة الحيوانات، وازضافة الى ذلك زيادة في العائد المادي السريع، فاكثروا من شراء الشاحنات، حتى بلغت ثماني شاحنات عام 1948م. ولزاياء الآلة المتفوقة على الثور والحصان في الحراثة، ادخلوا الجرار " التراكور"، ادخله الحاج يوسف ابو راشد.⁽³⁾

وفي اواسط الاربعينات أسس مجموعة من الافراد شركة تكسيات المستقبل تلبية للزيادة السكانية المطردة وكثرة ضغط العمالة الوافدة والمستجدة على الباصات، وكان عمل

(1) اول من ادخلها احمد كامل الناجي وشريكه الحاج يوسف ابو راشد من انتاج شركة " فولفو" ثم اشترى المختار عبد الله السلطان حصة الناجي، وفي عام 1945 حول الى حافلة.

(2) انضم المختار عبد الله السلطان الى الشركة في عام 1946م ليصبح للحاج يوسف اثنا عشر سهماً وكل من الباقيين عشرة اسهم.

(3) من ماركة كاتربلر، وكان بمغارز حديدية ثم استبدله بجرار انترناشيونال.

الشركتين حتى منتصف الليل وبشكل تنافسي، وقبل قيام شركة المستقبل كان في الطيرة سيارتان صغيرتان تعملان بالاجرة بين الطيرة وحيفا منذ عام 1938م.⁽¹⁾

10- العمل والعمال:

من الانعكاسات التي احدثها اغتصاب الارض وتدميرها بالمعسكرات، ظهور طبقة عاملة في الطيرة؛ طبقة غريبة عن الارض وفلاحتها، أخذت تلتمس العيش في مصانع حيفا ومشاغلاها، في الميناء ومصفاة النفط ومعامل الاسمنت والتبغ، وفي المتاجر ومرائب السيارات، وغيرها، عمالاً فنيين او شبه فنيين. ولكن ضيق هذه المرافق عن الاستيعاب، بحكم سياسة الانتداب وجعلها محدودة امام سكان البلاد الاصليين، ومفتوحة امام المهاجرين اليهود، هو الذي وجه العدد الاكبر ممن فقد الارض من العرب تلقاء معسكرات الجيش البريطاني، والاصطفاف في طوابير طويلة، تعرض نفسها للتفتيش الشخصي، مع ما يحمله التفتيش من مهانة واذلال، من عدو يغتصب الارض ويصادر الحريات.

كانت الرسائل تخرج من فلسطين الى وزارة المستعمرات، والتي رئاسة الوزارة البريطانية، لتتفق اذهان الساسة عن ابشع اساليب الاجرام والظلم وتهويد البلاد. ففي الرسائل يعترف تقرير بالقول: ان خمس القرويين العرب قد اصبحوا بالفعل نون ارض يمتلكونها، كما ان عدد العمال العاطلين في المدن أخذ في الازدياد.⁽²⁾

كانت بريطانيا تجرد الفلاحين من اراضيهم، وتحرمهم، من فرص العمل التي تتيحها لليهود، واذا ما اضطرت الى استخدامهم يداً عاملة، كاضطرارها اليهم في معسكراتها حول طيرة الكرمل، انتهجت سياسة التمييز العنصري في الاجور بين العرب واليهود؛ اذ كانت تدفع للعامل العربي اكثر من نصف ما تدفعه للعامل اليهودي بقليل، في الموقع الواحد، من نفس المهنة والمؤهل، وتصنّفه ضمن دائرة العمال متوسطي المهارة، او بلا مهاراً مطلقاً، بينما تصنّف العامل اليهودي كخبير فني او كمهندس كامل التأهيل، ولو بلا شهادة، لمن له ادنى علم بعمل،

(1) اولهما، وهو السابق لراغب درياس و ثانيهما لموسى الفرعون.

(2) تاريخ فلسطين الحديث، ص 294.

وذهبت الى عدم احتساب سنوات الخبرة للعامل العربي مهما بلغت.⁽¹⁾ وغضت النظر عن علاوة الزوجة وعدد الاولاد وما يستتبع ذلك من رعاية صحية وتعليمية وعجز بالاصابة اثناء العمل ولا تقاعد له ، واشتطت في الابقاء على سلم الاجور ثابتاً اكثر من سبع سنوات، بينما فتحت لليهود سقف الاجر خلال مدة العمل، وضمنت له كافة الحقوق التي تضمنها قانون العمل والعمال، علاوة على مظلة "الهستدروت"⁽²⁾ النقابية العمالية اليهودية.

كان اغضاء الانتداب البريطاني ، عما يقوم به الصهاينة من اعمال التنظيم العسكري والمدني نذير خطر وتنبية للعمال العرب الى ضرورة تنظيم صفوفهم، والدفاع عن مصالحهم، وابتداءً عمال سكة الحديد في حيفا الخطوة الاولى بالالتفات الى مساعدة بعضهم بعضاً. ثم تطورت فكرة المساعدة الى فكرة عمل نقابي للعمال العرب العاملين في القطاعات الاخرى في حيفا، فتقدم عبد الحميد حيمور⁽³⁾ الدمشقي الاصل، وسامي طه⁽⁴⁾ من عرابة/قضاء نابلس وآخرون، تقدموا بطلب الى الحكومة للموافقة على جمعية العمال العربية الفلسطينية، ومركزها حيفا، وتضمن الطلب اغراض الجمعية واهدافها في فتح فروع لها في كافة انحاء القطر الفلسطيني، فصدرت الموافقة على تأسيسها في 1925/8/8م وعلى الفور نشطت في فتح فروع لها حتى بلغت 42 فرعاً يضم زهاء 120.000 (مئة وعشرين الف⁽⁵⁾ عامل) عام 1948م، وبين لحظة واخرى كانت تنبعث من داخل صفوفها وقياداتها دعوات الأُممية والاشتراكية، وفي واحد من مؤتمراتها العامة طرحت فكرة عمل نقابي عربي يهودي موحد، كما جرت محالوات

(1) المصدر السابق ص424,423، من خلال عرض لتقرير مقارنة الاجور بين عامي 1931 و1938، وقد تناول

التقرير مجالات الزراعة والبناء والمعادن والحياسة والصابون والتبغ، ويذكر التقرير مقارنة الاجر للمرأة العربية واليهودية، ويكشف عن ثبات الاجور في مجالات وانخفاضها في مجالات اخرى.

(2) الاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين، تأسس عام 1920، ومن اهدافه استيطان فلسطين ضمن اطار الفكر الصهيوني. بلغ المنتسبون اليه عام 48 م مئتي ألف عضو .

(3) يعتبر الاب الروحي للجمعية بحسب تعبير الموسوعة الفلسطينية.

(4) امين عام الجمعية منذ مطلع عام 1944م، عمل في صدر شبابه كاتباً خلفاً لابييه في محجر في حيفا، اشترك في الوفد الفلسطيني الذي فاوض بريطانيا سنة 1946.

(5) العدد ضئيل بين العرب وهم الاكثرية بازاء الهستدروت البالغ مئتي الف عامل .

لتحويلها الى حزب سياسي بفكر اشتراكي يساري يقبل اليهود شركاء في الوطن ، مما ادى الى انشقاق داخلي وصراع من اجل السيطرة على دفة القيادة ، وخرج بها عن مسارها الاصل في خدمة العامل العربي، كما زج بها في صراعات حادة مع الاحزاب التقليدية والهيئة العربية العليا، فارتد ذلك عليها بالضمور، اذ أحجم الكثيرون عن الانخراط في صفوفها. كانت العين الطيراوية، بحكم القرب من مركز الجمعية، اكثر العيون اطلاقاً على مجريات الحوادث، فاتخذت منها موقف الحياد الايجابي، فلم يشترك العامل الطيراوي في اتون الفتنة والاغتيالات التي انتهت باغتيال "سامي طه" الامين العام للجمعية في حيفا مساء 1947/9/11م.

كان سعيير الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء⁽¹⁾ بزعامة بريطانيا ودول المحور⁽²⁾ يدفع بريطانيا الى كسب الهدوء ، ولو مؤقتاً ، في مستعمراتها، فأخذت ترفع سقف الاجور للجميع، مع الحفاظ على سياسة التمييز والتفوق في الاجر للعامل اليهودي بحسب النسب الاولى، حتى بلغ معدل الاجر للعامل العربي ستين قرشاً، وبلغ الضعفين تقريباً لاجر العامل اليهودي في عام 1948م.

التزم العرب واليهود جانب الهدوء النسبي ، لانهم كانوا في حالة ترقب لما سوف تسفر عنه الحرب الدائرة. فلم يحرز العامل العربي اي مكاسب تذكر ، غير ما تجود به حكومة الانتداب.

بلغ عدد العمال في الطيرة عام 1947م ثلاثة الاف⁽³⁾ ، اكثر من نصفهم من الطيراويين، والباقيون من اليد العربية الوافدة⁽⁴⁾ ، وهذه نسبة عالية جداً من قرية يبلغ عدد سكانها عشرة الاف نسمة، والعدد المذكور لا يتضمن العمال من الأسر الكثيرة التي نزحت الى حيفا واستقرت فيها، ويقدر عددها بأكثر من 80 أسرة.

(1) دول اوربوا ابتداء ثم انضم اليها الولايات المتحدة الامريكية وروسيا .

(2) هي المانيا وتركيا واليابان.

(3) الحد الادنى من العمر للعامل هو 16 سنة.

(4) من حديث مع المسؤول عن تسليم التذاكر للباصات (احمد عيسى ابوراشد) .

ظاهرة اليد العاملة كطبقة كادحة ومحرومة، فوق الارض التي تفيض لبناً وعسلاً
 ظاهرة مرضية، بأسباب خارجية طارئة، تؤثر في سلامة التركيب الاجتماعي والنظام
 الاقتصادي، حيث لا يستفيد من جهد العامل وطن ولا مواطن، ناهيك عن تدمير العامل نفسياً
 ، بتخطيط منظم يهدف الى سلب الانسان الفلسطيني قدرته على الدفاع والمقاومة، والى صرف
 تفكيره عما يدبر له من كيد لطرده من ارضه، غير ان نشاط الطيرايوي العامل في المجالات
 الاخرى، اخر كثيراً من نفاذ السم الذي اريد له ان يتجرعه، فاعطى الطبقة العاملة المستحدثة
 صفة التماسك والاحتفاظ بالكرامة والقدرة على الصمود وحمل السلاح، عندما اصبح حمله
 فوق كل اعتبار.

تماسك الطبقة العاملة تماسك افراد بلا قيادة ولا توجيه ولا فكر سياسي جامع، ومع
 ذلك، كان لها رأيا في سلامة الوطن والدفاع عن استقلاله وخلصه لأهله الشرعيين . وبهذا
 المفهوم رفضت اليهودية، وقرار التقسيم، رفضت الصهيونية ووجودها وجوارها ومشاركتها
 فلسطينها، لا من كان قبل عام 1918م ولا بعده⁽¹⁾ وهذا هو رأي المسجد وأهل الرأي في
 الطيرة.

(1) كانت جميعة العمال ترفض التقسيم، ولكنها تعتبر اليهود ما قبل عام 1918 مواطنين فلسطينيين وهذه
 نقطة خلاف في الرأي مع الطيرايويين الذين يرفضون من اليهود من دخل فلسطين بعد عام 1908م اي
 بعد الاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني- من حديث مع الحاج يوسف أبو راشد .

جد الحياة الفكرية

مصادر الفكر في الأرياف

الفكر من اعلى خصائص الانسان المميزة ، وهو فيه ميزة ثابتة. وبالفكر يصنع الانسان ايمانه الذي يحقق له الراحة النفسية وأمنه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبه يطرد من حياته الخوف من المستقبل المجهول.

والايمان بالغيب هو الموضوع الذي تلتقي فيه الرؤى الفكرية في الارياف والبيئات الزراعية ، حيث مجال التأمل والاستقرار في الكون ومجريات الحياة، وما وراء ذلك ، يتسع للانسان كلما اتسعت امامه سبل العيش . وتكاد تلك الرؤى تنحصر في تيارين رئيسين هما الوثنية والكتاب، وكلاهما دين في نظر صاحبه. اما الوثنية فهي الاطروحة البكر لدين من نتاجات العقل البدائي، واما الكتاب فهو إما سماوي خالص كالقرآن الكريم، وإما فيه لمسات سماوية مشوشة ، وعبر التاريخ ظل هذان التياران اهم مصادر المعرفة عن ماضي الانسان السحيق ومستقبله البعيد ، وبهما اثري الادب العالمي واخصب اعظم روائعه ، وبمعنى اخر كان الدين وما يزال مادة الفكر وهويته وصبغة السلوك لمعظم سكان الارض.

وبالثورة الصناعية التي شهدتها اوربا ، ظهرت رؤى فكرية نأت عن الايمان بالغيب، واتسمت بالشكوك فيما لديها من تراث فكري، فبرزت القومية والاشتراكية والوجودية، والنفعية (البراجماتية) والعلمانية مؤخرا ، واتسم العصر الذي ابتدأت به نهضتها بـ«التنوير» حيث ارتقى العقل البشري في معارج المعرفة ، وما هي الا من العقل الاوربي الذي انتابه القلق والاضطراب، واستبدت به دوامة العلاقات السياسية والاقتصادية المتشابكة وما رافقها من صراعات على الاسواق ومصادر المواد الخام. وقد يعبر عن هذا بالصراع من اجل البقاء.

تلك الرؤى الفكرية الغربية انطلقت من نزعة السيطرة، ومن المادة التي تتعامل معها

ونسبت لذاتها الواقعية ، فلا غيب عندهم وراء دائرة العقل وسلطانه ، ولهذا يتعايشون باخلاقيات المنافع المتبادلة والمصالح المشتركة ، فلا حلال ولا حرام الا ضمن ذلك واكثر ما تتجلى هذه الاخلاق في رجال السياسة اثناء رسم الخطط للعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والامنية على الصعيدين الداخلي والخارجي وغالبا ما يكلفهم هذا سفك دماء من مذنبين وابرياء.

وعلى النقيض من هذا، نرى الايمان بالغيب تغذيه خيالات مجنحة، وتنتعش فيه الاساطير والمبالغات ، والوعد والوعيد ، والمتصوفون الابطال والقديسون والروحانيون . وويل لمن يخطيء في حق المقدسات ، لأن القداسة هي انعكاسات المؤمن على معتقده، والاعتداء عليها، اعتداء على المؤمن نفسه . لذلك نرى اهل الديانات بشعائر وطقس وحدود لا يسمحون لانفسهم ولا لغيرهم باختراقها ، واذا اخترقت من اي جهة كانت، اظلمت الدنيا وغاب العقل وخرست اللسان وتكلمت القوة وحدها.

واين تقف طيرة الكرمل من هذه الرؤى الفكرية؟

لا بد ان تكون الطيرة قد عاشت وثنيتها على عبادة «بعل» اله الكنعانيين بصفتها بلدة كنعانية . ويظهر المسيحية سقط «بعل» كمعبود ثبت بطلانه في النفوس المتعلقة بأوهامه ولبست الطيرة مسوح المسيحية وبنيت لعبادتها كنيسة لأداء طقوسها ، ثم ديراً . وفي اعتقادنا انه على الطريق الذي مر به المسيح عليه السلام ، وهو عائد من مصر الى الناصرة عبر الساحل الفلسطيني، ان لم يكن في موقع شهود المسيح يجلس فيه للراحة.

والباحث في تاريخ الفكر ، يلحظ تأثر الرؤى الفكرية الوافدة على أمة ما، بمؤثرات البيئة المحلية بما يتفاعل فيها من ارسدة فكرية قديمة، وطيرة الكرمل لا تستثنى من هذه القاعدة ولا تشذ عن خطوطها ولا تختلف عن صورها ، فلما شع نور الاسلام في الخافقين ، ووضع الطريق المستقيم ، أثرت الطيرة ان تسير وسط النور ، حيث رأت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة المسيح عليه السلام تنطلقان من مصدر واحد هو السماء ، ومن قاعدة

واحدة هي «لا اله الا الله وحده، لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » فاسلمت لله وجهها وحولت كنيستها مسجدا ، وخرج رهبانها من الدير ليستأنفوا الحياة رجالا اسوياء عاملين منتجين ، لا يعيشون على الصدقة ، وشهدت فلسطين تحولا فكريا عظيما اعقب الفتح الاسلامي، ولا نزع ان الطيرة كانت سبابة في التحول ، لكن ما حدث فيها، له في غيرها احداث مشابهة ، فكم من قرية نسبت الى دير ثم هجره اهله وصاروا مسلمين⁽¹⁾ .

والاسلام في اخص خصائصه انه دين الحياة ، ميداني وليس بيروقراطياً⁽²⁾ داخل جدران المساجد، وانما يتغلغل في النفوس ، يرحل معها ويدخل بها كل مجالات الحياة وكل ثناياها حتى يصبح الموجه لها في البيت والحقل والشارع والدكان والبيدر ، والمعاملات الشخصية والعلاقات الاجتماعية في الزواج والطلاق والميراث والصدقات والنور والجهاد والرجولة والتربية والتعليم، ولا يفارق المسلم في طعامه او شرابه ، ونظراته وخلجات نفسه ومجالسه وخلواته ، وإنه ليعمل على تحديد المواقف من الاجانب واهل الديانات الاخرى في سلم وحرب.

كان المسجد في الطيرة كما في غيرها، مدرسة القوم في علوم الدين والدنيا، الى جانب كونه مكانا للصلاة الجامعة ، فدرّس العربية قراءة وكتابة ، ودرّس الفقه والسيرة والحديث والتوحيد واحكام التلاوة، وعمل على تحفيظ القرآن وتعليم الحساب وكان الطلاب في البدء رجالا او شبابا يافعون يراعون حرمة المسجد وطهارته، ولما اقبل الصبية الصغار على العلم ، واقتضى الامر الخروج بهم الى مكان خاص هو الكتاب⁽³⁾ الملاصق للمسجد حتى يتمكنوا من تعلم الصلاة وادائها جماعة، ظل الكتاب بطابع المسجد ونظامه في التعليم والمناهج، والمواد التعليمية، اي انه اصطبغ بالروح الايمانية ومثالياتها.

(1) مثل دير بلح، دير شرف، دير الغصون ، دير غسانة ، وغيرها كثير.

(2) كالصلاة مثلا«وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا ، والزكاة عمل ميداني لا ترتبط بزمان او مكان الا بشروط الاداء ، والمعاملات الشخصية التي بلا حصر تؤدي ميدانيا.

(3) جمعه كتاتيب ، يتولى التدريس فيه معلم واحد، ويجتمع فيه التلاميذ من مختلف السنوات والصفوف ، ويستعين المعلم بطلاب الصفوف العليا على تعليم الصفوف الدنيا.

وعلى الرغم من واقعية الاسلام وموضوعيته في تفسير الظواهر الطبيعية ، الا ان اتساع الامية، وميراث الشعب من الاساطير التي تعمقت جذورها في ثقافته، كذلك ادى انعدام البحث العلمي والتحقيق الى ان تضرب الخرافة والشعوذة سهامها في نفوس البسطاء، واليها نعزو سيادة بعض المعتقدات الخاطئة والسلوكيات الشاذة ، والتي البست مسحةً ، دينية مثل خروج المرآه الى القبور للزيارة في ايام الاعياد وأمسيات الخميس وخميس الاموات ، وتقديم الطعام عن روح الميت في اليوم الثالث لوفاته ، والاحتفال بمضي اربعين يوماً علي موته⁽¹⁾ والقول بعودة الروح الى منزلها للزيارة في الايام الاولى بعد وفاته وخرافة الصدى⁽²⁾ او صيحة المقتول ، ورؤية العجائز تحمل نذرها الى مقامات الاولياء الصالحين كالخضر عليه السلام، او مارالياس⁽³⁾ في حيفا على الرغم من تشدد الشرع في كراهة ذلك وتحريمه.

وامتد الاثر الى الاعتقاد بأحداث المستقبل الكبرى، كل ذلك بون ان يمس عقيدة التوحيد الاصل في نفوس المؤمنين.

وظاهرة المعتقدات السخيفة تعشش في المدن والقرى وفي الحواضر والارياف ، ظاهرة عامة ، وهي وافدة على الفكر الشعبي من ديانات وثنية ، اي انها من الانسان نفسه ، ثم البسها مسحة دينية ، ربما لانها ذات خلفية دينية في بعض منها ، وحين نستعرضها نجدها حالات مرضية نفسانية، هي بعلم النفس الصق، ولا يستحيل تفسيرها ، ولكن الصعوبة في سعة انتشارها وتمكنها من النفوس في اوساط العامة بنسبة اعلى منها في اوساط المثقفين، وان الانسان اسرف في تقديرها والتعايش معها، حتى اصبحت خفية كامنة في اللاشعور، من ذلك الايمان بالاسرار والكرامات لأناس قيل ان لهم جدوداً صالحين ، فالتمسوا عندهم الخير

(1) اصل الخرافة اسطورة فرعونية ملخصها: ان حربا دارت بين الالهين «ست» و«ايزيس»، انتصر «ست» ونثر جثة المقتول على كل ارجاء مصر فاخذت الالهة «اوزيرس» زوجة المقتول بجمع اشلاء زوجها ، وتم لها ذلك بعد اربعين يوماً من مصرعه، وعادت الروح الى ايزيس فاحتفلت بنجاح عملها ، وبعودة الروح والحياة ثم صار الاحتفال بمناسبة الاربعين عادة ، والعادة محكمة وغلبت حتى على المستنيرين.

(2) جسد الادمي بعد موته، او حشو الرأس والدماغ، وطائر يخرج من راس المقتول اذا بلي-ميراث جاهلي-والصدى ايضا هو ذكر البوم، وكذلك رجوع الصوت.

(3) لا يفرق المسلمون في الايمان والتقدير بين انبياء الله المذكورين في القرآن الكريم.

والبركة⁽¹⁾ ومن الناس من آمن بالتيمّن والتفائل⁽²⁾ والتطير⁽³⁾ والحسد والاصابة بالعين⁽⁴⁾ ، فاتخذوا الحجب والشبة^{مَدَمَّ} والخزعة الزرقاء، وعلقوا حنوة الحصان⁽⁵⁾ على مداخل البيوت، وقصد اناس ضاربات الرمل والودع وقارئات البخت والفنجان وما يسمونهم الفتحاحات، وكأثمهم يطلعون الغيب ، واشتط الناس في ذلك واسرفوا حتى التمسوا عندهم الوصال والانفصال. واكثر المعتقدات غرابة وابعدا عن الصواب ، ضعف الايمان بالطب الحديث ، او الطب التجريبي بالاعشاب واللجوء الى المشعوذين ، لاجراج الجان من مجنون بالعصا ولهيب السياط⁽⁶⁾ ، وهذه ليست اسخف ولا اغرب من تفسير ظاهرة خسوف القمر بابتلاع الحوت له⁽⁷⁾.

ومهما توارى مرضى المؤمنين بهذه السخافات باسم الدين، يظل القرآن الكريم بوظيفته الشاملة ورسالته العالمية، هو الاساس الذي يهدف، بين ما يهدف اليه، شفاء للصدر وراحة للنفوس وسكينة، يوجه اهله الى الله تعالى في طلب العون وقضاء الحاجة ، بحسب ما امر به من استخدام العقل والعلم والعمل، في كل ما يعرض لهم، او يعتزمون تنفيذه وحصوله. كانت الحركة العلمية ومؤلفاتها ، والنهضة الثقافية ومطبوعاتها ، وليدة ما تزال تحبو،

- (1) في الطيرة ، قيل ان سعد الدين الذي ينتسب اليه عائلة السعدي كان صالحاً .
- (2) بخلفية دينية اصلها استسقاء الخليفة عمر بن الخطاب بعبد الله بن العباس رضي الله عنهم .
- (3) يقال في المثل: اشأم من طويس الذي ولد يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم وقطم يوم وفاة ابي بكر واحتلم يوم وفاة عمر وتزوج يوم قتل عثمان رضي الله عنهم جميعا . والامثال في الشؤم كثيرة لعل اشهرها : اشأم من البسوس . مثل جاهلي .
- (4) الحسد مرض نفسي اصلا ، يتمنى الحاسد زوال النعمة عن صاحبها ، ويتخذ البسطاء من الناس من المعوذتين في القرآن الكريم ذريعة لمغالاتهم في تجسيد اخطار الحسد والخوف منه . وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رقى ولديه الحسن والحسين واستعاذ بالله تعالى من العين النامة .
- (5) من الحديث الشريف : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة ، الاجر والمغرم .
- (6) شاهدت وانا طفل مشعوذا يعذب رجلا اخرس ليخرج الجان منه على زعمه
- (7) واكثر القائلين بها من النساء، ويخرج الصبية الى البيادر بالعصى صائحين:فلت قمرنا يا حوت او نطلع لك بالنبوت . والعلم اسقط هذه الخرافة.

وكان نشاط المطابع في الأستانة اولاً⁽¹⁾ ، ثم في مصر ثانياً⁽²⁾ منصّباً على احياء التراث الديني واللغوي، ثم اتبعته بالتراث الادبي الشعبي، وأخذت تقذف بها الى الاسواق، لانها مخطوطات جاهزة، وقد زخرت المكتبات بالتراثين الديني والشعبي، وتلقفتها الحواضر قبل الارياف، وكان هذا التراث رافداً من روافد الفكر ينضاف الى المجرى العام باعظم تياراته ، وهو القرآن الكريم .

من البدهاة ان يُقبل العربي على التراثين الديني والشعبي كجزء من كيانه ، فكان لهما اكبر الاثر في بناء شخصيته ونمائها ، وكان توجه الطيرايوين اليهما بحماس بالغ، لأنهما ينسجمان ايضاً، مع طبيعة الارض والانسان، فالارض الوعرة والمغارات المعتمة ، والابوية المخيفة، والعمل الشاق في السهل، تتطلب انساناً شجاعاً وعاملاً صبوراً، يقتحم المجهول بلاخوف، كما ان الحروب التي تفرض على الفلسطينيين بحكم اطماع العالم في وطنه وخيراته تفرض عليه ان يربي ابناءه تربية اسبارطية⁽³⁾ ، تقوم على الخشونة والقوة الجسدية ، ولكن الاسلام يشترط في التربية قوة العقل الى جانب قوة الجسد، وهذا ما كان يحدث في الطيرة . اذن كانت هناك فلسفة تربوية مرسومة بلا برمجة ، وبتعبئة فكرية غير منظمة ولا هادفة، وفردية غير جماعية، تقوم على الروح الذي يغذوه الكبار في المسجد ، وما كان من التراث الشعبي استمعوا اليه⁽⁴⁾ في دواوينهم للتسلية واقبل عليه الشباب لبناء الشخصية الفردية وصقلها بالحكمة والمعرفة، وبترسوم خطا الابطال الأفذاذ ، مع ما يتغنون به في البيت

(1) او استانبول ، عاصمة الخلافة في عهد العثمانيين ، واشهر مطابعها بالحرف العربي مطبعة الجوانب لمؤسسها أحمد فارس الشدياق سنة 1728م، وفي لبنان اسست المطبعة الكاثوليكية لاغراض تبشيرية ، واهتمت بالأدب دون العلم وتراث الأمة الروحي .

(2) ادخل المطبعة الى مصر نابليون بونابارت سنة 1798 لطباعة اوامره الى الشعب المصري باللغة العربية ، ويرحله حولها محمد علي الكبير الى المطبعة الاهلية ببولاق سنة 1821

(3) ثانياً المدن اليونانية في الاهمية هي اسبارطة بعد اثينا قبل الميلاد .

(4) لم تعرف الطيرة المضافة بوظيفتها الاجتماعية كما هي في الاردن، وانما عرفت الدواوين كمجالس سهر يحضرها الرجال من اهل الحارة غالباً واصدقائهم .

من تمجيد الفضائل والبطولات للذكور ، ومن تمجيد عفاف الفتاة العربية وتماسكها للاناث. وكانت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم اعظم الأبطال ونبراسها في كل فضيلة، الى جانب النبوة والرسالة، وكانت شخصية أمّنة وفاطمة وخديجة وامهات المؤمنين تتألق بالطهر المحبب الى النفوس، فقرأ الطيراويون كغيرهم من اهل الريف كتب السيرة والغزوات والفتوحات ، مثل كتب السيرة لابن هشام والطبقات لابن سعد، وفتوح الشام للواقدي، ومن سير الابطال عرفوا الامام علي كرم الله وجهه، وصلاح الدين الايوبي، والملك الظاهر بيبرس.

اما كتب الفروسية الشعبية، فقد قرئت في الدواوين كتب عنتره والوزير سالم وسيف بن ذي يزن ، وكلها تركز على البطل الفرد الذي تحيا به الامة ، وبموته تموت، ولعلها في تاريخ الادب العربي او حتى في التربية والفكر العربي نقطة ضعف خطيرة ،ويبدو أنها احدى سماته التي لا تفارقه حتى فيما تصوره بطولات جماعية ، مثل تغريبة بني هلال وسيرتهم ، يكون التركيز فيها على البطل الفرد مثل أبي زيد الهلالي وذياب بن غانم.

واذا كان من فضل لكتب الفروسية الشعبية فهو تصوير حياة الجاهلية وابرار الخلق العربي المتين الذي يقدر القيم الأصيلة في النفس الانسانية، حتى غدت نماذج قياس تحتذى في الكرم والشجاعة والوفاء والعفة والنجدة والشهامة وطهر المرأة . ومع ظهور نماذج نسائية رائعة مثل عبلة عنتره ، وناعسة ابي زيد وسعدى الزيناتي، الا ان الاغراق في جعل المرأة حبيسة خدر لا تراها الشمس حتى عند الرحيل، لأنها الظعينة في هودج ، وكأنما الغي دورها تحت الشمس ولا دور لها في الحياة الا في الظلام ، ولعل هذا من الظلم لحق بهذه الامة للنيل من عظمة تراثها الروحي .

من هنا دخل التناقض الفكري في التربية، والاضطراب في تقدير الحسابات والنتائج وكلها هزيلة وغير دقيقة، لأن التناقض لا يعني غير الشلل ، ولولا ان الامة اسعفت بالاسلام لحكم عليها بالموت منذ خمسة عشر قرناً.

ومن روافد الفكر الشعبي الذي لقي رواجاً في الوطن العربي وفي خارجه، كتاب الف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، التي قرئت في الطيرة للمتعة، ولكن لما ظهرت سلسلة كامل الكيلاني

التهديبية للأطفال ، وان لم تكن الا اقصايس من الف ليلة وليلة بصياغة جديدة، اقبل عليها الناشئة اقبالا عظيماً، وكان الفضل في ذلك يرجع الى دائرة المعارف ممثلة بمدارسها في القرى ، وكان لها اثرها الحسن في اشباع الطفل وخياله بالصور الجميلة.

وفي مطلع القرن العشرين عكف أناس على قراءة اشعار «الجفر» التي توهم بانها تنبئ عن كبريات الحوادث في المستقبل، وما هي في الحقيقة الا اشعار لاحقة بزمن من نسبت اليهم ، واشارات صريحة لما سبق حدوثه على نظم الجفر⁽¹⁾ ، والأخذ بها خطر غرس التواكل وانتظار المعجزات للخلاص من الازمات الصعبة، والهجمات المعادية التي تحاك للامة في الظلام بدراسة وتخطيط.

ومن اسقام الفكر الشعبي خرافة الثور الذي يحمل ارضنا ويقف بها على ظهر حوت سابح في بحر القدرة، وما الهزات الارضية الامن جراء نقل الثور الارض من قرن الى قرن بقصد الراحة ، هذه الاسقام على سخفها، ليست اشد خطرا على الناشئة ، حين تحتك بالفكر بأثار سلبية على المدى البعيد، من تلك القصص الخرافية ، غير المطبوعة ، عن الغيلان والمرد والجان والعفرات، وطاقية الاخفاء وخاتم سليمان والقمقم ، وهي في الاصل اساطير شعوب بدائية ، ذات ملامح واصول من قصص الف ليلة وليلة ، ولكن الخيال الشعبي زادها طولاً وعرضاً وترعيباً للآثارة والتشويق، والتغلب على ليل الشتاء الطويل القاسي على العجائز اللواتي يقصصنها على الاطفال الأحفاد ، وهن لا يعلمن انهن بالرعب، انما يقذفن في روع الأحفاد الخوف والاحباط، ويقتلن فيهم روح المغامرة قبل ان يصبحوا شبابا يعشقون المغامرات. بالأمس كانت الاجيال الريفية تتناقل تراثها الفكري شفاهاً، غائماً ومبتوراً، قبل ان يظهر في الكتب المطبوعة واضحا وكاملاً او مهذباً وملخصاً، وهو رافد ضخم في التيار الفكري القومي العام، باثار سلبية حيناً، اويجابية احياناً، كان له ابعث الاثر في الطيرة، كما في سائر الارياف العربية ، في عدم توحيد النظرة الى الحوادث الكبيرة والاطار المحدقة، وتفسيرها تفسيراً مضطرباً ومشوشاً، وانعكس ذلك على العمل الجماعي والجهد المشترك، فاصاب الامة برمتها ما اصابها وعانت منه ما تعاني .

(1) من ذلك نظم شعري سقيم نسب ظلما الى الامام علي كرم الله وجهه.

شلل وجمود في الفكر

تتأثر طيرة الكرمل سلباً وإيجاباً بحيفا، بما يصيبها من كوارث وانتعاشات ، بحكم ارتباط البلدين ارتباطاً عضوياً، ولقد تميز الثلث الأخير من العهد التركي بالركود الفكري في شتى المجالات ، ذلك ما أصاب الفكر التركي نفسه ، وادى الى تسارع الاحداث وخطورتها وتمحورها في فلسطين، اذ كانت هدفاً للأطماع والصراعات الدولية، التي تألقت عليها مع بدايات القرن التاسع عشر، حيث انعطفت الصراع الانجليزي الفرنسي نحو فلسطين، فاشعل فتيل الفتن الداخلية فيها، ضد العثمانيين حيناً، وضد محمد علي والي مصر حيناً آخر . والأمرء المحليون خاضوا حروباً ضد بعضهم، وضد العدو الخارجي ، فهناك اساطيل بحرية تحاصر وتقصف، وجيوش على البر تزحف او ترتد، تقتل وتنهب وتلقي الرعب، ودخل حلبه الصراع الأمراء المحليون في فلسطين كالشيخ ظاهر العمر الزيداني⁽¹⁾ و احمد باشا الجزائر⁽²⁾ وانصرفوا الى تحصين مواقعهم وتقوية جيوشهم و دفاعاتهم ، ونظام جباية الضرائب⁽³⁾ ، وتصدت بعض الزعامات الفلسطينية في نابلس وشمال فلسطين لعبث الامراء المغامرين ، وهذا كله جعل الناس لا يفكرون بغير لقمة العيش وحماية ارواحهم وممتلكاتهم، وانصرفوا عن كل نشاط علمي او ادبي بحيث يمكن القول ان الفكر الفلسطيني في هذه الأونة كان في حالة شلل تام وجمود شامل.

(1) من 1106-1189هـ/1695-1775م ولد في صفد من الزيدانية الذين حكموا صفد وعكا ، وسع امارته حتى شملت طبريا ، وبنى سور عكا الجديد لمواجهة والي الاتراك على دمشق بعد ان رفض دفع الضريبة. استنجد في حربه ضد الاتراك بروسيا. ثم قتل غيلة على يد أحد اتباعه.

(2) من 1148-1219هـ/1735-1840م ، مملوكي من اصل بشناق ، اظهر كفاءة وقوة في القضاء على خصوم سيده حتى سمي بالجزار ، عينه الباب العالي واليا على صيدا بعد ان قاد حملة على بيروت لانتزاعها من الظاهر العمر ، وبعد ذلك اجبر الشهابيين على ترك بيروت له، ثم نقل مركزه الى عكا وبها تحصن ووقف ضد نابليون سنة 1799. اشتط في جمع الضرائب ، عزله العثمانيون عن الباشوية. توفي في عكا ودفن فيها

(3) وهو نظام الالتزام الذي يوكل الى امير او اقطاعي لتحصيل مبلغ معين من المال يجمعه من الأهالي الذين تحت امرته، فيجبي منهم أضعاف المبلغ المطلوب.

كانت حيفا والطيرة تجتاحهما جحافل المتقاتلين كما فعل الشهابيون في عهد اميرهم بشير الشهابي⁽¹⁾ والمعنيون بقيادة اميرهم فخر الدين المعني الكبير⁽²⁾، والشيخ ظاهر العمر الذي ضرب حيفا القديمة وبنى حيفا الجديدة الى الجنوب الغربي من القديمة في اواسط القرن التاسع عشر ثم اغتصبها الجزار منه، ووصلتها جيوش ابراهيم باشا بن محمد علي والي مصر.

لم يشهد التاريخ نتاجا ابداعياً في مجالات السياسة والعلم والادب والفن والاجتماع، الا في ظل الاستقرار والأمن، وأما الزخم الهائل الذي أتى به المسلمون في القرون الثلاثة الأخيرة من العصر العباسي، إنما جاء ثمرة استقرار نسبي، وإن كان في ظل التمزق السياسي، ثم هزل واضمحلاً عندما اصبحت ديار الاسلام مسرحاً لجحافل الغزاة من مغول وتتار وصلبيين.

لا يختلف واقع فلسطين عن واقع الوطن العربي في القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع عشر، بل كانت اشد الاقطار ابتلاءً بجحافل المتحاربين براً وبحراً على سيادة العالم والمصالح الحيوية مثل بريطانيا وفرنسا، ومتناحرين على المكاسب الذاتية والاطماع الشخصية كما هو حال العثمانيين والولاة والامراء المحليين في الشام ومصر. وفي هذا تفسير لانعدام الاسماء اللامعة في سماء الابداعات الفكرية ومجالاتها المختلفة في كل من حيفا والطيرة، واذا وجد فيها شيء من هذا القبيل، فقد اختفى وسط غبار الحرب وقعقعة السلاح، ثم ضاع وسط ركام الأمية والاهمال اللذين رانا على اهل الكرمل ابان الحكم العثماني، فقد تأخر ظهور المدرسة الحديثة في حيفا الى عام 1293هـ/1876م، لأنها لم تكن قصبية لواء، وانما كانت، والطيرة معها، ضمن لواء عكا التابع لولاية صيدا مرة، او لولاية بيروت مرة اخرى، او لولاية دمشق مرة ثالثة، كما تأخر ظهورها في الطيرة الى عام 1927م. وكانت المدرسة قبل هذا التاريخ كتاباً واحداً للذكور فقط.

(1) 1767-1850م. امير لبناني اتسم حكمه بالقسوة البالغة بنى قصر بيت الدين.

(2) 1572-1635م من امراء لبنان بسط نفوذه على معظم فلسطين، اعدم بسبب طموحه.

المسجد والكتاب والمدرسة في طيرة الكرمل

الانسان مؤمن بالفطرة :

ومهما حاول الانسان اخفاء هذه الحقيقة بالمكابرة والاحاد، فانه يشعر في قرارة نفسه انه في حاجة الى قوى خارقة تحقق له امانيه ، وتدفع عنه شرًا ما لا يستطيع له دفعا، والطيرة منذ نشأتها لم تخف ايمانها ولم تتخلُّ عنة ، فقد عبت من قبل «بعلا» على نحو ما عبده شعب كنعان على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، ولما بلغت دعوة المسيح عليه السلام بنت لها كنيسة وديرا، ولما بزغ نور الاسلام ، أخذت به واستقرت على طريقه المستقيم ، فهجر الرهبان الدير ، وتحولت الكنيسة الى مسجد وياشر بأداء رسالته داراً للعبادة وتعليم الشريعة تلقائياً، ودار حكومة يفصل بين المتخاصمين ، اذ كانت تقام فيه الصلوات المفروضة، وتلقى فيه المواعظ والدروس من الشيخ الإمام ، حيث يعلم الناس نظرياً علوم الفقه و التفسير والحديث والسيرة واحكام التجويد شفاهاً، وتقرأ فيه الموالد وقصة الاسراء والمعراج . وارتباط الحديث والقرآن الكريم باللغة يقود الى معالجة مشكلات في النحو والصرف والبلاغة في اضيق الحدود . لقد ادى المسجد رسالته على اكمل وجه في وظيفته الدينية والسياسية والاجتماعية، ولم يتخل عن مهمته في شحن النفوس بحب الجهاد وطلب الشهادة والخروج في سبيل الله ضد الغزاة ، اعداء الدين والوطن والامة.

واقترضى تعليم الصبية مكانا خارج المسجد حفاظا على الهدوء والخشوع فيه، فظهر الكتاب لتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب وعلوم القرآن والحديث والفقه بلا توسع ، وان ظل ملتزما بتحفيظ القرآن الكريم خلال خمس سنوات او ست ، بحسب تفرغ الطالب، كما يزود الطالب بعلوم لغوية كالنحو والصرف والبلاغة⁽¹⁾ ، تؤهل المتفوقين الراغبين القادرين على متابعة تحصيل علوم الشريعة في الازهر الشريف . ومن المتأخرين خريجي الازهر الشيخ عبد الرحمن سلوم وولده الشيخ عبد الفتاح والشيخ محمد جد الشيخ عتيق آخر من

(1) كان تدريس النحو من خلال شرح الفية ابن مالك المشهورة. ومن البلاغة ما اتصل بالقرآن الكريم ، وله ذكر في كتاب نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه

علم الصبية في الكتاب الذي اختفى بظهور المدرسة الحديثة⁽¹⁾ أما الشيخان عتيق وعبد الكريم قبيعة فهما من تلامذة المسجد النابهن.

قام الكتاب في الطيرة بجهد فردي، بغير صفة رسمية ترعاه وترسم له المناهج التعليمية، او تتولى الانفاق عليه، اذ كان المدرس يخصص للكتاب غرفة من غرف منزله، ويستقبل فيه الطلاب من مختلف الاعمار والسنوات، يتلقى فيه الطالب العلم بالنوع والمقدار والمناهج كما يرسمه الاستاذ الشيخ، وكان هذا يستعين بالكبار من طلاب السنوات العليا على تعليم طلاب السنوات الدنيا، ويكون تركيزه على طلاب السنة الاولى⁽²⁾. اما الترفيع والانتقال من سنة إلى أعلى، فبحسب تقدير المعلم الذي لا يحتفظ بسجل للعلامات ولا بأي وثيقة عن جهد الطالب وتقدمه، اللهم الا قائمة باسماء طلابه، يثبت فيها الأجر والدوام، لانه كان يحاسب المتغيب على غيابه، ويتصل بأهله مستفسراً عن اسباب التغيب. وحالات التغيب كانت نادرة، والا بسبب وجيه.

ومعلم الكتاب هو الذي يقرر العطلة الاسبوعية، ويحصرها في يوم الجمعة، وهو الذي يقرر العطلة الصيفية، ويعلن انتهاء عام دراسي وابتداء عام جديد، وهو الذي يجيز طالبه بالشهادة المطرزة بخطه الجميل، ويوشحها بتوقيعه المعتمد من قبله هو، ويحتسب الدراسة والأجر بالعام الميلادي ويؤرخ بالعام الهجري. أما الرسوم التي يتقاضاها فمن بيضة ورغيف كل أسبوع، ويمد من القمح عند الطلاع في كل عام، هذا غير الاكرامية بما يجود به اهل الطالب المتخرج.

كان الطلاب يجلسون على الحصر في مجموعات بحسب السنوات، اي ان طلاب السنة الواحدة يشكلون مجموعة خاصة بهم، يتعلمون الكتابة بالفحم العادي على صفائح

(1) تولى التدريس في غرفتي المسجد اللتين الحقنا مؤخرًا على طريقة الكتاب القديم الشيخ ناجي عيسى جرّار، امام المسجد والمدرس على حساب القرية منذ اواخر الثلاثينات ثم صار مائونا شرعيا فيها، وكان تدريسه في المسجد اثناء العطلة الصيفية حينًا ثم توقف. وهو من خريجي الجامع الجزائر بعكا.

(2) ما زال الناس يذكرون فاتحة عهد الكتاب بالقراءة والكتابة حفظًا: اليه لاشر عليها، والباء واحدة من تحت والتاء ثنتين من فوق.....

التنك، قبل صناعة الألواح السوداء واقلام الفحم المحسنة، الى ان ظهر الورق واقلام الرصاص والطباشير، أما المحاة فمن خرق قماش مهترئة.

لم يكن للتعليم سن معينة للقبول في السنة الأولى ، وان كانت سن السابعة هي المتعارف عليها لدى الكتاتيب. كان معظم الصبية يمضون اربع سنوات في الكتاب ، ثم يغادرونه الى مساعدة آبائهم في الحقول والرعي والعمل ، وكان في السنة الرابعة يحصل التعليم الوظيفي الذي لا رجعة بعدها الى الأمية، وقليل من أولئك الذين يمضون ست سنوات حتى يتلقوا مزيدا من العلوم، ويتقنوا بعض المهارات اللغوية في النحو والصرف والبلاغة ، وليختموا قراءة القرآن الكريم وفق احكام التجويد ، وقليل من أولئك النفر القلة من حفظ القرآن غيبا ، ومن فعل ذلك لقي من الناس تكريم الابطال الفاتحين ، واحتفل به الأهل احتفالا عظيما .



والاحتفال بالختمة تقليد في الريف شائع، يقرأ فيها المولد النبوي الشريف ، والمدائح النبوية والأدعية والابتهالات ، وبوليمة يدعى اليها زملاء المتخرج واقرباء الاسرة واصدقاؤها ، وللإستاذ الشيخ صدر البيت ، وقبل هذا يطاف بالمتخرج في بعض الاحياء والطرقات، بثياب بيضاء مميزة دالة على الختمة وهو يركب فرسا ابيض وتنثر والدته الحلوى على الصبية بين يديه. انه لحدث عظيم، فيه تعظيم للعلم والعلماء ، واحتفاء برقي فكري وتحصيل علمي ، يكتسب به صاحبه شرفاً عظيماً، ويتبوأ مكانة اجتماعية مرموقة، يأتيه الناس من القرى المجاورة ، ليفك لهم مراسيم الدولة ، وليقرأ عليهم رسائل احبابهم الغائبين.

في اهل طيرة الكرمل ظاهرة قديمة، وهي نفورهم من الوظائف الحكومية، لم اجد لها تفسيراً غير ذلك العشق للارض والقرية وطرقاتها ومجالسها، حتى ان متعلميهم كانوا يعودون من الازهر بالشهادات العالية ، ليتولوا مهمة الوعظ والارشاد وخدمة الدين.

واشهر أئمة المسجد المتأخرين ، الشيخ الجليل عبد الفتاح سلوم ، الذي يذكره الطيراويون بشيء من التكريم ، ويشيرون اليه بلقب «العالم» فقد كان رجل دين ودنيا، رجل فكر وطب وحكمة، ومرجع القرية وما حولها، ابان حياته ، في الفتاوى واحكام الشريعة، وكان موضع ثقة الناس لورعه وتقواه ، والى جانب هذا كان طبيب القرية النطاسي⁽¹⁾ ، والصيدلاني المجرب ، يفحص المريض ويشخص المرض، ويعد له ما يصف من دواء بلا مقابل، وقد يقيم عنده اليوم واليومين، لا يتقاضى على طبه ولا على تميزه اجرا وإنما لوجه الله ما يفعل . لم يؤثر عنه الشعوذة والارتجال في الطب، وإنما يعود فيه الى كتب الاولين ، من اطباء المسلمين والاعريق ، واكثر اعتماده على الحمية والاعشاب.

كان رحمه الله أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وسديد الرأي ذا كلمه نافذة بين الناس، يسعى لاصلاح ذات البين ، قوي الحجة قادراً على الاقناع ، يصفونه بانه كان طبيباً متجولاً ، ومدرسة متنقلة ، لا يضمن بعلمه على احد ، وكان منزله يغص بزواره دائماً ، وهم من طلاب العلم ، والحكمة والمشورة والشفاء، او من ذوي الحاجة المعتفين⁽²⁾ ، وكان سخي اليد ، رضي

(1) ظن بعضهم انه عاد من مصر بشهادتين ، في الشريعة والطب.

(2) المعتفي: من يطلب المعروف ممن لا يعرفه.

النفس منبسط السريرة، ميالا الى الدعابة البريئة، لا يَرى الا باشا. ويتندرون بحادثة مشهورة بينهم ، فقد سأل احدهم والده الشيخ عبد الرحمن ،عن ايهما افضل من الاخر ، هو ام ولده؟ فأجاب : أنا الأفضل بالأبوة والاسبقية في الاسلام، فردَّ عبد الفتاح: صدقت في هذا . ولكنك عالم ابن جاهل. وانا عالم ابن عالم.

لقد احبه الطيراويون وعظموه . وبعد ان توفاه الله تعالى اليه، ظلت كتبه ووصفاته الطبية، مرجعا للناس في الطيرة سنين عديدة.

ومن اعظم فضائل المسجد في الطيرة بعد التربية الروحية، حفاظه على وحدة الفكر الاسلامي ووحدة الصف، من خلال تصديهِ للبدع المتسللة الى المجتمع الاسلامي للعبث بالعقيدة ونسف اقوى دعائم وحدة المسلمين. فقد استطاعت بريطانيا ان تؤمن للطائفة البهائية موقعا جبلياً للطيرة مشاعا، هو الكبابير، ليقيموا عليه مسجداً ضرارا للطعن في العقيدة والكيد لأهل السنة بدين جديد، ينادي بوحدة الاديان السماوية، والبهائية امتداد للباية المنهزمة في ايران بعد ان اعلنت انسلاخها عن الاسلام في مؤتمر «رشت» المنعقد في سنة 1847م، فبعد ان كثر اتباعها قاد زعيمها الميرزا علي الشيرازي⁽¹⁾ حركة تمرد ضد السلطة، فقضي

(1) مؤسس العقيدتين «الباية والبهائية» ولد سنة 1824. ومن افكاره:

أ- وحدة الوجود، ويقول عن نفسه : الحق يا مخلوقاتي انك أنا، أي اذا قامت القيامة رجع الخلق الى الله وفنوا في وحدته.

ب- لا بعث ولا جنة ولا نار- افكار بعض الفرق اليهودية.

ج- اتخذ لنفسه لقب الباب، اي انه الطريق الوحيد الذي يوصل الانسان بخالقه ، وقال انه هو المقصود «بالبيان» في قوله تعالى (خلق الانسان علمه البيان) واصدر تعاليمه في كتاب سماه البيان .

وفي مؤتمر رشت اعلن انسلاخه عن الاسلام وحارب اللغة العربية تعبيراً عن انقطاعه عن القرآن.

وفي عام 1868م ظهرت دعوته في عكا باسم البهائية نسبة الى زعيمها الجديد «الميرزا حسين

المازندراني» الذي ادعى الألوهية وزعم انه المقصود بالآية : (وما يعلم تولىه الا الله) [آل عمران:7] واجترأ على تأويل عبارات في الانجيل، وكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم احاديث منها: طوبى لمن يشهد اللحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا. مات البهاء في عكا ، واتخذ اتباعه ضريحه محجاً لهم ، فخلفه من بعده عباس افندي الذي منحه بريطانيا رتبة فارس ولقب سير تقديراً لما قدمه من خدمات للحلفاء ابان الحرب الاولى، ولما توفي سنة 1931 دفن في حيفا واتخذوا من ضريحه مزاراً فخلفه حفيده من ابنته شوقي رباني الذي لم يعقب، ولما مات انتخب مجلس الطائفة خلفاً له الحاخام اليهودي الاميريكي . ميسون ومن كتب الطائفة كتاب الايقان وغيره كثير.

على تمرده واعدم في تبريز سنة 1850م، فاتخذت حركته شكل النشاط السري الذي ظهر في عكا سنة 1868م.

كان الاسلام متمكنا في النفوس ، وبفضل المسجد اوصدت القلوب ابوابها امام التيارات الصفراء والزرقاء ، ولم تفلح في استمالة احد غير رجل واحد، رفض الشيخ ناجي عيسى جرّار امام المسجد الصلاة على جنازته لجهره بالارتداد.

وقال أناس بعدم جواز دفنه في مقابر المسلمين ، فحميت أنوف اشقائه وابناء عمومته، واشرفت البلدة على فتنة، لولا ان تفادهاها الشيخ بالصلاة على الجنازة والله اعلم بما صلى ودعا ، ثم تكشف فيما بعد ان البابية والبهائية «- بعد فترة من الغموض- انهما تنتميان للفكر الصهيوني»⁽¹⁾ واذا كانت العقول المؤمنة قد رفضت افكار البدع واهلها ، بهذه الحدة ، فان رفضها للافكار الفلسفية كان يتمثل في الاعراض عنها ، واهمالها كلياً ، حتى ان الشيوعية التي ظهرت الاصابة بها في بيئات ريفية في وسط فلسطين وجنوبها ، لم تظهر لها في الطيرة ادنى اصابة وظلت نظيفة، منها حتى 1948/8/15.

ظل المسجد في الطيرة مصنعا للمجاهدين الذين وقفوا مع ابناء وطنهم الفلسطيني طولا وعرضا في مقارعة الانتداب والتسلل الصهيوني ، وكان منهم الشهداء والمعتقلون الذين غصت بهم سجون الاعتقال في عثيث والمزرعة وكركور ، وكان نشيدهم داخل الزنانات.

يا ظلام السجن خيمَ إننا نهوى الظلاما

ليس بعد السجن الا فجر مجد يتسامى

وبعد قيام المدرسة الحديثة في الطيرة ، لم يتخلّ المسجد عن دوره التعبوي الجهادي ، فوقف رواده الى جانب القسام مؤيدين ومقاتلين، وازدادوا في القتال ضراوة بعد استشهاد هذا البطل المسلم، وازدادوا بالسماصرة والعملاء فتكا وبطشا.

لم يقدر للمدرسة الحديثة بمستواها الابتدائي ان يكون لها دور بارز على صعيدي الفكر والجهاد، نظرا لمستواها المحدود في السقف الاعلى للسن التعليمي ، لكنها أدت وظيفتها في محو الامية والتاسيس للتعليم المرتبط بالفلسفة التربوية التي رسمها الانتداب لفلسطين.

(1) سلسلة مقارنة لاديان (1) اليهودية. 358-349

ومما يذكر للمسجد فضل المطالبة بالمدرسة واحتضانها عند ولادتها ، حتى اذا كبرت وضاعت بطلابها استأجروا لها الغرف من حوله الى ان خرجت منه الى المبنى الدائم على ظهر القف للذكور عام 1931م ، وسرعان ما قفز عدد غرف التدريس الى ثماني عشرة غرفة ، تنتهي بالصف الاول الثانوي، كأعلى مستوى لها في العام الدراسي 1948/47م الذي لم يكتمل .

ويفضل المسجد افتتحت المدرسة الحديثة للبنات في غرف مستأجرة الى ان استقرت في مبناها الدائم عام 1934م في موقع تينة البستان .

كان حماس الانتداب نحو تعليم العرب فاترا جدا في المدن، وعدانيا في القرى ، وكانت سياسته التعليمية ترمي الى تخريج موظفين فقط، وبقدر ضئيل جدا للوظائف الهامشية الشاغرة في الدوائر الحكومية ويترك القرى شبه مهملة كليا لتعميق جذور الجهل والفقر والمرض، ولحمل الفلاحين على هجر قرَاهم وارضيتهم وبيعها الى السماسرة واليهود، وليبقى العرب بعامة في ادنى مستوى تعليمي ، لا يقدرّون على منافسة اليهود أو التغلب عليهم، ذلك الشعور العدائي والفلسفة التعليمية الخاطئة هو الذي جعل الطيرة تمضي سنوات عديدة ، وهي المكتظة سكانا ، ومدرستها في مستوى الصف السابع الابتدائي. ولا شك في ان الطيرة في هذا كانت اوفر حظا من قرى كثيرة.

رغبة الطيرايويين في تحصيل العلم عالية ، فخرجوا بأبنائهم الى المدارس الثانوية والكليات في حيفا ، ومدرسة «سمبل»⁽¹⁾ ونابلس والقدس، ومن استطاع متابعة التحصيل الجامعي، ذهب الى مصر، وتخرّج من ابنائهم متعلمون شغلوا وظائف غير حكومية ، ومنهم من التحق بسلك التعليم وعلم في مدرسة القرية ذاتها. ومن تابع تحصيله العلمي خارج الطيرة كل من:

1- راجح امين قبيعة -هندسة كيمياوية -جامعة القاهرة

(1) مدرسة تبشيرية انجليكانية اسسها الآباء من اتباع القديس لوقا، وقد اقيمت على اراضي حيفا المتاخمة لاراضي الطيرة، في موقع يقال له « ارض الموارس» شرقي الطريق العام الى حيفا، وكانت تدرّس المواد العلمية وحدها ، باللغة الانجليزية فقط. وكانت تقبل الطلاب المتفوقين فقط من جميع الطوائف.

- 2- رستم حسين البستوني- هندسة معمارية.
- 3- محمد حسين البستوني-تولى ادارة تموين حيفا ابان الحرب العالمية الثانية.
- 4- محمد اسعد الفار
- 5- شعبان يوسف الشيخ
- 6- شوقي يوسف الشيخ
- 7- محمود محمد عمورة
- 8- احمد مصطفى العموري (عمورة)
- 9- اسماعيل محمد حجير-درس في سمبل سنة ثم تابع تحصيله في المدرسة الصناعية بحيفا
- 10- سعيد رمضان الامين درس في سمبل سنة ولم يكمل
ومعظم هؤلاء تعلم في مدرسة سانت لوكس S.lux او سمبل كما اشتهر اسمها
باسم اخر مدير لها واسمه سمبل Sembel البريطاني.





خريجو الدفعة الاخيرة من طلاب الصف السابع الابتدائي في مدرسة طيرة الكرمل الابتدائية للبنين

للعام الدراسي 1947/46 الاسماء من اليمين:

الجالسون: محمود محمد ابو عيسى ، سليمان العميصي (من عين غزال) عمر طه عمري، موسى محمد العرم .
علي محمد درباس، نمر عبد الله العرم.

الوسط: محمد عبد عيد الناجي، احمد محمد غيث، المعلم يوسف برهان الدجاني (مربي الصف وولده برهان)
المعلم اديب صلح، ظريف فايز بهلول، عبد الحفيظ طه عمورة.

الواقفون: محمود محمد السلطان، محمد ظاهر ابو راشد ، محمد حسن الشبلي ، فضل نايف عبد المحمود، عبد
الله منصور ، نجيب محمد يعقوب، عبد الصمد ابو راشد، محمود محمد محجوب، محمد محمود
جاموس.

مناسبة الصورة: المعلم الدجاني هذا المربي الفاضل ، ابتكر اسلوب الشارة الخشبية ، ومكتوب عليها signal ،
لحمل طلابه على المحادثة بالانجليزية، فاذا تكلم احدهم مع زميله بالعربية دفع اليه الشارة قائلا
take the signal ، وعلى من تبنت عنده يدفع قرشين غرامة مرسومة ، وكانت الشارة المتداولة ثلاثا ،
فتجمع من جراًء ذلك مبلغ لا بأس به ، وفي نهاية العام اشترى ديوان «ابتسام في الضحى» للشاعر
حسن البحيري، وكان من حظ محمد جاموس، ثم دعا طلابه الى منزله في حيفا ، واجرى لهم حفل
وداع ، والتقطت هذه الصورة التذكارية.

د: الحياة الاجتماعية

نمهيدي:-

(1) الحارات

نعلم ان الاحتلال الصهيوني يهدم الابنية، ويزيل المعالم البارزة في المدن والقرى العربية لطمس هويتها وحضارتها عبر العصور، ومهما طال بعد الانسان عن وطنه، فلن ينسى صورته ، وستظل حية كما ينقشها الاباء والاجداد في ادمغة الابناء والاحفاد.

تبلغ مساحة الارض التي تشغلها المباني في طيرة الكرمل 224 دونماً مربعاً، تراها رابضة على سفوح الكرمل بامتداد مستطيل يبلغ ثلاثة آلاف متر، من وادي عبد الله شمالاً الى آخر فرش الزلاقة جنوباً، وهذا الامتداد مستدق الطرفين، وهو اشبه بزورق يبلغ اعظم اتساع له في الوسط ولها في وادي العين وعلى ظهر القف امتداد باتجاه الشرق.

يقسم الطيرايون بلدتهم في احاديثهم الى حارتين شمالية وقبلية (جنوبية) ، واذ زادك تفصيلاً قالوا: الحارة الشمالية او حارة الدير، والقبلية وفيها الزلاقة والقف والزاوية⁽²⁾. وقالوا حارة الزقزوق في الشرق، والجامع في الغرب والمنزول في الوسط، والباشية بين المنزل والزقزوق، وبين المنزل ووادي العين سوق عامرة هي وسط البلد.

دور الاهالي متلاصقة كما تبدو للناظر من الطريق. واما الحارات فتنفصل مبانيها، ويتم الانتقال بينها عبر شوارع رئيسة عريضة نسبياً، وعبر طرقات معوجة وازقة ودخلات قصيرة. واكثر الشوارع بروزاً للزائرين شارعان يسيران في خطين شبه متوازيين ؛ أما اولهما فهو الآتي من مدخلها الشمالي ويمر بالمنزول فالجامع القبلي، ثم يجتاز وادي العين باتجاه مواقع الزيتون الجنوبية، ويدخلها من موقع قدح، ويسير باسم "الدرب التحتا" وينتهي برأس الزقاق، وهذا الشارع معبد حتى الجامع. واما ثانيهما فيبدأ من حارة الدير وينتهي باخر الزلاقة، ويمر

(1) جمع حارة. والحارة كل محلة دنت منازل اهليها.

(2) بين مباني عائلة ابي راشد، مبنى قديم (يطلق عليه اسم الزاوية) لتعبد المتصوفة.

بمراكز التجمع للعديد من العائلات، وبالسوق العامة. يقع هذا لشارع الى الشرق من الاول، وهو الاطول في الطيرة.

واما الشوارع التي تقطع الطيرة من الشرق الى الغرب، فقصيرة وكثيرة؛ منها واحد يأتي من " الزقزوق" وينتهي بالشارع الطويل عبر منازل الباشية، وثان من الزقزوق وينتهي بالطويل عبر منازل السعدي وابي عيسى وابي راشد وعمورة وثمة شوارع بين الشارعين المتوازيين كثيرة، منها مايصل بالمدخل الشمالي او المنزول او الجامع او بيادر الحارة الغربية عبر منازل لعائلات عمورة وعلوه والناجي وتيم، ويضطر الناس الى السير في وادي العين، وما هو بشارع، اذ يصعب السير فيه، ويقطع البلدة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، حيث يدخل مواقع الزيتون بعد خروجه من تينات ابي شقرة.

شوارع الطيرة وطرقاتها غير معبدة، ولكنها نظيفة بفضل المرأة التي تكنس فناء بيتها ومدخل دارها، وتلقي بالزبل والقمامة في الاماكن البعيدة، حيث المزابيل⁽¹⁾، وتعود قبيل شروق الشمس.

لعل المنزل اقدم الحارات ، وهو الساحة الوحيدة في الطيرة، ويوحى الاسم بأنه المكان الذي ينزل فيه الضيوف، حين لم تنتشر الخانات والفنادق في الارياف. وفي النصف الاول من القرن العشرين فارق المنزل هذه الوظيفة الحضارية الهامة، حين كثرت اليد العاملة الوافدة، وجرت عادة استئجار المنازل، ومنذ الثلاثينات اتخذ مجعاً للحافلات العاملة بين الطيرة وحيفا، ثم طغت عليه الصبغة التجارية، وافتتح في ركنه الغربي مقهى ومطعم يقدم اللحوم شواء وسائر المقالي مع المدمس من فول وحمص.

تقوم حول المنزل مبان اثرية ضخمة -بعضها من طابقين، وفي طرفه الشمالي الغربي اول المسجدين في الطيرة، وقد تحول عن كنيسة قبل الاسلام، ولم يحدث فيه الطيرايون تغييراً غير ازالة الصور والصلبان، وابقوا على منصة المذبح في جهته الشرقية ، واستفادوا من مياه البئر في باحته للوضوء. وفي اوائل القرن التاسع عشر قتل فيه اربعون رجلاً غيلة وهم سجدوا في صلاة جمعة، وكانوا في الصف الاول، اذ قام عليهم اناس من

(1) يشار اليها احياناً بلفظ " المقابي" جمع مقبأة، من قبا الشيء جمعه باصابعه.

خلفهم، واغمدوا فيهم السيوف والخناجر والبلمات، ثم هجره الناس تشاؤماً.

والجامع القبلي (الغربي) من المعالم البارزة في موقع حيوي، وهو مركز الاشعاع الروحي في ايام الانتداب ، حيث غدا مصنعاً للمجاهدين في سبيل الله، حاصره الانجليز اكثر من مرة، واطلقوا النار على من فيه من المصلين، وقد اوقف له الاولون «القطعة» وهي قطعة ارض زراعية خصبة في مدخل البلدة الشمالي على شمال الداخل اليها، كان ريعها ينفق على صيانة المسجد ونفقاته الدورية ، وكانت تستخدم مضمراً لسباق الخيل في غير اوقات الزرع.

ومن المعالم البارزة في الطيرة اطلال دير قديم، لم يبق منه غير قوس وبعض قوائم مدخله، وارضه المبلاة بالحجارة. كذلك مدرسة الذكور على ظهر القف، تطل على الزيتون المبارك ، والبحر المتوسط العظيم. ومن اقدم المعالم الاسلامية مقامان لرجلين صالحين ، لا يعرف الناس من اخبارهما شيئاً ، اما الاول فهو مقام الشيخ « براق» وهو تام البنيان بجدرانه وقبته وضريحه وستائره الخضراء، وله باب صغير معطل الاغلاق، يقع هذا المقام بين منازل الابطح . ومقام الشيخ «خليل» وهو ظاهر القدم، ولكنه تام البنيان ايضاً، ويقع بين منازل الباشية في مواجهة وادي العين، وثمة زاويتان مهجورتان، احدهما في الحارة الشمالية، بين منازل عائلة حجير، واخرى بين منازل عائلة ابي راشد في الحارة القبلية، وكلتاهما قد تهدم السقف منهما .

المباني

طراز البناء في طيرة الكرم بين حديث ووسيط وقديم، وجميع المباني من الحجر، والحجر فيها اصناف ثلاثة؛ هي الرملي والسلطاني والقرطيان؛ اما الرملي فلوته ضارب الى البني الفاتح، والسلطاني ذو بريق بلوري، سرعان ما يخبو بالعوامل الجوية، ويكسوه السواد. واما القرطيان فهو صلب ابيض يحتفظ برونقه مدة طويلة، واذا بهت مع السنين، عاداليه لونه بالفرشاة الخشنة، وهو قليل الانتشار لندرته وارتفاع سعره.

يغلب الحجر الطبرزي في الابنية الحديثة، وسقوفها من الاسمنت المسلح على جسور من

حديد، وهيئة الحجر في المباني القديمة والوسيطه بالنقشة الحمصية ، والسقف من طين جيري على عازل من البلان منثور على قصب الحلفا وجنوع الاشجار، محمول على اقواس حجرية، يرجع تاريخها في البناء الوسيط الى بضع مئات من السنين. ويلاحظ في هذه الابنية بناء الحجرات على خط مستقيم، بمصطبة امامية لتسهيل الانتقال بين الغرف، وقلما ترى المظلات الواقية من المطر فوق النوافذ والابواب، مما يجعلها صحية جيدة التهوية، تدخلها الشمس كل يوم، وترى الطابون والمرافق الصحية منفصلة عن المبنى الرئيس الذي يضم حجرات النوم والاولاد ، والياخور⁽¹⁾ ومستودع الغلال.

واما الطراز القديم فهو الذي يشهد للطيرة بقدمها وعهدها الزراعية الاولى قبل الاسلام، فكل منزل منها يشبه قلعة صغيرة مستقلة، والناظر اليها يؤخذ بضخامة حجارتها في المداميك⁽²⁾، السفلية فهي لا تقل عن المتر طولاً، كما يؤخذ بفن هندسة العمارة ونقش اليد الصانعة، ووصلات الطين بينها من الكلس وحده كمادة لاصقة.

معظم الابنية القديمة موجود في وسط البلدة ، ويجري على نظام الحوش⁽³⁾ المغلق بسور، إلا من بوابة تتسع لمرور الجمال بأحمالها، ويعلو البوابة قنطرة قوسية على عادة العرب المشارقة، وهي من لابتين⁽⁴⁾، من خشب صلب سميك، وربما صفحت من الخارج، بصفائح الصاج حماية لها من نيران الطراق المغيرين، ويسمع لها صرير مزعج عند انفتاحها وانغلاقها، لانها محمولة على قوائم نازلة في الارض بعض نزول على حجر ضخم، وفي احدى اللابتين على يمين الداخل خوخة⁽⁵⁾ لمرور الانسان والبوابة مغلقة، وعلى من اراد الدخول، ان يستأذن

(1) الخور : صوت البقر، والمكان المنخفض من الارض، والخليج من الماء.

(2) صفوف الحجارة المبنية بعضها فوق بعض، مفردها مدامك. ليست من العربية.

(3) شبه الحظيرة اذا كان للماشية، وفي المنازل السكنية تجمع سكانها داخل سور نشأ عن الفلاح الاول " الجد الاعلى" وبنية واحفاده من بعد.

(4) مفردها لابة، وهي (الدرفة) في عرف النجارين، من اللوب، استدارة الحائم حول الماء، والملوب من الحديد الملوي: جمعها لوب.

(5) كوة (فتحة) مخترق ما بين كل دارين، ما عليه باب.

بطرق" الشعارة"⁽¹⁾ على اسفين من حديد مثبت فيها .

والداخل الى الحوش او البيت كما يسمونه احياناً، يبدأ بساحة سماوية لاغراض شتى؛ لاستيعاب حيوانات العمل؛ كالجمل والثيران والفرس والحمار، وبعض الحيوانات الحلوية كالبقرة والنعجة والعنزة. ويرى المذاود⁽²⁾ والرانات⁽³⁾ والدجاج البلدي والرومي (الحبش)، وربما البط والاوز، ويرى شجرة ضخمة من تين او توت للقلولة في ظلها صيفاً، وقريباً من البناء يرى الاثافي⁽⁴⁾ والى جانبها ادوات الطعام واواني الطبخ المجلوة بالصفوة⁽⁵⁾، وفي احد الجوانب مركاس⁽⁶⁾ الحطب مادة الوقود الاولى. والفناء مدرج الصبية وملعبهم، وفيه تنشأ الالفة بينهم وبين حيواناتهم الليفة منذ نعومة اظفارهم، فلا يهابون ركوب الابل والخيول والحمير، ولا يفزعهم رغاء جمل ولا قرن ثور وكبش، ولا عواء كلب. يتصدر الحوش بيت الفلاح، وهو عقد شبيه بيهو⁽⁷⁾ كبير، نصبت فوقه " السمندره"⁽⁸⁾، وفي المقابل صفت " البوفيه" الى جانب خزانة الملابس الحديثة التي شاع استعمالها مؤخراً، وكانت من قبل علاقات خشبية او مسامير لملايس الزوج، والا فهي صندوق خشبي شامي الصنع مزركش، تخرجه العروس في يوم زفافها، وفي البوفيه تظهر اطعم الخزف الصيني للقهوة والحليب والشاي والشراب، وزجاجات العطر والمكحلة وطاسة الرعبة النحاسية التي يحتفظون بها تذكراً من الديار المقدسة في الحجاز، ولادوات الطبخ مكان قريب من الباب، وللقنديل موضعه البارز، واذا كان شمعداناً وضع على طاولة خاصة. وصدر البيت منامة الاسرة.

(1) اشعره بوجوده : اعلمه به. وشعر به: فطن له . والخوخة كتلة من حديد.

(2) جمع مذود: معتلف الدابة.

(3) جمع ران: حوض او جرن تشرب منه الدواب، ليس من العربية.

(4) حجارة الموقد. وهي في العادة ثلاثة احجار توضع عليها القدر (جمع قدر الطبخ: قنور)

(5) صفوة كل شئ خالصه، وصفرة الحطب بعد حرقه رماده.

(6) المركاس من الحطب: اذا جعل بعضه فوق بعض، وشد بالخرص (الغصن) ونحوه.

(7) البيت المقدم امام البيوت، او هو كناس واسع للبقر، جمعه اهباء.

(8) السدة من خشب، تجعل فوق المطوى لتتماسك قوائمه . ليست من العربية.

وأبعاد العقد من الداخل لا تقل عن ثمانية امتار طولاً، ولا عن ستة امتار عرضاً، وبارتفاع لا يقل عن اربعة امتار، واما الاقواس فهي قوسان على الاكثر، ويبدأ انحنائها بعد ارتفاع قامة لثلاث تضعف الانارة، واما الجدران فسميكة قد تبلغ ذراعاً ونصف ذراع، وقلما تجد للعقد اكثر من نافذة، وبارتفاع قامة تقريباً، وهي محصنة بشبكة من قضبان الحديد السميكة. واما ابعادها فهي ذراع عرضاً في ذراعين ارتفاعاً، ولكل عقد طاقة صغيرة واحدة على الاقل . قريبة من السقف، وتقابل الباب للتهوية.

يهتم الفلاح بمظهر باب بيته من الخارج، فيجعل حافتيه من حجارة مسممة النقش، ويعلوها الحنت⁽¹⁾، كما يهتم بمظهره الداخلي ، اذ يحافظ على قصارته بالطين الجيري والرمل الناعم، ويتعهد طراشته بالشيد مرة كل عامين غالباً.

وعلى جانبي العقد حجرات للابناء المتزوجين، ومستودعات الغلال والبذار التي تحفظ في اكياس. اما كوارات⁽²⁾ القمح المعد للاستهلاك المنزلي، فقد هجرها الطيراويون بعد انتشار اكياس القنب. واذا كان رب البيت من ذوي الجاه واليسار، افرد لاستقبال الضيوف ومنامتهم حجرة خاصة، وهو يبالغ في اكرام الضيف على نحو ما ورث عن آبائه العرب.

لكل بيت قصة⁽³⁾ للسهر والنوم في ليالي الصيف ، وتكون في مقدمته وملاصقة له، ويتبعه ياخور للدواب شتاء، وغالباً ما يكون جزءاً داخلياً من البيت اذ يجعلون البيت قسمين؛ احدهما بمنصة عالية ، وثانيهما ينخفض بمقدار متر للدواب، فيها المذاود ومخزن الغلال والتبن والعلف.

ولكل بيت طابونه في طرف من اطراف فنائه؛ خفيض بارتفاعه، صغير في ابعاده، مبني من اللبن او من الحجارة، والطين سقفه وجدرانه، وله فتحة خلفية ليتصاعد منها الدخان. وكل

(1) كتلة حجرية مستطيلة تجعل فرق الباب.

(2) كوارات النحل؛ خلاياه لحفظ العسل، وفي المنازل في اسفلها فتحة لاستخراج القمح عند الحاجة.

(3) بمعان منها: مكان مرتفع صغير يجتمع فيه الناس. وكانت تلبط بالحجارة والاسمنت.

بيت يحتفظ بخاوية⁽¹⁾ كبيرة ، تتسع لسبع جرار من الماء او ما سغته مئة وعشرون لتراً للشرب والطبخ فقط ، ويحرصون على ان تكون في مكان ظليل.
بهذا الواقع، في البيوتات القديمة قلنا انها تشبه قلاعاً صغيرة مستقلة، صممت للصدود امام الحصار اياماً وربما شهوراً، وهكذا كان شأن الانسان في عهده الغابرة.



بوابة لدار من العهد الحديث ، دار اللنجي "محمد أحمد ابو راشد"
في الحارة القبليّة غير بعيدة عن ملتقى وادي العين وأبي الجاع .

(1) جرة سميكة من الصلصال، جمعها خوابي، لان الماء يخبأ فيها.

الحياة الاجتماعية

وعورة الجبال والجديّة في العمل وقسوته، أمور توحى بجفاف الحياة في الطيرة، وغلظة قلوب ابنائها، وخشونة عشرتهم. غير أن الواقع ينطق بخلاف ذلك، ويؤكد أن حياة القوم الاجتماعية ذات بهجة، تقوم على قواعد أخلاقية متينة بجنور عربية وأصول إسلامية. وحين تحدثنا عن الحياة النباتية والزراعية والاقتصادية، المحنا إلى شيء منها. وهنا نستأنف الحديث موجزاً، ونقصره على نظام الأسرة، وملاعب الصبا، وعادات الطيراويين في الزواج، أما العائلات وبنورها وحركتها، فسنفرد لها فصلاً قصيراً نختم به كتابنا هذا.

نظام الأسرة

طيرة الكرمل قرية عربية في دمها، وإسلامية في مذهب حياتها، وهي في نظام الأسرة، لا تختلف عن أي قرية، أو بيئة عربية.

الأب في البيت هو السيد المطاع، والمتصرف بالشؤون الخطيرة؛ كالانفاق، وزواج الأبناء، وتكريم الزائرين في استقبال ومجالسة ووداع، يعمل على إشاعة الأمن وتحقيق العدل، وينتصر للمظلوم في الخصومات بين ابنائه، وأن الزوجة لتبالغ في إخفاء أخبار المشاغبات ومخالفة التعليمات، حرصاً على صفاء مزاجه، ورأفة بالأبناء من عقابه. وإذا عاد من عمله سعى الجميع من أجل راحته، وتوقف الضجيج العالي أثناء غيابه.

وتحتل الأم المرتبة الثانية في المسؤولية وفروض الطاعة، وإليها يرجع الأب في الأمور الهامة كزواج الأبناء، وتقوم بأعمال المنزل بتفان تستحق به المزيد من الثقة والتكريم. ويحرص كل من الزوجين على احترام الآخر أمام الأبناء ليكون قدوة لهم. وإذا وجد في البيت أحد الأجداد، ارتفعت النظرة إليه إلى حد التبجيل.

وإذا كبر الأولاد كانوا عون أبيهم في عمله؛ في الحقل والمرعى والدكان والمشغل، ولذلك يتولى الانفاق على زواجهم، ويؤمن لكل منهم عش الزوجية، وغالباً ما يكون داخل الحوش إلى

جواره لياكلوا من صحن واحد، ما لم تدع الضرورة الى خروجهم الى منازل بعيدة. وغالباً ما تشدهم العصبية الجاهلية نحوه في خصوماته مع الاخرين، ظالماً او مظلوماً.

وفي الميراث تراعى نصوص الشرع الاسلامي بحرفيتها وبالسمات المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبعادات الريف وقيمه العربية ، بما منح القوم سمة الاستقامة والجدية في العمل، وكأنه التعويض عن قوت العلم وانتشاره على أن هذا لا ينفي وجود التجاوزات الفردية المؤلمة ، وربما كانت الطيرة في هذا أقل نسبة من غيرها ⁽¹⁾.

يقول الفيلسوف الالماني "كانط" ⁽²⁾: (إن النقص الحاصل من اهمال التهذيب، اشد وطأة، وأضر بالانسان من نقص التعليم ، فان التعليم يمكن تداركه في الكبر) وما خشيه "كانط" يقدمه الاسلام لمجتمعاته، قبل ان يخلق "كانط" نفسه. كان للتراث الروحي آثاره في استتباب الامن والامانة، وقيام الثقة، اذ كثر المؤتمنون على الاموال حتى تحولت بيوتاتهم الى مصارف "بنوك" ايداع بلا مقابل ولا استغلال او استثمار، انها الامانات التي نص عليها القرآن ، ونشط التعامل بين الناس بالدين والمقايضة والرهن وبيع السلم، بالعهد المكتوب وغير المكتوب، ولا شاهد الا الله تعالى.

كان الخير يجري بين ايدي الناس بما يتدفق في قلوبهم من اسلام وايمان، قبل ان تظهر المصارف الربوية في عهد الانتداب، فأخذت مجاري الخير بالنضوب التدريجي. ومن اجل الانعكاسات، ذلك العشق الصوفي بين الارض والانسان، فالارض تعطي، والانسان يتخذ. منها محرابه الذي يقده ولا يفارقه، ويراهها بعض عقيدته التي لا تصح ولا تقبل له عبادة الابها، فالارض أمه الرؤوم التي ينأى بها عن مشاركة الغرباء، فلم يفكر بالخروج منها، ولقد فشلت معه كل محاولات الاغراء بالعروض السخية في البيع او الاستثمار المشترك

(1) اهل الطيرة كلهم مسلمون سنيون، وذكرت بعض المصادر انه كان بين سكانها 11 مسيحياً ودرزي واحد، وحقيقة الامر ان مسيحياً واحداً من قرية الجش في قضاء عكا كان يتردد على الطيرة بين حين وآخر للعمل دقاًقاً—يدق حجر البناء— وفي اوقات الصيف غالباً. واما الدرزي فقد كان يعمل حراثاً في خدمة احدي العائلات. كان بمفرده ولم يمكث طويلاً.

(2) امانويل كانط عاش بين عامي 1724 و1804م من اعظم فلاسفة عصره.

مع الصهاينة، هؤلاء بالآلة ورأس المال، وهو بأرضه، فأبى، حتى ينسوا من اختلاسها وابتلاعها الا بطرق ملتوية، واساليب بلطجية⁽¹⁾ وبقوانين العسف المفروضة بقوة السلاح، ولم يتمكنوا إلا من الارض القاصية، ما كان منها مشاعاً، كما حدث لمواقع مر ذكرها.

الجيل الجديد

من يراقب مسرح الحياة في كل زمان ومكان ، ير الاجيال نجوما طالعة في اثر نجوم غاربة، ولا فاصل بينها ، وكل طالع ياتي بفكر جديد ، ونظرة الى الحياة جديدة ؛ يوصف بالديناميكية والحدثة والتطوير، او بالانقلاب الشامل المصحوب بالثورة المراهقة والثورة المضادة في صراع دموي، عندما يكون التباين بينهما حاداً ، ثم ما يلبث ان يغدو الجديد مع الزمان قديماً ، ثم يطوي الدهر الاثني معاً، وخير الانقلابات ما جاء سلمياً اي ليس مفتعلاً ولا مؤامرة خارجية وعملا تخريبياً من الداخل، وهذا السلمي هو ما يحدث في البيئات التي تنعم بالاستقرار بعيداً عن تدخل المفرضين والطامعين.

وطيرة الكرمل كسائر مثيلاتها من الاوساط الفلسطينية شهدت الانقلابات سلمية بطيئة في ازمة الاستقرار ، واخرى سلمية بعوامل التحدي والاستفزاز الخارجي، اي انها لم تشهد صراع الاجيال ، وانما شهدت انقلاباً على الذات ، لمواجهة العدو الثنائي الشرس؛ الصهيوني اليهودي الصالب، والبريطاني المسيحي المصلوب، وكاد التدخل ان يعصف بآبناء القرية ووحدتهم ، وشل حركة الحياة فيها ، لولا الاصالاة والمد الروحاني في النفوس. ولقد تحدثنا عن مجالات الحياة المختلفة، فلم نلحظ صراعا طبقياً او اقتصادياً او دينياً او عرقياً، وانما هي المواجهة الساخنة والعصيان المدني ضد الحكم الاجنبي والتسلل الصهيوني، ومن قضى شهيداً ، او قتل وفي قتله شبهه ، لم يخرج عن اطار المواجهة و لا يتصل بصراع الاجيال ، وان كان الجيل الجديد هو الذي يتولى حركة التصدي والتنفيذ بتوجيه السابقين.

واوضح التغيرات غير ما ذكر في مجالات الحياة، انعطاف الشباب نحو الرياضة والحياة المثالية التي تؤمن بالانسان واخوته ، وتقدم خدماتها للناس بلا تمييز ، واولئك هم النجاة.

(1) نسبة الى بلطجي باشا، قائد الجيش التركي قى حرب القرم ضد الروس، حيث خسر الحرب وهو غارق في ليلة حمراء مع كاترين الثانية، امبرطورة روسيا بين 1762-1796م حيث هجم الروس على جنده، وفتكوا بهم قبل ان يطلقوا طلقة واحدة.

اما الرياضة فممثلها نادي شباب الطيرة الرياضي برئاسة احمد سليمان الصادق السلطان، واما النجادة فحركة قامت برئاسة اسعد عوض غنام ، وكانت تهدف الى احياء حياة الفروسية الاسلامية التي نذرت نفسها لمساعدة الضعفاء والعجزة ومن هم في حاجة فورية الى المساعدة ، وقد تجاوز المنتسبون اليها مئة وخمسين عضوا من خيرة الشباب ، وآخر المناشط الاجتماعية الشبابية قيام فريق الكشافة بقيادة مثقال البهلول . واتخذت مقرها قريبا من المنزل في نفس مركز النادي، اما مقر النجادة فكان في الحارة الشمالية، قريبا من المنزل الذي نسفه الصهاينة ليلة 1949/1/4.

كان التنسيق بين مركز النجادة قائما في فلسطين بشعارات وطنية وقومية ودينية ترى طاعة الله تعالى وعبادته وفي خدمة الوطن وافتدائه بالارواح والدماء اسمى الاماني ، واهدافها مقدسة في ذاتها، ولهذا كانت لها برامجها ونشاطاتها وتدريباتها التي تواظب عليها، وترى في العلم سراجاً لكل فرد، وفي الوقوف على اخبار الوطن والدنيا واجباً، فعكفت على تأمين الصحف اليومية والمجلات الدورية وشرعت في تكوين مكتبة لها، ونسقت مع ادارة مدرسة البنين برنامجاً لمكافحة الامية، وابتدأت بازالتها من بين اعضائها. وكانت الدراسة ليلية على المصاييح الكبيرة "اللوكسات".

ولما فرض الجهاد على الشعب الفلسطيني، وضع النجادة شعاراتهم النظرية موضع التطبيق العملي، واستدعوا من خارج الطيرة مدربين اكفاء يتولون تدريب المواطنين على حمل السلاح، وخاضوا غمار حياة الجهاد بايمان وبسالة.

ربما جاءت فكرة النجادة وحركتها احياء من الحركة الكشفية، لكنها في فلسطين اعتمدت في سيرها ونشأتها على اصول من التراث الاسلامي وكانت اشراقتها حتى عام 1948م حيث عصفت النكبة بالكثير الذي لا حصر له.

وليس بغريب ان نرى من رواد الحانات ومعظم المنحرفين الذين خدعوا بزيف حياة اللهو والانعتاق ، ان يطلقوا تلك الحياة ليحملوا مع اشقائهم مسؤولية التصدي والدفاع عن الوطن، واما من فر واخذ الى اللذة والدعة فقد شهد على نفسه بالانسحاب من قائمة الشرف.



ثلاثة شبان يتدربون على حمل السلاح في وادي أبي الجاع

المرأة الطيراوية

تخضع مكانة المرأة في اي مجتمع لعدة مؤثرات، أهمها العرف والعادة والدين والبيئة، ونمط الحياة زراعية ام رعوية، حضرية ام قروية، ومنها الوسط الاجتماعي ان كانت من ربات القصور والحدود ام من عامة الشعب ويدخل السن كعامل مؤثر في تكوين النظرة اليها. والمرأة الطيراوية بحسب هذه المؤثرات عربية مسلمة وريفية، عاملة منتجة، بعيدة عن حياة القصور وربات الحدود، ولعلها بالواقع الملموس افضل حالاً واكرم منزلة من اختها في البيئات غير العربية الاسلامية، وربما في البيئات المجاورة المماثلة، فالطيراوية اكرم ما تكون أمّاً عند بنيتها، واعز ما تكون زوجة عند زوجها، وأعلى ما تكون بنتاً عند ابويها او اختاً عند اخوتها، ولها الاحترام المطلق حين تسير في الشارع العام، وحين يلتقيها الرجال ، فتغض دونها

الابصار، وان الحمية التي فطر عليها الطيرايون، وسياج الدين والعبادات هو الذي اعطاها حرية الحركة المنضبطة في العمل العائلي التعاوني وهي تكوين العلاقات الاجتماعية الاسرية القريبة، والمشاركة في تقديم التعازي والتهاني بالمناسبات لصديقاتها وأخواتها وأوكلت في الحارات البعيدة، وهي بما عرفت به من عفة وخفر وحياء اكتسبت المهابة في النفوس.

ورأينا شخامة الاعباء على الرجال في البيئات الزراعية والرعوية، واتضح نور المرأة في المشاركة ضمن قدراتها في الحقل والانتاج الحيواني نون ان تلغى وظلقتها الاساسية التي تنحصر في المثل القائل: الرجل جناء والمرأة بناء، فهي التي تتولى ادارة البيت وتوزيع المهام على افراده، وتتصرف بجدولة الاعمال واعداد الطبخ، وتقوم بالكنس والغسيل، وبسلسلة طويلة من الاعمال تتطلب ذكاء وقدرة على التصرف، وتفويضاً مطلقاً من الزوج، الى جانب الاشراف المباشر على تربية ابنائها بسلطان الاب الأمر الناهي، وانها لمهله لادارة البيت وتربية الطفل تعليماً وتدريباً على يد أمها قبل الانتقال الى بيت الزوجية لتصبح فيه السيدة الاولى.

الحديث عن المرأة كثير المنعطقات والاستدراكات، فالاسترسال في عظمتها يقود نحو الحديث عن متناقضاتها، عن الغموض حيناً والتسطح حيناً آخر. حقاً ان عالم المرأة مثير ملي بالالغاز وكلما كانت امية، كما هي في الطيرة في القرون الخوالي، كلما اقتربت من نقطة الابهام والشفافية معاً، ففي المجتمعات الريفية التي لم تشهد ثورة التكنولوجيا السمعية والبصرية بعد، نرى الرجل في بيته مصدر الاخبار العالمية والوطنية، ونرى المرأة مصدر الاخبار والاسرار المحلية من زواج وطلاق وحمل واسقاط⁽¹⁾، وحجب المعجزات في الجمع والتفريق وتحقيق الامنيات، وعندها عناوين فتاحات البخت وقارئات الفنجان، والمشعوذين المتسلطين على رقاب البسطاء من الرجال والنساء، واسعار الذهب بالعملة المحلية فقط. هكذا المرأة وكالة انباء اهلية، ومراسلاتها العاملات في الطيرة يلتقن على عين الماء والفرن.

في الاعوام التي سبقت عام 1948م نشبت في القرية أزمة شح مياه الشرب، اذ لم يكن للقرية غير مصدر واحد هو عين المغارة، وكانت مياهها تنقل سيلاً متدفقاً بانابيب مباشرة من غير الات الضخ لعلو موقعها، الى ان تصب في بركة التجمع، ومنها تتوزع عبر انابيب

(1) اذا رمت المرأة الحامل قبل موعد الولادة عند موت الجنين، واذا كان عن عمد فهو الاجهاض.

فرعية على الاحياء نورياً، بمعدل مرتين في الاسبوع صيفاً، وثلاث مرات شتاءً، وهذا يتطلب رصد موعد الحي والانتظار طويلاً. واما الفرن فاكثراً ما يكون الضغط عليه من قبل صلاة العصر الي وقت الغروب، بحكم فراغ المرأة من اعمال البيت، ولا بد من الانتظار. وبالانتظار هنا وهناك تحرر الاخبار وتوزع وتعلن في البيوت كنشرة مسائية، ورحم الله المعلق على الاخبار التي لا تصدق: هذا من اذاعة العين او اذاعة الفرن.

في الارياف العربية يشار الى المرأة بتحسر ومرارة، بانها ضلع قاصر، وولية وحرمة، ويتخذ المراهقون من الكتاب، والمنحرفون من المنظرين، من ذلك موطن عجز في التراث الروحي، ويعتبره مسؤولاً عن تخلف المرأة، وتعطيل هذا النصف الثاني من المجتمع عن الانتاج، وحرمانه حقوقه السياسية والاجتماعية. حبذا لو ارتد اولئك الطاعنون الى نفوسهم وتاريخهم، ليدركوا ان :

المرأة ضلع قاصر بحكم سنة التخصص في الحياة، انها قاصرة عن المصارعة وحمل الاثقال واعمال البناء وسائر الاعمال الشاقة. ووجودها مقصور على ادارة البيت وتربية الطفل والمشاركة الفعلية بعملية الانتاج والدفاع وشغل الوظائف التي تتفق وانوتتها وتحفظ لها كرامتها، ولا تصرفها عن واجباتها الاساسية. والمرأة في الطيرة خير مثال.

والمرأة ولية، من الولاية في صورتها؛ صورة السيدة المطاعة في بيتها وهي الوالي المفوض باسم زوجها الذي تدين له بالولاء بحسب الشرع والتقاليد؛ بون ان تسلب هويتها وحقوقها الثابتة والمكتسبة، فهي بنت ابيها، تحمل اسمه في كل المواقف وتفخر بالانتساب اليه، ولا تطغى عليها شخصية احد لا زوج ولا أب، وإنما هي بما تقدم للمجتمع وتنجب له اولادا على طريق الدفاع عنه، وفي سبيل بنائه، وانها لتكنى بأب فلان بنفس القدر والاعتبار الذي يكنى به الرجل، حين يكنى بأبي فلان. وهذا هو العدل والمساواة بما لا ترقى اليه، ولن تعرفه حضارة غير الاسلام، الذي رد لها اعتبارها الانساني والاجتماعي، فأوقف وأدها، ونظم العلاقة بينها وبين زوجها بعد أن كانت بعض متاعه وميراثه في الجاهلية، وضمن لها الحرية الشخصية، وحرية العمل، وحرية الجهاد كحق فطري وشرعي، ثم طالبها بالتكاليف التعبدية والشرعية كالرجل تماماً ورفعها الى مستواه في المسؤولية والحساب.

في طيرة الكرمل تؤدي المرأة فرضها، وتأخذ حقها في الميراث، تهب وتتصدق وتتصرف بمالها دون وصاية او تدخل من أحد⁽¹⁾، وعكس ذلك هو من التجاوزات التي لا يقرها الشرع، ولكنها انحدرت الى المجتمع كميراث جاهلي هدمه الاسلام.

والمرأة حرمة، اي حرم أمن في المجتمع الاسلامي، وهو في الريف اظهر منه في المدن، فهي في مكانة عالية في النفوس بحماية يضمنها الشرع والقانون، ويحميها كحرمة المسجد والمدرسة والبيت، يعاقب كل من يعتدي عليها، دون ابطاء او تهاون، والحرمة لفظ يدرك معناه من له ادنى حظ في الثقافة اللغوية وتفسير القوانين.

وحرمة المرأة في الطيرة مكفولة دون حاجة الى سلطة وقانون مكتوب. وفي المجتمعات الريفية، كثيراً ما تبرز شخصية المرأة النجيبة ذات الولد، وترقى السلم الاجتماعي، فينسب اليها ابناؤها، وربما عائلة برمتها على نحو ما شاع في العصر الجاهلي⁽²⁾، وفي طيرة الكرمل ما زالت فروع من عائلات تنسب الى ام نجيبة مضت مثل زهرة في عائلة الابطح، والأمنة والنجمة في عائلة باكير وليس هذا الا من قبيل التكريم للمرأة.

والانتساب الى المرأة النجيبة في الوطن العربي، هي بقايا ميراث جاهلي أخذ في الضمور والغياب، ولا يحمل معنى "التوتمية"⁽³⁾ التي تأخذ به بعض المجتمعات البدائية التي تجعل المرأة أصلاً للعائلة وليس للرجل، كاليهود مثلاً يجعلون النسب الى الام، وهو ما تقوم عليه احكام دينهم ومادة دستورهم في تعريف من هو اليهودي. وإنهم أمام المعطيات الحضارية والواقعية الصحيحة في خلاف. لان اليهودي من جاء من يهودية، بغض النظر عن جنسية ابيه، ودينه، وانهم لفي حيص بيص بين المفهوم الديني لديهم، وبين واقع الحال المتعارف عليه دولياً.

ما كنا نهدف الى تنزيه المجتمع الطيراوي وعصمة المرأة فيه، ولا نسعى الى تنويع

(1) يتحدث المؤلف عن علاقة بين والديه كاتموذج للعلاقة السوية في المجتمع الطيراوي.

(2) من ذلك قبيلة بجيلة، واما اسماء الذين ينسبون لامهاتهم في الشهرة فهم بلا حصر.

(3) يمكن وصفه بأنه الملك الحارس لوحدة في منظمة انسانية؛ مثل العشيرة او القبيلة. والتوتم يمكن ان يكون نباتاً او حيواناً او حشرة او طائراً ولو كان خرافياً. ومنهم من يقدر التوتم، فيحرم على نفسه الزواج من الاقارب، ويتزوج من الاباعد Exogamy ويستبعد ان يكون التوتم ما قبل التاريخ بهذا المفهوم - الموسوعة الاثرية.

الطيراوية بهالات الكمال ، فليس لمخلوق ان يبلغ ذلك، ولكن علم الانسان " الانثروبولوجيا" يهتم بكل صغيرة وكبيرة، تتصل بالانسان ونتاجه المادي والفكري. فقد يكون مناسباً ان نذكر ان المجتمع الطيراوي ماكان يتقبل التعازي بوفاة المرأة على المقبرة، ولا في بيوت العزاء، بمفهوم ثوب الستر عليه في الحياتين. ثم تلاشى هذا المفهوم، وصاروا يجلسون للعزاء بوفاتها.

ومن انعكاسات الفكر الخاطى في التربية القديمة، استعانة المرأة على ضبط سلوك الطفل والحد من عبثية الطفولة، وتخويفه بالغول او العفريت او الضبع، وتراثنا القصصي الشعبي مليء بأحاديث الرعب والتهويل والمبالغات. والامية الطاغية مرتع خصب لذلك ، وحجاب عن انوار العلم والمعرفة.

الاستعداد ليوم الرحيل:

من فضائل الايمان في النفس المؤمنة، انه يشيع في ارجائها الامن والبشر وصلاح الحال استعداداً للرحيل عن دار الدنيا. هذا الاحساس، يتقوى في المؤمن كلما تقدمت به السن. وللعجائز في الريف الاسلامي، حول الاستعداد طرائف. فترى العجوز تشتري الكفن وتخطيه، وتضع فيه الحناء والعطر والوسادة القطنية الصغيرة، وتوصى ابناها واحفادها بالدفن في مقبرة كذا الى جانب فلان من احبتها؛ من أب او جد او أخ او أم او أخت، وقد توصي بالحج وتلاوة القرآن والالفية والصمدية، ويتوزع كذا وذبح كذا واطعام كذا، وتجعل تنفيذ ذلك امانة في اعناقهم تسألهم عنها أمام الله تعالى في يوم لقائه، وتقل حركتها ، ويندر كلامها ، وتظل على سجادتها وسبحتها انتظاراً لملاك الموت.

فاللهم ايماً كايماً العجائز.

امرأة غانمة

انجبت الطيرة نساءً صالحات ؛ من محسنة الى مؤمنة من أصحاب الكرامات ، يقصدها البسطاء للرقية وحصول البركة ، الى اخرى غانمة من ذوات الفضل، ومن النساء الغوانم ، اليك طرفاً من اخبار احداهن .

في إحدى الامسيات من شتاء عام 1937 ، كان المطر ينزل متقطعاً ، والطقس بارداً ، والناس يعيشون اجواء ثورتهم وغضبهم على الانتداب والصهيونية ، وحبل الأمن مضطرب

بالصراعات الداخلية . في تلك الأمسية دخل الطيرة ثلاثة رجال باغنامهم ومروا من أمام بوابة كبيرة فاستضافوا أهلها ، فاعتذر صاحب الدار قائلاً: أما انتم الرجال فمرحباً بكم ، وأما اغنامكم فأخشى عليها الطراق ولا طاقة لي بالمسلحين.

واتفق أن مر بهم في تلك اللحظة امرأة سمعت طرفاً مما دار بينهم ، وادركت قصد الرجال حتى إذا اغلق صاحب الدار البوابة من خلفه، قالت المرأة : ايها الرجال : اتبعوني، فأنتم ضيوف زوجي «فلان» فنظر بعضهم الى بعض ، وابطأوا في الاستجابة ، فقالت : ناشدتمك الله ، هلا تبعتموني ! فقال كبيرهم لأصحابه : هيا ! قبل أن يحل الظلام . وما ان دخلت الماشية صحن الدار ، حتى نادى زوجها : ان اخرج لضيوفك ، فخرج اليهم مرحباً ، وأدى واجب الضيافة للرجال وللماشية ، وهو الجمال بالحرفة ، ولما كان الصباح ودع الضيوف بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وتكريم ، وغادروا على عهد الاخوة في الله تعالى ، وتمضي الأيام ليتبادل الطرفان الزيارات ثم توطدت العلاقة بينهما اخوية حميمة الى ايامنا هذه .

تلك المرأة هي : هند بنت باكير حسين باكير ، وضيوفها من عائلة ابي هنطش من قرية

قاقون⁽¹⁾

ومن اخبار هذه المرأة انها ، وهي الارملة فيما بعد موت زوجها ، قد كفلت يتيمة في الثالثة من عمرها ، واحسنت تربيتها وتعليمها ، حتى اذا بلغت رشدها زوجها من اصغر ولديها ، فلا غرو ان يقوم هذا الولد ببناء مسجد في مدينة اربد الاردنية ، يحمل اسم والدته ، وفاءً لها وتخليداً لذكراها .

(1) قريعتنق على بعد 7 كيلو مترات إلى الشمال من طولكرم ، موقع تاريخي قديم أصلاً .

الزواج في طييرة الكرملة

مفاهيم وعادات

الزواج رباط مقدس بين الزوجين، وهذا مفهوم متفق عليه في كل مجتمعات البشر بلا استثناء. ولكن، في كل مجتمع، لهذا المفهوم كسوته التي يتميز بها عن غيره، ويستند فيها الى الدين والعرف معاً.

واذا أردنا الاحاطة بمفهوم الزواج في طييرة الكرملة، كان علينا، ان نتحدث عن الزواج في الاسلام على مذهب اهل السنة، وأهل الطييرة بأجمعهم مسلمون سنيون، فيجرنا الحديث الى الخطبة والصداق (المهر) والنفقة والرضاعة ... الخ. غير اننا نكتفي بالاشارة الى امور هامة، ليست جديدة على القارئ:

ان الزواج يعني الفحولة والرجولة للفتى، واكتمال الانوثة للفتاة، كما يعني نضجها عقلياً وعاطفياً امام المجتمع والقانون، ولهذا النضج تقع على عاتقهما مسؤولية بيت واسرة، ثم انه زواج العمر كما يقولون.

واعظم مفاهيم الزواج، ما يشع من القرآن نوراً، في مثل قوله تعالى: «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون»⁽¹⁾. وذلك المفهوم التربوي والاخلاقي والاجتماعي، ما جاء خطاباً للشباب، فيما صح عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رزقه الله امرأة سالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي»⁽²⁾ ولعمري ان ما رسمه الاسلام لتعجز عن اتيانه علوم الاجتماع والفلسفة والمنطق، أو ان تضيف اليه شيئاً ذا فائدة.

في معايير الزواج يدخل الدين والخلق والجمال والشرف والمكانة الاجتماعية وحسن السيرة، والاصول والفروع والعمومة والخوالة والنسب بين المخطوبين قبل الايجاب والقبول، وكلها امور لا تعرفها المجتمعات التي يتم فيها الزواج بمعايير الصدفة والاستلطاف والمعرفة

(1) سورة الروم: آية 21.

(2) رواه الطبراني والحاكم/ عن فقه السنة ج2 ص12.

السطحية والشهوة التي سرعان ما تفسد بالاشباع الجنسي والملل وتنتهي بالبحث عن طعم جديد وعلاقات محرمة .

مفاهيم الزواج في مجتمعنا العربي لا تجعل من الزواج حياة جديدة تخص الزوجين وحدهما، وإنما تجعلها امتداداً رأسياً لحياة الآباء والاجداد، وتوسعاً أفقياً للانتشار الاجتماعي، ومن هنا يخص كل افراد العائلة فيستشارون ، وبه ينهضون، ويعلن خبره على اهل البلدة، للعلم ومراعاة ما يترتب عليه من اعتبارات وعلاقات.

معظم حالات الزواج تسبقها وقفة قصيرة للمداولات العائلية. وإذا كانت المخطوبة على حظ من الجمال والادب تحراها⁽¹⁾ واحد من ابناء عمومتها، بالعرف الذي شاع قديماً: البنت لابن عمها، ينزلها عن الفرس⁽²⁾. ولكن هذا العرف أخذ ينحسر مؤخراً، اذ صار تغريب النكاح عادة مألوفة بين العائلات، وبين الطيرة والقرى المجاورة والبدو المقيمين حولها، أخذاً وعطاءً يفوق الحصر، ولا داعي لذكر العديد من الحالات التي رفض فيها ابن العم امام الخاطب الكفو، رغم الاعتراض والتهديد بالعنف والقطيعة. ومن المناسب ان نذكر بأن للطيرة ثمان من بناتها متزوجات في قرية عين حوض وحدها، قبل عام 1948م. والقول ان اهل الطيرة لم يفضلوا الزواج من الخارج⁽³⁾ قول غير دقيق، فالمجتمع الطيراوي متماسك ومنفتح ايضاً.

وثمة ظاهرة زواج البدل لاسباب اجتماعية واقتصادية قد اخذت بالاضمحلال كدليل

على وعي القوم وتحررهم من اغلال الماضي.

تفضلوا... و ألف مبروك

الطيراويون عرب في طريقة عيشهم وتفكيرهم، وافراحهم باسمه كسمائهم مخصبة كأرضهم، ولا بأس من الوقوف أمام بعض اللوحات الشعبية الشفافة، التي تتم عن اصالة شعبنا في وطنه، لنبقيها حية في الذاكرة والوجدان على مر العصور.

- الدعوة الى المشاركة بالافراح، دعوة شخصية للمدعوين ذكوراً واناثاً، ولا يذكر فيها تناول

(1) نقول : حري به ان يفعل كذا: أولى ان يفعله.. وتحراها هنا: طلبها بالاولوية.

(2) اي ولو كانت في زفة الى بيت الزوجية.

(3) طيرة حيفا ما بين 1900-1948 ص31.

الغداء الذي يفهم ضمناً. ولم تغن رقاع الدعوة المطبوعة عن الدعوة الشخصية.

- التعليلة⁽¹⁾ لسبع ليال، يتصاعد احماؤها ويكثر حضورها كلما اقتربت ليلة الزفاف وتستقطب الشباب من جميع الحارات، ووسائل العزف شبابية ومجوز ويرغول، هذا للرجال، و"الدبكة" و"الدف"، وسيلتا ايقاع لدى النساء، وللرجال في جلسات الطرب.

- لكل من الجنسين اهازيجه ودبكاتة ورقصاته، مع الفصل بينهما، اذ لم تشاهد في الطيرة دبكة⁽²⁾ "حبل مودع" مع انهم سمعوا بها، لكنها ظلت حبيسة الاسماع.

دبكات الرجال ثلاث: واحدة للشيوخ الذين تقدمت بهم السن، ويسمونهم "الكرادية" بحركات هادئة، تؤدي في طور واحد رتيب، فيها يظل الرجال متلاصقين يسند بعضهم بعضاً، وايديهم متماسكة، بايقاع: محرمتي ضاعت مني، ولا ينفصل لواح⁽³⁾ عن سربه. وللشباب دبكتان؛ الشمالية والشعراوية⁽⁴⁾. فاما الشمالية فهي دبكة مشهورة في شمال فلسطين، سهلة الاداء ولا تتطلب جهداً كبيراً، وأما الدبكة الشعراوية فهي للذين يضج في صدورهم وعروقهم دم الشباب فواراً، اذ تتعدد فيها الاطوار والحركات والايقاعات.

تبدأ الشعراوية باحماء الزمار للمغني باللحن⁽⁵⁾ المطلوب، والتزمير التمهيدي في اغاني التراث يشبه المقدمة الموسيقية في الاغنية الحديثة، وقبل ان ينهي المغني مطلع اللحن، الذي يشبه لازمة النشيد، سار اللواح بالسرب قليلاً، ثم يبطن حتى يكمل المغني الوصلة الاولى، وهي غالباً ما تكون من مقطعين، يعيد فيهما ويكرر وينغم ما استطاع. بينما ارجل الشباب تنهتز

(1) تعلل بالامر تعليلاً: تشاغل به، واهل العرس بها معفون من اي التزامات اجتماعية هامشية.

(2) رجل فامرأة بهذا الترتيب ومودع: نوودة: خرزة بيضاء والمرأة هنا هي الودعة.

(3) من يتقدم سرب الدبكة، ويكثر من التلويح بمنديل ونحوه، ويكون الاكثر فناً في ادائه.

(4) لم اقف على تعليل في التسمية الا ان تكون الدبكة منسوبة الى بلدة او جماعة لا نعلمهم، لكنني اجتهد

فأقول انها من الشعر والشاعرية ثم نسبوها قياساً على يمن يماني وبحرين بحراني. ومن أسف ذهب

معظم الذين يجيدونها، وقد لا تكون معروفة في غير الطيرة.

(5) اشهر الحان الدبكة في الطيرة خمسة: على دلعونا وظريف الطول، والجفرا، وع اليادي اليادي، محرمتي

ضاعت مني وللدبكة النسوية لحن عذب: ع البنية، ع البنية. ياعسل بجرار مية، وين اروح، وين ألقى،

والشمس غابت علي.

يمناها تجاوباً مع اللحن، وما ان ينتهي المقطع، حتى يعطي اللوح الايعاز للسرب "إرفع" فيكون الوثب الموضوعي ثلاثاً، مع انتصاب القامات، وبين الوثبة والاخرى خبط بالارجل ودفعها الي الامام خبطاً سريعاً، ثم تأتي الترويقة، والايغاز بها "رُوح .. رُوح"، فينطلق السرب بالفحج ثلاث فحجات، ليعود الى الوثب والخبط من جديد، ثم مال الى الفحج والخبط والوثب والخبط. وبعدها يقود السرب الى ضربات ايقاعية فنية تتمايل معها قامات الشباب، تمايلاً شاعرياً، مزهواً باكمال الدور، وتأخذ قسطاً من الراحة، لفاصل غنائي جديد، وهكذا. وما اشبه هذا السرب في هذه الدبكة بجدول يجتاز ارضاً وعرة مليئة بالجنادل، فيهدر فوقها، فاذا دخل ارضاً سهلاً مستويماً، عاد صافياً رقرقاً، وتأخذ حركة القامات ووقع الارجل اكثر مما يأخذك الزمر والغناء واللحن .

ولكل دبكة لوح، لا يتقدم عليه احد الابرضاه، ومن اخذ مكاناً بعده، ولا حرج، ولكل دبكة قطروز⁽¹⁾ هو آخر السرب وابطؤهم حركة.

الدبكة مظهر عملي لروح الشعب الجماعية، بالتفاعل العضوي والوجداني في احياء التراث. ولا انكار في أن الزمار هو قطب الرحي فيها، يعطيها من أنفاسه وأنامله ما يوافق الحانها وايقاعاتها ويترجمها نغماً عذباً. وهو في مجتمعه شخصية لطيفة محببة، عرفت الطيرة من ابنائها زمارين موهوبين مثل «أبي شهاب» محمد نمر درباس عازف الشبابة، وراجح ابو حشيش ووالده، وعلي سليمان مدرّس وهؤلاء من عازفي المجوز واليرغول، وصافي درباس، وهو من المجيدين، ولكن لم يظهر في الاعراس الا قليلاً.

- الحداء : الحداء طور من اطوار الشعر الغنائي القديم، ولكن بلا رباية، ولا يتقيد فيه الحداء بفصيح اللغة وبحور الشعر، واكثر ما أصابه من تطور في شمال فلسطين وجنوب لبنان حيث كثرت فنونه وتعددت اوزانه، فيه ما يوهم بالشعر العربي، والزجل الاندلسي، وسرى بين الناس باللهجة العامية، فسهل على العامة حفظ اوزانه وترديدها مثل الزجل الشعبي والشروقي والمواويل والعتابا و "يا حلالي يا مالي و"اللحن الحماسي" هاي دار العز واحنا

(1) ليست من العربية ويطلق على من يلتحق عاملاً عند فلاح في الحقل ورعي البقر ج قطاريز.

رجالها" والحن المسيرة حملنا والظعن شال⁽¹⁾ ومحرمتي ضاعت مني، نيال اللي لاقاها .
ومع ضوابط هذا الفن ومعرفة اوزانه فإنه يظل معتمداً على الحادي في حسن صوته
وثقافته وجدية موضوعاته، فقد درج الحداؤون في افتتاح الحفلات والسهرات على تعظيم
الخالق سبحانه، والصلاة على رسوله الكريم، ثم ينتقلون الى مديح صاحب العرس
والشخصية البارزة بين الحضور، ومديح اهل البلدة، ثم يعطون الوطن والعروبة ما تبقى من
السهرة واذا عرجوا على الغزل مسوه مساً رقيقاً بالعفة والعذرية. وغالباً ما يدخلون في
مبارزة بين السيف والقلم، والشمس والقمر، والسمرء والبيضاء معتمدين في ذلك على ثقافتهم
فيرجعون بنا الى شعر النقائض، ولا يدعون السهرة تنقضي قبل ان يأتوا على معظم فنون
الحدا.

المديح والوطن والصور الفكرية الرائعة، موضوعات تثير صيحات الاستحسان
والاستعادة، وقد يعبر بعضهم عن ذلك بالعيارات النارية، كما كان يحدث في الاربيعينات. ورغم
كل النوايا الحسنة، وقعت حوادث مؤسفة ذهب ضحيتها رجال كان اخرهم " ابو شهاب" الذي
أصيب بطلقة قضت عليه، قبل ان يتم غداؤه في عرس، وهو الذي ادخل الفرحة الى قلوب
الطيراويين، وأحيا لهم الليالي الملاح سنين عديدة.

وأشهر الحدائين الذين قدموا الطيرة في الاربيعينات محمد الديرابي وأخوه قاسم من
دير الاسد، وتوفيق الريناوي " ابو الامين" من الرينة، وفرحان سلام السعدي من المجيدل
والحطيني من حطين، وصالح خرابيش من بلد الشيخ، هؤلاء الى جانب الحدائين المحليين مثل
محمد قبيلة المشهور بالعتيلي، ومنهل ابو حسان، وكانوا يحظون بالتكريم اينما حلوا.

- ليلة الحناء : تذهب بعض الآراء في عادة التحنئة الى اقصوصة قديمة، تقول بأن
فتى تقدم لخطبة فتاة، فاشتراط عليه والدها ان يصطاد أسداً ويأتيه به حياً، ففعل وذبحه امام
من حضر من القبيلة، ثم غمس يده التي ذبحه بها في دمه ورفعها في وجهه مزهواً ببطولته.
ولما كان صيد الاسود ليس باستطاعة كل رجل، استبدل الناس دم الاسد بالحناء، اما احياء

(1) هذا في الانطلاق الى البيادر، او الى وسط البلدة وفي العودة يقولون: « روحنا والظعن شال او روحنا والمولى
راد (أي اراد).

لذكرى ذلك البطل المجهول واما رمزاً للشجاعة التي ترغبها المرأة في زوجها، ثم استخدموه للمرأة ليكون مظهر زينة لها وفرح.

انتشرت عادة الحناء في الاقطار التي تأثرت بالثقافة العربية، واصبحت مع الايام من بعض مراسيم الزواج التي لا مندوحة عنها، تخرج فيها النسوة من بيت الفتى في مسيرة غنائية، ومعهن الحناء والعطر والطيب والبخور على اطباق، وينطلقن بها الي حيث ستبيت العروس ليلة الحناء التي تسبق ليلة الزفاف، وهو في العادة بيت خالها. تسير النسوة على ضوء فانوس لا تطفى الريح شعلته ويحمله والد الفتى او اقرب الرجال اليه ان كان يتيماً، ويتبع المسيرة حراسة خفية من اشداء الرجال، ومن كل شاب قبيض⁽¹⁾ غير في العائلة، وتحسباً من الثأر. على ان شيئاً من هذا لم يحدث لمسيرة النساء في طيرة الكرم.

واروع ما في غناء المسيرة، ذلك اللحن النسوي المشهور بمعانيه التي تنم عن عزة الفتاة العربية المسلمة، وافتخارها بحسبها ونسبها:

تيمرق الظعن كله	زيللوا عن الدرب زيللوا
تيمرق باقي ظعنا	زيللوا عنا يا أهلنا
تتمرق بنت الامارة	زيللوا عنا يانصارى
تتمرق بنت الجود	زيللوا عنا يا يهود
تتمرق بنت الاجواد	زيللوا عنا يا الاعادي

هذا هو صوت العريزة في وطنها. وقد حرصوا على تحنئة الفتاة بعيد صلاة العشاء أما تحنئة الفتى، فتتم في آخر الليل.

- الفاردة: حين تكون العروس من بلد آخر يذهب لاحضارها عدد من النسوة مع قليل من الرجال وجهاء العائلة بوسائط النقل البدائية، على الجمال والخيول والحمير. وكانت العروس تستقل بهودج مزين، ومعها أمها او اقرب النساء اليها، ثم هجر الناس الدواب، وتحولوا عنها الى الحافلة الحديثة عند ظهورها⁽²⁾

(1) الشديد السريع. وتسميه العامة "القبضاي" ويجمعونه على قبضايات.

(2) ناقة فاردة: تنفرد في المرعى لعزة صاحبها الذي يتحاشاه الناس لبطشه فلا يرسلون نوقهم لترعى معها.

وعلى اهل الفتى ان يرسلوا الذبائح ولوازم الطبخ لغداء الفاردة قبل يوم من وصولها، ويجري تعارف بين اهل العروسين. ثم يصبح النسب قريبي ويتبادلون الزيارات. والفاردة من المراسيم السنوية الغنائية، وربما اشتهر اللحن الذي تغنيه الطيرايوة، في الفاردة الخارجية والداخلية، والخطاب فيه للعروس باسمها:

دققت "كنادرنا"	على بلاط حـلب
واحناطينا فيـدك	ميتين عد الذهب ⁽¹⁾
قومي اركبي يا "زينة"	والخيل تنقط عـرق ⁽²⁾
واحناطينا فيـديك	الفين ليـرة ورق ⁽³⁾
قومي اركبي يا "زينة"	حلوة يا ام الخال ⁽⁴⁾
قومي اركبي على الجمل	واحنا معانارجال

هذا اللحن الايقاعي بألفاظه المنتقاة، ومعانيه الفخمة له سحره ورنينه على الرغم من عاميته، اذ فيه المديح للعروس وفخر بالفاردة في ابتداء وانتهاء، فبالنسبة للعروس، فهي من الحسن والعلو في حسب ونسب بحيث تستحق كل هذا التعب ووعثاء السفر التي اجهدنا فيها الخيل. ويذكر الذهب هنا والعملة الورقية بارقام رمزية، للدلالة على ما تستحقه العروس من قيمة عالية. ودق "الكنادر" على البلاط لا يعني اشعاراً بوصول الفاردة بمقدار ما يعني الظفر والانتصار. ومخاطبة العروس باسمها مما يبعث السكينة في نفسها، ويزيل منها الوحشة، ويقلل ألم فراق الاهل والبيت الذي درجت فيه وألفته، وتكرار الاسم والنداء لتشعر العروس بانها قد اصبحت واحدة من بنات العائلة عن معرفة مؤكدة.

والمقطع الاخير، لإسماع العروس واهلها: اطمئني يا عروس، واطمئنوا يا اهلها، ان اهلنا رجال بكل معنى الكلمة، فلا تخشوا على العروس أحداً ولا مكروها، لان رجالنا أشداء وفي عزة بين الناس، يحمون الضعائين ويمنعونها من كل معتد. وركوب الفتاة الجمل يعني الشموخ والتحدي والاطمئنان معاً. هذا المقطع يعطي الفاردة معناها اللغوي وبعدها الاجتماعي.

(1) الفيد : المهر او الصداق.

(2) ذكر العرق كناية عن بعد المسافة المقطوعة والجهد.

(3) الورق بكسر الراء: العملة المتداولة، والليرة من العملة العثمانية.

(4) شامة سوداء اذا كان صغيراً في خد الحسناء عد فيها زيادة في الحسن.

وتبقى الفارده بمعناها اللغوي وإخراجها الفني من الاداب الاجتماعية تنطوي على الذوق السليم في البداية الحسنة.

يوم الزفاف:

مرّ بالطيرة زمان طويل ، كان فيه يوم الزفاف مناسبة دينية ، تحتفل بها العائلة واهل البلد ، وكأنهم يؤدون فيها عبادة شكر لله تعالى ، ترجو منه الخير والبركة والتوفيق والقربى، فتتحر الذبائح وتولم الولاثم التي تجتمع عليها العامة مع الخاصة، والفقراء مع الاغنياء ، ويتصدقون بما تيسر، ثم يقرؤون قصة المولد النبوي، او الاسراء والمعراج ان صادفت ذكراها ، واكثر المغنون ، نساء ورجالا، من المدائح النبوية والاناشيد الدينية ثم أجرت الايام سنتها في التغيير على تلك المناسبة، ليتخذ منها الناس يوم فرح تطلب فيه الدنيا بلذاتها ومباهجها، والمشابهة والمباهاة. وان ظلّ نفر قليل على سنة الاولين من تقوى وورع.

ومع ان رياح التغيير هبّت هائجة وسريعة الا انها ابقت في القرية بعض خصائصها

الاصيلة:

* في اليوم السابق للزفاف يقف والد الفتى على درب اللبانات . فيأخذ من كل واحدة «دستا»⁽¹⁾ بلا ثمن، ويخرج الى الحقول بعض العائلة على دوابهم ليعودوا بها محملة من كل الاصناف، وبلا ثمن ايضا. وقد تنفرد الطيرة بهذه العادة الحميدة وفي المساء تطوف والدته على البيوت ومعها بنات صغار، فيعدن محملات بالحطب وقوداً للطبخ.

* في يوم الزفاف وبعد الغداء، يستحم الفتى ، وفي ساحة المنزل ترقص والدته

لباس عرسه، وغالبا ما يكون من الاسود أو الكحلي الغامق في لونه، ويفسره بعضهم حداداً على ايام حريته في العزوبية ، بينما تلبس العروس ثوب زفافها الأبيض ابتهاجاً بخلاصها من شرنقة العذرية فاذا خرج الفتى من الحمام غنى له الشباب:«طلع الزين من الحمام،الله واسم الله عليه» ثم يعتلي فرسا مزينا بطاق الورد والمناديل، فاذا علاه غنوا له:«عريسنا زين الشباب» فاذا تكامل اجتماع الرجال ، تولى الحدأؤون قيادة المسيرة بين يديه ، واطلقت العيارات النارية

(1) ليست من العربية، وتطلق على طنجرة الطبخ الكبيرة يتسع قعرها ويضيق اعلاها ، من النحاس

ونثروا الملح والطر والطلوى . فاذا قال الحدّاون «حمّنا والظعن شال» تحركت المسيرة نحو السوق في الحارة القبليّة، حيث الشارع شبه مستقيم ، واصطف الرجال على الجانبين. وايديهم على نسق واحد في التصفيق الموائم للحن المسيرة، فاذا تكاملوا جعلوا للعروس مكانا وسطا غالبا ما يكون مقابل بيت ام سعود⁽¹⁾ من عائلة الفار ، ثم صاح احد الحدائين «أوف» فتكف الايدي عن التصفيق ، وتاخذ وضع الاستراحة في التدريب العسكري ثم يكونون «جوقة» التريدي للزّمة الحداء مثل «يا حلالي يا مالي»

الحداء مهرجان الفرّح حين يبلغ يوم الزفاف ذروته في البهجة والاثارة ؛ الرجال بالملات في خطين متوازيين؛ الحناجر تهدر والايدي تصفق، وكلما مرّ رجل عائد من عمله انضم الى السحجة قبل أن يصل البيت ، ومن حولهم تغصّ الشرفات والنوافذ والسطوح بالنساء، وتنطلق الزغاريد من كل جهة ؛ البلد كلها في فرّح غامر. ويعمد الحدّاون الى الاثارة بالسحج⁽²⁾ بين حين وحين. حتى اذا ورد الخبر بدخول العروس بيتها الجديد ، صدرت الاشارة بالعودة، فيقول قائلهم «روّحنا والمولى راد (اي اراد)» ، وعندما يبلغ المهرجان بالعريس منزله، جاءت صيحة الشباب «تبشّري يا ام العريس ، تمّ الفرّح معنا بهنا» ثم ينزل ليتقبل التهاني بالعناق والتقبيل والمصافحة.

* كاد استقدام المغنين المحترفين والفرق الموسيقية ان يصبح عادة ، لولا مأساة عام 1948م فلم تشهد الطيرة غير عرسين ، غنى فيهما المحترفون وعزفت الموسيقى بين ايدي العروس وهو في الحنطور في حفل وعلى حصان في حفل، آخر . ومن لم يستطع على نفقة الحدائين والمغنين والعازفين، اكتفى بالزّفة وسط «المحوربة»⁽³⁾.

* الخميرة⁽⁴⁾ : من الثابت ان العجين اذا اختمر جاد خبيزه، وكذلك القهوة يوجد مذاقها

(1) بيت قديم جدا وكبير

(2) السّحج بمعان منها: تسريح لين على فروة الراس ، وفي الافراح ضرب الاكف على هيئة التسريح اللين.

(3) صوابها المحاربة: اخذت لحنها الحماسي في الاعراس لان الشباب كانوا يشهرون الحراب اثناء الزفة، وكانهم سائرون الى الحرب. واشهر الحانها «عريسننا زين الشباب»ويا «شمس غيبي من السماء، ع الارض في عنا عريس»

(4) وتفسيرها العلمي ، يتخمّر العجين ببكتيريا خاصة تتولد فيه وتغيّر نكهته الى الحموضة

بالتخمير . وفي الأرياف يحتفظون بخميرة العجين في «الترويجة»⁽¹⁾ ، والبو يحتفظون بخميرة القهوة في الدلاء. ومع الأيام اصطبغ الغرض من الخميرة بمعتقد مفاده الفأل بدوام الخير والبركة، وان انقطاعها نذير شؤم. ثم طغت الصبغة على الأصل حتى نسيه الناس، فقال البو إن خميرة القهوة رمز للكرم وعلو المنزلة، وقال الفلاحون إن خميرة العجين رمز للغنى والجاه. ومن هنا نفهم السرّ في الزاق العروس قطعة من خميرة العجين على بيتها الجديد، على يمين الباب تيمناً في حصول الخير والبركة والذرية. ويكره منها أن تكنس فناء البيت في صبيحة اليوم الاول من حياتها الزوجية.

وفي حديث شريف «....ومنا رجال يتطيرون ، قال: ⁽²⁾ ذاك شيء يجذونه في صدورهم، فلا يصدنهم» رواه مسلم، وفي حديث آخر قال عليه السلام: تفاعلوا بالخير تجبوه.

ملاعب الصبا:

ملاعب الصبا ، او هي مواطن التربية العملية، ومواطن بناء الشخصية للطفل وصقلها، اذ لم تكن في الطيرة، كما لم تكن في غيرها ، دور حضانة وروضات اطفال، ولا حدائق شعبية ومكتبات عامة، ولا اي من وسائل التسلية الحديثة، لكن البديل المتاح هو اللعب الهادف، الذي يملأ به الطفل اوقات فراغه قبل الدراسة واثناها ، في ايام العطل الطويلة في الشتاء والربيع والصيف.

نسمع القول الشعبي السائر « اذا مشى الطفل مشى همه » وهذا القول صادق في الريف الى حد الغلو في التطبيق ، اذ تترك للذكر بخاصة ، حرية الخروج المراقب من البيت الى الحارة ، للتعرف على معالمها وطرقاتها وازقتها ، ثم تخفف عنه المراقبة ، ليزيد في الابتعاد والغياب شيئاً فشيئاً ، الى ان يصل البيادر حيث الانطلاق مع لداته، ومنذ الخروج الاول من البيت يتعود الطفل الاعتماد على النفس، وتبدأ ذاكرته بتخزين المعلومات والخبرات، كما يبدأ بتكوين الصداقات والتكيف مع مجتمعه الطفولي الجديد، ويأخذ بتكوين شخصيته المستقلة،

(1) وعاء من القش والخوص الذي تصنع منه الاطباق البلدية، توضع فيه الخميرة

(2) فاعل القول ضمير مستتر يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا من التربية توجه صحيح ، ولكن ينقصه التخطيط المسبق ، والبرمجة الهادفة، والاشراف الفني الواعي.

لكل حارة في الطيرة بيادها ، التي يلتقي عليها اطفالها زمراً بحسب اعمارهم ، الى ان يصبحوا عاملين منتجين، حينئذ يدخلون طور الرجولة قبل النضج الجسمي والعقلي. واذ اردنا ان ننصف البيدر قلنا انه بوظيفته الاجتماعية التربوية ، يتفوق على وظيفته الاقتصادية المادية، فهو الذي يستقبل الاطفال وكأته مدرسة فيها التعليم الحر في الهواء الطلق ، بغير معلم، او هو مكتبة بغير كتاب ، وحديقة بلا ازهار ، وملهى من غير فحش ولا اثم. تضج فوقه الحياة نهارا ، والى ان ينقضي الهزيع الاول من الليل.

على البيدر يمثل الاطفال ادوار الكبار في التعليم والقضاء والتنكر، ويكتسبون بعض الثقافات الضئيلة والمحدودة، ويتغذى خيالهم بالاساطير ويعشقون ابطال التاريخ ، ويتعلمون العاب القوى والتسلية بما تعجز عنه المعاهد المتخصصة، في التنوع واشباع الميول والوقت المفتوح مجانا . واكثر الليالي سخبا وامتاعا في اللعب ، ليالي الصيف ، وليالي رمضان ان لم ترافق بردا شديدا وشتاء . فاذا جاء العيد بلغت الحياة فوق البيدر حد الروعة .

في العيد يخرج الاطفال الى البيادر ، وهم بملابسهم الجديدة، وعلى رؤوسهم الطواقي المطرزة ، وعلى رؤوس البنات الاشرطة(الشبرات) الملونة ، وتنتظر الصدور فتراها موشحة بالمناديل المفوفة بالبرق زاهي الالوان وتحسبهم ، وهم مقبلون ومدبرون ، روضة من زنابق واقاح وورد وازهار برية متماوجة ، بنسيم يداعبها جيئة وزهابا ، ويمنة ويسرة ، ينتقلون بين الباعة ، او يتحلقون حولهم ، وما اكثرهم في يوم العيد ، من اهل الطيرة او يأتون من حيفا وهم بين بائع يضع فرشاً على سبيبة⁽¹⁾ يعرض الحلوى التي لا تصنعها الريفيات، وانما تعدها الآلة والمتخصصون المتفرغون من اهل الحضر، وما هي الا السمسمية، والفسطقية وجوز الهند المبروش والقرمش⁽²⁾ والعنبر⁽³⁾ وغزل «شعر» البنات ، وغير ذلك ، على ان الكعك البلدي الذي يملأ

(1) هي في الاصل: خشبة تدفع بها السفينة ، ثم استعيرت للبائع والدهان ، اذا كانت بأرجل .

(2) نوع من الحلوى ، على شكل كرايبج حلب، لا يقلى، يضاف اليه السكر ، وملح الليمون والملونات.

(3) من التفاح السكري، قبل النضج عادة ، يغطى بطبقه من السكر المذاب ومواد اخرى

جيوب الاطفال اطيب مذاقا ، وبشروط صحية افضل، وبين بائع للبوطة المشكلة باقماع البسكويت ، او بوطة القوالب المجمدة، وبين بائع للفرافير التي تشبه المراوح ، بالورق اللميع الملون ، وقد غطى قامتها بورق « الكورنيش » الملون ايضا ، وبين بائع على عربة قد زينت وملئت للطفل بما يهوى من البالونات اشكالا والوانا ، والصفارات والات العزف المعدني، والسيارات والمسدسات والمفرقات من الاشرطة الملونة وحبّات الفلين ، والاساور المزيفة والخواتم التقليدية واطواق الخرز والطق الرخيص ، الى ما لا حصر له، وتسمع اصوات الباعة عالية باسجاع منغومة⁽¹⁾ لجذب الاطفال وحثهم على الشراء ، وهم يستجيبون وينفقون من « العيضية » بسخاء ، واكثر اقبالهم على صندوق العجائب، «صندوق الدنيا»، وما اشبهه بالخيالة⁽²⁾ المتنقلة، ولعل فكرة تحريك الصور داخل الصندوق المظلم في آلة التصوير « الكاميرا » الحديثة مستوحاة من فكرة صندوق الدنيا ، لا ندري ايهما اسبق الى الظهور ، واعظم العروض حظاً من اهتمام الطفل واقباله تلك الارجيح والشقاليب⁽³⁾ التي تصعد بركابها وتهبط ، او تلك الدائرية الكبيرة المنصوبة على عمود ، نقطة ارتكاز الوسط، ومنهم من يصيح بصاحبها: دوري يا عم، انا اعطيتك ، فاذا اصعدهم عليها وانطلقت بهم الاسرة صاعدة هابطة ، او دارت بهم وهم فرسان على احصنتها وبحارة مغامرون في زوارقها ، وسائقون مسرعون في سياراتها ، وكلها من الخشب انطلقت حناجرهم:

(1) منها ياريت كل يوم عيد ، انا بياع الدندورمه بكلمة تركية بمعنى يدور دورانا، دان نورمك اسكيمو برمس اسكيمو ، هيو البياع يا معلم ، اما اتفرج يا سلام وهذا من صاحب صندوق الدنيا .

(2) الخيالة السينما، يجلس الاطفال على مقعد خشبي ، وينظرون الصور الملونة من خلال فتحات بزجاجات تكبير، وهي غالباً عن ابي زيد الهلالي وذياب بن غانم ، والوزير سالم، ويكون تعليق صاحب الصندوق عوضاً عن النطق الصوتي في الافلام

(3) جمع شقلبية، وفي اجتهادي انها مكونة من كلمتين . الشقب: مهواة بين كل جبلين ، وقلب: تحويل الشيء ظهرا البطن ، ان لم تكن من الدخيل على العامية من اصل مجهول.

يا اولاد حارتنا ! يويا ، كسروا قرعتنا⁽¹⁾ ... يويا
قرعتنا صيني ... يويا ، زي الفلّين ... يويا

فاذا كان نور البنات ، تحوّلن بالقول : يابنات حارتنا وينتقل المغنون من لحن الى لحن ، ثم يعيدون ، ويعيدون ، ولا يملّون ، ولا يوقفهم غير وقوف الارجوحة معلنا انتهاء الدور ، فيصرخون صرخة الرجاء في الاستزادة ، فيستجيب العم من فوره⁽²⁾ .
في يوم العيد قلما تجد طفلا يتناول غداءه في بيته ، وسعيد الحظ من يرافق اخاه الاكبر في رحلة الى حيفا لمشاهدة احد العروض السينمائية ، بعد ان وجدت نور العرض ، واستقطبت جمهور الشباب .

يستعدّ الطفل للعيد ، وينتظر قدومه بشوق وترحيب ، فاذا كان يوم الوقفة ، تاكد من اكتمال ملابس الغد ، واخفاها في مكان لا تمتد اليه الايدي ، وسارت البنات الصغار بخاصة ، في الحارة يردّدن ذلك اللحن: بكره العيد بنعيد ، بنذبح بقرة سعيد⁽³⁾ .
فرحة الطفل بالعيد تسبق العيد بايام ، لأنه يعلم انه مقبل على متعة يعبّ من كئسها حتى الثمالة ، فهو صانعها بنفسه لنفسه ، ومتفاعل فيها مع اقرانه ، مبدع فيها تلقائيا من غير زجر ولا قهر ، وفيها يشعر بالاستواء مع الاخرين ، وربما بالعظمة ايضا بهندامه اذا تصوّره فخما متميزا ، فيزداد ثقة واطمئنانا بنفسه ، وينشرح صدره بفرحة لا تعدلها فرحة اللعب في درس الرياضة البدنية ، لانه خاضع فيها للاشراف والنظام . كما لا تعدلها متعة النظر الى شاشة السينما والتلفاز ، لانه يكتّم معها انفاسه ، ويجهد عقله بالمتابعة قاعدا متفرّجا ، واذا كان من كرتون ادرك انها جامدة باردة لا روح فيها ولا حياة ، واحسّ ازهاها بالعجز والاحباط ، وجر ذبول الخيبة ، ولا يغنيه تقليد بلا شريك يشاطره مشاعر الفرح كما يشاطره الحركة والامتداد فيها .

(1) ثمرة اليقطين اذا كبرت ، استعملها قدام الطيراووين مغرفه ماء للشرب ، بعد تفريغها من حشوها ، لان قشرتها الخارجية تصبح صلبة .

(2) ومما يقولونه: كمان شويه ، الله يخليك ، فيقول تكروما .. هذا شوط الحله .

(3) والتكلمة : وسعيد ماله بقرة بنذبح بنتوها الشقرة .

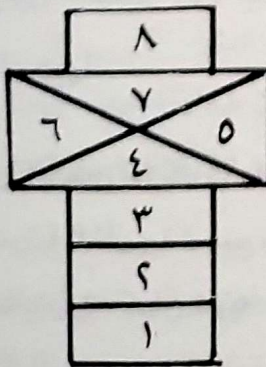
إن عزل الطفل عن اترابه قاتل لروح الابداع فيه، وباعث على التردد لديه، وقد ينشأ بسببه عدوانيا ، او انطوائيا بطيء التكيف مع البيئة والمجتمع.

ألعاب الطفولة:

لكل كبير طفولة ، ولكل شعب العابه المتوارثه. ومن العابنا في ريفنا الفلسطيني ، ما له صفة العالمية، كما نشاهدها بالتلفاز ضمن الالعاب الاولمبية ولكن ، بتطوير مقنن . وبالمناسبة، فاننا لا نزعم نشأتها لانفسنا ، على ممارستنا لها قرونا عديدة ، ولا ننسبها لبلد نون سواه ما دمنا نجهل ذلك ، كما لا ننكر شيوع لعبة في بيئة واختفائها في اخرى، وأن التطور والتعديل فيما يأخذ الانسان عن أخيه ظاهرة مألوفة لا غضاضة فيها، واصبح معلوما ان الحضارة الانسانية نتاج جهد عالمي مشترك .

لا ريب في ان سلوك الطفل وحاجاته من اكثر خصائص البشر تلاقيا وتأثرا ، واذا كان اللعب التخيلي او الايهامي لطفل في السن الثالثة او الرابعة يقوم على الفردية والتقليد والبساطة ، وهو القاسم المشترك بين الأطفال جميعاً، إلا ان الالعاب التي تبني الشخصية وتنمي المواهب وتقوي العضلات ، هي الالعاب الجماعية والالعاب التنافس والاكثر تعقيداً، وهذا من ابتكارات الطفل وقانونه وارادته، وهذا ما لا يتوفر لكل طفل ، وقد لا تأخذ به كل بيئة . لكل من الجنسين في طيرة الكرمل ، العابه الجماعية والتنافسية ، بما يناسب فطرته وقدراته ، ونحسبها بقانون الطفل وارادته ، لقدم معرفته بها .

ألعاب الإناث:



العاب الاناث لا عنف فيها ولا خشونة ، تليق بانوثتهن ودرقتهن وهي اكثر ما تكون انسجاما مع الاطار التربوي للبيئة العربية الاسلامية ، مثل :

بيت بيوت⁽¹⁾ والمدرسة والحجلة⁽²⁾ والقاتلات⁽³⁾ و«يا فوطمي»⁽⁴⁾ وحاكم جلا⁽⁵⁾ ، والحجلة⁽⁶⁾
(1) يمكن تسميتها لعبة الامومة.

(2) الحجلة: من حجل: رفع رجلا وتريت في مشيه على رجله. والشكل السابق يسمونه «المسكوي» وهو ملعب البنات وفي هذه اللعبة ، تقف اللاعبة خارج المضمار من جهة الدارة رقم 1 وتقذف اليها خشبة صغيرة ، وتدخل الدارة حجلا ، ثم تأخذ بدفعها بحسب الارقام لتخرج من المضمار من الدارة رقم 8 ، ثم تغمض عينيها وتأخذ بدخول الدارات بحسب الارقام ايضا ، ثم تقف على خط البداية ، وتعطي المضمار ظهرا ، وتقذف اليه الخشبة من فوق رأسها ، وحيثما استقرت في دارة صارت لها ، ويحرم على الزميلة دخولها. وتراعى في هذه اللعبة امور:

أ- اذا استقرت الخشبة بالدفع والالقاء من فوق الرأس، على خط من خطوط المضمار خسرت اللاعبة الدور، كذلك اذا ما وطئت قدمها خطأ اثناء الحجل.

ب- لا بأس بالحركة ، ويحق لها التوقف في الدارة التي تصير لها.

(3) القال بمعانٍ منها: الابتداء ب، غلب. والقلة او خشبتها التي تضرب بها ، والخشبة هنا هي يد اللاعبة تجمع بها الحجارة بضربة واحدة . ويشترك في اللعبة لا عبتان فأكثر ، وتؤدى داخل البيت وخارجه ، ويعبر عنها بالزقطة ايضا.

(4) من الالعاب الجماعية ، وفيها تشكل اللاعبات وايديهن متشابكة حلقة مفتوحة ، وعلى احدى طرفيها الفوطمي، صاحبة الخان ، وعلى الطرف الثانية الباحثة عن الجمل الضائع ، ويدور بينهما الحوار التالي:

- يا فوطمي: نعم نعم. - اين الجمل؟ في المعصرة.

- شو بتطعميه؟ حبة ذرة - شو اسقيتيه؟ قطر الندى.

- شو بتطبخي؟ فنة عدس (او اي اكلة اخرى) .

ثم ترفع الفوطمي والتي تليها يديهما المتشابكتين ، وتمر البنات من بينهما صائحات : يوم عرسك يا (فلانة) اكلنا فنة عدس. وبهذه الحركة يصير وجه الفوطمي في الاتجاه المعاكس للدائرة. وهكذا ينتقل دور الفوطمي الى الجميع. ثم ينطلقن وهن مكتوفات الايدي ، ويبحثن عن الجمل البارك في ركن من الملعب وما هو الا احداهن، فينهضنه، ويجدنه اعرج، فتمسك اثنتان بايدي بعض ، ويضع الجمل رجله المكسورة فوق الايدي ، ويداه على رقبتي الاخرين ، ويظفن به ارجاء الملعب صائحات : رجل الجمل مكسورة ، رايحين انجبرها عند حسين البعلبي.

(5) يوضع الخاتم بباطن الكفين وهما ملتصقتان ، ثم يقذف في الهواء مع قلب الكفين ليقع على ظاهرهما ، وتحاول اللاعبة ادخال البنصر فيه لتصير الحاكم، او الخنصر لتصير الجلا ، وعلى من تفش في الادخال خلال فترة العد الى عشرين ، او تسقطه ، تجلدها الجلا بأمر الحاكم بما يأمر ، وهي من الالعاب الجماعية وهذه اللعبة من العاب الجنسين .

وطاق طاق⁽¹⁾ طاقية التي انتقلت الى المدارس لطلاب المرحلة الدنيا.

تلعب البنات غير بعيدات عن منازلهن ، تحت سمع الأهل وبصرهم ، وفي الشتاء، يقضين أول الليل في سماع الحكايات من جداتهن ، وغالباً ما يجتمع الجيران في منزل واحد منهم للسهر ، وتطوف عليهم الهريسة أو العوامة أو الزلابية ، ولا بد من القهوة أو الشاي مشروب الشتاء الشعبي .

العاب الصببية الذكور:

تتميز العاب الصبيان بالتنوع والكثرة ، فيها الركض والاجهاد والخشونة، وبقوانين صارمة ، تراعى فيها الدقة والالتزام . وهي بين العاب صيفية واخرى ربيعية، مضمراها البيدر ، ومنها النهارية والليلية ، وفي الشتاء العاب فيها الجلوس والهدوء مثل: حاكم جلاذ بالخاتم او علبة الكبريت، ومنها ورقة اللعب «الشدة او الكوتشينة كما يسمونها في مصر، والا انصرفوا الى القصص الخيالية عن الغول والعمارة ، والشاطر محمد والشاطر حسن ، وقمر الزمان وست الحسن، تقصها العجائز والجدات ، وربما استمعوا الى قارىء يقرأ سيرة عنترة والوزير سالم وابي زيد الهلالي وتغريبة بني هلال ، وغير ذلك.

ومن الالعاب:

٥	٤
٦	٣
٧	٢
٨	١

1- الحجلة: من العاب التنافس ، واللاعبون فيها فريقان ،

فردى أو زوجي، وفيها يختلف شكل المضمار واتساعه كما في الشكل المقابل: ضلع الطول بين 45 و50 سم مترا للدائرة الواحدة

بينما الاناث من 35-45سم ، وهو من ثماني دارات متساوية. ومن قوانين هذه اللعبة ،

اضافة الى ما عند الاناث:

أ- لا يسمح للاعب الا بقفزة واحدة ينتقل بها من دارة الى اخرى ، فاذا تأرجح

وتحركات قدمه التي يقف عليها، او لامست المرفوعة الارض خسر الدور.

ب- لا يسمح له إلا بحركة واحدة ليتمكن بالحجل من دفع الخشبة او الحجر المرقق

(1) الطق: اسم صوت لنوع من الضرب الخاطف او المشي السريع ، ونصف حروف الطاقية.

الذي يفضله الذكور.

في هذه اللعبة ، يتحرك الجسم كله ، ويكون فيه التركيز على الساقين ، ورمي الخشبة او الحجر الى حد المهارة ، فيه تدريب للذاكرة على التصور الغيبي والتقدير الدقيق ، وفي القفز تدريب على تقدير الابعاد وما تتطلبه من جهد ، وفي التارجح ومقاومة السقوط انعكاسات في النفس تنمي الاتزان ، والتشبث باسباب النصر وعدم الاستسلام. وحرمان الخصم من ان يطاءً بقدميه دارة صارت اليه ، فيه تربية غير مباشرة في الدفاع عن حقوقه، ومراقبة الخصم فيها تدريب على قوة الملاحظة .

2- الغميضة : من الالعاب الجماعية ، وتؤدى في ليالي الصيف القمرية غالباً ، وفي البداية يغمض ⁽¹⁾ احد اللاعبين عيني حارس المدى ⁽²⁾ ، ويعد من واحد الى عشرة عدأ بطينا ، واثاء العد ينتشر اللاعبون ويختبئون في الاماكن القريبة، وراء سلسلة حجارة او جذع شجرة او مركاس ⁽³⁾ حطب، او ينبطح في ظل جدار، او في حفرة ان وجدت، ثم ينطلق الحارس في البحث ليمسك باحدهم ليحل مكانه ويعلن ذلك على اللاعبين، واذا اخفق خلال مدة معينة ، اعلن ذلك ايضا وابتدأت جولة جديدة .

هذه اللعبة التي يقتحم فيها الطفل الظلمة والاماكن المعتمة ، لا شك في انها تقتلع منه الخوف ، وتغرس فيه الجرأة والشجاعة ، ويتباهى الاطفال باقتحامهم هذا ، ويبقظتهم وسرعة عدوهم، وانها لتربية ايجابية تجعل من الاطفال رجالا في وقت مبكر ، لانها من الصرية التي تبني الشخصية بارادة ذاتية .

3- نطاطة الشبرين ⁽⁴⁾ : لعبة ربيعية صيفية ، ومن العاب التنافس،واللاعبون فيها فريقان ، كل فريق من لاعبين ، هي من حيث الفكرة تشبه الوثب العالي ، ولكن بمقاسات هي اقدام اللاعبين

(1) من هنا اخذت اللعبة اسمها .

(2) نقطة انطلاق اللاعبين وعودتهم اليه . ويسميه اطفال الطيرة المد اختصارا .

(3) الحطب اذا شد بعضه الى بعض حزمة بحبل، وتخالفت بعض قواعده الثخينة مع الرؤوس المستدقة لبعض

الآخر حتى يتحقق التوازن في الحمل ، والحملة بمقدار ما يستطيع المرء حمله .

(4) النط: الشد والمط.

واشبارهم بعضها فوق بعض ، حتى يبلغ ارتفاعها نحواً من متر وربع المتر، والفريق الجالس على الارض هو بمثابة القوائم المرقمة (1).

4- القفز العالي: انتشرت هذه اللعبة بعد ظهور المدرسة الحديثة، ومثل القائمتين فيها طفلان يمسكان بالحبل افقياً ، وبارتفاع متدرج نحو الاعلى بما يتفق عليه اللاعبون وظهر هذه اللعبة لم يبلغ نشاطه الشبرين.

5- الطيحة (2) : او لعبة القفز العريض ولها صورتان ؛ في الصورة الاولى يكون اللاعب حراً في عدوه وقفزه، وفي الصورة الثانية يكون ملتزماً بفحجتين (3) وقمزة (4) واحدة قبل القفز. وفي صورتين يكون القفز عن خط معين.

6- الشلايط (5) المشاركون في هذه اللعبة بعدد مفتوح ، وقد لا يتساوى الفريقان في العدد ، وهي تشبه التايكوندو « اذ تقوم على الرفس، ولكن من غير حَكَمٍ فيها ولا قانون لها ، وهي من الالعاب الخطيرة لحرية الرفس على اي موضع من الجسم ، لا تسجل فيها النقاط والمخالفات ، وانما الغلب على المنسحب».

7- القرة المربوط: عدد اللاعبين فيها دون السبعة ، يظل احدهم ثابتاً كالوتد ، يمسك بطرف حزام، واخر (هو القرد) يمسك بالطرف الاخر للحزام ، يحاول اللاعبون رفس القرد على قفاه بالشلايط ، وهو يحاول لمس واحد منهم بقدمه في اي موضع من جسمه ليحل محله.

8- المباحطة (6): وهي تشبه المصارعة ، ولكنها مقيدة بعدم الضرب ، ولا حَكَمٍ فيها، وقريب منها المصارعة البريطانية .

(1) تبدأ هذه اللعبة بفتح ارجل الفريق الجالس الى اوسع مدى ، والاضمخ على الاضمخ، كمرحلة اولى ، والاقدام على الاقدام مرحلة ثانية، والاشبار فوق الاقدام مرحلة اخيرة ، فاذا نجح القافزون سجلت لهم نقطة فوز ، وان ارتطموا بقدم او شبر ، خسروا الدور.

(2) طاح: سقط وتاه في الارض.

(3) فحج: من معانيها تداني صدور القدمين وتباعده عقبي الانسان.

(4) القمز: الجمع والاخذ بين الاصابع ، وتعبير الطيحة هنا ادق لغوياً من الوثب.

(5) جمع شلوط: من الشلطة : السهم الطويل الدقيق.

(6) بطحه: القاه ارضاً على وجهه.

9- أو لك يا اسكندراني: من الالعاب الجماعية بعدد مفتوح ، وفيها يصطف اللاعبون بابعاد متناسبة ويحنون ظهورهم ، ويخفضون رؤوسهم ، ويقفز الاخير عنهم جميعا ، ثم يأخذ البعد المناسب عن الاول وينحني ليأخذ بالقفز من صار الاخير بعده ، وكلما قفز واحد انشد: اولك يا اسكندراني، فيرئد الجميع : يا عيون الغزلان.

10- الدبديبين⁽¹⁾ : من العاب التنافس الجماعي، واللاعبون فيها فريقان ، لا يزيد الفريق عن عشرة لاعبين ، وهي تشبه القطار والركاب ، فمن اخذوا بالقرعة نور القطار ، حنوا ظهورهم متتابعين وكل ممسك بمن يتقدمه ، ويأخذ فريق الركاب بالقفز على ظهورهم ، وكلما قفز واحد قال: اشتد يا حجر المد، اتاك صوت الايمان، يهد قلعة الكفار هد⁽²⁾ . وقريبا منهم يقف لاعبان ، احدهما من فريق الركاب يغمض عيني اخر من فريق القطار ، وعندما يكتمل القفز قال: الدبديبين والنمل والنمال⁽³⁾ ، ما بنزل ولا بتزلزل الا يا عنتره (مثلاً) او اي اسم حركي، من اعضاء فريقه. فينزل ويدق حجرا. وعلى من كان مغمض العينين ان يعرف من دق الحجر ، فيجس نبض الركاب ويضع يده على صدورهم ، وكل من الفريقين صامت يكتم الانفاس ، فإن عرفه ، اخذ فريقه نور الركاب ، والا عانوا قطارا مرة اخرى.

ومن شروط هذه اللعبة الصمت، وان لا يمس راكب الارض بقدمه، او ان يتحرك عن موضعه فيما لو قصر في قفزه ، وان يصعد جميع الركاب، والا خسروا النور، واذا لم يثبت واحد من عناصر القطار تحت راكبه، أعيد القفز. والاول في فريق القطار يمسك بأخر يستند ظهره الى جدار.

11- كومة .. (ربعي)⁽⁴⁾ لعبة جماعية من فريقين، احدهما الاسياد الجالسون على الارض متربعين، وايديهم ممسكة بابهامات الارجل وثانيتها الخدم الواقفون من خلفهم، وعلى بعد منهم

(1) الدبديب: مشي المتكبر ، وطريقته كالدب اذا مشى على هيئة .

(2) يقولونها بالتسكين للتناغم المناسب.

(3) تتمل القوم: تحركوا، ودخل بعضهم في بعض ، والنمال : المنام ، وهذه المعاني تتحقق في لعبة الدبديبين .

(4) هي السؤال عن كلمة السر بين الشيوخ، والكومة: القطعة . والربع بمعانٍ. وهي هنا الجماعة من الناس. والعشيرة للرجل.

اثنان كل منهما شيخ فريقه، ومن كان منهما من الواقفين فهو الاسير عند الآخر، وهذا يلقي اليه بكلمة السر ليسأل الواقفين عنها، وعسى ان يحزروها، ليملكوا حريرتهم، فيسألهم كومة... ربيعي؟ ثم يذكر لهم ان كانت من التين او الفاكهة او الخضروات او الحيوانات، ويختار واحداً بحسب الدور من اصحابه، فان لم يحزر تحول الى غيره، فان لم يحزر حمل الواقفون المتربعين، ومروا بهم من امام الشيخين، وارجعوهم الى مكانهم، ويتم ذلك على دفعتين، لان كل اثنين يحملان واحداً. وعلى المحمول ان لا يفلت ابهاماً، والا خسر فريقه فرصة الفوز، ولا تسل عن غبطة المحمولين.

12- الحرامية: تؤدى زوجياً، وفيها يحاول احد اللاعبين خطف منديل يوضع بينهما، والوصول به الى المدى، فاذا بلغه دون ان يمسك به زميله احتسبت له نقطة فوز، والا خسر الاثنان الجولة، وابتدأ جولة اخرى.

13- المجادي: ⁽¹⁾ ضرب من العاب القوى، يلعبها الاطفال في مطالع الربيع: حيث الارض رطبة ما تزال، وكل مشترك يفرز مجداه في الارض ما استطاع بضربة واحدة، ومن انفرز مجداه اكثر من غيره، كان هو الفائز.

14- المنّة: ⁽²⁾ في هذه اللعبة حجران بارتفاع لا يقل عن 10 سم، هما المدى، وعلى تباعد بينهما لا يزيد على 25 سم، توضع على المدى خشبة او قطعة من غصن بطول لا يزيد عن 30 سم، يقذفها اللاعب بقانون خشبي لا يزيد عن نصف متر، تقذف باتجاه اللاعبين المنتشرين في المضمار وعلى هؤلاء ان يمسكوا بها وهي منطلقة في الهواء، فان فعلوا احتسبت لهم علامات بقدر ما يتفق عليه مسبقاً ⁽³⁾ واستلموا القذف، وان لم يمسكوا بها أعادها أحدهم قذفاً بيده من موضع سقوطها لا يتقدم سنتيمتراً واحداً. فان سقطت في المدى أو قريباً منه بمقدار

(1) جمع مجدا. قضيب برأس مدبب بطول بين 30 و40 سم، وهي من الجدا: بمعان منها: المطر العام، والذي لا يعرف اقصاده، والاسم من ادق خصائص اللعبة.

(2) المن بمعان منها: كيل او ميزان، والمنة اسم الهيئة من المن الذي هو الكيل هنا والتسمية من خاتمة مراحل هذه اللعبة، وبعضهم يسميها حدر بدر.

(3) غالباً ما يجعلونها عشر علامات. ويقولون طازها أي امسك بها. وفي القاموس الطواز: اللين اللمس.

أقل من طول القانوف⁽¹⁾ تسلّموا القذف أيضاً. وعلى القاذف ان يرد الخشبة عن المدى بقانوفه، فان ردها، او سقطت بعيداً، ضربها على احدى طرفيها ثلاث ضربات، فان ارتفعت عن الارض تلقفها بالقانوف وابعدها، ثم يكيل المسافة بينها وبين المدى بطول القانوف، ورصد المحصلة لصالح فريقه. ومن بلغ من الفريقين السقف المقرر للفوز قبل الاخر كسب جولة. وغالباً ما يكون السقف مئة علامة.

في هذه اللعبة يتساوى الفريقان في العدد، ويفضل ان لا يزيد عن سبعة، حتى يأخذ كل في القذف دوراً او اكثر، ويحبذ ان تجري بحكم يراقب سقوط الخشبة وقذفها والكيل لئلا يقع الشجار بين اللاعبين بسبب ذلك كما يحدث في كثير من الحالات.

15- طابة الترويح:⁽²⁾ من اكثر الالعاب اثاره ومنتعة، وهي لعبة ربيعية بسبب الجهد الذي يبذله اللاعبون في الركض السريع. ولعبة الجولف الامريكية تشبهها، وفيها يتساوى عدد الفريقين بما لا يزيد عن سبعة. وأحد الفريقين، بحسب القرعة يقف في المراح الى جانب المدى ومنه يكون القاذف، وثانيهما ينتشر في المضمار، ومنه الملقم، الذي يقذف الطابة الى القاذف، وهذا يضربها بعصاه باتجاه اللاعبين، وعلى هؤلاء ان يمسكوا بها وهي متجهة اليهم ليصعدوا الى المراح وإلا إنطلق الخصم ركضاً إلى نقطة مقابل المدى، كأن يكون جداراً او شجرة أو شخصاً داروا من خلفه وعادوا الى مراحهم الذي يبعد عن تلك النقطة بما لا يزيد على مئة متر، وعليهم ان يتفادوا الاصابة بالطابة التي يرميهم بها الخصم المنتشر في المضمار، والا خسروا الجولة. ومن شروط هذه اللعبة ان القاذف اذا أخطأ في تلقف الطابة، اعطيت له فرصتان اخريان فان اخفق، خسر الجولة مع فريقه وصار ملقماً.

وهناك مجموعة العاب للتسلية، ومنتشرة في كثير من البيئات منها :

(1) مصطلح لم يكن شائعاً بين اللاعبين. ولا كلمة المراح كذلك .

(2) الطير الراححة المتفرقة او الذاهبة الى اوكارها. المراح المولى. وتروح واستروح وجد الراحة. والراحة وجدان السرور. وهذه المعاني تتحقق في اللعبة.

- البنائير⁽¹⁾ او الدواحل ، وفيها تدريب على التسديد وتقدير المسافات.
 - السياح او البلبل الخشبي النوار الذي يلف بخيط ويقذف الى الارض فيدور.
 - الدحاريج : الدحاريج بعجلات العربات الصغيرة والدراجات المستهلكة .
 - المقلع : من العاب التنافس اذا كانت الرماية، وخطورتها في الشجار.
 - الطائرة الورقية، والقبع⁽²⁾ الورقي، ويتسلى الاطفال بهما بعد انتهاء موسم البيادر.
 - الرمي بثمار الصنبور الفارغة، والسيارات ، والقطارات بعلب السردين الفارغة للاطفال
- دون السادسة.

وفي عهد الانتداب انتشرت لعبة كرة القدم، وربما كان سبب انتشارها راجعاً الى القوات البريطانية التي اتخذت من سهول فلسطين ملاعب لها، حتى ان الاطفال كانوا يتابعون مواعيدها صيفاً في ايام الاحاد. وجعلوا كراتهم من شرائط القماش المستهلك ابتداءً. اما الالعاب السويدية، والاهرامات والالعاب القوي الاخرى، فيرجع الفضل في معرفتها الى المدرسة الحديثة، لكنها ظلت داخل اسوارها، كمنهاج تعليمي، لم ينتقل الى البيادر. وهواة سيد العصافير استخدموا الفخ والدبق والنقافة، والغريال والاغارة على الاعشاش، في فصل الربيع.

اما السباحة فلم تكن لعبة ، وانما هي من فروض التربية البدنية بغير نصوص، وانما بعرف متبع، يتعلمها الصغار على ايدي اخوتهم واقربائهم الكبار. لم يكن في الطيرة سباحون محترفون، وانما هواة مهرة، يتنافسون فيها في معظم ايام السنة. في ختام الحديث عن ملاعب الصبا، يحسن بنا ان نذكر بعض الملاحظات لما يتصل بها من مغزى بعيد.

اولاً: الالعاب خمس عشرة الاولى، هي من التراث، وبأسماء من صميم اللغة العربية

- (1) في متن "القاموس" البنود(بتخفيف النون): المختبر من الناس وفي الحاشية. المبنود، وربما من البلود: العين الناتئة، ثم قلبت اللام بالعامية نوناً .
- (2) قبع: المزايدة: ثنى فمها الى داخل فشرب منها، وفي القبع ثني طرفين منه متقابلين الى بعض، ثم يجعل له ذيل توازن، ويربط بالخيط كالمطائرة.

وفصيحتها، تدل على الاصاله وعمق الوجود العربي كاول من سكن فلسطين.

ثانية: معظم الالعاب جماعية، مما يمنحها الصبغة الشعبية المحببة لا تمل ابدأ.

ثالثة: تتنوع الالعاب، وتتعدد فيها الحركات على اعضاء الجسم وعظامه وعضلاته،

وفي التنوع تلبية للحاجات والرغبات المختلفة، وتنمية للمواهب، وانطلاق بها الى الابداع، فكانت سبباً في الانتصارات الباهرة التي حققها اطفال طيرة الكرمل الاشبال في عكا والناصره، في كل السنوات التي اقامت فيها دائرة المعارف الفلسطينية المهرجانات الرياضية السنوية، ولطالما ارتجت جنبات المضمار بهتاف الجماهير: الطيرة طارت، اي حلق متسابقها في لعبته فكان اشبالها يحصدون الجوائز ويعودون بكؤوس الفوز بالمرتبة الاولى، في كل لعبة يشتركون فيها، ومن اولئك الاشبال من لمعت اسمائهم نجومياً عامين او ثلاثة مثل محمد فهد منصور، ومحمد عبد النور علوه، وأحمد لطف علوه، وعيسى محمد ابو ليل، وموسى نمر ابو راشد، وعبد الله منصور⁽¹⁾ وغير هؤلاء كثيرون.

رابعاً: تركيز بعض الالعاب على مهارات نافعة، مثل تسديد الرماية، واستعمال

العصا، وتقدير المسافات، والدفاع عن النفس، مما اسهم في بناء الشخصية المؤهلة لخوض غمار الحياة، فالحرية التي تمنح للطفل تغذي فيه الجرأة، وتعدده لمواقف بطولية طالما برزت في حياة الجهاد، والصراعات الداخلية، وسيظل الطيرايويون يذكرون باعجاب عبد الحفيظ الاحمد الذي خاض شجاراً جماعياً، وكان يتلقف بيديه الحجارة وهي مصوية اليه من الخصم، ويرميهم بها، لم يتناول عن الارض حجراً تماماً كما عودته لعبة "المنة" وطابة الترويح.

خامساً: الجانب التربوي: تحقق الالعاب المشتركة وتنمي روح العمل الجماعي

والتنافس الشريف والاذعان للحق، وكانت لدى اطفال الطيرة بوادر ذاتية في هذه الاتجاه فقد كانوا يحتكمون الى القرعة في اختيار البادئ في اللعب وتحديد الادوار، ولهم في ذلك وسائلهم:-

أ- العد المنغوم : حدرا بدرا ، قال لي ربي عد العشرة: واحد، اثنان ...

(1) في عام 1947 زج به في سباق الميل مع طلاب المرحلة الثانوية، وهو ابن السابع الابتدائي وجاء ترتيبه الثاني بين المتسابقين.

ب- نتف زهرة الاقحوان، ورقة ورقة قائلين : سبع ، ضبع ، سبع ...

ج- الطرة والنقش على العملة المعدنية، او اي اداة اخرى بعد نقفها وقذفها في الهواء. هذه عدالة الطفل وبراعته وديمقراطيته غير المستوردة، ليست مرادفة للفوضى، ولا حكم فيها للقوة والاكثرية وانما للحق، يذعن له الجميع ، وهي المنهجية السليمة في تربية النشئ ذاتياً على احترام الانسان، وحقوقه في تكافؤ الفرص.

سادساً: ان حرمان الطفل الفلسطيني من ملاعب صباه جريمة واعتداء على قيمه وتراثه الانساني الاصيل، ولن يقبل بغير العودة الى وطنه، لحاجة الانسانية الى حضارته.

" الحكواتي " و " خيال الظل "

في النصف الثاني من عهد الانتداب، شهدت طيرة الكرمل تغيراً اجتماعياً وعمرانياً وفكرياً ملموساً، وان كان بطيئاً ، نتيجة تأثرها بحيفا التي اصبحت ميناء هاماً ومركزاً تجارياً وصناعياً ، ينزح اليه العرب من الاقطار المجاورة. واصبحت فيه حياة الليل صاخبة معقدة في اوكار اللهو.

وفي موضع سابق، المحنا الى حياة المضافات والديوانات التي يؤمها الرجال ليلاً، يستعرضون فيها اخبار الساعة محلياً وعالمياً، ووجه النشاط القروي وخططهم المستقبلية، وقد يقرأ عليهم قارئ من كتاب يرغبون في سماعه عن الغزوات والفتوحات والشخصيات التاريخية الحقيقية والاسطورية، وربما قرأ عليهم من كتاب الف ليلة وليلة.

كانت الجدية والاتزان والحكمة مما يسود اجواء المضافة والديوان، وهي مما تناسب الشيوخ، اما ما يناسب روح الشباب المتوثب، فقد تولى المقهى مهمة احتضانه وامتصاصه بورق اللعب الذي لا حركة فيه لغير العين. أي أنه كان امتصاصاً سلبياً لطاقات الشباب وابداعاتهم.

ويظهر المذيع انجذب الشيوخ الى المقهى، فخبأ نجم المضافة، ثم أقل على يد القصاص من مرتزقة القراء، فقد تحولوا من مقاهي حيفا الى بعض مقاهي الطيرة، للكسب في ليالي الشتاء الطويلة، من بعد صلاة العشاء.

شخصية القاص هي شخصية الحكواتي، بالمفهوم الشامي، ولعلها ميراث شعبي انتشر بعد ظهور الطباعة الحديثة وكان ابتداءه في الحواضر والعواصم . كان الحكواتي

يجلس علي كرسي فوق طاولة في صدر المقهى، يقرأ وينغم بالاشعار، حين يمر بها، على عادة التأليف القديم، ويتمايل بطربوشه يمناً ويسرة، وتلتزم بضوء المصباح⁽¹⁾ نظارته السميقة، التي يطل بها على مستمعيه من فوق ارنبة انفه، كلما رفع عينيه عن الكتاب بين فينة واخرى، ليرى على الوجوه آيات التفاعل والاستحسان، وبين لحظة واخرى، يأتيه الشراب ساخناً ليجلوه حنجرته الثمينة، وليبقي على صوته ندياً، الى أن ينهي قراءته عند لحظة حرجة، ليستوثق من رغبة القوم في الحضور في الليلة المقبلة، وتسمعه يقول: وعند هذا المقام، تطير بنا عصافير الاحلام الى المنام، لتلتقي غداً بكم ايها السادة الكرام، لنعلم ما جرى لفلان ... ولما نشبت الحرب العالمية الثانية، اختفى الحكواتي من طيرة الكرمل، ليحل محله "خيال الظل" او مسرح الدمى في اولى مراحلها.

يلتقي "خيال الظل" و "مسرح الدمى" في كونهما يقومان على الدمى التي يحركهما لاعب او اثنان، في غرفة مظلمة، ويعتمدان الحوار بالعبارة القصيرة بين الدمى. واللاعب هو الذي ينغم ويميز بين الاصوات حتى بين ذكر وانثى.

وفي خيال الظل تتحرك الدمى من خلف شاشة العرض، فيرى النظارة خيالها الساقط على الشاشة التي قضاء بمصاييح خاصة، بوضع لا يظهر معها خيال اللاعب، وفي مسرح الدمى الحديث، تظهر الدمى من خلال نافذة في المسرح، واللاعب محتجب بواجهة المسرح السفلى.

قلما يحفل مسرح الدمى وخيال الظل بالفكر والموضوعات الجدية، بمقدار ما يحفل بالاسطورة والفكاهة البريئة. وقد ادخل خيال الظل في الطيرة شخصية "كراكوز" وصديقه "عواز" كبطلين رئيسين لاحداث وقعت في مصر في عهد المماليك.

استمال خيال الظل الاطفال في الوقت الضائع للمقهى، يستغرق عرضه ساعة كاملة، تبدأ قبيل الغروب، اي قبل السهرة للرواد المعتادين، في ايام الصيف، ولعل الامر كان مقدمة عفوية لتنشأ في الطيرة دار عرض للافلام السينمائية، لتستقطب الشباب الضائع في مواخير حيفا وحاناتها وملاهيها ودور العرض السينمائي فيها.

(1) هو "اللوكس" المصباح المعدني المعروف، يعمل بالنفط، شديد الاضاءة من كيس خاص مقاوم للنيران، وسط

زجاجة تقيه خطر الرياح عند هبوبها.

لم تكن الطيرة قرية صغيرة، ولا مجتمعاً ريفياً صرفاً في اخريات عهد الانتداب، وما حدث فيها من حياة الليل، انما هو ارماس غائم لتطور بطيء بسبب الارض وعشقتها، والروح وتراثها، وبسبب مقتها حياة الفجور والعبث، ويكفي ان نشير الي ان احداً في الطيرة لم يفكر قط باستثمار الشاطئ العريض لاغراض سياحية، بسبب كراحتهم للعري واختلاط الجنسين.

علمتهم الحياة

المثل السائر توقيع مقتضب من انسان على تجربة مرت به، فيها حكمة او نكتة،⁽¹⁾ ثم جرى الناس على ايراده تعليقا على كل حادثة مماثلة، وغالبا ما ينسى القائل والفاعل، ويبقى المثل دون اسناد والامثال في امة تمثل طرق معيشتها واساليب تفكيرها، لانها حصيلة تجاربها وصياغة لغتها، ولا نعدم ان نسمع امثالا سائرة في بيئة دون غيرها، لانها من خامات واقعها.

للمثل قيمة حياتية عالية في تربية الانسان وابقائه حاضر الذهن في كل المواقف، وبعيدا عن الانزلاقات المهلكة. ويكفي ان نعلم ان الله تبارك وتعالى قد اكثر من الامثال في كتابه العزيز للعديد من الغايات « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل⁽²⁾ » والرسول صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك لتبليغ الرسالة وتوضيحها للناس، ولعلّ الامة العربية في طليعة الامم التي نونت امثالها، لانها جزء من حضارتها العملية وتراثها الادبي، ومن ذلك ما فعله احمد بن محمد النيسابوري المشهور بالميداني⁽³⁾ في كتابه مجمع الامثال، وقد نونها بالفصحى. وعندما فسد اللسان العربي بالعامية التي طفت عليه جمع، اناس جديد الامثال السائرة بالعامية، منهم « عيسى عطا الله⁽⁴⁾ » في كتابه « قالوا في المثل » فورد فيه مما هو

(1) النكتة: النقطة وشبه الوسخ في المرأة، والنكات: الطعان في الناس

(2) الاسراء: 89

(3) توفي سنة 815، عالم نحوي لغوي، له عدة تصانيف منها مجمع الامثال الذي اورد فيه اكثر من خمسة الاف مثل. والميداني نسبة الى حي في مدينة نيسابور.

(4) لغوي معاصر، من مواليد بيت لحم، اورد في كتابه قريبا من مئتين والفي مثل.

سائر في فلسطين وما حولها.

والامثال في الطيرة من مصادر الثقافة العربية، اي من القران الكريم والحديث النبوي الشريف، ومن مجمع الامثال وعندنا اكثر من تسعين بالمئة مما عند «عطا الله» ، ولقد نظرت فوجدت من امثالنا بالعامية مما لم يرد عند الاخير ، فاثبتتها هنا ، لانها من صادق التجربة وبعض التراث، وعسى ان تكون استكمالاً لموضوع الامثال، وفي امتقادي ان منها ما هو طيراوي محض؛ من واقع الطيرة وخاماتها ، فأشرت اليه بالعلامة * قبل ذكره، واذا لم يكن كذلك فليست الطيرة الا بعض هذا الوطن العربي العريق بحضارته . العالمية:-

- ابونا الدرد قتله البرد، وقد تحرك الدال بالكسر ، والدرد هو الكبير الذي تساقطت اسنانه.
- اشني ما منو وفساه بعمي ، فيمن يحشر نفسه في امر يفسده.
- * اللي امو في البيت بوكل خبز وزيت ، فيمن يؤثر علي غيره من اهل البيت الواحد.
- اللي بدو ايانني: ما بيعصاني، فيمن عمل بخلاف الاوامر، ويطمع في الود.
- اللي بدو منك، ما بهمل همك ، فيمن يصر على انفاذ رغباته، ولو فيها الاضرار با لاخرين.
- اللي برشك بالمي ، برشو بالدم، في افتداء عزيز.
- اللي بسلمك مذبحو ، لا تذبحو ، في الحث على الرحمة بمن فوض امر غيره
- اللي بلا بعين (بلا يبلى، اعان يعين) في الصبر والمضي في امر صعب.
- اللي بين اديه قطين ، بوكل بايديه الثنتين ، فيمن ينفق عن سعة بلا حساب.
- اللي عايزني ، بيجي لعندي، في بيان اولوية المبادرة في الحاجة.
- اللي عندك قريب ، بيان التثه في صدق الوعد.
- اللي منه احسن منو، فيما يستنقذ من بخيل او مبغض ، وعند عطا الله: الي مني احسن مني. في الوالد يفخر بنفسه وولده معاً.
- ان السخال لا تقوى على نطاح الكباش، في الضعيف يهزم امام قوي.
- ايدو طايلة . في الامين الكريم الذي اذا استدان لا يرد له طلب
- البادي اظلم.
- بدو صبر ايوب

- بعد ماشاب ودوّاع الكُتّاب.
- بمشي الحيط الحيط، ويقول: يا رب الستيرة . وعند عطا الله: الثرى بدل الستر، وهما بنفس المعنى .
- * ثلاثة بتطول العمر؛ أخذ البكاري . وصحبة السراري، وركوب المهاري، وثلاثة بتقصر العمر: اخذ الارامل، وصحبة الهامل والتمرغ على المزابل.
- (السراري: السّراة وهم الاغنياء والمحظوظون ، والمهاري كناية عن ركوب الخيل رمزا للفروسية والجاه.
- * جاي بالليل تتعشّم ، تعال في النهار وشوف . العشم: الطمع.
- الجوع امهر الطباخين،
- حلو لسان ، قليل احسان.
- الدراهم كالمراهم ، خلّت للنذل حال؛ كانوا ينادوا يا بكير ، صاروا يقولوا له يا حاج بكار، وعطا الله يقف عند مراهم.
- دقة قبال دقة ، لو زدنا زاد السقا ، في ان الجزاء من نوع العمل. واصل المثل: ان فرأنا استحسن احداهن اثناء العمل فامسك بيدها وضغط عليها ، ولما رجع الى بيته جدّته امرأته عن وقاحة السقا الذي ملأت منه جرّة ، ولما ناولته الثمن ، امسك بيدها وضغط عليها ، فقال المثل .
- الدنيا غرارة (او غدارة) ، والزمن دوّار ، وعند عطا الله: الدنيا غدارة والمتغطي بيها عريان.
- بود الجبن منو وفيه ، بارك اله فيه، وعطا الله يقف عند منو فيه .
- الدين المعاملة.
- الدين النصيحة ... حديثان شريفان.
- نو الحاجه ارعن . ويقولون : صاحب الحاجه
- ربّ وزيت ، وزيت ورب، في الثرثرة بكلام فارغ ، وفي الحديث المتكرر.
- ربنا ما براجد الناس بحجارة، في نزول العقاب سريعا ، ورجد: ارعد ، وهي ايضا: التقط

- السنابل، وعند عطا الله : الله ما عنود حجار
- ربّيت كلبي عقور جنبي، تحرم علي تربية (تربية) الكلاب > في الندم على احسان قول بالعمق ، وقريب منه : اتق شرّ من احسنت اليه.
- ربي يحكمني بس مرة، ويزيد عطا الله : ولو على باب خمّ .
- رجع ، ايد من وراء وايد من قدام، في الخائب .
- * الرزّ واللبن طيب على البدن ، وان كان ما تصدّقني اطبخ ونوّقني، وعند عطا الله : رزّ ولبن عافية على البدن.
- رزّو اوسع من خلقو، (وقد يزيون تقديما او تاخيرا: سبحانه من اله يعبد) في التعجب من وفرة رزق الله تعالى للانسان والحيوان.
- زي العفريت ، بسم الله الرحمن الرحيم.
- * زيتنا في خوايينا ، في زواج الاقارب لحفظ الثروة في العائلة . والخايبه جرّة كبيرة يخبأ فيها العسل او الزيت مؤنة، وتستعمل للماء ايضا.
- الساكت عن الحق شيطان اخرس، حديث شريف.
- سكرّ ثمك: في التهديد: اسكت واحذر غضبي.
- سيدنا سليمان مات ، اخضر يابس هات ، وفي الطيرة يحذف صدر المثل.
- شاب يضيم ، ولا ختيار ينين، وعند عطا الله : اختيار بينين ولا شاب يهين، لكل مثل موقف يختلف عن الثاني وكلاهما صادق.
- الشحادة عادة والله يلعنو من كار
- شرّ اهون من شرين، وويل اهون من ويلين.
- شو اللي عصّ على ذنبو . فيمن يثور لامر لم يدع اليه.
- الصباح رباح.
- * صقعة الزبدة بتهري الكبدة. من تجارب الرعاة، حين الخروج بالبقر بخاصة ليضحوها مع الفجر في اوائل الربيع حيث يكثر في الماشيه ادرار الحليب، ويأخذون في استخراج السمن

والزبدة، والضحو : الاطعام في الضحى.

- العاقل طبيب نفسه (او حكيم).

- على بال مين يا اللي بتغمز (او بترقص) في العتمة؟ في السخيف المغرور الذي لا يؤبه له.

* على راسك غرارة ، ولا بيدك صرارة، من الواقع والثقافة المحلية.

- الغني غني النفس.

* فرحتنا ما لها حد ، زيتنا طايش في البدء، من الواقع والثقافة المحلية.

* فرارة كرامة على كل بيوت الحارة .

- فر كثير، بتلاقي كثير، في الشيء النادر اذا تكرر وجوده او مثاله.

* في اذار بحمض اللبن ، وببرطع الجمل ، وينشف الراعي بلا نار ، برطع : اكل وشرب رغدا

، ووثب جدلا .

* في اذار بتفتح العانقة والبانقة، والصفار من الطيار ، وعند عطا الله : بتفتح العنقاء ويدحي

الشنار . العنقاء:الحية، والبنقاء : نوع من البقول ، ويدحي يبيض ، والشنار : طائر .

- في زمان الخير ، ما فيه خير، فيمن لا مروءة له ولا يرجى منه خير.

- فية ومرعى، وقلة صنعة.

- قاتل الله الطفر : الطفر الوثوب والارتفاع الى اعلى ، وارتفاع اللبن الى اعلى وهو في القدر

على النار ، واستعير اللفظ هنا كناية عن الافلاس الذي يسبب ارتفاع ضغط الدم في

المفلس، فيحمله على مخالفة طبعه ، او على ما يكره.

- قال له: بتعرفه؟ قال بعرفه. قال: جاورته؟ قال لا. قال داينته؟ قال : لا قال: ماشيته؟ (او

صحبتة في سفر)؟ قال: لا. قال: لا تقل انك تعرفه (ويقولون : اذن انت لا تعرفه)

- قريوا اولاد يعبد والا عنهم ما يقروا ، من محدثات الامثال في شمال فلسطين.

- قليل العقل برضيه الكلام ، وكبير البطن بترضيه خصلة عنب، كلاهما لاعقل له.

- كبير الخصا، بحياته ما جاب لامو غنيمة.

* كلما طالت ، بتلم غمور في مدة الخطوبة الطويلة ، والتي تلم (تجمع) هي المخطوبة من

كثرة زيارات الخاطب وهداياها.

- لا حمدة ع الباب ، ولا حمد باب الكتاب، فيما لا يشغله امر من ورائه.
- لا هو للصدّ ولا للردّ، ولا لعثرات الزمان.
- لكل قاعدة شواذ - من محدثات الامثال.
- ما تأتي به الرياح ، تأخذه الزواجع ، في المبذر المتلاف، وينفق اكثر من دخله.
- مادح نفسه كذاب .
- * مثل فرس ابو حليلة. وابو حليلة رجل طيراوي كانت له فرس تسبق الخيل في السباق ابتداء ، ثم نأخذ بالتقصير حتى تأتي الاخيرة، لأنها كانت اصيلة ثم كدشها.
- * مثل حمل خمسين جمل على قرقوم عدس. ويقولون : خمسين جمل على..... في الكذاب الذي يكذب على من لا يعرفه ويدعي الغنى وكثرة الاملاك . والقرقوم، من القرقم: سيء التغذية، والردىء الهزيل وهو المقصود في المثل.
- من قلة البشر منسلم ع النور ، ويقولون: من قلة ال بني آدمين بنسلم ع الكلاب. فيمن يضطر الى مسألة اللئيم ومجالسته.
- النساء على دين ازواجهن.
- نوم الظالمين عبادة .
- و..... سلامة تسلمك ، فيمن ينتظر من محدثه حديثا ، وقد فرغ منه.
- وقع لا من ايدو ولا من حديدو، اي لا حراك به، وحديده : بصره اي حتى ان عينه لا تطرف.
- وقع وما حدا سمي عليه . تشفياً، بمبغض يقع بمصيبة مفاجئة .
- يا ارض احفظي ما عليك. استهزاء بالمتعاضمين المختالين في مشيتهم .
- * يا شعري! عري ، او يقولون : يا شعيري عيري . والشعر : هو المشعور بالعامية: وصف للاهوج ولان به مس طفيف من الجنون ، او به ضعف في عقله ، وعمر من العر: كثرة النسل ، ويذكرون الشعير لانه اكثر الحبوب غلة، وقولهم عري او عيري اي اكثر عري وزيدي فيمن يتزيد في نقل الاخبار ، ولا يكتم سرا، وكأنه به مس من الجنون .

انعكاسات

حري بنا، وقد استعرضنا الطيرة ومجالات الحياة فيها، والتأثير الظاهري المتبادل بين الارض والانسان، ان نذكر الابعاد الخفية لذلك التأثير في تكوين الشخصية الطيراوية، في النفس وفي النظرة الى الكون والحياة.

وفي هذا المقام سوف نحاول ان نتلمس شخصية الطيراوي، وهو في وضعه الطبيعي؛ في المناخ الذي ولد فيه متفرعاً عن اصوله، وكوّن فيه عاداته وعاش فيه اخلاقه وانطلق فيه على سجيته، اي حتى عام 1948م.

ويدعونا المقام، ان ننبه الى ان تغير الامكنة والظروف القهرية الطارئة يصاحبها تغيير في السلوكيات، وتقتضيها ضرورات التكيف، كما حدث للانسان الطيراوي ولاشقاؤه الذين نكبوا بالخروج القسري خارج اوطانهم، بمحاولات عقيمة لتكريس الخروج احقاباً طويلة. نصفها بالعقيمة لان لهذا الانسان حضارة موروثه متأصلة، هي التي تجعله محتفظاً بخصائصه المتمردة على الاضطهاد، والابادة الجماعية، والحواجز السياسية والاصطناعية، وممارسات طمس الجنسية، مما يجعل عودته الى ارض الوطن، باذن الله، حتمية ومهما طال الزمن.

الشخصية العامة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: « ما بعث الله نبياً الا رعى الغنم، اخرجه البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً.⁽¹⁾»

في سنة الله تعالى هنا نستشف حكمة بالغة، تقصاها علماء فقه السيرة، ولعل في اخلاق الرعاة بعض ما يرمي اليه الرعي من انعكاسات في سلوكيات الطيراويين الاولين في سلم وحرب، وهم المزارعون والرعاة القادمون من قلب الصحراء، سكنوا الطيرة لميزاتها الرعوية الزراعية، واعتدال المناخ والانسان.

(1) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص70 والحديث المرفوع هو ما أضيف الى النبي (ص) من قول او فعل او تقرير، متصلاً كان او منقطعاً بسقوط الصحابي منه او غيره.

والحديث المتقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نضعه منارة عليا في علم النفس التربوي والدراسات البيئية؛ فبالرعي يتعود الانسان خلق الصبر على الشدائد وعناد العجاوات، والانسان اشد من العجاوات عنادا.

ولقد لاحظ الباحثون في علم الانسان، ان لكل مهنة اخلاقياتها العفوية في اصحابها، ولها آثارها في صفات اجسامهم، كتلك التي تميز قبائل الاسكيمو عن سكان المناطق المعتدلة، وتميز هؤلاء واولئك عن سكان المناطق الاستوائية، او تميز صيادي الاحياء البحرية عن سكان الجبال. ومن هنا نرى الرعي والزراعة، عاملين هامين في تكوين خلق الطيرواين الاولين، وفي بناء اجسامهم، وفي تشكيل نظرتهم نحو الكون والحياة، وكان لهما ابعث الاثر في صلابتهم وصمودهم والقاء الرعب في قلوب الطغاة من انجليز وصهاينة على نحو ما أسلفنا.

وفيما يلي جلاء لما تقدم فيه القول عن الرعي اولاً وانعكاساته النفسية :-

1- الصدق : لا ينفع مع الغنم تضليل ولا مداورة في توجيهها، وانما بالامر اليها امرأ صريحاً ومباشراً؛ ففي رد القاصية مثلاً، يصدر الامر اليها بصوت عال ورمية بحجر يلفت انتباهها، ويردها عنوة، وقد يرسل الكلب في اثرها، والكلب وسيلة تنبيه حسية كالصوت والحجر.

2- الامانة : يعلم الراعي مالكا كان او اجيراً، ان ما بين يديه امانة، يجب الحفاظ على سلامتها وزيادتها بالتوالد، يغدو بها الى مراعي الخصب ولا يطعمها من زرع حراماً حتى يبارك الله له في تعبها فيها.

ونعلم الراعي بأنه بالرعي لا يساوم على ربح، ولا يجتهد في اخفاء عيب، ولا يتأنق في منافسة ولا يتحذلق، فما ابعث الكذب والنفاق عن قلبه وتفكيره ! .

3- سلامة الطبع وحسن الطوية : يسرح بصر الراعي في مناظر الطبيعة بلا حواجز، بعيداً عن الناس وصراعاتهم ومكائدهم، الا ما يصله سماعاً، ولا يشغل بها بالاً، ولذلك يظل صافي الذهن نقي القلب حسن الظن بالآخرين.

أعذب اللحظات لدى الراعي، حين تنصرف اغنامه الى الحشائش والاعشاب تقضمها.

وهي تحت سمعه وبصره، حينئذ يجلس على صخرة، أو تحت شجرة، وتمتد يده إلى الشبابة والمجوز أو اليرغول، أيأ منها يحمل، ثم يعزف لعرائس احلامه بتقاسيم الالحن الشعبية. الحان الحب العفيف، يسكبها في اذن الوجود، وربما غنى وانشد واقفاً متوكتاً على عصاه، جمهوره الاغنام، ولو كانوا من الناس ما غنى. وفي ليالي الشتاء الطويلة، عندما يأوي باغنامه ويطمئن عليها من الوحش، يستتجد بالعزف والغناء، وربما بالربابة ان وجدت وهو متلقع بفروته السميقة. العزف والغناء غذاء روح للراعي، وحديث للنفس حين لا يجد انيساً، فاذا غلبه النعاس اصغى قليلاً الى صرير الجدجد وعواء بنات أوى، كانها الترنيمة التي يغفو عليها قبل ان يسلم جفنه للكرى.

4- الشجاعة : الراعي ابن الفلاة والاودية والغابات المأهولة بالسباع، وهي عدوه الادنى الذي لا يخشاه، ويرى نفسه بالعصا والموسى او الخنجر والحجر الاصم مستعداً لها بسلاح كافٍ، واذا تنكب بندقيته فهي للصيد، والا فهي على سبيل الاحتراز من عدو قوي مباغت، وهذا يعني ان اليقظة شرط في السلامة العامة لا تقل اهمية عن الشجاعة، ونسوق هذه القصة التي ادركت بطلها:

في صبيحة يوم من ايام الصيف، وصل عبد الرحمن زعتير ابو راشد، ومعه ولده احمد، حظيرة اغنامه في خربة شيحا، وشاهد عن بعد ضبعاً يعالج بابها لدخولها، وادرك انه الضبع الذي يتحدث الرعاة عن سطواته وخطورته، فترجل عن الفرس وحمل بلطة كانت في الخرج، وتسلسل اليه حتى فاجاه، وبدأ الضبع الهجوم، فتلقاه بضربة فأخطاه، فالقى البلطة جانباً وامسك بخناقه وابعده عن وجهه، وضغط على رقبتة بقوة حتى ترنح، فتناول البلطة بيد، فانتفض الضبع وانفلت وعاود الهجوم، لكن عبد الرحمن عاجله بضربة على صفحة وجهه، واعقبها بأخرى في جبهته، فحاول الهرب، لكنه سقط صريعاً.

5- سرعة الانفعال وسرعة زواله : الرعي عمل مرهق يوتر الاعصاب، واذا كان السلوك الانساني منضبطاً بالعقلانية والتذكر والتخطيط، الا ان السلوك الحيواني غريزي عفوي، يخضع للمنبهات الفسيولوجية(العضوية الجسمانية)، وهذا مصدر تعب الراعي وشقائه، وكثرة

مخالفات القطيع، ان صح التعبير تثير اعصاب الراعي، ليغدو مع الزمن سريع الانفعال. وتاريخ الرعاة في الطيرة لا يخلو من احداث دموية، سببها سرعة الانفعال بموثر تافه لا يزيد على جنوح غنمة عن القطيع، كذلك الراعي الذي ضرب طفلاً، فقال له: ان كنت رجلاً، فاذهب الى اخي الذي فعل فيك وترك .. فحمل عصاه من فوره حتى لقي اخا الطفل، وقتله غدراً.

6- الغيرة على الانثى : الرعاة اقرب الناس الى الفطرة، والغيرة على الانثى يلتقي فيها الانسان وبعض الحيوان، ولعل ما في الراعي من غيرة زائدة على انثاه، انما هي انعكاس لما يشاهده من غيرة الفحول⁽¹⁾ على اناثها وصراعاتها بسبب ذلك.

وتاريخ الطيرة لا يخلو من احداث بسبب العرض شأن كل البيئات المماثلة. ونحن نعلم ما للعرض من حساسية مفرطة في شرقنا العربي وعالمنا الاسلامي.

7- الرحمة والاخلاص: لدى كل راع احساس عميق بضعف الحيوانات التي يتولى امرها، فهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً، وانها في حاجة الى من يسوقها الى مرعى وإلى مأوى، ولو تركت لشأنها لضلت وهلكت. ولذلك تراه يحنو على الوالدات منها وعلى فصائلها⁽²⁾ يحملها على كتفيه ويسقيها بيديه، واذا كسرت قائمة شاة تولى جبارها، وحملها المسافات البعيدة حتى يعود بها الى الحظيرة، حيث يوفر لها كل اسباب الراحة، وأثرها بالعشب والعلف والرعاية لتأكل حتى تتماثل للشفاء.

ماصفة هذا السلوك من راع يفعل ما يفعل بلا رقيب؟ واذا سئل أجاب بكلمة " حرام " وهذه هي البلاغة في التعبير عن حصول الاثم في التقصير، وهي الرحمة المتدفقة في قلبه، وإنها تقوى الله في اجلى معانيها.

اخلاق الرعاة من عالم المثاليات، لان الراعي راهب البرية، ولذلك تظل حياته فجة ناقصة لبعده عن الناس، والحياة الخصبية تربتها المجتمع، غنية بالتجارب والخبرة بطباع البشر. قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فلان لا يعرف الشر. قال : هو احرى ان يقع فيه.

(1) جمع فحل: الذكر من كل حيوان، وفحل فحيل: منجب في ضرابه.

(2) جمع فصيل: وهو من الحيوان : ما انفصل عن أمه بعملية الولادة.

ومع كل هذا النقص ، لا تستغني المجتمعات عن الرعاة واخلقهم.

اما المزارعون في الطيرة، فهم السواد الاعظم ؛ منهم من انقلب عن رعي، او جمع بين الحياتين، ولقد اسلفنا الحديث عن ايمان الفلاح، بربه وتوكله عليه، وتخطيط معاشه لعام كامل، واستعداده للتقلبات الجوية المتوقعة بحلول بديلة هي المواسم المتعددة، أو إعادة المحاولة في حالات غرق الزرع.

وانصرف الطيراوي الى الزراعة ابتداء يشكل نظرية هامة في علم الاقتصاد ، ذلك ان الزراعة تخلق الوفورات الحقيقية للاستثمار في القطاعات الاخرى؛ اذ كان المزارعون في الطيرة يستثمرون الوفورات الفائضة في المواسم الجيدة في مشاريع اقتصادية اخرى مثل تأسيس شركتي الباصات والتاكسي وشراء الشاحنات والمعاصر الحديثة ومعامل الكس، حتى شهدت البلدة انتعاشاً ملموساً في غضون خمس عشرة سنة.

يقول الفيلسوف الالماني "كانط" ان النقص الحاصل من اهمال التهذيب اشد وطأة ، وأضر بالانسان من نقص التعليم، فان التعليم يمكن ان تدركه في الكبر" وما خشيه كانط، تكفل به الاسلام في مجتمعاته قبل ان يخلق كانط نفسه باثني عشر قرناً، فالمجتمعات الاسلامية تقوم على الجدية والاستقامة في العمل ، وهذا هو شأن الطيراويين الى ان كفت ايديهم عن الارض، والتمس بعض الشباب الرزق في معسكرات الجيش البريطاني ومصانع حيفا الحيوية ، ومنهم من اجتمع عليه الفراغ والشباب وانجرف بمفاسد المدنية الغربية القذرة، مثل الملاهي والعوالم.

ومع كل هذا ظلت الطيرة نقية من هذه الادران، حتى اؤلئك المتهتكين كانوا حريصين على ان لا يدخلوها الا بمظاهر الحشمة والاتزان. ومن قبل ذكرنا الامانة والودائع والاقراض والرهن وبيع السلم والمقايسة، بالعهد المكتوب وغير المكتوب ولا شاهد عليه الا الله تعالى، وذكرنا زكاة الزرع والثمار والمال والتراحم بين الاغنياء والفقراء.

ومن أجل تلك الانعكاسات ذلك العشق الصوفي بين الارض والانسان و النظر اليها- لدى معظمهم - بعض عقيدتهم التي لا تصح ولا تقبل عبادة الا بها، ومن يتهم ببيعها ليهودي أشاروا اليه بالخيانة وازدروه، فاستمسكوا بها، حتى اذا ينس العدو من ابتلاعها بالمغريات

المادية، لجأ الى طرق ملتوية واساليب بلطجية والى قوة السلاح كما حدث في اغتصاب مواقع اقاموا عليها مستوطنتي " اخوزة" والشلالة⁽¹⁾. وعلى طريق تدمير الارض اقام المعسكرات كمنتجعات للراحة والاستجمام لقوات حلفائه المنهكة في حربها مع دول المحور⁽²⁾، فتعرف الطيراويون على نماذج من قوميات مختلفة؛ فرنسية ويوغسلافية وهندية، وسنغالية وافارقة آخرين ممن ساقتهم بريطانيا قرابين رخيصة على مذبح اطماعها في حكم العالم ومص دماء الشعوب.

وعادات الطيراويين في تقديم الالبان والخضار والحطب في المناسبات فيما بينهم مجاناً، هي من مفاخرهم وحضارتهم في بركات الله تعالى في الارض والماشية. بل ومن بركاتها تلك القوة الجسدية، بفضل العمل المتواصل في استثمار كنوزها في العطاء، مما كان له آثاره في تلاميذ مدرستها، حيث كانوا يعودون من المهرجانات الرياضية، من الناصرة وعكا، وقد حصدوا كؤوس كل الالعاب التي يدخلونها، ويكتب الشكر للادارة الناجحة والمعلم المدرب⁽³⁾. على ان الاحساس بالقوة الجسدية غدى في نفوس الطائشين هوس الشموخ بالاباء والكرامة الى حد التهور في الاشتباكات مع الاخرين في شوارع حيفا وملاهيها، وكثيراً ما سيطروا على الموقف في ظل غياب الوعي والانضباط.

واذا كان التهور من طيش، فان للاتزان مواقف مشرفة، حيث الكثرة والخلق العام :

1- مواقف وطنية مشرفة: تجلت في الوقوف ضد الانتداب والتسلل الصهيوني.

2- اكرام الغرباء: لا تخلو الحياة من اكدار وأخطاء، وأي طيراوي يقع في مأزق مع غريب، لا يجد له في الطيرة كلها نصيراً.

حدث عبد المجيد خليل الشيخ الصفوري "ابو سامي" بهذه القصة كما حصلت له:

فقدت مسدساً لي في شجار وقع في بلدتي عام 1937م، فأخذت اتتبع اخباره حتى

(1) باعها " ابو نصري المسيحي" اللبناني، وهي موقع شرقي وادي فلاح تحيط به مواقع المفارقة وفرش محمود العيسى، وفيه معسكر للجيش البريطاني وتل الزعرور والعرش .

(2) هي المانيا وتركيا واليابان.

(3) هو المعلم فايز سعيد من قيسارية، المشرف على النشاط الرياضي المدرسي في الاربعينات.

علمت انه وقع بيد رجل من طييرة حيفا اسمه عيسى البطل⁽¹⁾ فقصدته وابن عم لي في بلده وقادنا السؤال عن منزله الى دكان ابن عم له⁽²⁾ ويكل صعوبة تخلصنا من كرم هذا الرجل الذي اصر على الغداء، ثم اشار الى باب دار قريية، فاستأذنا بالدخول، فرحب بنا الرجل. وادخلنا حجرة الجلوس، وكانت مفروشة بفراش الصوف والمساند القشبية وبساط الشعر البلدي، ثم دخل علينا شاب فسلم علينا، فنظر اليه والده فخرج، ولم يغب طويلاً حتى مدت امامنا مائدة من صواني اللحم وسلطة الخضار واللبن.

وبعد خروج الشاب اخبرناه بغرض زيارتنا المفاجئة، فقال لي: اطمئن، لن ترجع الا بمسدسك او بما هو افضل منه، ولما فرغنا من الطعام استأذناه بالانصراف، فقال: ليس قبل ثلاثة ايام. هذا حقيكم. قلت: لا يعلم أحد بخروجنا اليك، فنخشى الشر في البلدة من ورائنا، ففتح جاروراً في خزانة، وقال: ان ابيتم الا العودة، فانظر يا صاحبي مسدسك بين هذه المجموعة، وكانت من خمس مسدسات. فتناوله من بينها، وكنت قد وصفته له فمددت يدي الى جيبي لاخرج منه خمسة عشر جنيهاً كما اشتراه من سارقه. فقال لئن مددت يدك بشئ، فلست برجل، ولا تقدر الرجال. فأخرجت يدي فارغة. ثم قال لولده: يا حسن! اذهب وانتهي بتاكسي، ولما حضر، قال للسائق: امض بالسيدتين الى صفورية، ولا تقف حتى تصلها. قلنا: نريد حيفا. قال: تقصدها من بلدك. بعد ان ترجع من عندي سالماً مكرماً.

عرضنا على السائق النزول ليبيت عندنا الليلة، فأبى، وعرضنا عليه الاجرة، فجن جنونه. وقال يا عيب! اتريدونني بلا شرف ولا امانة. اتريدونني ان اكسب عدواة الرجل ولبس العار الى الابد؟! فاستحيينا من موقفنا، فما كان لنا أن نطعن ذا مروعة بمروعة، ولو عن اختبار.

والروايات عن مروعة القوم واکرامهم الغرباء تفوق الحصر، فما كان لواقد ان يستقر في الطييرة اياماً حتى يالف اهلها ويصبح واحداً منهم، كما ينظر في جدول جنور العائلات وهوامشه.

(1) من جماعة القسام. اغتاله العملاء عام 1938م.

(2) هو كرم الفهد، من عائلة زيدان.

3- الاحسان الى اليتيم: الاحسان الى اليتيم خلق اسلامي من اعلى سماته الحضارية، فيه خدمة جليلة للمجتمع، فمن ناحية يقي اليتيم من التشرد والضياع، ويحفظ له حقوقه في الميراث حتى يكبر، وان كان جنيئاً او رضيعاً، كفل له الحضانة والعاطفة والاستقرار النفسي، ومن ناحية اخرى يقي المجتمع من اخطار المنحرفين والعاثين الذين لا مأوى لهم. ومن ناحية ثالثة يحافظ على الروابط الاسرية والعلاقات الاجتماعية. ونظام الاسلام في اليتيم، كما في غيره، بالغ الدقة والسمو والاحكام، ولليتيم في طيرة الكرمل، من العناية والرعاية حظ وافر، لا يأتيه من نوي الرحم والقربى وحدهم، وانما من الجميع، اذ يكون محط عنايتهم، وربما شعر بهذا التمييز فأفسد سلوكه، وان كان فقيراً وصله حقه في زكاة المزكين، ولو من حارات بعيدة. على ان اكثر الناس حذباً عليه الاقربون كالجد والعم والعمة والخال والخالة، والاخ الاكبر، وكانت بيوت هؤلاء مفتوحة له في كل حين.

وتحضرني عبارتان، تبدو فيهما المفارقات والتناقضات والقصور الذي احده النكبة وذيولها المساوية الشاذة، كان الناس يقولون لمن يسير واولاده الصغار معه: ليحفظهم الله لك، واما في هذه الأيام فيقولون: ليحفظك الله لهم، وشتان ما بين الحالين والمعنيين: ففي الاولى دعاء لهم ليكونوا قرة عين ابيهم، لانهم زهرة الحياة الدنيا، وعصبيته عندما يكبرون وفي الثانية دعاء له بالسلامة وطول العمر، كأنهم يخشون على بنيه الضياع والجوع والعري يفقده .

4 روحانيات: قالوا: الاسلام دين الفطرة. جاء انسجاماً مع ميول النفس الانسانية وحاجاتها الاساسية التي تستقيم بها حياتها. فهو ليس دين طقوس بين جدران⁽¹⁾.

والاسلام دين فكر، قام على الكلمة والحجة والعمل، ولذلك فهو الذي يشكل عقول المؤمنين به ويحكم نفوسهم، ويحبك خطوط التواصل الاجتماعي والاقتصادي والدارجي، وبين الحاكم والمحكوم وسائر الشعوب. فلا مجال فيه لما يسمى بالفراغ الفكري، ومن خرج منه فقد هوى في غياهب لا قرار لها، ولا استقرار معها.

واذا ذكرت العربية، فهي دم ولسان وقيم باركها الاسلام، ونفى عنها ما لا يليق بكرامة

(1) يسعى الاستعمار في الوطن العربي الى حبس الاسلام داخل المساجد، لكنهم يصطدمون بحقائق تستعصي على ارادتهم كعربية القرآن وصلاحيته الاسلام في كل زمان ومكان.

الإنسان، ووصفها بالجاهلية المنتنة إن بلغت حد العصبية والاستعلاء.

بتلك الصورة المشرقة عاش الطيرايون اسلامهم بوعي وعربيتهم بجواهرها، يشهد بذلك ما قدمنا عن طيرة الكرمل في كل المجالات، وعن سيرتهم في العهد الخوالي، والمحن الى ظاهرة التدين فيها؛ قبل الاسلام وبعده، فذكرنا الدير والرهبان والكنيسة والمسجدين ومقامات الصالحين، والزويتين. واذا كان جيل المتأخرين لم يشهد حياة الزوايا في الطيرة، الا ان مجرد وجودها يذكرنا بذلك الرعيل من المتصوفة، وما يتناقله الاجيال عن كراماتهم.

ولقد قرأنا اخبار المتصوفة، وشطحاتهم في كتب الماضين، ومنا من ادركها في عكا ودمشق واريد⁽¹⁾، ولا نطن حياة متصوفي الطيرة تبعد عنها كثيراً وانها لتعني عملياً حياة التمسك الفردي، والجماعي المحدود والخاص جداً، فالمسجد دار عامة للصلاة والتعليم الديني، اما اشارات المتصوفة كالخلوة والحضرة والوجد والاستغراق بالمفهوم الصوفي الفلسفي، فهذا مالا وجود له في غير الزوايا وحياة الدارويش.

من شيوخ المتصوية الذين سرى ذكرهم في الطيرة بقديسية؛ خليل وبراقي وسليمان وربيعه⁽²⁾ عاشوا مع اتباعهم عمالاً منتجين في النهار، ورهباناً متبتلين في الليل. فاذا كان نهارهم خرجوا مع الناس، كل الى عمله، الى الحقل والمرعى والدكان والمشغل، ليكسب ما ينفق منه على نفسه واهله، ويتصدق ولا يستجدي أحداً من الناس ابداً. واذا كان ليلهم، احيوه بالقيام والاذكار والاوراد والتسابيح والمدائح النبوية، وربما بكوا من شدة الوجد او اسفأ على ما فرطوا في جنب الله.

ولتصوفة الطيرة، كما لغيرهم من سائر ديار الاسلام، مناسبات خالداً لم تذهب بذهابهم، مثل ليالي رمضان المبارك، واجلها ليلة القدر، اذ كانوا يلتمسونها في العشر الاواخر منه، ويخصون ليلة السابع والعشرين منه بالاعتكاف والقيام والتهجد حتى مطلع الفجر، وبينها

(1) شهد المؤلف في عكا زاوية البشريطي، وفي اربد زاوية الكردي، وفي دمشق شهد خروج المتصوفة في المناسبات بالاعلام الخضراء والعدة الموسيقية في شارع الهدوي، احد اقطاب المتصوفة.

(2) من البسطاء من كان يقسم بحياة اولئك الصالحين، ويطلقون في الطيرة على الحارة الشرقية حارة الشيخ ربيعة والشيخ خليل والزقزوق.

ذكرى بدر الكبرى في - السابع عشر من رمضان، ولديهم ليلة المولد النبوي الشريف والاسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان⁽¹⁾، ويوم عاشوراء، وسنة العيدين، ووداع حجاج بيت الله الحرام واستقبالهم.

ومن الطير اويين من سار على سنة الاخراج، اي اخراج الطعام في امسيات رمضان الى الزاوية لياكلوا مع الابرار، وليطعموا المحتاج وابن السبيل، ولما اختفت حياة الزوايا، انحسرت سنة الاخراج، واقتصرت على المسجدين ودخلت بعض البيوت، وظلت الى عام النكبة، فمن الاتقياء من كان لا يتناول افطاره في رمضان الا وفقير على مائدته. ومن الاسر من حافظ على سنة ذبح الدجاج في عاشوراء، وعلى احياء ليلة النصف من شعبان بصنع حلوة شعبان⁽²⁾، ياكلونها بعد فراغهم من تلاوة ما تيسر لهم من أي الذكر الحكيم والمدائح النبوية، ولعل قصيدة البردة للبوصيري من اكثر القصائد رواجاً وحفظاً بين الناس، ومن كثرة تداولها سمي بحرّها "البيسط" بحر الدراويش: ومنها هذا البيت المشهور:

مولاي صل وسلم دائماً ابداً
على حبيبك خير الخلق كلهم

واذا كان الاحتفال بخميس الاموات يقتصر على سلق البيض وزيارة النساء للمقابر. الا أن وداع الحجاج يكون مشهوداً، وذلك ان اداء فريضة الحج مما له اثر عظيم في نفوس المسلمين وحياتهم، وكان لطول غياب الحاج وما يكابده من مشاق السفر، والعودة طاهراً نقياً من الذنوب، يجعل الامر مناسبة غالية وعزيزة، يستعد لها المسلم بمالها من شروط لصحتها ونفقاتها، وكان اهل الحاج واصحابه ومعارفه يأتونه ليلة السفر لوداعه، ويعطونه المال لاحضار ما يشتهون من الديار المقدسة، وفي ليلة السفر تأتي النسوة من الاقارب وصديقات زوجه فيقمن بالتحنن الديني، وفي الصباح يخرج الناس من جميع الحارات لوداع قافلة الحجيج، وهم في تهليل وتكبير حتى يبلغوا بهم محطة السفر ان برأ بالقطار او بحراً بالسفن، فيصلون معهم الى حيفا او الى الطنطورة واذا انقضت ايام الحج اخذ الناس ينتظرون

(1) في هذه الليلة كان تحول القبلة الى الكعبة المشرفة. وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يكثر فيها من العبادة والاستغفار لامته.

(2) من يقطين احمر مطبوخ مضافاً اليه الجوز والزبيب والليمون الحامض وماء الزهر وتوابل اخرى.

التغرافات من مصر، ويخرجون اياماً ليستقبلوهم كما ودعوهم بالفرح والتهنئة والتبريك ،
والعائدون بالقطار. ينزلون في محطة تل خريس.

وإذا أفرغ الحاج متاعه وهداياه كانت من الخواتم والاساور والطلق والقلاند والمسابع
والمساوك، والمصليات والحناء والبخور والطواقي والاوني الفضية والملابس وكل ما يدخل
السرور الى قلوب الاطفال من احفاده وجيرانه.

وتحية الناس في عيد الاضحى: على الجبل ان شاء الله في العام القادم له كل تلك

المعاني.

أ: الحضارة الكرملية «الناطوفية»

قبل ان نؤرخ للطيرة ، نقرّر مسبقا حقيقة ان ليس للطيرة تاريخ مستقل ، وإنما لها تاريخ فلسطين كلّهُ على وجه العموم ، وتاريخ الكرمل على وجه الخصوص ، دون فصل بين التواريخ ، لان الفصل بينها ، تقطيع لاوصال الجسد الواحد .

الانسان قديم على وجه الارض، وهذا القول لا ينفي ابتداء الانسان الحديث بأبيه آدم عليه السلام ، كما يقرره الله تعالى في القران الكريم ، كما لا ينفي وحدة السلالة البشرية كما يقرر العلم ذلك، ولو ارجع وجوده مئات الالاف من السنين ، ولا عبرة لما تذكره اسفار الحاخامين من تسلسل النسل الادمي، في سلّم قليل الدرجات يبيّن حداثة عهد الانسان على الارض ⁽¹⁾ ، ليدلوا بزعم سياسي يخدم اطماعهم في فلسطين والعالم . فقد توصل العلماء بوساطة اشعاعات راديو كربون 14 الى ان عمر الانسان يعود الى خمسة واربعين الف سنة في موقع «شانيدار» بمنطقة كردستان العراقية، والى اكثر من خمسة وثلاثين الف سنة في منطقة الكرمل بفلسطين ⁽²⁾ . من خلال اقدم جماجم بشرية عثر عليها تامة ، واخرى ناقصة ، في هذين الموقعين . اما عمر الانسان الفعلي ، فقد قدره العلماء بمليون سنة تقريبا ⁽³⁾ .

ومخلفات الانسان في الكرمل ، بما اطلق عليها العلماء اسم « الحضارة الناطوفية » تعود الى (8000) ثمانية الاف سنة قبل الميلاد ⁽⁴⁾ وبها توصل العلماء الى خروج الانسان في تلك الحقبة، من حياة الكهف الى حياة الزراعة واستئناس الحيوان ، وسكنى منازل الطين والحجر « في وقت كان فيه سكان العالم يعيشون على الصيد وجمع الثمار » ⁽⁵⁾ وشهدت

(1) سفر التكوين: الاصحاح : الخامس والعاشر وما بعده ، من آدم الى ابراهيم عليه السلام .

(2) الانسان: دراسة في النوع والحضارة ، ص 107 .

(3) المصدر السابق:ص 4 .

(4) المصدر السابق ص 433 .

(5) المصدر السابق : ص 437 .

منطقة الشرق الاوسط في حوالي الالف الثالثة قبل الميلاد فكرة اختراع المحراث وصورته الاولى ، الفأس والعصا ، او عملية اعداد الارض بالجملة⁽¹⁾ .

يرجع الفضل في الكشف عن حضارة الكرمل الى دائرة الاثار الفلسطينية ، التي لاحظت وجود متحجرات وبقايا اثار توحى بقدوم الانسان هناك، في ثلاث مغارات الى الشرق من «عتيث» هي مغارات الواد وطابون وسخول⁽²⁾ ، وفي عام 1928م عندما قامت سلطات الانتداب باقتلاع الاحجار من وادي فلاح لتوسيع ميناء حيفا ، اعترضت دائرة الاثار ونجحت في ايقاف عملية اقتلاع الحجارة ، خشية ان تذهب بكنوز قيمة في الحضارة الانسانية ، ثم كلفت جهات عالمية متخصصة بالآثار واعمال الحفر والتنقيب، ما لبثت ان طلعت بنتائج باهرة تؤكد ان رجال تلك العصور السحيقة كانوا جامعي طعام ، معتمدين على ما يستطيعون من صيد الحيوانات ، وفي العصر «النيوليثي»⁽³⁾ صاروا منتجين للطعام ، فزرعوا القمح وربوا الماشية وقطعان الحيوانات المستأنسة.⁽⁴⁾

اما مصطلح حضارة «ناطوفية» ، فنسبة الى وادي نطوف الواقع بالقرب من قرية «شقبة» في منطقته الرملة⁽⁵⁾ حيث عثرت بعثة التنقيب المؤلفة من العالمين x تشارلز لامبرت وديمتري برامكي x على عدد كبير من الادوات الصوانية غير المألوفة ، وعلى اقدم اثر تاريخي هام ، وهو عبارة عن قطعة عظم محفور عليها عجل صغير يرضع ضرع أمه.⁽⁶⁾

وفي دراسة قامت بها عالمة الامريكية دوروثي جرود Dorothy Garrod استفرقت عشر سنوات واضيفت نتائجها الى نتائج اللجنة الاولى ، واعطت الاطار العام للحضارة الناطوفية ، بالحقائق القيمة التالية:-

(1) المصدر السابق: ص 439.

(2) هي مغارة : وادي فلاح وابي اصبع ، ووشاح المار ذكرها ص 30 و31

(3) العصر الحجري الحديث.

(4) الموسوعة الاثرية العالمية: ص 715

(5) في وادي فلاح: مغارة النواطيف الى الشرق من مغارة ابو اصبع ص 31.

(6) الموسوعة الفلسطينية ج 4 ص 640

- في البدء لم يصنع الناطوفيون الفخار ولم يستعملوا فؤوساً حجرية مصقولة. ولم يستأنسوا الحيوانات ، ولكنهم بدأوا بزرع قمح بري ينمو في فلسطين ، بل وربما زرعه عن قصد ، والدليل على الحصاد، وجود مناجل عظم مستقيمة، وبها فتحة، حيث كانت تثبت فيها الاسنان من الحجارة الظرائية⁽¹⁾ .
- ان الادوات الحجرية الناطوفية الاخرى = اللاحقة = تشمل رؤوس عظم مؤسلة⁽²⁾ طويلة ، ومكاشط ومناقيش⁽³⁾ وادوات ثقب مصنوعة من الشفرات الظرائية.
- ان الجماجم التي عثر عليها في كهف شقبة وفي وادي فلاح ، هي جماجم مستطيلة ونوات فك بارز الى الامام.
- وفي وقت لاحق صنع انسان هذا العصر السلالة من البوص او الحشائش المضفورة ضفائر من اغصان الصفصاف ومبطنة بالجلد⁽⁴⁾
- في مغارة طابون عثر على تسع طبقات اثرية، وأعلى الطبقات احدثها ، وتعود الى العصر البرونزي . وفي الطبقات الوسطى عثر على هياكل عظمية بشرية ، تعد حلقة تطور للانسان بين عهدين يعرفهما العلماء ، بين عهد انسان « نياندرثال » Nearndenthal⁽⁵⁾ والانسان العاقل.
- في مغارة السخول هياكل عظمية مشابهة لما في مغارة طابون ، تظهر بعض ما غاب من حلقات في تطور الانسان من العنصر النياندرثالي الى العنصر البشري الحديث . ومن اسف لم يعثر على جمجمة، كاملة في وادي فلاح.
- في مغارة الواد عثر على عدد من العظام المحفورة بشكل عجول شبيهة بالقطعة التي وجدت في وادي نطوف، وظهر انها كانت تستعمل ايدي مناجل ، وهي صغيرة جداً . وما نذهب اليه برسم العجل على العظام ، هو مكانة العجل المقدسة عند انسان هذه المناطق، في تلك العصور ، وإن لم يصرح بذلك العلماء ، وقد اقمنا هذا الافتراض من

(1) الموسوعة الاثرية ص 715 ، والظرائية : الصوانية.

(2) الاسل: الطويل المستدق، والمؤسل المحدد، او ما جعل حاداً للقطع.

(3) جمع منقش ومنقاش. الازميل ينقش به الحجر والخشب.

(4) الموسوعة الاثرية ص 489

(5) كهف بالقرب من نوسلدورف بالمانيا ، جمجمة هذا الانسان سمكة وتجويف دماغها 1450 سم³ بينما هي

في الانسان العاقل 1350 سم³ ، بروز الحاجبين فيها واضح.

سيرورة تلك المكانة الى زمن الكنعانيين في فلسطين حيث عبدوا العجل، او اتخنوه رمزا لالهتهم ، ربما لانه سبب في عطاء الارض من وراء الحراثة وعنهم اخذ اليهود الفكرة، وطلبوا من السامري ان يصنع لهم عجلا من ذهب في ايام هارون عليه السلام ، كما اخبرت بذلك صدقا سورة «طه» في القران الكريم.

- وظهر ان اهل وادي فلاح « اعتنوا بموتاهم، فدفنوا معهم جميع ممتلكاتهم ، ومن بينها خرز ودبايس وابر خياطة عظيمة»⁽¹⁾ يدل على تقدمهم حضاريا.

هذا الكشف الاخير عن الحضارة الكرملية او الناطوفية كما سماها الاثاريون على ضالته بالغ الاهمية ، فقد اماط اللثام عن ان فلسطين بكرملها ، من جهة الطيرة ، ذات سبق حضاري بسبب اقدمية الانسان فيها.

2: كنعانية عربية

الكنعانيون اقدم الاقوام التي عرفتها فلسطين ، وبها ابتداء تاريخها ، واننا لنرى في الطيرة مثلا عائلات لا ترجع الى قبيلة عربية وافدة قبل الفتح الاسلامي وبعده، واذا كنا لا نجزم بكنعانية اصولها، الا ان لذلك مغزاه.

يعتبر العلماء عصر الكتابة هو عصر التاريخ ، ويعتبرونه حداً فاصلا بين عصور ما قبل التاريخ وعصور ما بعده.

الكنعانيون عرب خرجوا من السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، منهم من استوطن السهل الفلسطيني واشتغل بالزراعة ، ومنهم من استوطن ساحل بلاد الشام، وعاشوا امة بحرية ، بتجارة واسعة ، واعظم ما قدمه الكنعانيون للانسانية اختراعهم الكتابة، وبفضل تجارتهم اخذ العالم عنهم هذه النعمة ، «فهم معلمو العالم ابجدية لغاته»⁽²⁾ . كان خطهم من 28 حرفا على نظام «ابجد هوز» ونسب الغرب هذا النظام الى بني كنعان ، وحرفوا اللفظ ليتمشى مع لسانهم الذي يخلو من حرف العين الى فني كثر، ثم الى فينكس ، وترجمه المترجمون من بعد الى فينيقي وفنيقيين نون الرجوع الى الاصل ، فاشتهروا بالاسم المترجم

(1) الموسوعة الفلسطينية 641.

(2) موسوعة الخط العربي ص 80 والعرب واليهود في التاريخ ص 241.

المحرّف المغلوط، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة الاف سنة. اخذت فلسطين من الكنعانيين هويتها التاريخية، واصطبغت تربتها بدمائهم، اذ اودعوها نتاج حضارتهم الفكرية في اللغة والكتابة. والحساب⁽¹⁾ كما اودعوها نتاج حضارتهم المادية في الزراعة والصناعة، وتربية الماشية والعمران. فمن مكتسباتهم ومخترعاتهم صناعة البرونز او الشبهان والغزل والنسيج والزجاج وصباغة الارجوان، واليهم يعزى فضل ادخال الحصان الى مصر بين عامي 1680 و1570 ق.م وسمي عهدهم فيها عصر الهكسوس⁽²⁾. وكان للروح الابداعية الكنعانية في مجال الزراعة وتربية الماشية خاصة بصماتها الواضحة في حياة الطيراويين من بعد على نحو ما رأينا، ومن اثارهم موقع «كفر السامر» الذي يوحي بانه كان موقعا محصنا.

3: في مهبط الريح

منذ فجر التاريخ، وفلسطين محور الصراع العالمي، بحكم موقعها من العالم، باعتبارها مفتاح الشرق والمهيمن على طرق التجارة الدولية، وباعتبارها مهد الديانات وكنز الحضارات، فغزاها المصريون في عهد رعمسيس الثاني وتحتمس الثالث، وقريبا من حيفا حدثت لهم معارك، وذكر الكرمل بالذات في رسائل تل العمارنة. وتعاقب على حكم فلسطين اقوام غزاة كالفرس والاسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين ثم جاء الرومانيون والبيزنطيون من بعد، الى ان جاء الاسلام الذي حرر فلسطين ارضا وشعبا، وعلى صخرته تحطم الغزو الصليبي والتتاري وهو وحده الذي سيحطم الغزو الصليبي الصهيوني المزيج، باذن الله تعالى. وتأثر جنوب فلسطين الداخلي ووسطها بعبث اليهود حينما وبالصراعات الداخلية التي تنشب بين الاسرة الواحدة بين حين وآخر.

وكان اكثر ارتباط شمال فلسطين، في فترات كثيرة، بالمدن الكنعانية على سواحل البحر مثل بيروت- وبيبلوس- جبيل- وصور، وجرى العثمانيون على هذا الربط فيما بعد.

(1) السومريون اقدم من عرف الحساب: وعنه اخذ الكنعانيون وعن هؤلاء اخذت اوربا بعد 1500 سنة.

(2) كلمة مصرية من مقطعين: هيك hyk حاكم، وسوس sos راعي، قيل انهم الفلسطينيين الذين نزلوا

جنوب فلسطين الساحلي.

4: براءة تاريخيه

يحسن بنا ، والعالم يشقى ويعيش مأساة الكذبة الكبرى ، خرافة الشعب المختار وارض الميعاد ، او ارض اسرائيل، ان نجلو باختصار شديد ملابس تلك الكذبة وابعادها ، ذلك ان الحقيقة تنطوي على براءة تامة وعامة ، براءة فلسطين من الزعم بحق تاريخي لليهود فيها ، وعلى براءة تامة وخاصة للطيرة والكرمل من ذلك الحق المزعوم .
واساس الزعم كتاب الاسفار التي يصرّ اليهود على انها التوراة المنزلة على موسى عليه السلام.

لم يعرف التاريخ القديم قبيلة او شعبا باسم الشعب اليهودي وانما عرف ظاهرة الخروج على شريعة موسى ، ممن سماهم القرآن الكريم يهودا ، ولم يعن بهم بني اسرائيل اطلاقا ، الا من هاد⁽¹⁾ منهم .

واما ابراهيم عليه السلام الذي ينسبون انفسهم اليه زورا وبهتانا ، فهو عربي من قبيلة ارام التي خرجت من الجزيرة العربية واستوطنت اواسط سورية، الشمالية ، كان ابراهيم نبياً مرسلًا ، يجوب الارض داعيا الى الله «حنيفا مسلما وما كان من المشركين»⁽²⁾ اتى فلسطين ودخل مصر والحجاز، ثم توفاه الله تعالى في مدينة الخليل حيث دفن فيها ، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

واما موسى عليه السلام ، فقد ظهر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد متاخرا عن ابراهيم عليه السلام ستة قرون . وبعد موته اختلف اتباعه من بعده ، فمنهم من دخل فلسطين بقيادة يوشع بأخلاق همجية متعطشة للدماء ، فقاومهم الشعب واتسمت اقامتهم فيها بالقلق وعدم الاستقرار، وقسم فاروق يوشع وعاد الى حياة اللصوصية التي كان عليها في مصر.

خرج موسى من مصر واتباعه اربع فئات ، فئة من كان حيا من احفاد يعقوب⁽³⁾ عليه

(1) هاد الى: تاب ورجع ، هاد عن : مال وتحول.

(2) آل عمران:67 وفي مواضع اخرى من القرآن الكريم

(3) كلمة عربية معناها ذكّر الحجّل.

السلام وهم فئة قليلة العدد ، بضع مئات ، وفئة الخارجين على القانون ، والمطلوبين للعدالة الفرعونية. وهم قلة ايضا ، وفئة الجند الفارين من الخدمة العسكرية القاسية ، كانوا باعداد كبيرة ، واكبر الفئات فئة العبيد الهاربين من جحيم الشقاء في حقول الاقطاع، كان من هذه الفئات اناس على دين التوحيد الذي دعا اليه موسى عليه السلام ، واخناتون⁽¹⁾ من قبل ، وتظاهر بالتوحيد الباقون ، فما ان توفي موسى حتى ارتد بعضهم عن شريعته، وهاد الى حياة السلب والنهب وسفك الدماء ، كانما يثارون لماضيهم التعيس، وانضم اليهم من كان على شاكلتهم من السفهاء وراحوا يغيرون على المسالمين الآمنين، فكرههم الناس ، ولاحقتهم السلطات المحلية، حتى لم يجرؤ أحد على ايوانهم او الاقتراب منهم ، فاضطروا الى الانتساب الى ابراهيم عليه السلام « الذي كان صيته قد عمّ جميع ارجاء عالم تلك الازمان»⁽²⁾ لانه كان حسن الذكر ، وابتدأت الكذبة.

بين التوراة واسفار الحاخامين:

انزلت التوراة على موسى عليه السلام باللغة المصرية القديمة ، وكتبت بالكتابة الهيروغليفية⁽³⁾ . « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم»⁽⁴⁾
 حفظت التوراة في تابوت، فقده اليهود اثناء حروبهم مع الفلسطينيين⁽⁵⁾ ولما فكر اليهود بالانتساب الى ابراهيم والعودة الى التوراة ، كان قد مضى على وفاة موسى عليه السلام ثمانية قرون ، ودونوها اسفاراً « باللغة العبرية المعروفة بأرامية التوراة ، وهي لهجة مقتبسة من الآرامية ، واستعملوا الخط المسمى بالخط المربع وهو مأخوذ من اقدم الاقلام الآرامية ، فحفظوه الى يومنا هذا»⁽⁶⁾ حيث لم يكن لليهود حتى ذلك العهد، لغة او لهجة خاصة بهم ، فلم تجمعهم بابراهيم او موسى وشائج قرى ، كما لم تجمعهم بهما ولا بالتوراة لغة ابداً . فقد

(1) فرعون قال باله واحد خلق كل شيء ورمز اليه بقرص الشمس «رع».

(2) العرب واليهود في التاريخ ، ج 1، ص 273.

(3) هيرودس مقدس ، وغيلفين : خط كلمتان من اصل لاتيني.

(4) سورة ابراهيم:4

(5) العرب واليهود في التاريخ ج 1 ص 270

(6) المصدر السابق ص 273/272

تكلم الاول لغة جزيرة العرب ايام وحدتها ، قبل انقسامها الى كنعانية وأرامية وعبرية⁽¹⁾ وتكلم الثاني اللغة المصرية القديمة.

لا تصلح الاسفار ان تكون وثيقة تاريخية صادقة ، يمكن الاستشهاد بها لامور كثيرة

منها :-

- كتبت الاسفار من الذاكرة ، من قبل مجموعة من الحاخامين ، وتتحدث عن تاريخ لليهود مزعوم ، لاهداف سياسية، وهم يعترفون بضياع النسخة الاصلية، التي فيها تعاليم السماء ، وادرك جيل لاحق من الحاخامين هذا النقص فحاولوا سدّه بالتلمود الذي يضمّ التعاليم كما رسموها لانفسهم.

- أتاحت الكتابة من الذاكرة حذفاً وازضافة وتحولاً في النصوص ، حتى ابتعدت عن الاصل ، اذ طغى عليها الفكر الوثني بما فيه من تشخيص للذات الالهية⁽²⁾ وتقيد لمشيئتها بمشيئة اليهود⁽³⁾ وخعلوا عليها من طباعهم⁽⁴⁾.

- اخفى اليهود التلمود مدة اربعة عشر قرناً، مخافة ان يطلع عليه غيرهم ولما ظهر في فرنسا أمرت حكومتها بإحراقه عام 1243م ، واحرقته ايطاليا 1553م ، لما فيه من طعن في الاغيار ، فأضطر مجمع الحاخامين المنعقد في بولونيا سنة 1631م الى ان يتخذ قراراً بالاجماع ، بان «العبارات التي تهين الاغيار يجب حذفها ، وإن التعاليم القائلة بأن المسيحيين سافلو الأخلاق لا يستحقون المحبة والعدل لا يجوز نشرها»⁽⁵⁾

(1) نفس المصدر ص 268

(2) صنعوا للرب خيمة ليسكن فيها وسط احيائهم ، فقد كان مشرداً ينتقل من خيمة الى خيمة بعد خروجهم من مصر « كان كل من يطلب الرب يخرج الى خيمة الاجتماع » ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه « خروج: 33.

(3) قد انتصب الرب للمحاكمة وهو قائم لدينونة الشعوب ، الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم « اشعيا: 3.

(4) كالحقد وسفك الدماء والندم « كل من وجد يطعن، كل من انحاش يسقط بالسيف ، وتحطم اطفالهم امام عيونهم وتتهب بيوتهم وتفضح نساؤهم ، اشعيا: 13. « فانديم من الشر الذي قصدت ان اصنعه... ارميا : 18

(5) العرب واليهود في التاريخ ج 1 ص 298/299

- ومن اليهود طوائف لا تعترف بالتلمود ، وقالت نكتفي بقراءة التوراة وهؤلاء هم القراؤون ، وطوائف لم تعترف الا بالاسفار الخمسة الاولى فقط مثل الصدوقيين والسامريين.
- لا صحة ولا اساس للعهد الذي نسبوه للرب بانه قطعه على نفسه في ان يملك فلسطين لابراهيم ولنسله، من بعده ، وربما يكون صحيحا لو قالوا له ولنسله العرب ، اذ عاشوا فيها بعد ذلك العهد ، الزعم سياسي بستار ديني ظاهر التلفيق.
- كل اسماء المدن والامكنة الواردة في الاسفار والتلمود ، ان هي الا اسماء عربية ، كنعانية بالذات ، حتى كلمة صهيون التي يتخذونها شعارهم العدائي ضد العرب والمسلمين⁽¹⁾ فهم في الاصل غزاة وشرانم بلا لغة مشتركة ولا ثقافة ولا حضارة ، ولا اسبقية لهم فيها ، غلبت عليهم الامية وحياة البداوة الجافة، واتسمت فترة اقامتهم منذ دخولهم اريحا سنة 1186 ق، م، بالاضطراب والحروب الخارجية والفتن الداخلية ، والتزم انبياؤهم بالامور الدينية ولم يؤثر عنهم اهتمامهم بالعمران والبناء ، حتى ان هيكل سليمان اقيم بخشب الارز والسنديان والبحث عن حجارتها بحث في السراب وتؤكد التنقيبات الاثرية عدم وجود ادنى أثر عمراني يهودي يعود الى عهد داود وسليمان عليهما السلام ، وان ما زعموه من اثار اسطبلات لسليمان في مجدو هو محض افتراء بل ان ما زعموه من تدمير اريحا على يد قائدهم يوشع ليس إلا من نسج الخيال تمشياً مع الزعم بالحق التاريخي، وتغذية للروح اليهودية المتعطشة لسفك الدماء على الدوام في ظل عجزها عن اي انتصار لهم تحت الشمس⁽²⁾.

يجمع المؤرخون على « ان يهود بلاد العرب لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية ، ... واليهود لم يجاوزوا قط الامم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ »⁽³⁾ وانهم عندما بدؤا بتدوين الاسفار بنوها من ديانات كنعانية وبابلية ومصرية ، وحملهم حقدهم على الكنعانيين الذين

(1). المصدر السابق ص 254

(2) الموسوعة الفلسطينية. ج 1، ملخص ما ورد على ص 8.

(3) العرب واليهود في التاريخ ص 396 ص 397 نقلا عن اليهودي اسرائيل والفنسون وغوستاف لويون ، وغيرهما آراء مماثلة.

قاوموا غزوهم لبلادهم فلسطين، حملهم ذلك على اخراجهم من نوحه الساميين ، وصيروهم من نسل « يافث » عبيدا لهم ⁽¹⁾ .

استطاع انبيائهم ، اذ كانوا ملوكا من اقامة دولة يهودية موحدة لكنها انقسمت بعد موتهم الى دولتين ، مملكة السامرة في نابلس وما حولها من سنة 930 ق.م، الى سنة 722 ق.م، ومملكة يهودا في القدس وما يليها جنوبا، قضى على الاولى سرجون الثاني الاشوري سنة 722 ق.م، وقضى على الثانية نبوخذ نصر الكلداني سنة 586 ق.م.

وخلاصة علاقة اليهود بفلسطين ، هي ان فلسطين تعرضت لغزو يهودي من الخارج ، ولم يملكوها باجمعها ، وظلت النظرة اليهم على انهم غزاة الى ان تم طردهم منها ، وكانت اميتهم وهمجيتهم سببا في ان لا يتركوا فيها اثرا يذكر .

لم يصل اليهود البحر المتوسط ولا جبال الكرمل وشمال فلسطين ، حتى ان اسفارهم قد خلت من اي اشارة الى ذلك الا ما اتصل بطلب النبي سليمان عليه السلام ، من حيرام ملك صور ان يزوده بخشب الارز من لبنان وبالسرو ⁽²⁾ . والسرو مما يملأ جبل الكرمل ، وفي عهد سليمان بلغت دولتهم الموحدة اعظم اتساع لها وكل زعم في التلمود ، وهو اللاحق على الاسفار، ليس له سند تاريخي يؤيده فيثبت ان سبط ⁽³⁾ منسى نزل الكرمل او جزءا منه.

وتقسيم فلسطين بين اسباطهم ، ليس الا بعض خيوط الكذبة الكبرى

ومن الشواهد على براءة الطيرة والكرمل من السيطرة اليهودية ، خلوهما من اي مخلفات اثارية، كذلك ماصح عن المسيح عليه السلام أنه سلك الطريق الساحلي، وأنه مرّ بحيفا ، ولا بد انه مرّ بالطيرة ، اثناء عودته من مصر الى الناصرة ، مضافة ان يقع بأيدي اليهود، كذلك كان الكرمل ملاذا لتلاميذه من بعده ⁽⁴⁾ فقد كان اليهود يلاحقونهم من اجل تقديمهم الى

(1) المصدر السابق ص 342، واصل التسمية سامي وساميون، وارجاع العالم الى سلالات محددة هي من

تسمية العالم النمساوي اوغست لودفيج شلوتز سنة 1781م

(2) سفر الملوك الاول : 5 فقرة 9

(3) السبط من الشجر : ما كثرت اعصانه ، والقبيلة من اليهود، جمعه اسباط.

(4) الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الثالث ص 641/642

المحاكمة والاعدام، واستطاعوا في ظلال الامن ، ان ينشئوا لهم اديرة وكنائس على متن الكرمل وسفوحه ، ومن اقدمها كنيسة الطيرة وديرها ، ومدرسة الانبياء⁽¹⁾ حيث علم كل من النبي الياس والنبي اليسع تلاميذهما فيه .

ورأينا في الفسيفساء المطمورة بالتراب الناعم، في وادي مسيلية⁽²⁾ ، هو ان الموقع كان بئر الزيت في معصرة قديمة ، فالموقع مكتظ بالزيتون ، والفسيفساء مما شاع استعماله بكثرة في العهد الروماني ، والارضية المبلطة غائرة عن سطح وجه الارض ، والقول بوجود كنيسة ، قول لدينا ضعيف .

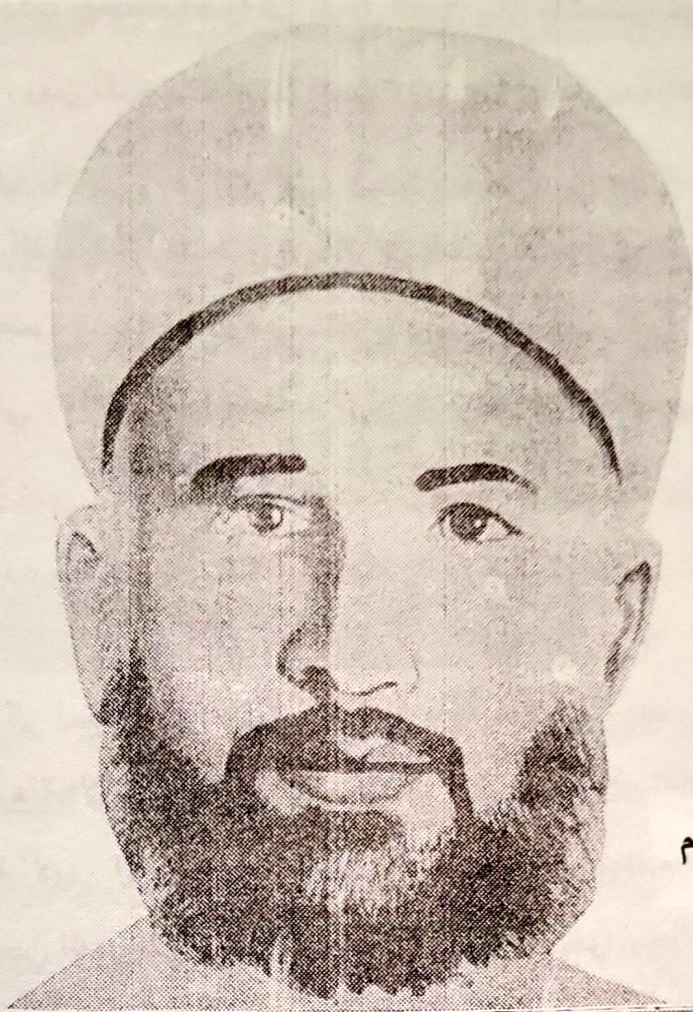
في العهد الاسلاميه

لم يرد ذكر لحيفا وما حولها في العهد الاسلامية ، ويبدو أن الكرمل واهله ، اخذوا بالاسلام منذ الوهلة الاولى ، ولم يسجل عليهم ادنى رفض أو تقاعس ، بل ان اهل الطيرة بادروا منذ الوهلة الاولى الى تحويل كنيستهم مسجدا ، هو جامع المنزول ، ثم تبعهم الرهبان ، فخرجوا من سجن الدير الى نور الحياة ، وتزوجوا واصبحوا رجالا اسوياء عاملين منتجين .
لم يؤثر الغزو الصليبي في قوة ايمان القوم ، ولم يخلف وراءه غير «الكنيسة» على شاطئ البحر لتكون نقطة مراقبة لنشاط سفن المسلمين التي تجوب البحر وتخوض معهم حرب تحرير مقدسة .

ومن آثار المماليك في الطيرة الجامع القبلي الذي انشئ في القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، الذي اعقب طرد الصليبيين من الشرق ، وما زال بابه يحتفظ بالرخامة التي تعلوه ، وقد كتب عليها النص التالي نقشاً .

(1) هو موقع الخضر.

(2) في حديث خاص مع «عبد الرؤوف نايف عبد المحمود» حيث ان والده نقل من حجارة الموقع ما جعله في داره على فرش الزلافة ، كذلك ذكر لي «محمود ابو عيسى» انهم عثروا على حجارة الفسيفساء متناثرة ، خرجت بالحراثا في فرش محمود العيسى



المجاهد عز الدين القسام



الحاج يوسف ابو راشد

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر بعمارة هذا المكان المبارك

الامير عساف بن طمرماي / سنة ٦٥٧هـ

وفي وسط منازل عائلة ابي راشد، زاوية قديمة مهجورة سقط سقفها ، وفي طرفها الشمالي ضريح يعتقد انه لمؤسسها المجهول ، وهي من بقايا العهد المملوكي ايضاً. حيث كانت الزوايا تنشأ لتعبد المتصوفة، ما يدل على قوة ايمان القوم من زمن بعيد. وخربة القائد المملوكي "شبحا جمال الدين" هي من آثار المالك في السهل الجنوبية للطيرة.

6: العهد التركي

اولاً: عندما كانوا...

جاء الاسلام بشعاره العالمي « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وهو ما تتمنى البشرية سيادته في كل زمان ومكان، والنفوس قد فطرت على الانقياد للعدالة المطلقة، وفي هذا تفسير لانقياد الجنسيات المختلفة في الدولة الاسلامية لخليفتها مهما كان اصله ولونه. ولما ظفر الاتراك بسدة الخلافة في القرن السادس عشر، دانت للأستانة⁽¹⁾ جماعة المسلمين من عرب وفرنس وبربر وغيرهم.

كانت الخلافة العثمانية صادقة في اسلامها ، وجادة في نشره في العمق الاوروبي، فاصطدمت بقوى الرفض هناك، ولتجدن اشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا⁽²⁾ فأخذ الكيد لتقويض الخلافة ينشط من الداخل؛ اذ التقت الصليبية الاوروبية مع

(1) هي استانبول، العاصمة التركية قبل انقرة.

(2) سورة المائدة: 82.

الماسونية العالمية⁽¹⁾ في هذا الهدف المشترك ، وبدأ تدخل الغرب في شؤون تركيا الداخلية يأخذ طابع العنف؛ يحتل اقطاراً مثل مصر في حملة نابليون عليها ، ويضرب موانئ المشرق

(1) كلمة في الماسونية:

تعريفها ، نشأتها ، هدفها: عرفها الماسونيون انفسهم ، بأن اللفظ مركب اصلا من كلمتين فرنسيتين: فرانك (صادق) وماسون(باني) اي الباني الصادق . وصار الاسم فرماسون . ثم اكتفوا بكلمة ماسون للدلالة تخفيفاً . وقالوا : انها من لفظين في الانجليزية Free (حر) و Measons (البناءون) اي : البناءون الاحرار .

اما هدفهم النهائي فهو (تشديد بناء الهيكل ، حيث يعيش اله اسرائيل الى الابد) واتخذوا لانفسهم شعارات هندسة البناء . عن كتاب : الماسونية في المنطقه 245 ص 27 و 28 .

ومن اساليبهم لتحقيق هدفهم ، ما نشرته احدى الصحف البريطانية، صحيفة كانتمبوريان Cantemborian في 1880/7/1 : ... ان الكنيسة عدونا الخطر ، فلنستفد من اخواننا الذين تتصروا في الظاهر لبث الفساد في الكنيسة علينا ان نعمل جاهدين لتحطيم الحياة العائليه والاخلاق والدين والفضائل . المصدر السابق ص 37-39 .

وهناك خطة متكاملة سرية كانت لاقامة الدولة اليهودية العالمية ، ضببطت في مقاطعة بفاريا الالمانيه . بعد وفاة حاملها من فرانكفورت الى باريس ، تنص على استعمال الرشوة والجنس والمنصب ووسائل الاعلام المختلفه ، للسيطرة على الرجال ذوي النفوذ والجاه . -المصدر السابق ص 294- ورأيهم في المحمديين ، لا يبعد شيئاً عن رأيهم في الكنيسة في الكيد والعداوة . اما عن نشأتها فتفيد الوثائق التاريخية ان القائد الروماني تيطس هدم هيكل سليمان ، وأقام مكانه معبداً للاله «جوبيتير» بأمر الامبراطور «هدريان» ثم تهدم المعبد . وبعد الفتح الاسلامي اقام المسلمون مكانه جامع عمر مقابل مدخل كنيسة القيامة في القدس .

وفي 23 حزيران سنة 43م انعقد اول محفل من تسعة المؤسسين ، برئاسة اول رئيس له «هيرودس» الذي قال في كلمة الافتتاح (الآن قد تأسست جمعيتنا» القوة الخفية» لتبقى قوتها واعمالها ومبادئها وغاياتها خفية الى الابد) ثم اباح لهم الكذب في سبيل التعمية . على المحفل واسراره ، والوصول الى الهدف . ثم تلاه على رئاسة المحفل حيرام ابيهود» وكان يتيم الاب ، وقد ربته امه الارملة ، فراحوا يطلقون على انفسهم اسم «ابناء الارملة» تمويهاً على هوياتهم ومحفلهم ويمرور الزمن كثر الاعضاء ، وانتشرت محافلهم في اوربا ، ومنها نخرروا في هيكل الوجود التركي ، واسسوا فيها اول محافلهم سنة 1886 ، ومنه قفزوا الى مواضع المسلمين وتجمعاتهم . ولما بدأ الصراع على الاملاك التركية ، كانت الماسونية تدس فيه اصابعها وتؤجج نيرانه ، وعن الماسونية انبثقت الصهيونية واندية الروتاري والليونز .

العربي على البحر المتوسط ، مثل عكا وصيدا وبيروت ، ويوقع الفتنة بين الولاة المحليين ، بين محمد علي والامير بشير الشهابي، وبين أحمد الجزار والظاهر العمر ، وصار الاقتتال على الاملاك قبل موت المالك لعبة دولية، يشترك فيها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا مع اولئك الولاة.

وقبل انتهاء القرن التاسع عشر، انعقد المؤتمر الصهيوني الاول في «بال» بسويسرا عام 1897م، وفيه افصح الصهيونية⁽¹⁾ عن اطماعها في فلسطين، وبخاصة بعد نجاح اليهود «الدونمة»⁽²⁾ في التسلل الى المناصب العليا في الدولة، وعرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني⁽³⁾ شرائها بعروض سخية ، لكنهم باؤوا بالفشل.

وعلى الرغم مما تعرضت له الخلافة ، من قلاقل واعتداءات ومؤامرات الا انها استطاعت الصمود زمانا طويلا ، ولم يتمكن الغرب والصهيونية من تحطيمها الا بوساطة الدونمة الذين نفخوا في صدور الشباب الاتراك روح «الطورانية» العرقية، بعد ان صيرها

(1) حركة عنصرية متطرفة ، انبثقت عن الماسونية تؤمن بخرافة شعب الله المختار وبهذه الاكثوية يزعمون تفوقهم وابداعهم في كل علم وفن، ولهم الحق في امتلاك العالم وحكمه. واول من استعمل كلمة الصهيونية كمصطلح سياسي يهودي اسمه ناثال بيرنباوم في القرن التاسع عشر. ولقد اسقط العلم والتاريخ بطلان هذا الزعم لليهود وغيرهم ، واضطرت الامم المتحدة الى عقد اتفاقية دولية لمكافحة التمييز العنصري، والى اعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية في 10/11/1975م نظرا لممارساتها الاجرامية ضد العرب.

(2) كلمة تركية معناها «المتحولون من دين الى دين» وهم في الاصل اتباع يهودي اسمه «سبتاي تسفي» ادعى انه مسيح اليهود الذي سيعيدهم الى فلسطين ، فآمن به كثيرون ، قال هذا لأتباعه وبأته سيقابل السلطان العثماني، ويطلب منه أن يسلمه مقاليد السلطنة. ولما مثل بين يديه انكر كل زعم نسب اليه ، واظهر اسلامه ، لكنه ظل على يهوديته ، فقلده اتباعه. [مجلة العربي عدد 325 ص 46]

(3) 1842-1918م، بويق بالخلافة بعد ابيه عبد المجيد الثاني سنة 1876م. قام بعدة اصلاحات ، واصدر عدة قرارات للحيلولة نون هجرة اليهود الى فلسطين لغير الحج او الزيارة ، رفض عرضا من ثيودور هرتسل، وعرضاً آخر من الاتحاديين ببيع فلسطين لليهود ب 150 مليون جنيه انجليزي ذهباً ، فتأمروا عليه وعزلوه وسجنوه في سالونيك في 27/4/1909م. أمن بالاسلام حلا لكل معضلات المسلمين، واكثر من التحذير من الانجليز، (السلطان عبد الحميد الثاني ، مذكراتي السياسية).

الاسلام روحاً عالمياً منفتحاً ، واسبسوا لنفخها الجمعيات القومية السرية، مثل جمعية الاتحاد والترقي⁽¹⁾ حتى اذا استلموا دفة القيادة العليا ، اختلفت الموازين ، واضطربت الاوضاع، وانقلب كثير من المفاهيم والسلوكيات رأساً على عقب.

كانت الطيرة ، كغيرها من ديار الاسلام ، تؤدي ضريبة الانتماء للخلافة نقداً من مال، وعينا مما تنتج ارضها من غلال، ومما ينبت على جبالها من اشجار واخشاب، وتؤديها دما من شبابها جنوداً يقاتلون في سبيل الله في قلب اوربا، وفي اطراف الدولة المترامية البعيدة، ولم يدر في خلد واحد منهم الا انه يقاتل دفاعاً عن خلافته ووطنه الاسلامي الكبير ، ولطالما استمعنا الى الآباء والاجداد ، وهم يجترون اعذب ذكريات الحرب والبطولة والشهادة ، وكيف انهم كانوا يتخذون من جثث اخوانهم «الجنود»⁽²⁾ متاريس واستحكامات ، ثم يقفزون عنها ، في كرفرفٍ . واقرب الذكريات ، أيام «سفر برك» حيث اجتمع على الناس ، جذب الارض وجذب الحرب، في وقت كانت شمس الخلافة ، تودع الحياة في الافق الغربي.

ثانياً: سفر بيرك⁽³⁾.

العرب امة واحدة ، والوطن العربي وحدة سياسية ، ذلك بعض معطيات الاسلام، وعلى العرب ان يملكو ارادتهم لتحقيق الوحدة ، ولديهم اقوى وسائلها واسبابها ؛ دين ولغة وتاريخ مشترك ، وأنهم مستهدفون ، لا فرق في ذلك بين موال متزلف وحر أبي، واذا كان العدو يتخذ من الاول اداة قمع للثاني، ويعدده ويمنيه بالمساعدات وحماية الكراسي ، فانما ذلك الى حين ، لان هذا افضل اساليب الحرب واوفرها جهداً ويسراً ومالاً ، هذا فن الحرب الحديثة

(1) جمعية منقلبة عن «محفل الشرق» الماسوني في تركيا، وبرز اعضائه النشيطين «مصطفى كمال اتاتورك» وحامت الشبهات حول نشاط المحفل ، وقويت فيه الشكوك ، فلجأ اعضاؤه الى تغيير اسمائهم، واستبدلوها باخرى رمزية حركية ، ويقوا على نشاطهم في الكيد للخلافة ، حتى البوا كبار قادة الجيش ، وساروا بقطعات منه عظيمة من سالونيك، وخلعوا السلطان عبد الحميد الثاني، والفوا الخلافة، والقوه في السجن حتى لقي الله في 10 شباط 1918م (السلطان عبد الحميد الثاني مذكراتي السياسية ص 15).

(2) ويذكرون مصطلحها التركي اوردو جيش للمفرد وللمثنى والجمع.

(3) لفظ تركي معناه: الجيش الاتحادي ، او التعبئة العامة ، او التجنيد الاجباري.

واصول اللعبة «فرق تسد» . بالحرب الاهلية ينفذ العدو الى ما يريد لهذه الامة من جهل وفقر وذل وطمس للشخصية، ومن سكوتها على عمليات نهب الخيرات وهتك الاعراض وقتل ابنائها في كافة الاقطار، ويبقيها مفككة ومبعثرة.

لقد قاتل العرب دول الكفر تحت مظلة الخلافة ، حين كانت تركية ، وانهم لفي شوق للقتال في سبيل وحدتهم واطنانهم ومثلهم عندما تتوفر لهم القيادة الواحدة أو القيادات المتحدة.

ومن ايام «سفر بيرك» لدي ثلاث روايات ، تتحدث عن قتال العرب في صفوف الاتراك ، هذه الروايات عن جنود من اهالي «طيرة الكرمل» منهم من خرج وعاد ، ومنهم من خرج ولم يعد .

الرواية الاولى: رواية عاطفية تصلح لأن تكون مسلسلا تلفزيونيا لما فيها من مواقف درامية حادة.

تقول الرواية: ان دركيا⁽¹⁾ من عائلة ابي راشد الطيراوية ، كان يؤدي خدمته في لبنان ، وهناك علفت به فتاة مارونية فتزوجها برضا اهلها. لكن المنافسة على الجمال الجأت الى التعصب الطائفي وقتل الدركي غيلة، بعد ان فر بزوجه الى بيروت، كانت زوجه حاملاً ، والتجأت الى السلطات هناك طلبا للحماية من بطش المتعصبين ، بعد ان تلقت منهم تهديداً بالقتل ، واستطاع العقلاء من الطائفتين ان يبقوا على حياة الفتاة حتى وضعت حملها وارضعت طفلها الذكر حولين كاملين كما تنصّ الشريعة الاسلامية السمحة ، ثم قتلت ، وتولت الكنيسة تربية الطفل وغيرت اسمه.

عندما خطبت الفتاة ووافق الاهل ، راح المتعصبون يطلقون عليهم اسم ابي راشد، ثم لحق الاسم بالطفل وغلب عليه وعلى ذريته التي نسلها من بعد وصارت تعرف باسم عائلة «ابي راشد» .

قال لي محدثي لا تعجب ان قلت لك ، وان منا مسيحيين ، تعرّفت الى شاب من احفاد ذلك الدركي الذي جاء ثمرة تلك العاطفة الانسانية السامية. وهو الذي روى لي القصة من

(1) ويستعملون مصطلحها التركي «جندرمه» للمفرد والمثنى والجمع، نوع من الشرطة الخاصة.

الفها الى يائها تلقفها من جده واعمامه».

الرواية الثانية: في عقد الستينات من القرن العشرين تلقت عائلة منصور الطيراوية في اربد، رسالة بتوقيع عيسى عبد الله منصور المواطن في جيزان ويعمل في دائرة المالية هناك، ويطلب منهم تبادل الرسائل والزيارات ، لانه في وضع نفسي صعب، ويتمنى ان يتعرف الى اعمامه واقاربه ليفخر بهم امام من ينادونه ويشيرون اليه بابن العسكري ، وينكرون عليه انه من اصل كريم.

وفي عام 1970م ، وفي وسط الاجواء الساخنة الشاذة التي عاشها الاردن آنذاك ، فوجئت العائلة المذكورة بذلك الرجل ينزل ضيفا على كبيرها الحاج فهد المنصور ، كدليل على صدق مشاعره وصحة نسبه ، ثم يروي لهم ما سمعه من والده العسكري.

كان عبد الله منصور بين القوة التركية التي وجهت الى اليمن للتصدي للقوات البريطانية المهاجمة من جهة المحيط الهندي والبحر الاحمر . ولما خسرت تركيا الحرب ، كان المذكور بين الجنود الذين خافوا على انفسهم الوقوع بأيدي الحلفاء او اعوانهم فيما لو قدرت لهم السلامة من الاعراب اثناء العودة. اتصل عبد الله باخواله من عائلة الخمرة بحيفا، وهم من الاثرياء ، وكرّر الاتصال لعلهم يسعفوه بمال يعيش به عيشا كريما الى ان تتاح له فرصة العودة الآمنة. لكن لم يتلق جوابا ، فقرر البقاء هناك ، وتزوج من فتاة يمانية انجبت منه ولدا ذكرا هو عيسى وبنيتين اثنتين تزوجتا في جيزان.

بقي ان نذكر ان عائلة الخمرة قد اطلعت عائلة منصور على الرسالتين بعد وصولهما، لكن الشك في شخصية كاتبهما ، جعلهم يغفلون الامر ، فقد غلب عليهم نبال استشهاد ولدهم.

الرواية الثالثة: أحمد ابو أحمد او هو أحمد محمود الابطح ، ممن خرج للقتال في صفوف الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى ، وانتهت الحرب ولم يرجع الى الطيرة ، وانقطعت اخباره ، وترك حسرة في قلوب اهله الذين حسبوه من جملة الشهداء . وبعد مضي اكثر من خمسة عشر عاما ، عم القرية فرح غامر بعودة أحمد بزوجة واربعة ابناء بينهم طفلة واحدة . كان ذلك عام 1931م.

اما غيابه ، فقد امضى بضع سنوات منه في احد سجون اسرى الحرب في روسيا ، وعندما افرج عنه ، وجد نفسه وسط العاصمة الروسية «موسكو» وفيها اخذ يتلمس سبل العيش ، وكان ميسورا على قلة ، لكنه استطاع الزواج من فتاة مسلمة ، ومن تكوين اسرة راح يوفر لها المال من اجل العودة بها الى مسقط رأسه، فراراً بدينه ودين زوجه واولاده، وكان يكثر من الشكر لله على سلامة العودة .

فرح به الامل كثيرا ، ونصبوا مظاهر الزينة ، واقاموا الافراح سبعة أيام بلياليها . ثم أخذ الناس يشيرون اليه باسم المسكوبي لعودته من بلاد المسكوب بزوجة مسكوبية، وابناء نوي بشرة بيضاء نقيّة، بلون امهم واخوالهم ، ولكن بدماء عربية.

كثير من شباب طيرة الكرمل ، كغيرهم من شباب العرب المسلمين الذين سيقوا الى ميادين الحرب، مكرهين بعد سقوط الخلافة، والتنكر للعربية وكتابها الخالد ، واغفل الاتحاديون ، عن عمد، ما تقتضيه حالة الحرب من مهادنة العرب وعدم الحط من قدرهم ، واسترضائهم ليضمنوا حماسهم وولاءهم ، وانما ابقوهم جنودا مقاتلين يتقدمون الصفوف على طول الجبهات ، للتخلص منهم ، ولتوفير ارواحهم بهم، واحملهم على الانفصال عن الشعب التركي، الذي ارادوا له التخلي عن امة الاسلام والتزامه بقضاياه المصيرية، واطرها قضية فلسطين.

وعلى الرغم من غطرسة الاتحاديين ، وحرمان العرب من الوظائف والترقيات العسكرية، الا ان العرب ظلوا على ايمانهم بدينهم وامتهم ووطنهم . ولقد اتاحت الخدمة العسكرية لعدد منهم اداء فريضة الحج، قبل انقلاب السلطة على الاسلام والمسلمين.

ثالثاً: الخاسرون

ان يخسر شعب ما معركة او اكثر ، ليس اضرب به من ان يخسر حرباً ، لان خسارة حرب تعني سقوط امة وضياعها كما تعني الهزيمة التي فيها المرارة ، اذ في الهزيمة يخسر الشعب كبرياءه ، ويصغر في نفسه ، وتسقط قيمه ومبادئه وحضارته ، ومقومات استئناف الحياة فيه ، ثم تسقط هيئته من نفوس الآخرين ، وهذا ما اصاب تركيا « الرجل المريض »

عندما طال استرخاؤها ، وانصرفت عن التفكير السليم ، وتركت أمنها بيد «الأغوات الانكشاريين»⁽¹⁾ حتى انتصر الدونمة ، فخرجوا بها عن الجماعة الاسلامية ، وهجروا الحرف العربي حرف القرآن ، واستبدلوه بالحرف اللاتيني وتعمدوا التتريك ، ورفع الضرائب وزيادتها واهمال مصالح المدن والقرى خارج حدود تركيا ، فلا مشاريع اقتصادية ، ولا خدمات تعليمية ، ولا رعاية صحية ، حتى بدت القرى بخاصة ، والطيرة من بينها ، او كارا لاشباح الفقر والكتابة .
ولما بدأ العرب يستيقظون وينشدون الخلاص من غير نية في الانفصال ، ويرفعون اصواتهم في المطالبة بالحقوق ، صمّ الاتحاديون اذانهم ، واسرفوا في اضطهاد الاحرار ، وتعليقهم على اعواد المشانق⁽²⁾ وبذلك اعطوا رصاصة⁽³⁾ الحسين بن علي في الحجاز صداها العالي في ربوع الشام ، ووقف العرب الى جانب الطغاة في حربهم ضد الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى بين عامي 1914 و1918م .

كان عامة العرب ، في الارياف بخاصة ، في غاية الحرج ، فقد اوقعتهم الحرب في ازمة ضمير حادة لم يجدوا لها حلاً ، فإما ان يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، وويل لهم من عذاب الله ، واما السكوت على الجور حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً ، وويل لهم من نفس لا تحتمل الظلم ، ومع ذلك فهم يذكرون من بينهم رجلاً واحداً فقط ، كان من رجالات الحسين المقربين هو « سيد محمد الصفوري»⁽⁴⁾ الذي نفذ مهمات خطيرة بين جدة في الحجاز وجبل العرب في سوريا ، وزحلة في لبنان .

انتهت الحرب ، وشاهد الاتحاديون املاك « الخلافة » الغاربية نهباً بين ايدي اعدائها ويسقط الطورانيون وعظمتهم المزيفة في انفسهم وفي نفوس الاخرين ، وبقي الاسلام بآثاره شاهداً على حضارة وسيادة ، هما من عظيم معطياته الخالدة في تاريخ تركيا المسلمة .

(1) الاغوات : كبار الضباط ، جمع اغا ، كانت تعطى لهم اقطاعيات من الاراضي واسعة اغراء لهم في الولاء للدولة . والجيش الانكشاري من المرتزقة وممن كانت تربيتهم الدولة تربية عسكرية بعيداً عن نويهم .

(2) يحتفظ التاريخ بسجل الاتحادي العنيف «جمال باشا» السفاح الذي اعدم الكثير من احرار العرب ، منهم شهداء 6 ايار 1916م حيث اعدمهم في بيروت في الساحة التي خلدت بطولاتهم «ساحة الشهداء» .

(3) اطلقت في 9 شعبان 1334هـ الموافق 10 حزيران 1916م .

(4) من عائلة وافدة الى الطيرة من قرية صفورية

ركع الاتحاديون الدونمة والطورانيون امام الحلفاء في مؤتمر فرساي المنعقد عام 1919م وتوقعوا ضمن حدود تركيا الضيقة، بعد ان ملكوا امبراطورية كبيرة ورثوها عن اعظم امة ، فأضاعوها .

7: عهد الانتداب

1- خلفية سوداء.

على الرغم من التنافر الحاد ايدولوجياً بين الغرب المسيحي والصهيونية⁽¹⁾، الا ان الطرفين يلتقيان على صعيد الاطماع في تدمير الاسلام والمسلمين ، هذه الاطماع هي التي جعلت كلا منهما عبداً للآخر، لا يستغني عنه، ولا يعصي له امراً . ولا نستغرب اذا وجدنا بين سياسة الغرب صهيونيين قبل ميلاد الصهيونية، واشد حرصاً على تحقيق الاحلام التي غرسوها في اذهان اليهود، من وراء وطن قومي لهم في فلسطين. وأية ذلك ، هذه اللقطات التاريخية.

أ- فكرة ارض الميعاد البريطانية الصنع، طلعت بها منظمة بريطانية سنة 1649م⁽²⁾ قبل ان يفكر اليهود بها ، فتمودهم يحرم عليهم العودة الى فلسطين لخطيئة صنعوها مع الهيم⁽³⁾.

ب- في عام 1840 تقدم «بالمستون» وزير خارجية بريطانيا بطلب الى الباب العالي يعرض فيه قبول اليهود في فلسطين، ليكونوا حائلاً في وجه اطماع محمد علي او من يخلفه في الممتلكات العثمانية⁽⁴⁾، كان قرار مؤتمر الحاخامين ليهود اوروبا في «فرانكفورت» المانيا ، سنة 1845م، برفض " فكرة العودة تماماً، واقر حذف جميع التوسلات للعودة الى ارض

(1) نشأ التنافر دينياً من وراء صلب المسيح بحسب العقيدة المسيحية ومن كون المسيحيين سبباً في تشريد اليهود في عهد الامبراطور هدريانوس ، وبلغ من كراهية الكنيسة الكاثوليكية لليهود ان اصدر الباب بولس الرابع مرسوماً بابوياً يقضي بعزل اليهود اجبارياً في احياء خاصة بهم ، ولا يسمح للمسيحيين بمخالطتهم- الشخصية اليهودية الاسرائيلية ص 20.

(2) يؤمن اليهود بفكرة «عودة المسيح اليهودي» الى الارض ثانية، ليقم الدولة اليهودية العالمية، ومن المسيحيين من هو على هذا الاعتقاد -الصهيونية غير اليهودية ص 55.

(3) الايدولوجية الصهيونية ص 114.

(4) الصهيونية غير اليهودية ص 113 وبالمستون اول من فتح قنصلية بريطانية في القدس سنة 1838.

الآباء أو احياء دولة يهودية»⁽¹⁾.

وللعلم فإن نابليون بونابارت كان قد طلب مساعدة اليهود في حربه ضد بريطانيا مقابل ان يعيدهم بعد النصر الى فلسطين، وذلك في 1799/4/20⁽²⁾. ضمن منشور وزعته فرنسا على يهود العالم .

ج- امتزجت الحركة الفكرية بالحركة السياسية العملية لدى الغرب الاوروبي، لضرب اي قوة او وحدة اسلامية متوقعة بين العرب في آسيا وافريقية في مؤتمر عقد في «لاهاي» سنة 1907 على شكل حلقات دراسية، دعا اليه "كامبل بانرمان Panerman" رئيس وزراء بريطانيا، وهو الذي صاغ قراراته التي تنص على تجزئة الوطن العربي بعد احتلاله عسكرياً ، واقامة جسم بشري غريب - اليهود- في فلسطين، ليحول دون التقاء الجناحين العربيين في آسيا وافريقية، وليظل عامل استنزاف لقوى الوطن العربي وتدمير قوته البشرية، وقد حضر هذا المؤتمر كل من بريطانيا وفرنسا وهولندا واسبانيا وبلجيكا والبرتغال وايطاليا.⁽³⁾

د- في عام 1916 عقدت معاهدة سايكس بيكو السرية بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام الشرق العربي بينهما، وفي 1917/11/2م أصدر بلفور وعده للصهيونيين باقامة الوطن القومي في فلسطين، وتجاهل فيه ذكر العرب سكان البلاد الشرعيين. ومع ان هذا الوعد لا يحمل صفة القانون الدولي، الا ان الصهاينة اعتبروه ورقة سياسية رابحة في اروقة مجلس العموم البريطاني، ولم يجد الجهاز التنفيذي الذي اسسه هاييم وايزمان في لندن، لم يجد صعوبة في استخدام الوعد لكسب تأكيد الحكومة البريطانية لخطط الصهيونية في فلسطين.

2: صهيونية الانتداب:

رصدت بريطانيا لنفسها اهدافاً لصالحها من وراء انتدابها على فلسطين الا ان الصهاينة افقدوها فرصة استثماره ، اذ حولوه الى مظلة حماية للوجود الصهيوني وفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين، حتى غدا الوجود البريطاني بغيضاً يقابله الفلسطينيون

(1) المصدر السابق ص 134.

(2) المصدر السابق ص 106 والايديولوجية الصهيونية ص 36.

(3) جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ص 67.

بالرفض والمقاطعة وصورة العلاقة بين اهالي الطيرة والانتداب انموذج لما كانت عليه مدن فلسطين وقراها.

أ- سرقة الارض بالقوة والخديعة:

- منذ حملت بريطانيا عصبة الامم على ان تمنحها صك الانتداب على فلسطين، اخذت تفرز عصارتها السوداء، فارسلت اليهودي " هربرت صموئيل " كأول مندوب لها، فابتدأ جرائمه بسلخ اربعة مواقع من اراضي الطيرة الجبلية، باتجاه حيفا، وأقام معسكراً للجيش الحربي، ليحتضن بعد قليل مستوطنة صهيونية تلبية لطلب عشيقته الصهيونية "اخوزا" اطلقوا عليها اسم "أخوزا صموئيل" في عام، عام 1921م، حيث لم يكن للفلسطينيين اي تنظيم إداري . او قيادة سياسية، حتى ولا زعامة من اي نوع باجماع شعبي او وجود فعلي ، فأصيب الطيرايويون بالذهول من رؤية الاسلاك الشائكة حول ارضهم في الكرمل، وابتدأ الغضب المكبوت والنفور من الانتداب يتسرب الى نفوسهم ، ولم يقبلوا تفسير الاجراء بحجة المشاريع العامة، وزادهم نفوراً اعلان يجعل اللغة العبرية لغة رسمية ثالثة في البلاد الى جانب اللغتين العربية والانجليزية، فلم يتقدم منهم أحد الى وظيفة حكومية، ولم ينخرط في سلك البوليس الفلسطيني غير رجلين اثنين خلال فترة الانتداب كلها، وكانوا يعنون " القلبيق"⁽¹⁾ على رأس العربي مما لا يليق به.

- كان الطيرايويون على علم ووعي بما يجري على ساحتهم الفلسطينية، ويتفاعلون معها ابتداء بالمصادمات التي جرت في موسم النبي موسى عليه السلام سنة 1922م⁽²⁾ ومروراً بأحداث

(1) لباس راس للشرطة- كلمة تركية - وكان شبيهاً بلباس الراس للبوليس الانجليزي

(2) كان من عادة المسلمين الاحتفال بهذا الموسم منذ عهد صلاح الدين، الذي اراد من ورائه بقظة المسلمين الدائمة لما يكيد لهم الصليبيون، فكانوا يخرجون من القدس وناهلس واريحا بالبيارق والانشيد الدينية والحماسية، وصادف في ذلك احتفال اليهود بالموسم، فغاظهم الامر وتقدم واحد منهم لانتزاع العلم من المسلمين لتمزيقه، فقتلوه، وانتهى الموقف الى معركة حامية وثورة شعبية.

البراق سنة 1929⁽¹⁾ وانتهاء بحركة القسام الجهادية وما بعدها.

- كان الاسى يعتصر قلوب الطيرايين مما يحل بالارض الفلسطينية التي تذهب الى الصهاينة بالخديعة والحراب- الانجلو صهيونية - وبخاصة ماكان يتعلق منها بالعائلات الغائبة، كما حل باراضي خمس قرى عربية في قضاء صفد، وباعتها عائلة سرسق اللبنانية للصهيونية، وكانت تبلغ 230 ألف دونم تم تلتها مأساة وادي الحوارث التي بلغت ارضها 30826 دونماً⁽²⁾ واستقبلت الطيرة على اثرها عائلة من ذلك الوادي المنكوب⁽³⁾، وابشع ما في المأساة ان قرار نزع الارض كان صادراً عن محكمة نابلس في 1929/4/27 وبيعها لشركة " كيرن كايمت" بالمزاد العلني لمبلغ مستحق على عائلة الثبان البيروتية، وسارع الانتداب الى استخدام القوة لاخراج العرب من ارضهم فوراً وبدون تعويض، ولما رأت رفضاً وثورة وشيكة- طلبت اليهم التحول الى خيام العمل عمالاً في شق الطرق وتعبيدها بين المستوطنات اليهودية. ولم يهتز الضمير البريطاني امام التنديد العربي داخل فلسطين وخارجها⁽⁴⁾.

(1) في يومي 14، 15، 1929/8/15 توجه الصهاينة نحو المبكى، حائط البراق- وهتفوا ضد الاسلام والمسلمين وشتموا. وفي اليوم التالي حيث اليوم جمعة، وصادف ذكرى المولد النبوي الشريف خرج، المصلون بعد الصلاة نحو المبكى وهتفوا بشعارات تندد بالانتداب والصهيونية، وكان الجيش البريطاني والصهيونيون بالمرصاد واستعملوا الرصاص، وصعد عدد من ارواح الشهداء الى السماء، وانتهى الامر الى ثورة شاملة، وبإعدام الشهداء الثلاثة: عطا الزير وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم، في يوم الثلاثاء 1930/6/17 بعد تحقيق منحاز من هيئة تحقيق بريطانية.

(2) من عادة الاتراك في آخر عهدهم في جمع الضرائب ان يوكلوها الى العشارين، يؤدونها للدولة بضمان محدود، ويجمعونها من الشعب بمبلغ غير محدود، وحتى لا تقابل الفلاح بوجهها الكريه، وتشعره بوطأة الضرائب، عمدت الى فكرة تسجيل الارض باسماء عائلات لها عندها حظوة من خارج فلسطين، ولما جاء الانتداب اعلن ان له ديوناً في ذمة تلك العائلات الغائبة، ولا بد من مصادرة املاكها وبيعها بالمزاد العلني، وهو يعلم مسبقاً انها ستؤول الى الصهيونية المدعومة بالاموال الطائلة.

(3) هي عائلة ابي غيدا.

(4) مصر وفلسطين ص 197-213 ومصادر اخرى كثيرة منها الموسوعة الفلسطينية.

في عام 1937م سلخ من الطيرة موقع « الشلالة» الذي تملكه عائلات من الطيرة وتستثمره ميراثاً ازليا، وكان مسجلاً باسم عائلة ابي نصري المسيحي اللبنانية ويقدر بألف لونم، وقبل تنازل العائلة المذكورة للصهاينة اقام الانجليز معسكر حماية في موقع وسط هو «تل الزعرور» بين الطيرة والمستوطنة ، ولم يصنع الانتداب الى الاعتراض، وان استطاع الطيراويون استنقاذ ما مقداره مئتي لونم من وراء نقل الحدود من جهة فرش « محمود العيسى».

- من الاعيب بريطانيا وكيدها للاسلام والمسلمين، قصة موقع « الكباير» يقدر هذا الموقع باكثر من خمسمئة لونم، وقد تم التنازل عنه لاشخاص يريدون بناء مسجد ، ما لبث ان تبين انه للطائفة الاحمدية.

- عندما ينست بريطانيا من ان تنال للصهيونية ارضاً في الطيرة، عمدت الى تدمير الارض باقامة المعسكرات على الارض السهل الخصبة، وبناء المنشآت الحربية فوقها، واكثر ما استطاعت تحصيله الف وثلاثمئة لونم هي التلال ، وكانت مرعى مشاعاً ، وتم تسجيلها للصهاينة في ربيع عام 1946م، في لحظة من لحظات الضعف الانساني

- في 1947/11/29م صدر قرار التقسيم عن الجمعية العمومية للامم المتحدة، ولم يكن له من معنى عند الطيراويين غير " السلاح باي وسيلة وباي ثمن".

8: حياة الجهاد

أ- القسام في الطيرة:

عندما تحول الشيخ عز الدين القسام⁽¹⁾ الى فلسطين، ودخل حيفا مع ستة من رجاله في 1922/2/5م كان يحمل معه تجربته في مناهضة الاحتلال الفرنسي في سوريا، الى ان حكم عليه بالاعدام، بسبب عملياته الجريئة الناجحة، وقيادة المظاهرات وتأييد الجماهير ضده. أحسن الناس استقبال هذا المجاهد الكبير، وأعجبوا به من اول درس القاه في جامع النصر بحيفا، ثم اثبت انه شخصية جذابة، حسن السيرة والمعاشرة. وبتفويض من المجلس الاسلامي الاعلى، تولى الامامة في جامع الاستقلال، ثم رئاسة « جمعية الشبان المسلمين، في سنة 1927م ، اي بعد سنة من تأسيسها، وكان منها بعض شباب الطيرة، وفي عام 1929م عين مأثوناً شرعياً، يدخل بيوت الناس، ويحضر افراحهم، ويخرج الى القرى ويطلع على احوالها، فازداد معرفة بالاحوال والرجال.

كان القسام يراقب الاوضاع السياسية المحلية بخاصة، وتسوؤه ممارسات الانتداب القمعية ضد العرب، وفتح باب الهجرة امام الصهاينة، كما ساءه مصادرة الارض لصالح اليهود. واكثر ما كان يزعجه تناحر الاحزاب والقوى الوطنية، ويرى في تناحرها بعثرة لجهودها، وصرفاً لها عن المسار الصحيح، بل ويزيد من صعوبة العمل ، أمام حركته المستقلة (1) ولد القسام سنة 1882م في قرية جبلة السورية -جنوب اللاذقية- لاسرة صالحة . تلقى القسام تعليمه الاول على يد والده في كتابه، واكمل دراسته الجامعية في الازهر الشريف، وتلمذ على يد الشيخ محمد عبده هناك، عاد الى بلده عام 1903م، ودرس في كتابها خلفاً لابيه، وتولى امامة المسجد فيها، اشترك في المظاهرات وحركات الجهاد للاحتلال الفرنسي، الى ان حكموا عليه بالاعدام، لكنهم عرضوا عليه عفواً وتولي القضاء في اللاذقية في مقابل سكوته، لكنه رفض وأثر التحول الى فلسطين، ثم لحقت به اسرته واستقر في حيفا. اسس اول حركة مسلحة، واشتبك مع الانجليز في عدة معارك، كان آخرها في 1935/11/19 في احراش يعبد، حيث استشهد مع احد عشر آخرين. دفن في مقبرة الياجور قريباً من بلد الشيخ، على بعد 7كم من حيفا في احتفال مهيب .

في شمال فلسطين، حيث دأب على تكوينها، وصياغة مبادئها، وشحنها بحب الجهاد والاستشهاد منذ عام 1930م.

اعتمد القسام على خيرة الرجال والشباب من رواد المساجد في مدن الشمال الفلسطيني وقراه، مما اعطى حركته، سر قوة وخطورة على الانتداب والصهيونية، فهي الوحيدة التي تنطلق من فلسفة اسلامية صرفة، تؤمن بان فلسطين هي بعض ديار الاسلام، ملك لاجيال المسلمين، وليس لاحد او هيئة حق التصرف او التنازل للعدو عن شبر منها، لا بيعاً ولا تفاوضاً، وكل ما جرى سابقاً، او سيجري لاحقاً، من هذا القبيل، باطل شرعاً وغير معترف، به ، ويجب استرجاعه بالقوة وبأي ثمن، وان القتال والموت في سبيل انقاذ فلسطين مما ينتظرها على ايدي الانتداب والصهيونية، انما هو جهاد في سبيل الله، واستشهاد ابتغاء مرضاته.

القسام تلميذ تجاربه، فتعلم ان لا يمد يده الى احد يطلب منه العون لحركته تجنباً لاي شبهه ، وحفاظاً على استقلاليتها وحرصاً على سلامة افراده وعلى سرية تحركاتهم، فكان شرطه في المنتسب اليها، ان يشتري البندقية والذخيرة من جيبه الخاص، وان يتبرع بالمال ما استطاع. كذلك علمه بعدم جدوى الحلول السلمية، وانتظار قرارات اللجان التي ترسلها بريطانيا للتحقيق في المصادمات التي تقع بين العرب من جهة والانتداب والصهيونية من جهة ثانية، ويرى انها اسلوب لامتناس النعمة، وتمير سياسة الانتداب في هجرة الصهيونيين ومصادرة الارض العربية.

كانت آراء القسام هذه، هي الترجمة الحقيقية للعقلية الطيراوية وفلسفتها الواقعية والعملية، فكان لحركته في الطيرة حظ كبير منذ تأسيسها، فسارع عدد كبير منهم الى الانخراط في صفوفها، متفرغين او مساندين، واشتروا السلاح، ونقلوه بشاحناتهم⁽¹⁾ من شاطئ البحر الى مستودعات الحركة المنتشرة في شمال فلسطين، وتبرعوا بالمال نقداً وعيناً، وكان لبيانات الحركة غير المكتوبة، والمنقولة شفاهاً ، تلقى التأييد والتنفيذ الفوري، فالفلاح الطيراوي اول من استجاب لنداء لجنة شباب المستقبل في يافا في آذار سنة 1933، في العصيان المدني وعدم دفع ضريبة الارض للانتداب، وتضامن العامل الطيراوي في مرفأ حيفا،

(1) حدّث المؤلف بذلك سائق الشاحنة نفسه، خالد نجم قبيلة، عن عمليات خطيرة ومثيرة.

وهو بحجم كبير، سنة 1934م وأضرب مع اخوته العمال هناك احتجاجاً على سياسة الانتداب الجائرة في ممالأة الصهيونيين، واغتصاب الارض وفتح باب الهجرة لهم، ولم يثنه التهديد بالفصل والاستبدال باخرين من اليهود.

في عام 1933م ابتداء الانجليز بتدريب الصهاينة على القتال وحمل السلاح واستخدام المتفجرات، فاضطر القسام الى مباشرة الجهاد، وهو يعلم انه لم يكمل استعداده بعد، فقد بلغ الخطر حداً لا يمكن السكوت عنه، فاعتمد حرب العصابات التي تقوم بعمليات خاطفة ومحدودة من ذلك مهاجمة الجيش في عتليت ثم توالى الهجوم على المعسكرات والمستوطنات في اماكن متعددة في شمال فلسطين.

التزم القسام جانب الصمت والسرية التامة، وكان اكثر تحذيره من ثلاثة؛ من متساهل في الفرائض، فهذا يباع ويشترى، ومن طيب فيه غفلة، لأنه يجر الى مستنقع الخيانة، ومن ارادة او دراية، ومن مستور الحال المنغلق على نفسه، فان كان عن جبن فلا خير فيه، والا كانت فيه شبهة. وكان يقول من هؤلاء يختار العدو اعوانه من بين الشعوب المنكوبة به. وكان له رأي فيهم: دعوهم للعدو، فهم اولى برصاصه على الشبهة او عندما يمتصهم حتى النهاية. كانت الاحداث تأتي مصداقاً لرأيه ولو بعد حين والعدو بجواسيسه يتعقبه ويقوم بمداهمات لمنزله بحيفا في النهار حيناً وفي الليل حيناً اخر.

اتسع نطاق العمل وكبرت العمليات، فرأى القسام ضرورة الاعلان عن الحركة واهدافها، وكان للاعلان صدها الطيب بين الجماهير في آذار من عام 1935م، ويرى في الطيرة مأمناً يغشاه الليالي نوات العدد، ويبيت فيها⁽¹⁾.

واستشهد القسام ...

كان القسام وافر الحيوية جم النشاط، يتولى الاشراف ومتابعة تنفيذ القرارات بنفسه، ويطلع على اعمال اللجان الفرعية الخمس⁽²⁾، وبينما كان في مهمة تنظيمية في منطقة جنين، كان المجاهدون يستعدون لخوض معركة كبيرة، بلغ الانتداب خبرها، فاستعد لها، وفاجأ تجمعهم

(1) عرف المؤلف بيوتاً تردد القسام اليها بين حين وآخر، وعرف من رجالته الطيرواويين الكثير

(2) هي: التدريب العسكري، والجباية، وشراء السلاح، والتجسس على العدو واعوانه، ولجنة الاعلام والاتصالات مع الاخرين.

في أحراش يعبد، دون أن يعلم بوجود القسام. وهناك اشتبكوا مع العدو بقواته البرية والجوية، في معركة غير متكافئة، ورفض القسام نصحاً بالهرب، وعرضاً بالاستسلام، وقاتل حتى نال الشهادة مع أحد عشر رجلاً من خيرة الرجال في 19/11/1935م.

وفي 20/11/1935م نعي القسام الى الشعب. فصلى عليه صلاة الغائب في كل المساجد. وكان للنبا وقع بالغ الاسى في النفوس، الا ان الحزن ماكان ليشل حركة القيادة التي انتخبت من بينها بالتزكية خليل محمد عيسى⁽¹⁾ "بشكلت من فصائلها" منظمة الكف الاسود⁽²⁾ لملاحقة الجواسيس والعملاء والسماصرة وباعة الارض، للقضاء عليهم في جهورهم، واسندت الاشراف على هذا التنظيم الى "يوسف سعيد بو درة"⁽³⁾.

واذ ادركت بريطانيا هذا التوجه، بادرت الى تصفية بعض عملائها برصاص بعض، وحاولت الصاق التهمة بجماعة القساميين، لتحجب عنهم الدعم الشعبي، ولتضرب القوى الوطنية بعضها ببعض، لكن الجهاد استمر ملتهباً، وازداد من الشعب دعماً وتأييداً. واعطى منظمة الكف الأسود سرعة الحركة وضخامة العمليات الجريئة. ومما لا ريب فيه مبادرة الطيرايين في تشكيل المنظمة وانهم افتتحوا بدمائهم باكورة عملياتها في الهجوم على معسكر عثيث راخرجوا منه السجناء الاحرار، بعد ان استشهد منهم محمد قاسم الشواهين، وفي هجوم آخر على ممتلكات الصهاينة هناك استشهد حسن موسى السعدي⁽⁴⁾ وهو يعالج لغماً تأخر عن ميعاد انفجاره. وفي معركة "لد العوادين" في أواخر ايلول من عام ١٩٣٦ قدم

(1) هو ابو ابراهيم الكبير، من قرية المزرعة الشرقية، في قضاء رام الله، سكن شفا عمرو، كان شديداً على الانتداب، فرصد مبلغ 500 جنيه لمن يدلي بمعلومات عنه.

(2) ربما كان ذكر هذه المنظمة هنا لأول مرة على صفحات كتاب.

(3) ولد في سنة 1900 في سيلة الحارثية/قضاء جنين، بدأ حياته مزارعاً، ثم عاملاً في سكة حديد حيفا، التحق بالقسام. نفذ عدة عمليات ضخمة، وشهد معركة أحراش يعبد، لكنه افلت من الطوق ثم التحق بالثورة الفلسطينية عام 1936م، واصبح احد القادة الكبار. كان خالص الايمان جريئاً، هاجم سجن عثيث واطلق السجناء، اسندت اليه الثورة لجنة الامر بالمعروف ومحكمة المخالفين لتعليمات الثورة، واصدر عدة بيانات باسمها. ثم غادر فلسطين بعد ان توقفت الثورة في ايلول 1939م، غادرها الى سوريا ثم الى الاردن وفي الكرك القي عليه القبض وسلمه "غلوب باشا" الى الانتداب، فاعدم في القدس في 30/9/1939.

(4) عقب استشهاده وضعت زوجته ولداً ذكراً اسمته حسن باسم ابيه، عاش وخلف ذرية في اربد

الطيراويون عدداً من الشهداء والجرحى اذ استشهد احمد موسى الباش⁽¹⁾ ومحمود ابو حسان ، وجرح احمد عبد الحليم . وهم يكسرون طوقاً كثيفاً من الجيش البريطاني كان قد احاط بهم وهم في طريقهم الى سجن جنين لاطلاق سراح القائد يوسف حمدان وكانت مجموعتهم بقيادة " الشيخ طه" من الطنطورة⁽²⁾

ب- الاضراب الكبير. 1936/11/13-36/4/17م

اكّد خداع الانجليز للحركات السياسية صدق رأي القسام، بأن العمل السياسي لا يجدي معه نفعاً، فكان اجتماع القدس في 1936/4/25م بعد ثمانية أيام من بدء الاضراب⁽³⁾ الذي استمر 176 يوماً، وفيه تشكلت اللجنة العربية العليا الموحدة الممثلة لجميع الحركات والاتجاهات ، وانضم القسامون اليها وابتدأت ثورة حقيقية مع تشكيل " جيش الجهاد المقدس" بقيادة " عبد القادر الحسيني"⁽⁴⁾. ظل الطيراويون على عهدهم في الجهاد والتفاعل مع الثورة والالتزام بتعليماتها؛ فلم ينقل فلاحهم من غلاله شيئاً خارج قرية، ولم يدفع من الضرائب قرشاً واحداً ، ولم يتوجه من عمالهم أحد الى حيفا، حيث توقف العمل في المرفأ والمصانع والشركات، ونالهم كغيرهم ضنك شديد.

ومما يذكر في هذا المقام ان تلاميذ المدرسة في الطيرة، كغيرهم في سائر المدن والقرى، بتظاهراتهم وهتافاتهم وانشيدهم، لم يقلوا اثرأ عن المسجد في تعبئة الجماهير وتوعيتها. بدأ الوعي العربي يستيقظ ويتنبه للخطر الصهيوني ، فتحركت قوات غير نظامية،

(1) عرف في الطيرة بلقب الشحرور لشدة سواده وعذوبة صوته.

(2) في كتاب "سجل الخالدين" مبالغات واضطراب شديد فيما يتعلق باخبار الطيرة وشهادتها على الصفحات 241-239

(3) السبب المباشر له مقتل عربيين احدهما مصري كان في زيارة صديقه الفلسطيني (مصر وفلسطين ص 232)

(4) ولد سنة 1908 في استانبول، ولما درس بكلية العلوم الامريكية في القاهرة، ندد بالجامعة بسبب نشاطها

المعادي للاسلام، واقصي عن مصر ليعمل في صحيفة " الجامعة الاسلامية، ثم موظفاً في دائرة

الاراضي، ثم التحق بالمجاهد " سعيد العاص، واشترك معه في معركتي " حلحول و " الخضر" حيث جرح

وعولج في لبنان ثم اشتغل مدرساً في العراق ، واشترك بثورة " رشيد الكيلاني" سنة 1941، وفي

1947/12/22 اسندت اليه " منظمة الجهاد المقدس، وانتصر على الصهاينة في عدة معارك، طالب

الجامعة بالسلاح فلم تجب، وفي 1948/4/8 استشهد في معركة القسطل، ودفن في القدس الى جوار

والده موسى كاظم الحسيني.

ودخلت فلسطين بقيادة "سعيد العاص"⁽¹⁾ واخرى بقيادة "فوزي القاوقجي"⁽²⁾، واخرى اردنية راحت تشن غاراتها على المستوطنات الصهيونية ومعسكرات الانتداب، وجرت محاولات للاستيلاء على بعض المدن مثل صفد والناصرة وجنين، مما اضطر الانتداب الى استدعاء قوات اضافية، حتى بلغت قوته عشرة الاف ومئة الف جندي، منهم اربعون الفا من الشرطة وحرس الحدود والعصابات الصهيونية، وهذا العدد لم يرهب المجاهدين الذين اشتدت وطأتهم وشملت الجواسيس والمتشددين من الشرطة العرب في الميل الى اسيادهم، وكذلك العملاء والسماسة⁽³⁾. وفي واحدة من عملياتهم تم اغتيال الجنرال البريطاني المتغطرس "لويس

(1) من مواليد حماة سنة 1889، من عائلة شهاب، والعاص لقبه العسكري، تخرج من الكلية الحربية التركية، سنة 1907. قاتل الثائرين على الاتراك في اوربا، والفرنسيين بعد احتلالهم سوريا، تحول الى الاردن وتقلد عدة مناصب، آخرها مديراً عاماً لشرطة عمان، ثم التحق بالقاوقجي في ثورة 1925 في سوريا، وفي اوائل 1936م دخل فلسطين ببعض الرجال واشتبك مع الانجليز في عدة معارك، اهمها معركة حلحول، وفي 1936/4/10 لقي الشهادة في معركة الخضر، حيث دفن في نفس القرية.

(2) عاش بين 1890 و1977م، ولد في طرابلس لبنان، وتخرج سنة 1912 ضابطاً في الفروسية من الكلية الحربية التركية. قاتل الانجليز اثناء الحرب العالمية الاولى في العراق وغزة، و ضد الفرنسيين سنة 1925. جمع عدداً من المتطوعين لمساندة الشعب الفلسطيني، في سوريا ولبنان والعراق والاردن، ودخل بهم منطقة نابلس يوم 1936/8/25م ومن معاركه الكبيرة، معركة بلعا (قضاء نابلس)، ويعد فك الاضراب، غادر فلسطين، بطلب من اللجنة العربية العليا، كشرط من بريطانيا.

وفي 1947/10/6م كلف القاوقجي بتشكيل جيش الانقاذ من المتطوعين بمساعدة طه الهاشمي للتسليح، ومحمد عزت دروزه للتمويل، بقرار من مجلس الجامعة العربية المنعقدة في "عاليه" بلبنان، فشكل لواءين؛ وجه أحدهما بقيادة "اديب الشيشكلي" الى الجليل الغربي والثاني باتجاه سمخ بقيادة محمد صفا وفي 1948/3/6م جعل مقر قيادته في جب جزار/ جنين، وانتصر في كل المعارك التي خاضها ضد الصهاينة، الا ان معركة الشجرة كشفت عن حاجته الى السلاح والغطاء الجوي. ولما طلب ذلك من الجامعة العربية، لم يستجب الى طلبه، فاضطر الى الانسحاب بعد الهدنة الثانية، وكان يرى قبول الهدنة خطأ فادحاً.

(3) في هذه الانتاء، نظرت محكمتهم في قضية بيع الشلالة، وبرؤوا ساحة المتهمين فيها من الطيرة، فقد ثبت لدى المحكمة ان البائع هم عائلة "ابي نصري المسيحي" اللبنانية.

اندروز" حاكم لواء الجليل في الناصرة، يوم 1937/9/27م. فاستشاط الانتداب غضباً، واعتقل رجالاً ونفى آخرين، منهم من طيرة الكرمل، الحاج يوسف ابوراشد، وحافظ نجم قبيلة، نفياً الى دمشق⁽¹⁾ في ايلول من عام 1938م، الا ان ذلك لم يزد بريطانيا الا خيبة وتعاسة.

لم يتأثر عطاء الطيرة ودعمها للجهاد والمجاهدين، ان ظلت من الخطوط الخلفية الهامة للتموين والتمويل والتسليح، ورفد الثورة بالمجاهدين، وكانت تقارير الجواسيس تؤكد للانتداب هذه الحقيقة بعد استشهاد " عيسى مفلح ابوراشد" و" محمد أحمد ابراهيم السلطان"⁽²⁾ وجرح " أحمد خليل قبيلة" في معركة المنسي في مرج ابن عامر، فزادت بريطانيا من احكام قبضتها وتجسسها على الطيرة، وانتهجت منهج الحاقد العاجز، ان تحولت الى الابرياء، وسنت عادة التتكيل بأسر الشهداء وعائلاتهم اذا عرفت هويتهم، وويل لمن يعثر حول بيته على رصاصة فارغة.

ج : مسرحية من فصلين

في ليلة من ليالي خريف 1938م، قامت قوة بريطانية هائلة بتطويق الطيرة، واقتحامها فجراً، واخذت تحتجز المبكرين الى حقولهم لئلا يخبروا الناس اذا رجعوا اليهم، ولما بزغت الشمس تقدمت الخيالة والبوليس من ورائهم، وبدأوا يخرجون النساء والاطفال الى البيادر الغربية، وكذلك الرجال الى مكان غير بعيد عن النساء، ويطلبون اليهم الجلوس على الارض، بينما قامت قوات مشتركة من الجيش والبوليس و"التحري" بتفتيش القرية بيتاً بيتاً؛ حتى المتابن⁽³⁾ والمخازن والطوابين واقنان الدجاج، وكلما فرغوا من بيت خلطوا القمح بالشعير والذرة، وصبوا الزيت على الطحين، وجعلوا الفراش على المصطبة كومة، تعبيراً عن حقدهم وخيبة املهم في العثور على ما يريدون من ثوار وسلاح. ثم أخذوا هويات الرجال بعرضهم على المخاتير، فاذا شهدوا له "بالجنسية الطيراوية" عرضوه على الجواسيس في داخل

(1) وقبل ذلك نفى الانتداب قادة اللجنة العربية في تشرين الاول 1937، ومعهم من حيفا رشيد الحاج

ابراهيم، الى سيشل في المحيط الاطلسي.

(2) هو "محمد الفاطمة" كما عرف في طيرة الكرمل.

(3) جمع متبن : المكان الذي يخزن فيه التبغ.

المصفحات ليروه من ثقبوب فيها. وبعد الظهر انتهت العملية وانصرفوا بحفنة من الرجال، كصيد هزيل، واعتقلوهم مزاجياً .

هذا الفصل من مسرحية الالم، كانوا يكررونه مع القرى التي يشكل ابطالها كابوساً للانتداب في حلم ويقظة. وبالصبر والصمت كان الفلسطينيون ينتصرون على عدوهم، اذ كان يمتلئ رعباً مما يعلم عن مراحل الحقد والنقمة التي تغلي في صدور هذا الشعب البطل؛ ومن نزوعه نحو الحرية والاستقلال والخلاص من وبائه وجرائمه الصهاينة.

وأما الفصل الثاني، فيقع بعد ثلاثة اشهر تقريباً، حيث دخل القرية رشيد العبد الشيخ⁽¹⁾ وهو قائد فصيل ثوري، مع بعض مجاهدي الطيرة، دخلوها في زيارة عمل اعتيادية وزاروا اهليهم فيها. وكان اليوم جمعة.

ظن الجواسيس، او هكذا اومهمهم المجاهدون بانهم سيؤدون الصلاة في جامع القرية وتلك في المجاهدين عادة كلما مروا ووافق مرورهم وقت صلاة مفروضة، لكنهم لم يفعلوا ذلك في هذه المرة ، وبينما كان الامام يلقي الخطبة من على المنبر، والطرقات قد خلت من الرجال الا من بعض الاطفال والنساء اللواتي خرجن لحاجة بيوتهن، كانت قوة بريطانية تتسلل داخل القرية نحو الجامع بعربات الخيل، التي اجبر اصحابها على نقلهم بحسب تعليماتهم، وتدنثروا بالعباءات العجمية، سارت بهم وهم يجلسون فيها القرفصاء متقابلين، وهم فيها مبلسون، ويهتزون مع حركاتها وهم صامتون كالدمى، فرأهم أطفال صغار ونساء ، فانطلقن بالزغاريد والدعاء للمجاهدين-بالنصر والحماية من الله، وسار الاطفال من خلف العربات وعن جوانبها، وهم يهتفون : الله اكبر، كما يهتفون للحاج امين والثوار، ظناً منهم انهم من المجاهدين يتوجهون ببنادقهم نحو المسجد للصلاة، كان الانجليز يتميزون من الغيظ وهم يسمعون الهتافات، ويخشون ان ينكشف امرهم من لونها ولباسهم واحذيتهم ولغتهم، وودوا لو لم يكن للمسلمين اطفال ابدأ. كانت الحوانيت مقللة، والطرقات شبه خالية وما ان وصلت العربات نقطة توزيع المياه المجاورة للمسجد من الشرق، حتى القى الجنود العباءات عن رؤوسهم، وقفزوا الى

(1) كنيته ابو درويش، ومن عائلة الباش ، اشتهر بالجرأة والقسوة على العدو. استشهد في رشميا، قريياً من منزله، وهو يقاوم كميناً نصب له، وقتل منه احد افراده.

الارض، وطوقوا الجامع، وراحوا يطلقون الرصاص من النواخذ فوق رؤوس المصلين، ويطلبون اليهم الخروج الفوري، فحدثت في المسجد جلبة واضطراب، وافسدوا على المؤمنين صلاتهم، وهم المدنيون المسلمون، لكن الاستعمار لا يستثنى من عداوته واذاه أحداً، وذلك ماضيه الاجرامي مع الشعوب، خرج المصلون، واعتقلوا منهم عدداً، بلا ذنب، حتى ولا شبهة، ولكن صعب عليهم ان يرجعوا بيد خالية.

إن اقتحام دور العبادة وارهاب المدنيين الامنين، عمل غير اخلاقي، لا يأتيه الا همجي لا يعرف المشاعر الانسانية ابدأ، ولا يقيم للاعراف الدولية وقوانين الحرب، ولا لحقوق الانسان وزناً، وفوق كل هذا فعلية اقتحام الجامع بهذا التخطيط والاخراج الضخم؛ جاسوسية وتقارير ومخابرات هاتفية، ومراسلات، وتحريك قوات وركوب الحيلة، وأخيراً لا شية في النتيجة، تمثل قمة السخرية بالمرحج وادواته واساليبه، وفيها نكهة الشماتة اللاذعة، تجرع الانجليز غصتها.

د: معركة وادي الدرج

كثرت غارات الثوار على المعسكرات والمستوطنات فوق ظهر الكرمل وجبال الجليل، فأخذ الانتداب يغذ الخطى في شق الطرق الجبلية وتعبيدها لتلبية نداءات الاستغاثة. وجاءت عملية اقتحام جامع الطيرة، لتثبت بفسلها عدم كفاءة الجواسيس، وربما القت ظلال الشك في اخلاصهم لاسيادهم، فتولت الطائرات المقاتلة مهمة التجسس بتحليقها فوق الجبال وغاباتها، حيث يتخذ منها المجاهدون قواعد لهم. وفي واحدة من الاستطلاعات، شاهدت الطائرات عدداً من المجاهدين يغادرون الطيرة، ويصعدون وادي الدرج باتجاه معسكر تل الزعرور ومستوطنة الشلالة، اذ كان في النية مهاجمتها عندما يحل الظلام. ووادي الدرج اجرد مكشوف، وصخره ملساء لا يستطيع الجندي النظامي السير عليها بسلاحه وذخيرته وعتاده.

بدأت الطائرات بالقصف من الجو، واقبلت على الفور طائرات اخرى، وتحركت قوات من معسكرات عتليت وتل الزعرور، واحكموا الطوق، ودارت معركة شرسة استمرت زهاء ثماني ساعات، حسمتها الطائرات لصالح العدو، حيث اسفرت عن استشهاد قائد الفصيل " أحمد معطي" من اجزم، وجميع من معه، وبينهم ثلاثة من الطيرة هم : اسعد السيد ابو راشد وعبد الله يوسف ابو راشد ، ومحمود نمر درياس، دفن اسعد وعبد الله واحمد معطي في مقبرة اجزم ليلاً، لئلا ينتقم العدو من عائلاتهم. أما من عثر على جثته في ارض المعركة ، دفن في اعلى الكرمل وبينهم محمود درياس.

لم تعرف خسارة العدو التي تكتم عليها، اما خسارة المجاهدين، ربما كانت من اعظم الخسائر بين قوات الثورة الضاربة، اذ بلغ المنظور من الجثث ثمانية عشر شهيداً. وقدرها آخرون باكثر من ذلك، وذكروا قائد فصيل آخر بينهم اسمه "طالب" : من الفرديس. وهذه المعركة لم تذكرها المصادر الفلسطينية بهذا الاسم، وربما هي التي اشار اليها بعضها باسم معركة الكرمل⁽¹⁾ دون تفصيل . اما تاريخها فهو الاسبوع الثاني من شهر آيار 1938م.

وفي ربيع عام 1939م، عاد الانتداب الى تمشيط القرية وتفتيشها، على نحو ما صنع في المرة الاولى، فقد ظلت التقارير تؤكد استمرارية الطيرة في الجهاد.
هـ: هدأة العاصفة

1- الوضع السياسي العام

ادت الطريقة التي فك فيها الاضراب الكبير، الى تميميع الارادة الفلسطينية، والى فقدانها صفة الذاتية، والى حرمانها من امتلاك زمام المبادرة في هجوم او دفاع، لتعليق ذلك كله على الزعامة السياسية التي استجابت لنداء الملوك والرؤساء العرب، اذ سارعت الى فك الاضراب وتسريح المجاهدين ، وطلبت الى انصارها من الشعب العربي، مثل فوزي القاوقجي مغادرة البلاد، حتى يتسنى لبريطانيا "الحليفة" اعادة الامن والتحقيق في الصدمات بين العرب والصهاينة وكان بريطانيا منها براء.

يمكن القول بأن اعتماد اللجنة العليا على العمل السياسي والقاء البندقية، واشراك الآخرين، غير المؤهلين⁽²⁾ لا من حيث المبدأ، وانما من حيث التوقيت والاسلوب، هذا حرم شعبها من قطف ثمار صبره وتضحياته الضخمة، بعد ان كانت وشيكة المنال ، وفي نفس الوقت

(1) الموسوعة الفلسطينية.

(2) خرجت الدول العربية من ظلمات العهد التركي، وسارمت على حريتها واستقلاليتها قبل ان تتألقها - مراسلات الحسين مكماهون- وقد سبقتها اتفاقية سايكس بيكو، وظلت تشعر بعجزها، حتى بعد تشكيل جامعة الدول العربية في 1945/3/22. وكدليل على ذلك العجز ظهور قائد الاستخبارات العسكرية البريطانية العام ومساعدته في فلسطين، بلباسهما العسكري، في فندق بلودان عام 1946 حيث يجتمع مجلس الجامعة في سرية تامة، بشأن مساندة الشعب الفلسطيني . تحول النشاط السياسي للمؤتمرين، الى الجناح الذي ينزل فيه البريجادير " كلايتون" ، وخرج المؤتمرون بقرارين ينص احدهما على تخصيص مبلغ من ميزانية الجامعة للشعب الفلسطيني، ولم ينفذ ، ويقضي الثاني باحالة القضية الى الامم المتحدة اذا فشلت المفاوضات ، التي ستجري لاحقاً في لندن، بين العرب واليهود لتعالج القضية بعيداً عن ارضها ، ولحشر المجتمع الدولي الخاضع للارادة الاستعمارية.

حشرت نفسها نظيراً بينهم، ولكن غير مكافئ، وجعلت من نفسها تناقضاً لا يستقيم ولا يحل إلا بالقوة، فاما ان تجاملهم وتخسر ، وهم المفعمون بالسلبيات⁽¹⁾ اذا ارادت السلامة لنفسها، واما ان تتمرّد وتتحطم.

ادرك الانتداب هذ الضعف القاتل في الزعامة الفلسطينية، وحقق بفك الاضراب نصراً عظيماً، واستثمره في الوفاء للصهيونية بوعد بلفور، فعاد الى اللعب بورقة كتاب ابيض، بعد كتاب ازرق ، وتصريح اسود ينقض الابيض والازرق⁽²⁾ واللجنة تلوي جيدها بين الكتب حتى انقصمت بقرار من الانتداب في تموز سنة 1937م، يقضي بحل اللجنة العليا، واعتبارها غير

(1) اول التناقضات هو الذي صاحب ولادة تلك الدول ، بين جمهوري وملكي، وتقسيمها الى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا، ولانشات الاحزاب فيها كانت متعددة الولاءات، متباينة الشعارات ، لا تذكر فلسطين الا تدجيلاً.

(2) كانت بريطانيا تمتص نعمة الفلسطينيين بلجان تحقيق تشكلها بعد الصدمات العنيفة بين العرب واليهود، فاعمال اللجان واعداد تقاريرها يستغرق شهوراً ، والعرب يتلهفون على النتائج المخيبة للامال، ومن ذلك:-
أ- تقرير تشرشل وزير المستعمرات عام 1922، فقد زار مصر وفلسطين لينظر في الاوضاع عن كثب بعد حوادث موسم النبي موسى، وفيه قال بعدم تحويل فلسطين كلها الى وطن قومي يهودي، وبضرورة اقامة حكم ذاتي بمجلس تشريعي مشترك (9مسلمون و3 يهود و 11 عضواً يعينهم الانتداب. وخطر ما فيه زعمه بان وجود اليهود في فلسطين يقوم على الحق وليس منة من احد! (الموسوعة الفلسطينية ج1: تشرشل) وانكر وعد بريطانيا للحسين بن علي باستقلال فلسطين. ومع ذلك اعتبره بعضهم كتاباً ابيض.

ب- تقرير ماكدونالد في 1930/10/1 بعد حوادث البراق، وفيه عاد الى نعمة الحكم الذاتي، فشن الصهاينة عليه وعلى حكومة " لويد جورج " حملة شعواء فاضطر الى تعديل لهجته واسترضائهم.

ج- تقرير لجنة بيل في 1937/7/7 اثر الاضراب الكبير، وقالت بتحديد الهجرة ولان العرب يرون اليهود دخلاء، ولان اليهود طامعون في الارض العربية، فخير الطول لديها التقسيم.

د- تقرير لجنة " وود هيد " وتوصيتها في 1938/11/24 باقامة دولتين احدهما يهودية والاخرى عربية، وتظل المقدسات تحت الانتداب.

شرعية، وحاولت اعتقال رئيسها" الحاج امين الحسيني⁽¹⁾ لكنه اعتصم بالمسجد الاقصى ، حيث رفض الشرطة العرب اقتحامه تعظيماً لحرمة، ثم تمكن من الهرب، ليشن هجماته، وليدير المعركة من وراء الحدود. وتمخضت الامور عن ثلاث زعامات؛ واحدة بزعامة المفتي ، وثانية معارضة لها من عائلات النشاشيبي وعبد الهادي ، وثالثة مستقلة⁽²⁾ بوادا الشعب يكتوي بنار الزعامات ، وضربت الفوضى اطناها.

واما الخصوم فقد نشطوا في شراء الاراضي العربية، ولم يجد الغيورون غير الاغتيا ل سبيلاً لمنع البيع. ومن قدر منهم على شراء اشترى واستنقذ. وعلى الصعيد العسكري،

(1) من مواليد القدس، عام 1985، تعلم الفرنسية والتحق بالجامع الازهر، وحج وهو طالب ما يزال، فسمي بالحاج. وفي عام 1915 التحق بالكلية الحربية التركية وتخرج منها برتبة ضابط، ثم عينته بريطانيا مرافقاً للمندوب السامي، لكنه ترك الخدمة محتجاً على الهجرة اليهودية ومصادرة الارض العربية، وشكل اول حركة مناهضة للانتداب ، فاعتقل مدة، وفي عام 1920م انتخب مفتياً لفلسطين، فقدم خدمات جليلة مثل انشاء دار الايتام الصناعية الاسلامية وعشرات المحاكم الشرعية في المدن تتولى تعيين الرعاظ والمرشدين، وفرق الكشافة والجوالة والجمعيات الخيرية الاسلامية والنوادي الادبية والرياضية، و اصلاح المسجد الاقصى واسترجاع اراضي الوقف التي وضعت بريطانيا يدها عليها بصفتها ورثة الخلافة العثمانية في ممتلكاتها، كما عمل على وقف بيع الارض. وشكل جمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشكل جيش الجهاد المقدس، ورفض قرارات لجان التحقيق البريطانية الجائرة والقائلة بالتقسيم. ونادى بتعريب القضية الفلسطينية وجعلها اسلامية ، فدعا الى مؤتمر اسلامي انعقد في القدس عام 1931م تأييداً للشعب الفلسطيني.

تنقل اثناء نفيه بين لبنان وسوريا والعراق وايران، ومنها الى المانيا ولما خسرت هذه الحرب وغادرها، وقع في قبضة الفرنسيين الذين اودعوه سجن "ماري ميدي" فطالبت به بريطانيا والولايات المتحدة والدول المؤيدة للصهيونية لاعدامه بصفته مجرم حرب لديهم، لكن فرنسا رفضت تسليمه، ثم تمكن من مغادرتها الى مصر : حيث تألفت الهيئة العربية العليا، بقرار من مجلس الجامعة يوم 1946/6/11 م .

واخيراً استقر في لبنان حيث توفي في بيروت سنة 1982

(2) من شخصيات كانت في الاصل مؤيدة للمفتي ، وكانوا يأخذون عليه انفراده في اتخاذ القرارات الخطيرة، فنصحوه بالتزام الشورى، ولما لم يلمسوا فيه استحابة شكلوا حزب الاستقلال، وهم : عونى عبد الهادي ، رشيد الحاج ابراهيم، معين الماضي، محمد عزت دروزه، صبحي الخضرا، سليم سلامة، فهمي العبوشي، اكرم زعيتر، عجاج نويهض، وانتسب للحزب نفر من رجالات الطيرة.

احتفظت المنظمات الصهيونية بكوادرها القيادية والتنظيمية، وبكامل قواتها واسلحتها وواصلت تسليحها وتدريباتها وزادت من عدد المهاجرين المقاتلين، حتى اذا انتهت الحرب العالمية الثانية اخذت زمام المبادرة في الهجوم على العرب، وكان اكثر تركيزها على حيفا لاهميتها الحيوية الحربية والاعلامية والاقتصادية والاتصال البحري بالعالم الاخر . بينما توجهت زعامتها الى العمل السياسي في المحافل الدولية، لشراء المؤيدين والمعترفين بدولتهم المنتظرة، في ذلك الوقت كان الفلسطينيون يخسرون قضيتهم عند الذين استجابوا لندائهم في فك الاضراب، اذ وافق مجلس الجامعة المنعقد في بلودان عام 1946م . على احالة القضية على الامم المتحدة، اذا فشلت محادثات مؤتمر لندن اللاحق⁽¹⁾. وتلك هي مهمة البريجادير " كلايتون " مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية، عندما ظهر فجأة في فندق المجتمعين، فجاءت الموافقة ضربة قاصمة تهدف الى تمويل القضية، وجعلها (شرق اوسطية) يخرج منها الفلسطينيون⁽²⁾ لتتحصر بين دول معترف بها متنازعة على حدود اقليمية قابلة للتفاوض، لقد اعطت الموافقة اعتراف العرب بالدولة المسخ قبل ان تولد، ودون وعي، وبذلك تكون بريطانيا قد وفّت لشركائها في مؤتمر لاهاي عام 1907، وللصهاينة، بما اسموه تصريح بلفور عام 1917م.

2- الطيرة والحرب العالمية الثانية.

لم يشهد العالم حرباً اشدّ ضراوة، واوسع انتشاراً من الحرب العالمية الثانية، وبها اصبحت التجارة الدولية والاقتصاد العالمي بالركود الخانق . وبالنسبة لفلسطين البعيدة نسبياً عن حلبة الصراع، فقد عاش فيها العرب و الخصوم حالة من القلق والترقب، اذ كانت آمال الخصوم معلقة على انتصار الحلفاء، لانهم معهم على وعد وعهد ، وكانت عاطفة العرب تميل نحو دول المحور ، وان لم يكونوا على ادنى اتفاق معهم، الا انهم يقاتلون اعداء الفلسطينيين،

(1) انعقدت جولاته الاولى في 46/9/10، ولم يدع اليها الفلسطينيون ، لكنهم حضروا الجولة الثانية بممثل عنها ضمن وفد عربي مشترك، وكان مخططاً للمحادثات ان تفشل حتى تعلن بريطانيا احوالها على الامم المتحدة، فأحوالها في 1947/4/2.

(2) تمشياً مع ما قاله اللورد شافتسبري، من ان فلسطين ارض بلا شعب من خرافة دينية آمن بها، وكتب عنها عام 1939م.

ويمقتون اليهود⁽¹⁾ ووسط اجواء الحرب كثر في الطيرة قارئو الصحف اليومية والمجلات، كما غصت المقاهي بروادها المتعطشين لسماع الاخبار، لقلة انتشار المذياع وارتفاع اسعاره كان اللعب بالنرد والورق يتوقف مع اشارة الاذاعات لنشرات الاخبار، وترى الناس يتحلقون حول المذياع صامتين، كأن علي رؤوسهم الطير، فاذا استمعوا الى اذاعة لندن او الى اي محطة حليفة، او سعوها، عند فراغها شتماً ولعناً وتكذيباً ، واذا استمعوا الى اذاعة هنا برلين حي العرب " تهلت الوجوه بشراً، ودعوا لها بالنصر.

في سني الحرب بدأت تتدفق على المعسكرات حول الطيرة وبين زيتونها قوات الحلفاء المنهكة، جاءت للراحة والاستجمام، فتعرف الطيراويون على اقوام واللوان من جنسيات شتى؛ من الهند وفرنسا ويوغوسلافيا، ومن شرق افريقيا وجنوبها وغربها ووسطها. وكثرت اليد العاملة الطيراوية في هذه المعسكرات ، مما خفف وطأة الحرب قليلاً.

كان واضحاً على بريطانيا ابان الحرب حاجتها الماسة الى هدوء الاوضاع الامنية في مستعمراتها ، وطمعها في ان تشارك القوة البشرية العربية الى جانب الحلفاء كما فعلوا في الحرب الاولى، ودرغت في ان يستخدم الحلفاء المطارات وطرق النقل وموانئ العرب ومياهم الاقليمية بون العوائق والمنغصات، او على الاقل لم يكن الحلفاء راغبين في ان يدفعوا العرب الى الانضمام الى دول المحور دفعاً ، لكن العرب لم يستثمروا الزمن المواتي لصالحهم. وفي نفس الوقت لم تشأ بريطانيا ان يبدو ذلك عن عجز فيها ، فأبعدت نقرأ من الرجال في اواسط عام 1940م ، منهم عبد الله السلطان مختار قرية الطيرة منقياً الى دمشق، لكنها عادت فسمحت له بالعودة ولما يمض على ابعاده بضعة اشهر، وبعد قليل عاد حافظ نجم من منفاه.

وكدليل من بريطانيا على الاسترضاء وحسن النية، اصدرت في اوائل ربيع عام 1942م،

(1) عداة الحلفاء للعرب ظاهر، وكذلك المانية النازية عدو للجميع بعنصريتها ، ترغب في الخلاص من اليهود وتحرير اقتصادها من سيطرتهم. ناهيك عن افكار دينية تتعلق بالمسيح المنتظر عند عامة الشعب (الصهيونية غير اليهودية ص 253-260). ومن جهة اخرى طلبت الاستخبارات الالمانية من فوزي القاوقجي - اثناء علاجه في برلين تشكيل قوات عربية تضرب خطوط الحلفاء من الخلف، لكنهم رفضوا طلبه باعطائه عهداً خطياً باستقلال البلاد العربية بعد الحرب ، وقيل انهم دسوا السم لولده انتقاماً لرفضه التعاون معهم (الموسوعة الفلسطينية).

عفواً عاماً عن المعتقلين والمبعدين السياسيين، فعاد الحاج يوسف ابوراشد، بعد ان امضى في النفي اثنين واربعين شهراً⁽¹⁾ لكنها عادت فاعتقلتهم اعتقالاً احترازياً لمدة وجيزة لم تزد على ستة اشهر، ثم اطلقت سراحهم جميعاً، واخذت تبدي لنا ظاهراً في رفع الحواجز والقيود عن حركة المواطنين، والتقليل من التفتيش ونقاطه على الطرق والكف عن الملاحقات السياسية، وابدت تخفيفاً ملموساً من اجراءاتها القمعية. ورغم ذلك لم تلق من الطيرايويين اقبالاً على البوليس الاضافي " الذي دعت اليه وشكلته اثناء الحرب، اذ لم يلتحق به منهم غير اثنين فقط.

شجعت " الهدنة" التي ابداهها الانتداب نحو القوى الفلسطينية العربية ابان الحرب، على ان يستأنف الطيرايويون حياتهم شبه عادية، فعاد اليهم نشاطهم الزراعي وفي تربية الماشية والمشاريع الاقتصادية الفردية والصغيرة، فبدت الطيرة وكأن انتعاشاً قد اصابها منذ اواسط عام 1944م، فقد نمت شركة الباصات ، وتأسست شركة تكسيات المستقبل ، وافتتحت معصرة للزيت حديثة، وانفقت اموال تجمعت في صندوق القرية، عادت من جمع قرشين اثنين⁽²⁾ على كل بطاقة تموين من الطحين والسكر، كانت تصرف مقننة⁽³⁾ اثناء الحرب ، كانت العائدات تودع في البنك العربي بحيفا لحساب القرية حتى، بلغت عام 1946م واحداً وعشرين الف جنيه فلسطيني⁽⁴⁾؛ انفق منها قسم على مشاريع تحسينية في القرية ، مثل التوسع في عدد غرف التدريس في مدرستي الذكور والاناث، وتعبيد الطريق الرئيس الذي يصل الطيرة بحيفا من نقطة على خط حيفا - يافا، في موقع " العديل" ويدخل القرية من طرفها الشمالي من بين موقعي " القطعة" و " تينة البستان" ، وينتهي عند باب الجامع مروراً بالمنزول⁽⁵⁾ ، وانفق منه قسم آخر في عملية فاشلة للبحث عن مصدر جديد للمياه الجوفية العذبة في وادي " ابو الجاع لسد العجز الحاد في مياه الشرب بسبب التزايد السكاني ، وحرمان القرية من مياه وادي فلاح،

(1) كانت اسرته تستعد للسفر الى دمشق لزيارته بناء على رغبته، لكنها فوجئت بقرار العفو، فلم تفعل.

(2) وفي قول ان الصندوق كان يستوفي قرشاً واحداً على كل كيلو غرام من السكر، ونصف قرش عن كل عشرة كيلو غرامات طحيناً.

(3) كان يصرف للفرد الواحد 10 كغم طحيناً و 1/4 كغم سكر في الشهر الواحد.

(4) من حديث خاص مع المختار عبد الله السلطان في منزله صيف عام 1992م.

(5) ساهمت الحكومة بنصف تكاليف المشروع.

فقد استأثر به الانتداب لصالح قواته.

وثمة ظاهرة سرى الحديث بها في العديد من الاوساط المحلية، حتى تجاوزتها الى اقطار عربية اخرى مثل مصر⁽¹⁾، وهي من تأثيرات الحرب والانتداب معاً، وليست سابقة عليهما، وليست ذيولاً ونتائج تمخضت عنهما. ولقد اسيى فهم تلك الظاهرة، اذ تناقلتها الالسن دون تحليل ولا تمحيص، وتلك هي استباحة ممتلكات الانتداب وامواله المنقولة مثل السيارات والدراجات النارية العسكرية والاطارات، والسطو على المصارف البريطانية وقطارات الامتعة واستقراء هذه الظاهرة يضعنا امام الحقائق التالية :-

1- كان الفلسطينيون يخوضون الحرب التي شنها الانتداب البريطاني منذ وطئت قدماه ارض فلسطين، وابتدأها بمصادرة الارض واتلاف المحاصل الزراعية، واهمال الشؤون التعليمية والصحية والاقتصادية، وبلغ اعتداؤه على الارض الطيراوية حد الاسراف باقامة المعسكرات والمنشآت الحربية، فاصبح الكثير منهم بلا ارض او بلا عمل. فجاءت تلك الظاهرة كرد فعل طبيعي مشروع على طريق المقاومة والحرب الصامته.

2- لم تكن تلك الظاهرة حالات فردية محدودة، ففي كثير منها اخذت طابع التخطيط الجماعي المسبق، ممن فقدوا الارض وفرص العمل بالدرجة الاولى، وكانت العمليات ضخمة وناجحة، مما شكل ضغطاً على خزينة الحكومة البريطانية التي تخوض حريها العالمية الثانية، وتسخر اقتصادها وانتاج مصانعها للمجهود الحربي، ونحن نعلم ندرة الحاجيات وارتفاع الاسعار ابان الحرب، كما شكل ضغطاً نفسياً على جنودها وقيادتها في فلسطين، فقد راعهم عمليات سطو ناجحة على بنك باكليز في حيفا، واقتحام القطارات العسكرية، وتفريغ بعض عرباتها من المواد التموينية والامتعة واللوازم العسكرية،⁽²⁾ واذ لم تقف بريطانيا على هوية الفاعلين، لم تلجأ الى اجراءات القمع الجماعي، وانما اكتفت بتكثيف الحراسات الليلية

(1) نشرت صحيفة "البعوكة" المصرية الاسبوعية رسماً ساخراً "كاريكاتير" حول بيع الاطارات التي انقطعت من الاسواق، وفيه ينصح صاحب المحل زبوناً بالتوجه الى طيرة حيفا للحصول عليها.

(2) في واحدة من عمليات اقتحام القطارات ليلاً، كان ما القاه المهاجمون من اكياس جثثاً لقتلى عسكريين لم يتمكن المهاجمون من دفنها، ثم تولى الانجليز امرها، وازدانوا على اهل الطيرة حقداً.

على المرافق الحيوية وحول المعسكرات، واعطت الاوامر باطلاق النار على كل من يقترب من الاسلاك الشائكة ومن جراء ذلك فقدت الطيرة شقيقين من عائلة درباس في مدة اسبوعين. وعلى صعيد الاستعداد للمعركة الفاصلة مع الصهاينة، كانت الطيرة كسائر القرى والمدن الفلسطينية التي لا تجد قيادة تتبعها او تأخذ بيدها وتنسق لها مع غيرها. لقد سجل الرأي العام الفلسطيني على نفسه اسرافه في الاعتماد على قوة حقه التاريخي والشرعي في وطنه، كما اسرف في تقديره للقدرة العربية وحريتها في نجدته وتزويده بالسلاح عند الطلب، ولا يخفى ان لتعريب القضية اثراً في تواكل القوم واعتمادهم الاكثر الذي ينقصه الاعتماد على القوة الذاتية والوحدة الوطنية، لقد اثبتت الاحداث فيما بعد ان الحق للقوة، وان الاستعداد الفعلي للمعركة كان عند الفلسطينيين معدوماً.

و: وحيداً

1- اجواء ساخنة

وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، وتبين ان الخصوم كانوا يصلون ليلهم بنهارهم، في الاستعداد لجولة فاصلة، فنشطت محاولات تسريب الارض في الخفاء، وفي واحدة منها، تسربت التلال الساحلية، وهي المرعى العام لماشية الطيرة وبوابتها الطبيعية التي تصلها بالبحر المتوسط، وكانت جريمة لا تغتفر، قصد بها قتل الطيراويين، بوقت ما شيتهم عطشاً، وحرمان الاجيال من استثمار الشاطئ والبحر، وهما ثروة هبة من السماء لا تقدر بثمن.

مساحة تلال الطيرة الف وثلاثماية دونم تسربت بمؤامرة بريطانية الى شركة كيرين كايمت⁽¹⁾، فقام من بين المقتدرين رجال يشترون الارض باي ثمن، ممن يعلن عن رغبته في بيع ارضه، وتعرض بعضهم للاذى بسبب ذلك، كالحاج يوسف ابو راشد، الذي تعرض لحادثة اغتيال فاشلة، حيث اطلق عليه من الخلف، وهو يدخل ساحة داره، عيار ناري، وهو يعود من السهرة ليلاً، ثم تبين انها بسبب شرائه ارضاً على مدخل وادي فلاح، ليصبح الوادي خالصاً

(1) الصنوق القومي اليهودي، ورئيسه آنذاك: نيسم آدموند ليفي" والذي اشرف على الافراز " المستركونيون" مدير دائرة سندات التملك" الطابو في حيفا " وتمت الصفقة في طبريا .

لعائلة ابي راشد، ورغم هذا عاد فاشترى ثلاث قطع من الارض اخرى؛⁽¹⁾ اثنتان زراعتان في موقع صوفان، وثالثة مشجرة زيتوناً قريبة من درب البحر.

وفي اثناء الحرب الثانية كان النخر الصهيوني يتغلغل في جهاز الادارة الامريكية؛ رأسياً مع رؤساء الجمهورية وحكام الولايات ، وافقياً في الكونغرس، واستطاعت بريطانيا بالتواطؤ مع الادارة الامريكية ان تحيل القضية على المنظمة الدولية في 1947/4/2م. بعد ان تأكدت من تفرغ قواتها للوقوف الى جانب الصهاينة، ومن تفوق هؤلاء على العرب عسكرياً لخوض المعركة الفاصلة.

شعبان ثلاثة من فريق النجاده يتدربون على حمل السلاح في وادي أبي الجاع سنة 1946

(1) مع انه كان ينشئ منزلاً جديداً بدل قديم هدمه، وعند الخروج ، لم يجد في حوزته سوى "22": اثنين وعشرين جنياً، فقط.

ابتدأ العدو يستفز العرب في شمال فلسطين، وكان تركيزهم على حيفا، لاستخلاصها قبل اي مدينة اخرى لاهميتها الحيوية في المرفأ ومصفاة النفط والمصانع والمنشآت، ولاهميتها الاعلامية العظمى في الاوساط المحلية والدولية، ومن ابرز عملياتهم فيها، معركة" مصفاة النفط" صباح 1947/12/30، وقد استهلوها بهجوم مباغت بالاسلحة الرشاشة، على العمال العرب الذين يتجمعون امام ابواب المصفاة قبل بدء الدوام، فقتلوا ستة وجرحوا 41 آخرين، ثم دخلوا المصفاة واوصدوا الابواب خلفهم . لكن رد العمال العرب جاء سريعاً ، وهم عزل من السلاح، فاقتحموا البوابات وحطموها، وقتلوا بمجارف العمل والفؤوس 41 صهيوياً، في اقل من نصف ساعة.

جاءت نتيجة المعركة موجعة للصهاينة، خلافاً لتوقعاتهم ، فانتمقوا من القرى التي كان عمالها ابطال " المصفاة" وابتدأوا بقرية" بلد الشيخ"⁽¹⁾ فقتلوا من اهلها ثلاثين شخصاً بين رجل وامرأة وطفل⁽²⁾ في عملية تسلل ليلي. وبعد ستة أيام اي في 1948/1/4م، تسللوا الى الطيرة في الظلام، ونسفوا منزلاً من طابقين، في الحارة الشمالية، وبلغ الضحايا 17 شخصاً، من عائلة حجير، وكانوا ثلاثة رجال ، وشابين يافعين، وخمس نساء، واما الباقون فكانوا اطفالاً من الجنسين، وسلم طفل رضيع وجد بين الانقاض.

توجه الطيراويون نحو السلاح فاشتروه، واستقدموا رجالاً تطوعوا⁽³⁾ لوجه الله تعالى، بدعوة من فريق النجادة، لتدريب الرجال والشباب الذين يملأ صدورهم حب الجهاد الوطني.

(1) نسبة الى الشيخ السهلي الصوفي، تقع الى الشرق من حيفا على مسافة ٥ كم، وعلى قرب منها يمر نهر المقطع ، واقيم على اراضيها مصنع الاسمنت، ومن عائلاتها عرب السويطات الذين تربطهم بالطيرة وشائج النسب .

(2) من الخلق اليهودي في الحرب، انهم يتوجهون نحو المدنيين العزل من السلاح، دون تمييز بين رجل وامرأة وشيخ وطفل، ومرد ذلك الى عقيدتهم الدينية وطبيعتهم في تجنب مواجهة قوات الخصم. وقد اثبتت تقارير الضباط الانجليز الذين اشرفوا على تدريب قوات الصهاينة هذه الحقيقة، واوصوهم بأن لا يقاتلوا خصماً الا بالكيات محمولة، وصدق الله العظيم حيث يقول " لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة او من وراء جدر" الحشر، 14.

(3) كان بينهم تركي وآخر انجليزي اعلن اسلامه الى جانب ثالث من العرب.

ونظموا حراسة ليلية مكثفة.

كان العدو يرقب الموقف من " اخوزا " فقام بعد حين في ذات ليلة وقصف القرية قصفاً عشوائياً بمدافع الهاون، وكأنما ارادها عملية اختبار القوة والكشف عن انواع السلاح، لكن الطيرة عجزت عن الرد المماثل، لانها لا تملك مدفعية ما. ثم نشطت فيها حملة للتسليح الجماعي، من ثلاثين جنيها على كل مقتدر، وأضافت الى الحصيلة ما توفر لديها في صندوق القرية، وتوجهت لجنة ثلاثية الى مصر ، مؤلفة من الحاج يوسف ابي الحاج وحافظ النجم وعبد الله السلطان ، وهناك التقت بالهيئة العربية العليا ، التي تتولى مهمة تسليح الشعب . وجاء السلاح فاسدا ، معظمه ، من مخلفات الحرب العالمية الاولى ، ضمن سلسلة المؤمرات على الانسان الفلسطيني ووطنه.

تقبل الناس السلاح على مضض ، وجاءت الايام لتكشف سراً اشدّ خطورة من فساد السلاح ؛ ففي ليلة ظلماء من مطلع آذار ، دخلت القرية شاحنة من جهة خرّوب قاسم ، وقد اطفأت اضواعا ، لكنها كشفت عن نفسها بهدير محركها العالي، فاضطر موقع الحراسة القريب الى تنبيه السائق والطلب اليه بالتوقف ، برصاصة تحذيرية. فتوقف ، ونزل ليحتمي بأحدى سلاسل الحجارة العالية، وصاح ليعرفوه ، لكن صياحه ضاع وسط النيران الكثيفة التي انطلقت من كل مواقع الحراسة ، لاسباب قد يجد علم النفس لها تفسيرات شتى.

ولما طلع النهار ، واتضح الامر ، عجب الناس من مسلكهم ، اذ وجدوه درساً باهظ التكاليف ، لان مشط⁽¹⁾ الذخيرة، وصل ثمنه نصف جنيه او اكثر ، وكشف عن انعدام الوعي بقيمة السلاح وظروف استعماله، وعن انعدام الضبط العسكري وغياب القيادة عن المقاتلين ، كما كشف عن الشوق الزائد للقاء العدو ، الذي لا يجيز مثل هذه الظاهرة العقيمة، لقد صيروها بالتوهم معركة حامية ضد شاحنة لهم تجاوزت وقت الدخول، بعد غسق الليل.

2- معركة الزيتون

سكوت الطيرة على عمليتي النسف والقصف، أثار الشكوك والمخاوف عند الصهاينة من ناحية ، كما اعطاهم خطأ في التقدير ومزيذا من الاستخفاف ، من ناحية اخرى. وظنوا ان

(1) كان من المعدن ويتسع لعشر طلقات بندقية.

انعدام المدفعية ومواد التفجير الناسفة في ايدي الطيراويين سوف يقعدهم عن القتال ، أو أن الطيراويين يجروَنهم الى معركة كبرى. فاطلقت احدى سياراتهم المسلحة النيران كثيفة على باص اللبانات ، وكل ركابه من النساء ، فقتلوا امرأةً وجرحوا اخرى ، واصيب الباص بثقوب في هيكله.

بلغ الخبر القرية، فجلجل صوت الجهاد «الله اكبر» في كل اركان الطيرة فتحرك عدد غفير من فورهم ، للهجوم بسلاحهم راجلين باتجاه الزيتون، وامتطت مجموعة من ستة افراد شاحنة حديثة، وسبقوا غيرهم ، وادركوا باصا لشركة «ايجد» مملوءا بركابه من الرجال ، وطلب سائق الشاحنة «موسى نمر ابو راشد» من المسلحين الكامنين في الصندوق الخلفي المكشوف، وهم احمد حمد ابو غيدا، ويمنى عبد المعطي السلطان ، ومحمود حسن الزهرة عمورة، ومحمد حسن العبد عمورة، طلب اليهم ان لا يطلقوا النار على سائق الباص، لئلا يختل الباص وتصطدم السيارتان ، فيلحقهم اذى بسبب ذلك ، وباقى الى جانبه «مرعي عبد المبين» كسائق احتياطي. ولما تحاذت السيارتان وتوازنا ، امطر المسلحون في الصندوق ركاب الباص وابلا من الرصاص بالرشاشات السريعة ، وساروا معها مسافة طويلة ، وهم يشاهدون الدماء ويسمعون الصراخ ، فخرجت قوات بريطانية من معسكراتها وتصدت للشاحنة، لكنها سرعان ما قفلت راجعة. وحاول البريطانيون ادراكها ، الا ان المشاة من اهل الطيرت كانوا قد وصلوا الشارع العام (حيفا-يافا) فواقفوا البريطانيين ، الى ان دخلت الشاحنة بين الزيتون ، ووقفت غير بعيدة عن ميدان المعركة الضارية التي نشبت مع قوات الحراسة الصهيونية التي ترافق القوافل المتوجهة الى حيفا والخارجة منها ، وانضمت اليها قوات المعسكرات البريطانية التي خرجت من المعسكرات الشمالية ، وكان يوما مشهودا ، سجل فيه الطيراويون نصرا يشبه الاساطير ، فقد كانت القافلة كبيرة بحراسة مناسبة . ومن المجاهدين من اتخذ من جنوع الزيتون متاريس، ومن اغصانه مظلة تمويه، ومنهم من تقدم بجسمه وسلاحه لا يلبس على راسه الخوذة، واذ رأى الصهاينة هذا المشهد الذي لا يهاب فيه المجاهد الطيراوي الموت، اخذوا يغادرون سياراتهم التي اعطبت ويفرون نحو البحر هاربين ، فصاروا يلحقونهم ولا يبقون على احد يدركونه، ثم استولوا على سيارات العدو التي لم يقوموا

باحصائها ، وراحوا يذرعون الشارع جيئةً وذهاباً ، بين حريقٍ معمرٍ و معسكر العديل، وشكوا في حمولة شاحنتين كبيرتين فساقوهما الى الطيرة، ولما تبين انهما محملتان تبغاً خاماً اتوا بهما وادي «ابو الجاع» واحرقوهما بحمولتهما . اما سيارات الحراسة من ال«بك أب» والتاكسي، فقد صفت على الشارع المؤدي الى معسكر « المدرسة» من جهة «مسلية» واحرقوها جميعاً ، وكانت سبع سيارات أو كانت عشرةً بحسب رواية اخرى.

توالت نجدات الجيش البريطاني ، حتى لم تعد معركة متكافئة. فاضطر المجاهدون الى الانسحاب بشهيد واحد اصيب في جبهته هو محمد صالح منصور عبد القادر ، وبجريح واحد هو محمود حسن الزهرة عمورة، الذي اصيب بعيار ناري اخترق احدى كليتيه ، فاعطبها ، غير انه نقل بالباص الفولفو المصفح ، وادخل المستشفى الحكومي ⁽¹⁾ ، حيث تولى اطباء العرب امر علاجه حتى قدر له الشفاء والعيش الى ما بعد كتابة هذه السطور.

لقد كشفت معركة الزيتون امورا تتعلق بالانسان الطيراوي المجاهد ، عن جرأة فيه مذهلة، وعن قدرته على الحركة بخفة ورشاقة ، حتى لو كان في ادنى مستويات التدريب والانضباطية ، واذ لم يسبق له خوض المعارك والمناورات الحربية ، ولم يتثقف تثقيفا عسكريا مناسباً ، كما كشف عن ذكاء فيه وسرعة خاطر ، حين اتخذ من اوراق الزيتون واغصانه خنادق جوية في الاعلى بدلا من خنادق الحفر الارضية، مما اربك القوات البريطانية النظامية، التي ترى الرصاص يأتيها من كل مكان دون ان ترى امامها مجاهدا .

ادرك العدو الصهيوني هذه الاسرار في المقاتل الطيراوي، فقرر ان لا يعود الى استخدام خط حيفا يافا من جهة الطيرة، وتحول عنه الى خط الجبل، وان كان ضيقا واطول مسافة ، واشق على السيارات مسلكا ، فهو خط فرعي، يصل بين «الهدار» الحي اليهودي في حيفا ، وعثيث مرورا باخوزا والشلالة ومعسكرات الجيش البريطاني فوق متن الكرمل ، وصاروا لا يسيرون الا بحراسة القوات البريطانية من امام قوافلهم ووسطها، ومن خلفها ، واستمروا على ذلك من اواسط اذار عام 1948 الذي شهد المعركة في 12 أو 13 منه الى ما قبل خروج الطيراويين بقليل.

(1) اسماء الصهاينة بعد الاحتلال مستشفى رمبم .

3- معركة الخريبة⁽¹⁾

كان لا بد من تأديب الصهاينة، وزجرهم نهائياً عن الاعتداء، فقررت هيئة الأركان⁽²⁾ نصب كمين للقوافل التي تحولت الى ظهر الكرمل، ورصد الذين تطوعوا للتنفيذ حركة قوافل العدو ومواعيد مرورها وطبيعة تشكيلها، وقرروا الزمن الذي يستغرقه وصول النجديات من المعسكرات البريطانية في كل من اخوازا وتل الزعرور. فافاد الرصد بأن القوافل لا تسير الا تحت الحراسة البريطانية، خارجة من حيفا عند الضحى، وقادمة من تل ابيب بعد الظهر. ثم اختارت المجموعة موقع «الخريبة» في اعلى وادي العين، نظرا لتوسطه بين معسكرات اخوزا في الشمال وتل الزعرور في الجنوب، ولوجود الشجر المناسب، واختاروا قافلة بعد الظهر، لان الشمس تكون من خلفهم، فتحجبهم الظلال، وتتكشف لهم القافلة بوضوح تام.

كانت الساعة تقترب من الواحد والنصف من بعد ظهر يوم 27 أو 48/3/28م عندما مرّت القافلة وانقض عليها المجاهدون بالقنابل اليدوية والرشاشات الخفيفة، بعد ان مرّت الحراسة الامامية التي توقفت وانعطفت بمدافعها الرشاشة الثقيلة «برن» لكن فرق الاقتحام كانت قد وصلت حافلة ركاب وسيارتي تاكسي فدمرت وقتلت وجرحت، واما فرقة الاسناد فقد اخذت تشاغل الحراسة، فحدث اضطراب شديد في القافلة، اذ خرجت بعض الشاحنات عن الشارع وانقلبت الى الجهة الشرقية منه، ولم تمض غير بضع دقائق، حتى كانت النجديات من المعسكرات قد وصلت مع سيارات الاسعاف التي بدأت تخلي الاصابات من الصهاينة.

لم تستمر المعركة الهجومية اكثر من عشر دقائق دون ان يخسر المجاهدون احدا الا عند الانسحاب حيث استشهد كل من نمر المنصور باكير وفيصل خضر الكزلي ومصالح خليل غنام من فرقة الاقتحام. وتوقفت القافلة عن المسير، وانسحب المجاهدون بشهادتهم، واستمرت نيران البريطانيين متقطعة مدة عشرين دقيقة اخرى، الى ان رجعت بعض سيارات الاسعاف، ونقلت باقي الاصابات ثم عاود المجاهدون هجومهم الى ما بعد الغروب.

تحدثت القرى العربية في الجبل عن هذه المعركة كما شاهدتها وكما سمعت عنها وتبين

(1) من مواقع الطيرة.

(2) تعبير مجازي محض عن القيادة الجماعية التي سادت حياة المجاهدين في الطيرة.

انها حققت اهدافها المرصودة وهي النيل من قوات العدو ومعنوياته ، واعطاؤه الدرس اخيرا بان احتماؤه بالقوات البريطانية لن يجديه نفعا، وان يبعده عن متناول اليد الطيراوية، ومع كل هذا قررت هيئة الاركان عدم العودة الى مهاجمة ذلك الخط بسبب وقوعهم بين فكي كماشة المعسكرات ، واعتبرت النتيجة نصرا ماديا ومعنويا معا ، كما قرروا تكثيف الحراسة من جهة وادي العين تحسبا لغدر انتقامي ، غير ان هذا لم يحدث فقد تلقى العدو الدرس قاسيا .

4- الحرب غير المعلنة

أ- ملكنا المصفحات ، فأهديناها اشقاعنا

من يتتبع تاريخ الجهاد في الطيرة في هذه الحقبة، وهي الحال نفسها في سائر فلسطين، يراها حربا غير معلنة تشنها بريطانيا مع الصهاينة، فقد كان التنسيق العسكري تاماً بين الطرفين ، بل ان بريطانيا اخذت تخلي معسكراتها من الدبابات والمصفحات والذخائر وقطع السلاح، تدريجيا وتسلمها للصهاينة . وكان العرب يرون اليهود بأمر اعينهم وهم يجرون تغيير الدهان ورسم الشعارات على الدبابات البريطانية في مراتبهم.

وضعت هيئة الاركان في الطيرة خطة للحصول على بعض الدبابات وناقلات الجند والسلاح والذخائر ، وفي عملية تسلل ليلي على معسكر «الحديد» حصلت على اربع مصفحات وبعض الناقلات وسيارات «الجيب» والدراجات النارية ، وعلى جهاز كشاف ضخم يعمل بالبنزين، كانت بريطانيا تفحص به الاجواء وتتعبق الطائرات المعادية اثناء الحرب العالمية الثانية. أما مستودعات الذخيرة فقد اخلت من قذائف المدفعية ، ولم يبق فيها غير بقايا ذخيرة للبنادق والرشاشات . وهكذا لم يخرجوا الا بقذيفة واحدة لكل مصفحة ، هي المعدة للاطلاق في برجها .

وبعد ايام ، استأذنت شاحنتان عسكريتان بريطانيتان بالدخول الى الطيرة ، ووقفتا قبالة «القطعة»⁽¹⁾ وعرضت باسم «ستوكويل» قائد القوات البريطانية بيع حمولتهما من الذخائر والاسلحة، بالفي جنيه ، تدفع خلال اربع ساعات ، والا بيعتا لليهود. ولما سئل الضابط عن قذائف المدفعية : قال: ذلك ما لا تحتاجون اليه بعد دخول الجيوش النظامية. فردوا عليه :

(1) ارض الوقف في الطيرة على مدخلها الشمالي.

تأخرت في العرض كثيرا.

في تلك الحقبة من حياة الطيراييين ، سادت روح الجهاد الاسلامي التي لا تعرف الاثرة، وإنما الايثار وكرم النفس، ولعت في محيا مجاهديهم اشراقة صوفية تجلت فيها صورة الفارس المسلم ، بكل ما فيها من شجاعة ونخوة وشهامة ، طاعة وانضباط في غير قهر ، ولو قلنا انهم عاشوا حياة الصحابة حينما لما كنا مغالين: فالكل قائد بلا مرسوم ولا نيشان، والكل جندي يعيش ويقاوم للشهادة وحدها. وله ان يدلي برأيه فيما يعرض للبلد من امر يستدعي المشورة ، وربما سبقوا غيرهم في تطبيق المبدأ القائل: ديمقراطية الرأي وديكتاتورية التنفيذ. كنت ترى المجاهد فيهم يستمع الى ذلك القادم من وسط فلسطين⁽¹⁾ باسم الهيئة العربية العليا «ابو عياش» بكل جوارحه سميعا مجيبا.

اكتفى الطيراييون بمصفحتين اثنتين ، واهدوا جيش الانقاذ اثنتين، حيث حضر منه من تسلمهما . ثم سارعوا الى تغيير الدهان ، وذاقوا حلاوة الظفر بهما حينما يسيرا ، الى ان بدأ الوقود ينفذ شيئا فشيئا ، ثم انقطع بسقوط حيفا ، فلم يكن لدينا احتياطي يذكر ، فاقفقت واحدة ، ولم نتضايق ابدا ، لان فجر التحرير المرتقب، اخذت تلوح تباشيره في الافق.

ب- جريمة بريطانية

لسبب او لآخر لم تقع مواجهة مع الجيش البريطاني ، كان فيها البادىء ضد اهالي الطيرة ، وهو القادر بتفوقه العسكري الشامل، في هذه المرحلة، لكنه لم يدخر وسعا في ايدائهم كلما سنحت له الفرصة ، فبعد ان شاع نبا مذبحة «دير ياسين»⁽²⁾ البشعة ، وبدأت العصابات الصهيونية تعتدي على الحي العربي في طبريا ، جهز المجاهدون في حيفا سيارة

(1) قيل انه من بورين، من غير تحقيق ثم قيل انه من قلقيلية ، وقيل غير ذلك

(2) الى الجنوب الغربي من القدس على ارتفاع 770 م عن سطح البحر ، ارضها زراعية. اختارها اليهود لقتل عدد سكانها . اشترك في تنفيذها كل المنظمات الصهيونية الارهابية ليلة 1948/4/10 م. وكانت باشراف مجرم الحرب «مناحيم بيغن» رئيس عصابة ارغون«تسفي لثومي» وبلغ عدد الضحايا العرب اكثر من 250 بين طفل وامرأة ورجل . حاول «بن غورين» التوصل والاعتذار ، الا ان بيغن اصدر بيانا تبجح فيه بالجريمة وأثارها ، واعتبر اعتذار بن غوريون رياء ونفاقا ، فطلبه الانتداب كمجرم حرب ، ومنعه من دخول بريطانيا حتى مفاوضات كامب ديفد.

بلغم كبير، وقادوها الى «بات غاليم»⁽¹⁾ غير انها تعطلت ، قبل ان تجتاز الخط الحديدي ولما نزل السائق الفدائي في هذه العملية الانتحارية، جاءت طلقة من كوخ الحراسة على مفترق التقاطع ، فاخرقت راسه وصعدت بروحه شهيدا، ثم تبين انه «محمد الترك»⁽²⁾ الذي يطلبه الاعداء لما اوقعه فيهم من خسائر بشرية. ولما ادرك الانجليز هدف الشاحنة ، ساقوها الى موقع «الكنيسة»⁽³⁾ ، وابتعدوا عن البئر قليلا وفجروا اللغم والشاحنة . بلغ عمق الحفرة التي احدثها التفجير في الرمل اكثر من مترين، وتفجر الماء من خلالها . ثم جاؤوا بلغم اصغر حجما ، وفجروه في وسط بئر الكنيسة، لتمتلئ ردماء وركاما ، ولتتعطل عن السقاية، وليتصدع الحوض الذي تستقي منه الماشية . لقد كان الهدف قطع الماء عن القرية وماشيتها لتموت عطشاً، او لحملهم على الاستسلام او لحملهم على مغادرة القرية.

وتلك من اخلاق الغرب وحضارته ، التي جاء يبشر بها الشعوب المنكوبة به ، ليأخذ بيدها في النهوض ولتحقيق الرفاهية لأجيالها .

قال قائل الطيراويين تعقيبا على ذلك: هذه هي الحرب غير المعلنة من بريطانيا العظيمة على الطيرة العظمى.

5- المرقصة⁽⁴⁾

بعد الاعتداء على حافلة «اللبنات» وضع الطيراويون شبك الوقاية من القنابل على نوافذ الحافلات ، وصفحوا حافلة «الفولفو» ضد الرصاص، ليظلوا على اتصال بحيفا ، التي لا يستغنون عنها ابداً.

لم يدر في خلد احد ان حيفا سوف تسلم للصهاينة ، بعد ما اعلن الانتداب انه لن ينسحب منها قبل شهر آب 1948م⁽⁵⁾ الا ان ذلك الاعلان جاء ضمن خيوط مؤامرة تسليمها

(1) في الطرف الغربي الجنوبي من حيفا خلف المستشفى الحكومي.

(2) أمه عربية ، ووالده من بقايا الاتراك في فلسطين.

(3) موقع في الطيرة .

(4) موقع جبلي شرق الطيرة الى الجهة الشمالية من وادي العين .

(5) لكن بريطانيا انسحبت نهائيا من حيفا صباح 6/14. أي بعد توقيع اتفاقية الهدنة الاولى بثلاثة ايام. أما

المنسوب السامي فقد غادرها ليلة 48/5/15م

قبل 48/5/15م واسهموا مع الصهاينة في تنفيذ خطة الاستيلاء على المدينة تحت حراهم في الفترة ما بين 19 و22/4/1948م، وبعد ان عملوا على عزلها عن القرى العربية المجاورة ، ففي صباح ذلك اليوم وجد الطيراويون الجيش البريطاني في حالة استنفار قصوى. ويطلبون من السيارات العربية المتوجهة الى حيفا عدم دخولها ورجوعها من حيث اتت.

وفي ليلة 1948/4/20م قررت هيئة الاركان الطيراوية مد يد المساعدة لآخوانهم مجاهدي حيفا لانقاذها ، وعن طريق اخوزا ، لتكون مفاجأة تجبر العدو على الانسحاب . وفي الصباح الباكر توجهت قوة قوامها ثلاثمئة⁽¹⁾ مجاهد، تسلقوا الجبل الأجرد من جهة فرش «المرقصة» ورأس المهلل ، الا ان الانجليز ، كانوا يحكمون الطوق على حيفا ، واضطر المجاهدون الى الرجوع بعد مناوشة قصيرة ، ولو ركبوا عنادهم لأبيدوا جميعا .

وبعد أذان الظهر استشهد «أمين سعيد عويس» من عناصر حراسة المرقصة بطلقة خاطئة من احدهم⁽²⁾ واضطروا لآخلاء الموقع لنقل الشهيد وايوائه ، لكن قوة صهيونية من خمسين ارهابيا تسللت الى الموقع ونصبت المدافع الرشاشة والهاون ، وانهالت عليها التعزيزات ، وراحوا يقصفون الأحياء السكنية، فاستشهد في المنزل "علي سليمان ادريس" بقذيفة مباشرة، واستمر القصف العشوائي حتى الساعة التاسعة ليلا، اذ دخلت القرية مصفحتان للجيش العربي الذي ينزل في "باب النهر" واخذتا تقصفان المرقصة واخوزا معا حتى انسحب المعتدون والتزموا المسكنة.

6- بين الرؤية والامل

أ- على باب النهر⁽³⁾

استهدف الاعلام العربي الرسمي منه والشعبي، في الصحف والاذاعات، ومن على منبر الامم المتحدة، فضيحة الصهاينة في مذبحه "دير ياسين" لاستدراار عطف الرأي العام العالمي على القضية الفلسطينية. وغاب عنه ان العالم لا يحترم الا الاقوياء ولا يقف الا معهم،

(1) اشارت الموسوعة الفلسطينية اليها ضمن معارك حيفا ، نون الاشارة الى الاشتباك

(2) اسمه سميح احد مجاهدي حيفا الذين تحولوا الى الطيرة اثناء سقوط حيفا .

(3) من مواقع الطيرة على الشاطئ.

وان لاتمنح الضعفاء دمة واحدة ، بل كلمة " جبر الخاطر" وقد يتناساه لينسى بالنسيان الأمة. كما غاب عن ذلك الاعلام ، ان صح غيابه انه كان في خدمة اهداف الصهيونية من وراء المذبحة، وهي القاء الرعب في قلوب السكان الأمنيين المدنيين، ليفروا من المصير المماثل.

لم يكن لاحجام العرب عن الرد المماثل المشروع، غير معنى واحد في نفوس المدنيين: هو عجز العرب عن حمايتهم، وإن الاخلاق العربية ومثالياتها في الحرب مع الصهاينة قد ضلت سبيلها. وجاء سقوط حيفا ووقوف الانجليز في صف الصهاينة، وسيطرة هؤلاء على المصفاة وطرق تدفق النفط، ليزيد من مشاكل الطيرة، وليظهروا الفوارق الضخمة بين قوة الطيرة الفعلية وقوة خصومها. عدا عن عزلتها كجزيرة صغيرة وسط بحر هائج، وان ثقها الزائدة بقوتها " الوهمية" ان هي الا من قبيل خداع النفس. اما عزف الاعلام العربي على ايقاع الجيوش النظامية الهادرة للتحرير المرتقب يوم ٤٨/٥/١٥م فقد جاء حقنة لضمود المجاهدين وايحاء باخراج المدنيين بعيداً عن ميادين المعارك التي سوف تسحق الافعى الصهيونية؛ الرأس والذنب.

وجاء احتلال الصهاينة للمرقصة وقصفهم الاحياء السكنية لساعات قليلة، ثم وقوف الجيش العربي لحظة ليوقف القصف ويذهب بالاحتلال، جاء حافزاً غير مباشر لبعض الناس على الخروج بنسائهم واطفالهم ، وبخفيف المتاع للمبيت ليلة 4/21 في باب النهر قريبين من قوة الجيش العربي المرابطة هناك ، وفي الليلة التالية كان اكثر من 95% من العائلات تفترش الارض وتلتحف السماء في باب النهر.

كان الناس بكل ملابس الموقوف بو الرحيل على ميعاد، فقد قوي اللفظ حول الخروج الى شرقي الاردن بشاحنات الجيش العربي، وتحت حراسته، ولعلها تكون نزهة قصيرة بعيداً عن القصف، وعن مغبة سوء المنقلب فيما لو جرت الرياح بما لا تشتهي السفن وانقلبت التوقعات ... ازداد المنتزهون عدداً بحيث لم يبق من الاطفال الا القليل، ومن النساء لم تبق الا من هجرت الحياة وزينتها، او أثرت البقاء الى جانب زوجها وبنيتها، وكان بقاء عدد من النسوة مستحباً لدى المجاهدين ، لبعض ضرورات المعركة، في تدبير شؤون الطبخ والماء.

في ليلة 4/23 اقبل على الساحل من عرض البحر، عدد من الزوارق الصغيرة،

واللنشات⁽¹⁾ التجارية بوراحت تعرض خدماتها للنقل بحراً الى السواحل اللبنانية، فانصرفت محملة بعدد ضئيل، واما الباقيون وهم السواد الاعظم فقد شكلوا القوافل البرية، بسياراتها وشاحناتها و"لوريات"⁽²⁾ الجيش العربي، مخترقين شوارع حيفا، وميادينها، وقد خلت من اهلها العرب، وانتشرت فيها جرادين الصهاينة. وتشاء الاقدار ان تنشط القافلة عند العفولة الى شطرين؛ الى شطر تابع سيره ليجتاز نهر الاردن، ويبيت ليلة 48/4/25 حول جسر الجامع، قبل التوجه الى تل اربد، واما الشطر الثاني فقد يم شطر جنين ليتابعوا السير الى بغداد على "لوريات" الجيش العراقي، او مكث حيناً يسيراً في بعض قرى جنين قبل القرار الاخير.

ما كان لاحد من اولئك المنتزهين ان يحمل شعور الاغتراب والانفصال عن الطيرة، لا ولن تحمله الاجيال من بعدهم، مهما تباعدت زماناً، ومهما اتسع الانتشار.

لأن الحياة حق ...

لأن الوطن فريضة ...

لأن العودة عهد ووعد ...

مهما طال الزمن ...

ومهما عظمت التضحيات .

ب - وارتخت بعض الانامل

الشعب وحدة وقوة

الشعب لغة وتاريخ ومستقبل ، في المدينة والقرية ومضارب البدو.

الشعب العربي ينشد في المدرسة والشارع نشيده القومي : بلاد العرب اوطاني ...

الشعب العربي في اذاعته: أخي جاوز الظالمون المدى، وجيوشه الجرارة سوف تعترف

عما قريب لحن المجد والحرية والكرامة.

صاح المحاصرون في الطيرة: لاتفاوض ولا صلح ... ايدينا على الزناد حديد على

(1) سفينة صغيرة لنقل البضائع والركاب، وتعمل بالطوربينات.

(2) ناقلة جنود عسكرية.

حديد، والخامس عشر من ايار موعداً مع العدو فجراً، ومع الاحبة ظهراً... وسارت الايام نحو الموعد بطيئة ثقيلة، حتى اذا جاء ودخلت الجيوش ، انتشى الطيراويون بسعادة غامرة، اذ صارت عودة المنتزهين على قاب قوسين او ادنى، بل على اقل من عرض فلسطين الذي لا يعد مسافة علي الخارطة، ولا على قذيفة المدفع الرابض والدبابة الزاحفة ... استطال عرض فلسطين ، وصار الذراع فيه ميلاً، وابطأ اختراقه، بين هجوم من هنا وانسحاب من هناك.

ويا ويح تلك الدمى التي تحترق في لعبة الموت.

كل عزيز في لعبة الموت خرافة، حتى نزيف العرض والشرف والكبرياء .

ووسط لعة الرصاص ودخان القنابل ، لا يسمع بكاء الثكالي والارامل والايتام، لاننا نتصر، لان جيوشنا تفتك بجرذ الصهاينة، وتفر الجرذ الى جحورها في بريطانيا والولايات المتحدة، تنشد عندها الامن، ليصرخ في وجه الحكومات العربية الاعضاء في المنظمة الدولية: اوقفوا جيوشكم بأمر الفزاعة، لئلا ينسحق الجرذ الضعفاء تحت نعالكم ... تعالوا الى الهدنة خلال ستة وثلاثين ساعة. فرفضنا ، وهددت بريطانيا بقطع معوناتها العسكرية عن توابعها " الحليفة"، وتكرر النداء لوقف القتال الذي يهدد السلام في ارض السلام، ورضينا بالهدنة لمدة اربعة اسابيع، ابتداءً من الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة 11/6/1948م، وطارت الاخبار وهلت للكونت" فولك برناوت" وسيطاً دولياً يشرف على وقف اطلاق النار، ولتسوية النزاع بالطرق الدبلوماسية، ووضع قرارات وتوصيات لم ترض بها اطراف النزاع.

وفي الطيرة محاربون لا يتعاطون السياسة، وقلما يحفلون بها، وبالهدنة انصرف بعضهم الى قراءة الواقع فقالوا:-

نحن في الطيرة محاصرون وعن العالم معزولون.

سلاحنا هابط محدود، والذخيرة تتناقص.

نغد الوقود، وعدنا الى ايام الحطب والزناد والفتيل وحجر الصوان. قلّ الطعام ، وكدنا نأتي على الطيور الداجنة التي لا نجد لها علفاً ولا عالفا . لا نخرج الى الحقل الا نهارة ، والسلاح على عاتق ومنكب.

زحف اليهود الى الكبابير وصارت تدور في فلكهم.

في ليالي الهدنة بدت الطيرة لهم قرية اشباح موحشة ، فأخذوا يفرون منها ، ويتسللون تحت جناح الظلام لئلا يسمعوها وصمة العار «جبان» فطاروا الى اهلهم بعد ان غلبهم الشوق اليهم، وطلبُ النجاة ، اولئك هم الذين عدوا الصمود انتحارا محرماً، واعتبروا العمل السياسي ملاءة عجز ، يخسر العرب وراعاها كل شيء، فارتخت اناملهم ، وتقفعت اصابعهم عن السلاح، وخذت مواقع الحراسة من حكمتهم وفلسفتهم في حب الحياة وانتحال الاعذار في الهرب⁽¹⁾ ..

وفي الطيرة فقه اخرى ظاهرة ، انهم فتية آمنوا بربهم وامتهم وطيرتهم ، فازدادوا بغياب عشاق الحياة ، تعلقا بآمال النصر ، وهم لم يبلغوا ستمئه مجاهد، وقالوا : الهدنة من الحرب، والحرب خدعة، هذه حقيقة . والحرب كرفرف، وهذه حقيقة ايضا، القتال آت لامحالة والشجاعة صبر ساعة ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين.

ج- فاوضونا ... لنستسلم.

بسكوت العرب عن سقوط حيفا ونجاح مسرحية الهجوم من هنا والانسحاب من هناك ، قويت آمال الخصوم في نجاح دولة التجربة في اقدس بقاع العالمين العربي والاسلامي، ويات الشريط الضيق المطل على البحر من الطيرة الى اجزم بحكم الساقط عسكريا ، وهذا السقوط النظري، ساعد القيادة الصهيونية على التفرغ للدخول في لعبة «فزاعة الحقل الدولي» دون ان يغفلوا عنصر الحرب النفسية مع عمالقة الطيرة، الذين ارعبوهم حيناً من الدهر ، واضطروهم الى صعود الجبال وتغيير خط السير بين حيفا وتل أبيب، بعيداً عن مواجهتهم ، فأملوا بالحصار الشامل وأطالة عمر الحرب ان يفت في عضد المجاهدين ، فإما ان يستسلموا، واما ان يخرجوهم بغير حرب، لكن صمود الطيراييين خيب كل الظنون والتوقعات فاستعاض الصهاينة عن الخنق بالحصار الى الارهاب المدفعي المتقطع والغارات الجوية بين حين وآخر مدة شهر كامل ، بدءاً من اواسط تموز ، حتى ينسوا من ان ينالوا من الروح المعنوية للمجاهدين

(1) بلغني مؤخراً ما يلي: بكى احدهم وهو على فراش الموت أنه واناساً آخرين نقلوا السلاح للعدو من المعسكرات الشمالية ومن اخوزا الى الشلاله لقاء جنهات معدودة ، وعلى أمل عدم التعرض لهم عند الانسحاب . اما النقل فكان على الحمير والخيول.

الطيراويين، على الرغم من انتكاسات الجيوش العربية وبوادر الاخفاق السياسي ، فقرر العدو طلب التفاوض من مركز القوة وذكاء المفاوضات تفاديا لاي مواجهة مع المجاهد الطيراوي الشرس⁽¹⁾ فاطلقوا لهذه الغاية معتقلا طيراويا لديهم من أيام سقوط حيفا، وحملوه عرض التفاوض ضمن رسالة شفوية ، وحددوا الساعة الحادية عشرة من قبل ظهور يوم 48/8/14 زمانا، وذراع عبد الحفيظ الاحمد⁽²⁾ مكاناً وسطا بين معسكر «المدرسة» ومنازل الطيرة الجنوبية. توجه الى الاجتماع من الطيرة الحاج يوسف ابوراشد واحمد حمد ابو غيدا، ونايف عبد المحمود ، والحاج حسن السروه علوه ، واحمد سليمان الصادق، وسليمان عبد العال حجير⁽³⁾ وكرم الفهد، حامل الرسالة الشفوية وآخرون.

واختار الصهاينة من بينهم شخصيات بارزة ومعروفة لدى اهل الطيرة، منهم "سبتي ليثي" رئيس بلدية حيفا، و"سبكتر" مختار اخوزا و"كرستين" ضابط بارز في الهاغاناه. ابتدأ الحديث رئيس البلدية، واكد قيام دولة اسرائيل كواقع، يجب الاعتراف به، وركز على حسن الجوار المتبادل بين الطيرة واليهود، وعلى ان الطيرة وطن لا مثيل له، ولا بديل لاهله عنه، وأشار الى ثمر الزيتون وقال: لمن تتركون هذه الخيرات؟ سقطت حيفا، وهي الرأس ، فسلموا ، ورجاهم عدم التعلق بالوهم او الاصغاء الى الاذاعات العربية. لقد كان داهية بحق، ثم لخص مطالبه : القوا السلاح وسلموه لنا واخرجوا الغرباء من بينكم ، ولن يمس واحد منكم بأذى، عيشوا معنا بسلام. ثم قال: وأنا الكفيل واتعهد بما اقول . عندما ذكر "ليثي" الغرباء، وقف واحد منهم⁽⁴⁾ ، وبصق في وجهه قائلا، إخرس!... اخرجوا من هنا... الحرب بيننا وبينكم. مسح "ليثي" وجهه بمنديله، وقال له: انت لست من الطيرة، اهل الطيرة لا يفعلون هذا ابداً.

(1) ذكر هذا الضابط البريطاني الذي عرض على الطيرة بيع اسلحة وذخائر ، في حديث دار مع «أحمد ابو غيدا» في منزله في اربد عام 1958م ، قبل ان يتوجه الضابط الى غزة كملتحق بقوة الطوارىء الدولية هناك وكشف عن سر ترك الجهة الجنوبية مفتوحة ، لئلا يضطر المجاهدون الى قتال المستميت ، فيخسر اليهود خسائر بشرية مخيفة ، ذكر هذا بصفته احد المستشارين والمنفذين في عملية تسليم حيفا.

(2) قطعة ارض مستطيلة الشكل ، على شكل ذراع ، زرعت زيتونا.

(3) احد الرواة الثقات، وقد اعتمدنا روايته وهناك روايات تؤيدها واخرى تختلف عنها قليلاً.

(4) هو سميح سبق ذكره ومن تحول الى الطيرة منهم لا يتجاوز اصابع اليد.

علق الحاج يوسف ابو راشد على عرض "ليفي" بالقول: ولكنكم قوم لا عهد لكم. وقال غيره كلاماً فجاً فيه خشونة. وقف "ليفي" ليقول محذراً: أنتم احرار وامامكم ساعتان فقط للرد النهائي، ولن اكون مسؤولاً عما سيحدث بعدها.

واستقراء الحادثة لا يدل على انها مفاوضات وانما هي عرض بالاستسلام غير المشروط، كما كانت مقدمة لهجوم وشيك مخطط له. فلم يتطرق الى ذكر النساء والاطفال والرجال الغائبين، ولم يتطرق الى مستقبل الارض والسكان ومهما يكن من أمر فقد انفض الاجتماع الذي اعقب التفاوض، دون اتخاذ قرار جامع، وان مالت نفوس نحو الاستسلام دون الجهر به، خشية ان تتهم بخيانة لا يغفرها وطن ولا دين ولا تاريخ.

ولما رجع المفاوضات الى الشارع سمعوا هياجاً واقوالاً بقرارات اتخذت؛ يريدون تسليم الغرباء⁽¹⁾ فيا للعار، ليذبحوهم وليذبحونا من بعدهم كما فعلوا بغيرنا، الحرب الحرب، نريد الحرب، المنية ولا الدنية.

وهكذا اتخذ الشارع قرار الحرب وعدم الاستسلام.. ولم يتلق الصهاينة جواباً. وعدم الجواب جواب.

بلغت الساعة الثانية وخمس دقائق، اي مضت الساعتان المحدتان؛ فانهاالت القذائف على الطيرة من جهاتها الغربية والشمالية والشرقية، وبدأت الطائرات تقصف من الجو، واستمر القصف غزيراً حتى الغروب. وكانت حصيلة تلك الساعات استشهاد سبعة رجال، وثلاثة اطفال⁽²⁾ وعدد من الجرحى⁽³⁾ تركوا دون اسعاف لانعدام ادوات الاسعاف.

طلعت شمس 7/15 على واحد من المجاهدين، قد غلبه التعب والسهر، فنام في خندقه، ولما استيقظ احس بهدأة غريبة، ما لبث ان ادرك سرها، فيمم شطر وادي فلاح،

(1) اكد لي احدهم، ان ليفي طلب تسليم الغرباء، ولم يقل اخرجوا الغرباء ...

(2) هم : محمد عبد الحفيظ الاحمد، وعلي حسين حجير، وعمار المغربي، وحسن ابو حمدة ومحمود حسين المص، ومحمود الدخنوس وولده احمد، واما الاطفال فهم : خليل احمد محمد سعيد، وخالد هاني علوه وشقيقته.

(3) منهم : حسين مصباح البطل، وراضي عبد القادر السمير، ومحمد ابو شقره الذي توفي متأثراً بجراحه.

وصعد اكتاف الوادي باتجاه عين حوض ، ومنها الى جبع فاجزم ليلتقي فيها بمن سبقوه بالخروج اثناء الليل.

انسحب المجاهدون، ولف اجواء القرية صمت رهيب وتكاثرت حشود الصهاينة ترقب الموقف بمناظير التقريب، وراعهم انعدام الحركة في الطرقات الا من بعض العجائز تخرج من البيوت ثم تعود اليها، وحلقت طائرة فوق الخنادق ، فلم تر احداً ، وكذلك فعلوا في اليوم الثاني، ولم يقترب من القرية منهم احد ، حتى كان ضحى اليوم الثالث اي ١٧/٤/١٩٤٨م تقدمت ارتال من الدبابات من الجهتين الشمالية والغربية، وزحفت حتى وصلت بيادر الحارة القبيلية، ثم دخلوا بها الطرقات الرئيسة، وترجلوا منها ينظرون في البيوت الخاوية، ثم عادت الى البيادر، ليخرجوا من ابراج الدبابات ملوحين بأيديهم وبنادقهم ، فتدفق الجند المحاصرون، وهم الوف من كل مكان، لم يجروا على دخول الطيرة، على الرغم من خلوها من اي مقاتل، مدة يومين كاملين، خشية ان يكون اختفاء المجاهدين مكيدة ، وفي اليوم الرابع دخل القرية مئات السيارات والحافلات لينظروا ذلك البعبع المخيف الذي سكن قلوبهم حيناً من الدهر غير يسير.

ز- السادية في الشخصية اليهودية

يعاني المنبوذ عقدة ثلاثية المزج؛ فيها الاحباط والاحساس بالدونية، والحد على الآخرين. وهذه العقدة تستعصي على كل علاج، مهما اتاحت لها الطول، ورصدت لها المكافآت لغايات الاعتدال.

والمنبوذ عدو لمجتمعه، خارج على القانون، خارق للعرف والتقاليد، كأن يكون قاتلاً او لصاً، يخلو الى نفسه لاحكام مخططاته الاجرامية، ويرى في العتمة افضل الاجواء لممارسة حياته المنحطة، ولذلك يتوارى عن العيون لنلا يقع في ايدي العدالة ، ولكي لا تلاحقه نظرات الازدراء وبالمقابل يمتلئ على الناس حقداً، ويخلع عليهم من الصفات المرة ما يعاني ، ويراهم سبب شقائه، وبوده لو يكون الاقتصاص منهم على يديه، وما اعظم فرحته بمصائبهم. واذا عرض المنبوذ على الطب النفسي، واشبعت حاجاته التي ادى غيابها الى مرضه

وانحرافه، فسوف يتظاهر بالشفاء ولكنه يرى في التظاهر قيوداً ثقيلة تكبله فينعتق منها، ويرتد الى ما تعودده عند اول سانحة. وينطبق عليه المثل العربي: غلب الطبع التطبع. ومن هنا تأتي نظرة القانون الاجتماعي الى المنبوذ كمصدر خطر على المجتمع، يجب اتقاؤه بالحجر عليه في السجون ومعاهد الاصلاح والنفي.

والمنبوذ اخطر ما يكون عندما يجد مظلة قوية تستأجره وتزوده بادوات الجريمة، وتحميه من طائلة العقاب.

ولتلقت الى ظاهرة الصهيونية في نشأتها ومخططاتها المستقبلية، من خلال النصوص التي تدين بها، والوقائع التي جاءت ترجمة امينة لتلك النصوص.

المحنا⁽¹⁾ الى نشأة الحركة اليهودية وكيف انها ابتدأت من اخلاط الجند الفارين من الخدمة العسكرية، والمجرمين المطلوبين للعدالة ومن العبيد الهاربين من مزارع الاقطاع الفرعوني، والعبيد قديماً من اسرى الحروب وسبباها، هزمت على ارض المعركة، ومن هنا كانت تتنازع الجميع عوامل التمرد والاحساس بالدونية والحقد على الاسياد والناس اجمعين، ولم يكن خروجهم مع موسى عليه السلام وبني اسرائيل من مصر باتجاه فلسطين الاطمعاً في ممارسة حياة الاجرام في ارض جديدة غير معروفين لدى اهلها والسلطة فيها، فما ان توفي موسى عليه السلام حتى ارتدوا عن ديانته التي تظاهروا بها، وهادوا الى ما كانوا عليه من اجرام وسطو ونهب، وانضم اليهم من كان على شاكلتهم من الاعراب قطاع الطرق.

ولا ريب في ان لكل اهل حرفة عصبية تجمعهم وتحافظ على كياناتهم، وهذا ما جمع الذين هادوا في حرفة الاجرام، تماماً كما تفعل عصابات المافيا وتجار المخدرات.

ولما اشتد خطرهم على الابرياء الامنين لاحقتهم السلطة، وكانت كلدانية في عهد نبوخذ نصر في القرن السادس ق.م، فاتخذت قراراً بنفيهم الى العراق ليظلوا تحت اشرافها المباشر، واجرت عليهم الحكم بالاعمال الشاقة في حقول الدولة ومشاريعها الانشائية، وذلك لقمع نوازع الشر من نفوسهم، فتظاهروا بحسن السلوك لتخفيف القيود والاحكام. ووضع حاخاموهم "توراة" اسفاراً جديدة، وتلموداً انتسبوا فيها الى ابراهيم عليه السلام، وهو

(1) راجع حديثنا الموجز عن الماسونية على ص 243.

الآرامي، وزعموا انهم ورثة الانبياء من بني اسرائيل، وذهبوا الى حد الافتراء بانهم شعب الله المختار، بامتيازات التفوق والاستعلاء على من سواهم⁽¹⁾.

ولما آلت السلطة الى الفرس، واستعملوا اليهود في حريمهم ضد الفراعنة، كاقوام برفع قانون الاقامة الجبرية في العراق. فتوجه معظمهم الى فلسطين، ومنها عانوا الى حياة الاجرام⁽²⁾، مما اضطر السلطة الرومانية في القرن الاول الميلادي الى بعثرتهم في ارجاء امبراطوريتها لتخليص المنطقة والعالم من شرورهم نهائياً، فدخل اليهود عهد الشتات الذي اركسهم في العقدة التي نشأوا عليها.

وفي القرن السادس الميلادي اصدر البابا بولس الرابع مرسوماً بابوياً يوصي بعزل اليهود اجبارياً⁽³⁾ في احياء خاصة بهم عرفت باسم "الجيتو اليهودي" فاشتطت اوربا في اضطهاد اليهود⁽⁴⁾، فازدادوا على الناس استعلاء وحقداً.

ظل اليهود على اتصال فيما بينهم بالحركات السرية التي ابتدأت بـ«القوة الخفية» ثم تطورت وانبثقت عنها حركات منها الحركة «الصهيونية» التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر، وأتت بفكرة «القومية اليهودية» كمظهر سياسي للبعد الديني، وعملت على الحيلولة دون اندماج اليهود في مجتمعات الشتات، واتصلت في سبيل ذلك برجال السياسة الغربية، فاستثمروها في تحقيق اطماعهم الاستعمارية في الوطن العربي، كما نصت قرارات «كامبل

(1) أنتم اولاد للرب الهكم ... لانك شعب مقدس للرب الهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب على وجه الارض.

(2) مما حمل الرومان على تشريد اليهود في اعقاب ثورة "باركوخبا" (132-135م) الذي زعم انه المسيح اليهودي المنتقذ لشعبه، وهاجم الحاميات الرومانية في القدس وما حولها، فسحقها الامبراطور هدريان على يد قائده تيطس الذي دمر الهيكل واقام مكانه معبداً للاله جوبيتر مقابل كنيسة القيامة.

(3) الشخصية اليهودية الاسرائيلية ص 18. على ان اليهود اختاروا الاعتزال لانفسهم طواعية، قبل المرسوم البابوي، لكنهم بالمرسوم ازدانوا عزلة.

(4) حاولت اوربا ان تجعل من اليهود منتجين بدلاً من ان يعيشوا كفتران مخازن غلال الاخرين، لكنهم ابوا، فعملت على عزلهم داخل اسوار وبوابات عليها حراس يدفع اليهود اجورهم. كما كان في ايطاليا. وفي العهد النازي في بولندا عام 1939م اجبروا كل يهودي ان يضع على ظهره او على ذراعه قطعة قماش صفراء عليها النجمة السداسية وبداخلها كلمة "يهودي" المصدر السابق ص 38.

بانرمان» في مؤتمر لاهاي عام 1907م.

وعندما كانت دولة اسرائيل في مرحلة المخاض على يد «القبالة» البريطانية ، وجد الصهاينة متنفسهم في العودة الى حياة الاجرام وتذرعوها بحجة طرد العرب لضمان الاكثرية «العنصرية اليهودية» كشرط من شروط الدولة . ولهذا سجلوا على انفسهم قائمة طويلة من المجازر الرهيبة في الشعب الفلسطيني مثل بلد الشيخ ودير ياسين.

واذا كانت «الغاية تبرر الوسيلة» عذرهم في المجازر الدموية ، فما هو عذرهم امام الرأي العام العالمي في احراق المسنين والمكفوفين من اهالي طيرة الكرمل، فبعد دخولهم القرية التي هابوها ثلاثة ايام بعد انسحاب المقاتلين جمعوا من ظل فيها من المسنين والمكفوفين والقائمين على خدمتهم ، واخرجوهم بالناقلات العسكرية الى اللجون ، واصعدوهم ظهر تلة هناك ، وانزلوهم من الشاحنات التي ابتعدت، ثم قامت مجموعة منهم برش البنزين حولهم على شكل دائرة ، ثم ابتعدوا قليلا واطلقوا الرصاص الخارق الحارق على البنزين، فاشتعل بالاشواك الجافة، ثم اطلقوا الرصاص فوق الرؤوس ليعجلوا بالمغادرة ، ولا تسل عن ابتهاجهم وصيحات هستيريا الفرح بالمنظر؛ مسنون مقعدون ومكفوفون يصيحون ولا يدرون اين يذهبون ، ولا كيف يخترقون طوق النيران من كل جانب ، ومن قدر على المشي ، شغل بنفسه عن مخدومه ، ولاذ فرارا بروحه ، اذ لا طاقة للبشر على احتمال آلام الحريق. وهكذا استشهد عدد من الشيوخ من امثال حسن الدعاس عمورة (120 سنة) ونجت زوجه ، وعبد السلام محمود السلطان (107) سنوات تقريبا، ومن المكفوفين ، فياض ابوراشد ومحمود السلوم الذي شغلت عنه شقيقته باطفاء ثوبها الذي اصابته النيران.

اي قلب يملكه اليهودي ؟ والجواب في نشأته وسيرة حياته بوله في الاحراق سوابق قام بها نو نواس يوم حفر اخدودا والقي فيه المؤمنين من نصارى نجران في اليمن ، وفيهم قال تعالى « قتل اصحاب الاخدود، النار ذات الوقود، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود» البروج :4-6

وفي الوقت الذي كانت ارواح هؤلاء تصعد الى السماء كان الاعلام العربي ينزل في الارض كالوتد تحت الطرق بالمهدة على رأسه.

وما هدم المنازل بالمدفعية والطيران ، وقتل الاطفال الرضع ، وتعذيب المساجين واسرى الحرب واخراج اهل الرأي والفكر تحت الثلج والبرد والمطر، إلا من قبيل تلذذ اليهودي بالأم البشر.

في الميزان

فلسطين ؛ ارض وشعب وقضية وجهاد

اما انها ارض فلانها جوهرة العالم روحاً، ومفتاح الشرق اقتصاداً، وقلب العالمين العربي والاسلامي وجوداً.

وأما أنها شعب، فلأنه صاحب الجوهرة، وزواله هدف للوصول اليها.

واما انها قضية، فبالصراع الازلي السرمدي ممزجاً بالدين والقومية والسياسة والاقتصاد والكرسي.

واما انها جهاد ، فلأنها الحياة والموت ورضوان الله معاً، مأس ودماء وآلام وصبر اذ لم يسبق ان اجتمع العالم كله؛ شرقيه وغربيه، قريبه ، وبعيده ، على محاربة شعب، وتمزيقه. ورغم ضخامة الخصوم والتضحيات، وقلة العدد والامكانيات وانعدام النصير، يظل الشعب الفلسطيني متألماً مشرقاً وضاح الجبين. لقد امضى في جهاده قرناً كاملاً، يعلم من امر قضيته ما لا يعلمه الا القليل ، يعلم ان اطالة الصراع من طول نفس المغامر الصليبي والاستعماري الذي لا يخسر شيئاً، بل يبني به مجدداً ويجني من ورائه ربحاً ، ويرتع في خيرات الآخرين بلا شريك ولا رقيب، هكذا قرر لنفسه ورسم اللعبة منذ امد بعيد.

هكذا قررت اوربا في مؤتمر لاهاي عام 1907م، اقامة حاجز بشري غريب في فلسطين يحول دون اي وحدة عربية او اسلامية يمكن ان تغزوها حضارياً في عقر دارها. فلا بد من تدمير الوطن العربي وتمزيقه بالطعنة القاتلة ، بخنجر اسرائيل ، لتنزف بشرياً واقتصادياً، ولتضمن السعادة والرخاء لشعوبها والسيادة في العالم والى الابد. ولن تقف عند هذا الحد، وانما ستعمل على تصدير حضارتها ومبادئها في الانحلال والبهيمية، ومسح الشخصية الدينية والقومية، تماماً كما صرح بذلك رئيس الولايات المتحدة سابق هو رتشارد

نيكسون، في كتابه الأخير "الفرص السانحة" حيث يحلم بتدمير الاسلام والمسلمين الذين كان يهادنهم ، وبعد الخلاص من الاتحاد السوفياتي، لا يرى للغرب عدواً غيرهم⁽¹⁾.

الغرب الصليبي الاستعماري يخشى الاسلام لأنه مصدر قوة اهله ووحدتهم وله معهم خبرة واسعة وجولات كثيرة. أليس الاسلام هو الذي اخرجته من الجزائر والسودان وافغانستان، ومن سائر الارض التي كانت له مناطق نفوذ. وبريطانيا ممثله الاولى على المسرح الفلسطيني، تدرك جيداً بالانتداب ، صلابة الشعب وايمانه هنا، بعد مضي اكثر من خمسة عشر قرناً على انبثاق نور الاسلام ، وتدرك بالمقابل خور اليهودي وجبنه وحبه للمال والحياة، ويتورطها في التآمر مع الصهيونيين تعلم شهوة هؤلاء في حكم العالم، وتطمع في أن لا يتراجع اليهود أو ان ينسحبوا ، لذلك نراها تجمع لاسرائيل الانصار والسلاح، وما يتبدى للناظر هيمنة الصهاينة على العالم، ما هو في الحقيقة الا تشبثاً من الغرب في تطبيق مقررات رئيس وزراء بريطانيا كامبل بانرمان عام 1907 في مؤتمر لاهاي .

لقد اسرف الغرب كثيراً في عدائه للعرب والمسلمين، ولعله مطمئن الى تفوقه العسكري، ونحن على ثقة من انه في الوقت الذي يقف فيه بين مصالحه في بتروال العرب ومعادنتهم واسواقهم ، وبين احتضان اسرائيل، فلا شك في انه سيلقيها في البحر بيديه، وهذا ما يخشاه ويدفعه في دفع مسيرة المفاوضات ، ويتمنى ان تستمر بلا نهاية والى ان يعود بالمنطقة الى الحرب، وهذه هي اصول اللعبة في استنزاف الثروة العربية بشريا واقتصادياً في المراوحة بين الحرب والسلام ثم لا حرب ولا سلام.

بريطانيا التي اشرفت على تدريب العصابات الصهيونية في فلسطين ، متأكدة من ان اليهودي لا يقاتل الا في ظروف مثالية مواتية :

- 1- التفوق العددي أضعافاً مضاعفة. والتفوق بالاسلحة بما لا يقاس بنسبة.
- 2- الهجوم المباغت بقوات محمولة جواً وبراً.
- 3- تأمين الحماية الخارجية تأميناً تاماً وشاملاً من دول الغرب على الأقل .
- 4- الاستعانة بالجاسوسية والعملاء والمرزقة.

(1) مجلة الشريعة / عمان عدد شباط 1993م، ص 16.

5- حقن مقاتليهم باللقاحات المضادة للخوف.

وللمعارك الفاصلة تستخدم المال والجنس للاستمالة والتنويم.

ولرفع معنوياتهم يعمدون الى اخفاء الخسائر، وتجسيد خسائر العدو، والاعتقال

السياسي، واذا كانوا يلتقون مع غيرهم بالجاسوسية واساليب التعبئة المعنوية الا انهم ينفردون

بالتفوق العددي والقوات المحمولة، وتأمين الحماية الخارجية وحقن المقاتلين باللقاحات . وصدق

الله العظيم حيث يقول:

- لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة او من وراء جدر. (الحشر: 14)

- ولتجدنهم احرص الناس على حياة (البقرة: 96)

- لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله (الحشر: 13).

وبريطانيا التي رأت جهاد الفلسطينيين في ثورة القسام اول حركة جهاد مقدس في

العصر الحديث، لتخشى على مصير اليهود وعلى مصالح حلفائها من بعد بالجهاد المقدس

وحده. إنها تريد ان تقاتل المسلمين بالجندي اليهودي والتعبئة المعنوية الصهيونية . وعاجلاً أم

أجلاً، سوف يأخذ العرب والمسلمون بالجهاد، ولو بعد نزف شديد، وسيكون النصر حليفهم، وما

النصر الا من عند الله.

جذور العائلات

عائلات الطيرة تنتمي إلى ارومة واحدة، إلى ارومة الأمة العربية⁽¹⁾ مهما تناعت الديار التي وفدوا منها، وان كان من بينها عائلات لا تعرف الا الطيرة داراً، فلعلها من بقايا العرب الكنعانيين، لان الطيرة كنعانية النشأة.

تكثر العائلات في الطيرة، وتتعدد جنورها المرئية مما يجزم بأن الطيرة ليست من عشيرة واحدة في سكانها، وان اختلطت دماؤهم بالمصاهرة، وبحكم اختلاط الدماء كان فيها ذلك التباين الطفيف في الوان البشرة والشعر والقامة في العائلة الواحدة . وليس لاحد ان يجزم بالاثر الصليبي في دماء الطيراويين، كما يتوهم بعضهم ، مستشهداً بالبشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر السبط المرسل، حتى ولو تشابهت بعض الاسماء على قلة، مثل : بدوان⁽²⁾ وشييون، التي نراها ونسمع بها في الطيرة وشمال اوربوا.

لا نريد الاستفاضة فيما يقوله علم الانسان في مجال الوراثة، بل نكتفي بالاشارة الى «الاتفاق العام، في الوقت الحاضر، هو النظر الى السلالة على انها ليست فكرة مطلقة، ولكنها فكرة عملية⁽³⁾ معقدة تتداخل فيها عوامل بشرية وجغرافية ، وليس ادل على عدم جدوى فكرة السلالة النقية من ان يولد لاب واحد ثلاثة اطفال ثم يصنف كل واحد منهم الى سلالة» بعيدة عن الاخرى ، ولهذا نقول بامكانية الاحتمالات في الطيرة، على الرغم من ان حركة الجينات، وهي العامل المؤثر في الوراثة، لا تخضع لارادة البشر واتصالهم واعتزالهم، والى هذه الحقيقة العلمية نعزو وجود التناقضات والمفارقات في السلالات في كل بيئة؛ فالبياض (1) للعلامة جيمس فريزر، في كتابه، " خمسون عاماً في فلسطين" وعلى ص 105 رأي يقول : ان الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين، هم ذراري القبائل العربية التي استوطنت فلسطين قبل الغزوة الاسرائيلية... وانهم ما زالوا متصلين بالارض ولم ينفكروا عنها ولا اقتلعوا منها، ولئن طغت عليهم للفتوح موجات فانهم ثبتوا واقاموا"

(2) ممن حمل هذا الاسم الملك " بدوان" أحد ملوك بلجيكا في القرن العشرين.

(3) الانسان دراسة في النوع والحضارة ص 121, 122.

المشرب بالحمرة، في الجزيرة العربية، موجود منذ القديم⁽¹⁾، كوجود الشعر المفلل والعيون السوداء في الجنس الابيض، في وقت كان فيه اتصال الشعوب بعضها مع بعض ضعيفاً جداً، وكل زعم بنقاء الدماء لا يؤيده العلم والتاريخ.

للحروب وحوادث القتل والجلاء والمصاهرة، ولعوامل الطقس في الخصب والجذب، اثرها في جعل الناس داخل الوطن الواحد في حركة دائمة، وهذا هو الذي جعل قرية مثل الطيرة، لا يبلغ عدد سكانها عشرة الاف نسمة عام 1942م، يزيد على خمس وعشرين عائلة، وفدت من الحجاز والعراق ومصر والمغرب العربي. وذكر المغرب العربي يرجعنا الى تاريخ قرطاجنة الكنعانية والى هجرة بعض القبائل التي نجمت عن الصراع بين طالوت وجالوت، اذ نزحت قبائل من فلسطين الى المغرب العربي عبر مصر.

هل عرفت الطيرة النظام العشائري؟

يلاحظ الباحث الاجتماعي وغيره، اننا في فلسطين، اذا توجهنا من الجنوب الى الشمال، فإننا ننطلق من صحرائها في النقب وبئر السبع، بطابع الحياة البدوية الرعوية العشائرية، لندخل شيئاً فشيئاً في طابع الحياة الريفية الزراعية التي تقل فيها الاواصر العشائرية تماسكاً ووحدة، حتى اذا دخلنا شمالها وجدنا الحياة المدنية مزيجاً من الانماط الثلاثة: الصناعية والزراعية والرعوية، وهذه هي الاضعف والاقل انتشاراً، وتتضاف التجارة كنمط رابع لتختفي الزراعة والرعي تماماً في مدينة حيفا. كما تزداد الكثافة السكانية بالهجرة نحو الشمال لتعدد اسباب العيش ووفرته. وفي هذا تعليل لكثرة عدد العائلات في مدن شمال فلسطين وقراه الكبيرة مثل طيرة الكرمل، ليعطي العلاقة بين السكان سمة جديدة يسودها النظام المدني في الادارة القائم على المؤهلات العلمية في الوظائف، وعلى الانتخاب الحر المباشر لرؤساء البلديات والمجالس القروية، واعتماد القاضي المعين من قبل الدولة الذي يتبع في قضائه قانوناً مكتوباً، لا مجال فيه للاجتهد والعرف والهوى الذي ينفذ الى النظام العشائري، في كثير من الحالات.

(1) عمر بن الخطاب وعائشة ام المؤمنين رضي الله عنهما عرفا ببياض البشرة المشربة بالحمرة وفي عائشة جاء الحديث الشريف: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء.

بعد هذا، نقول بمزيد من الثقة بأن الطيرة قد تدرجت في معارج الانظمة الثلاثة، أما النظام العشائري فإننا نتصور سيادته في احقاب سحيقة مجهولة التاريخ، واما النظام الزراعي الريفي والرعوي، فهو ماكان سائداً حتى اواسط القرن العشرين بصفة غالبية، وفي نفس الوقت كان يتجه نحو الانعتاق نحو النظام المدني الصناعي، بعد ان اصبحت حيفا ميناء هاماً وبمميزات الصناعة والتجارة والسياحة، ويكونها مركزاً رئيساً لقضاء حيفا.

اذن ، ساد الطيرة نظام العائلات احقاباً طويلة، وهو نظام يتسم بالنزعة الفردية، والحرية الشخصية، والانتماء للأسرة في اضيق الحدود والولاء للحارة والارض والوطن، على انها قيم تستحق التضحية والموت في سبيلها. ومع هذا كنا نلمس للنظام العشائري ذيولاً واضحة في حوادث القتل عمداً أو خطأ ، وفي حقن الدماء واصلاح ذات البين، وما هو إلا الاسلام فيما ابقى من ذلك العشائري واعفى، حين اعفى كثيراً من مظاهر العشائرية ومفاهيمها المنافية للمنطق وروح العصر⁽¹⁾ وآخر مظهر لحقن الدماء بنظام اسلامي مشوب بمظاهر عشائرية، ذلك الصلح الذي جرى بين دار الشامي ، فرع من عائلة غنام، وبين عائلة العبويني، وكان قد سعى فيه وعقد رايته الحاج يوسف ابو راشد، وهو الذي علق العقال بعنق الجاني ودفعه الى والد المغدور، ليعلن العفو عنه والنزول على شروط الصلح بعد انجازها. ثم تعانق الخصوم وسادهم الامن وهدأت الخواطر ، في يوم مشهود من أيام تموز من صيف عام 1946م وحضره الوجهاء من جميع انحاء فلسطين .

ومن ذبول النظام العشائري في طيرة الكرمل مصطلح الحمولة، ومفهومه كما ورد رسمياً في الاردن، هو : العشيرة كلها مجتمعة متضامنة متكافلة في اي شئ يقع لاي فرد فيها؛ سواء القتل او الغزو او تقسيم الاراضي والغنائم، وكل فرد فيها حيثما كان موقعه من القاتل، مطلوب للخصم⁽²⁾ هذا المفهوم في الطيرة ينسحب على عائلات : السلطان وعبد القادر

(1) مما الغي بقرار عشائري عند بني سخر جواز الجيرة؛ فقد كان لابن العم ان يجير ابنة عمه المتزوجة من آخر ، في خبائه بنية الزواج منها ، ثم يدفع المهر لزوجها.

(2) للمزيد يراجع الباب السادس من كتاب العشائر الاردنية، لاحمد عويدي العبادي ط1 1408هـ/1988ص

657 وما بعدها، وكتابه "من القيم والآداب البدوية" ضمن سلسلة : من هم البدو ؟ 2.

وغنايم والشيخ واسماعيل وعبد المحمود التي انفصلت عن السلطان مؤخراً . والعمل بروح هذا المفهوم أخذ في الذبول والاضمحلال، استجابة لدواعي التطور الاجتماعي المرافق للتوجه نحو العمل في الصناعة والتجارة. وظل الاخذ بالجلء يفرض نفسه في حوادث القتل لاسباب وقائية ليست عشائرية .

ولضعف النظام العشائري في الطيرة تلتبس له اسباباً اخرى:

- 1- يتطلب العمل الزراعي الايدي العاملة بكثرة، فيستوعب السكان ولا يدع مجالاً لاوقات الفراغ، لتلتقي فيها العشيرة في "مضافة" بأفكار عشائرية وهيمنة الشيخ فيها ، فظهرت الدواوين الفردية ، كدواوين بعض المخاتير والافراد كل في منزله ، ولقد سهرت مع والدي ذات ليلة في ديوان سليم محمود درباس . وكان للباشية ديوان كان مضافة فيما مضى. وكانت القهوة" المرة" تقدم في الديوان على حساب صاحبه الخاص.
- 2- ان التوجه نحو العمل يساعد على اختفاء الطبقيّة وتقليص الفجوات بين الطبقات، ويذهب بالنعرات الاستعلائية، ويصرف كل انسان الى الاهتمام بنفسه.
- 3- ادى التكاثر السكاني الى تفرع العائلات الكبيرة الى خلايا باسماء جديدة،
- 4- ادت هجرة اعداد قليلة من عائلات شتى من قرى فلسطينية متباعدة الى تعدد العائلات وكثرتها في الطيرة ، والى اضعاف ظاهرة الاواصر العشائرية في طابع القرية العام ، وكان عمل تلك الاعداد-ربما اسرة بمفردها- في الزراعة والعمل اليدوي كما سيظهر في جدول الجنود اللاحق.

جدول الجذور

-300-

الرقم	العائلة	جذ: ها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
1-	الأبطح		بطاح مكة(1)	ابو حسان ، الامين عمرين ، ذيب ، العرم ، ابو سير، الحلبي، الخراب ابو عمر، زهرة ، ابو جاموس	الاردن ، اربد ، عمان ، الزرقاء، سوريا دمشق، اليرموك، حما النيرب، حلب، اللاذقية لبنان: بيروت، عين الحلوة العراق: بغداد، الموصل		المانيا - بون: احمد مصباح ابو حسان
2-	الباش		نعلين(2)	الباش، ابو ظاهر، ادريس ابو جراس، بزین، الجربوع الريان، الكايد، عودة، عباس	الاردن : اربد سوريا: دمشق، مخيم النيرب. لبنان: المية مية، صيدا شاتيلا.	محمد خليل اسماعيل موسى القوصيني موسى اسعد عباس خضر الريان.	
3-	باكير		ديار بكر(3)	ناجي، الفرارة، حسين، آمنة ، النجمة	الاردن: اربد ، عمان سوريا: دمشق، اليرموك دمر، النيرب/ حلب		اسبانيا : ملاجا فريد حمادة باكير كندا: عدنان غالب باكير
4-	البحيري		البحيرات المرة/ مصر(4)	البحيري، عثمان، الخطيب	الاردن: اليرموك، حمص		

الرقم	العائلة	جزر ها العربي القديم	الموطن قبل الطائرة	فروع العائلة في الطائرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
5-	بدر (5)				حلب لبنان: صور، الرشيدية، صيدا عين الحلوة، بيروت، صبرا، شاتيلا الأردن: أربد، عمان سوريا: اليرموك، النيرب حمص . لبنان: صيدا العراق : بغداد		المانيا: خالد أحمد بدر استراليا: محمد موسى عثمان بدر.
6-	تيم	بنو تيم بن مرة (6)	الجزيرة العربية		الأردن: أربد، عمان، العقبة سوريا: اليرموك، نوما، دمر، النيرب/حلب لبنان: طرابلس، البداوي العراق: بغداد		المانيا: علي مرشد تيم
7-	حجير	بنو حجير (7)	قباطية		الأردن: أربد، عمان سوريا: اليرموك، حمص النيرب لبنان: بيروت، عين الحلوة		يوغسلافيا: صبحي محمود حجير المانيا: تيسير فايز حجير

الرقم	العائلة	جزرها العربي القديم	الموطن قبل الطائرة	فروع العائلة في الطائرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
8-	درياس	شمر (8)	الجزيرة العربية	النمرود، محمود، عبد الفتاح	البص شحيم.	جمعه حمد درياس	بريطانيا: سمير مصطفى حجير
9-	راشد: أبو-	عدي (9)	غزة	بنان: سوريا: اليرموك: العراق: بغداد	الاردن: اريد، الزرقاء، عمان	محمود سعيد ابو راشد	المانيا: اسعد صبحي السيد واخواه كندا: احمد حسن واحمد عوض ابو راشد الولايات المتحدة : د. جمال احمد ابو راشد استراليا: جهاد محمد السيد

الرقم	العائلة	جذورها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
10-	الريان		كبول (10)		الاردن: اريد سوريا: دمشق، اليرموك حمص حماة، النيرب لبنان: بيروت، صيدا، صور		و. المتحدة هيوستون مروان محمد فايز الفهد واخوه غسان، حسن صالح عباس واخوه حسين.
11-	زيدان		عريش مصر	عباس، البطل، زيتون غبن عبد الحليم، كتيلة، زعكور الزواوي (المية ومية). العراق: بغداد	الاردن: اريد سوريا: اليرموك، حمص النيرب، بيرو لبنان: بيروت، عين الحلوة.		كندا: حسن خضر عباس المانيا: آخن بسام محمد فايز وعيسى حسن الزواوي.
12-	السعدي	بنوشية (11)	جبا/القنيطرة السورية		الاردن: اريد سوريا: اليرموك. لبنان: عين الحلوة	عبد القادر السعدي سعدي عبد القادر (الفرديس)	و. المتحدة/متشفان يوسف عبد الرحمن السعدي
13-	سلوم				الاردن: اريد سوريا: اليرموك، حمص النيرب لبنان: صيدا، عين الحلوة		كندا/ مونتريال: زهير سعدي سلوم

الرقم	العائلة	جذورها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
14-	السلمان			سلمان، الشايب، عبد القادر عبد الحمود، العسل الشبلي، غنايم، والبديوي واسماعيل ، وابو يونس والحاج والشيخ ومن الشيخ الرباني وفرعون وبدران	الاردن: اربد سوريا: اليرموك، دمر، لبنان، المية ومية		كندا/جمال وجيه سلمان
15-	عبد القادر				الاردن: اربد، السخنة: الزرقاء سوريا: دمر، اليرموك دمشق حلب ، النيرب لبنان: عين الحلوة		استراليا/ملبورن صالح محمد عبد الحفيظ السويد/ستوكهولم عبد الله مصطفى عبد الحفيظ واخوانه.
16-	العبيوني	الزيادنة	عبيون(13)		الاردن: اربد ، عمان الزرقاء سوريا: اليرموك، المزة العراق: بغداد	عمر يوسف عبيوني	المانيا: بكوم: حموده أحمد الساعي، علي محمد واخوه سعيد برلين: ابراهيم مهيوب عبيوني

الرقم	العائلة	جذرها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
17-	علوه (14)		ديار بكر: الاناضول تركيا		الاردن: اربد ، حوارة سوريا: اليرموك، دمر العراق: بغداد		
18-	عمورة		سككده (15)/الجزائر		الاردن: اربد، عمان سوريا: دمشق، اليرموك دمر لبنان: بيروت، صيدا العراق: بغداد		المانيا: محمود حسن ، حسني احمد الدعاس السويد: أحمد عموره واخوانه. و. المتحدة محمود محمد عمورة واخوانه. كندا: يوسف ابراهيم واخوانه
19-	عويس (16)				الاردن: اربد. سوريا: اليرموك لبنان : صيدا		
20-	عيسى: ابو- ربيعة (17)				الاردن: اربد سوريا: اليرموك، دمر دوما، درعا، الثيرب لبنان: صيدا، صور،	عيسان اسعد ابو عيسى بحسن سعيد ابو عيسى	و. المتحدة: د. محمود ومحمد ابو عيسى وعثمان عبد الفتاح وولده نورس

الرقم	العائلة	جذورها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
21-	الغبين	الغبين(18)	مصر عن طريق غزة	الغبين: يونس	الأردن: أريد سوريا: اليرموك النيرب حمص، اللاذقية. لبنان: صيدا، عين الحلوة المية ومية. العراق: بغداد، الكراة.		
22-	غنام			غنام، أبو عروق، الشامي	سوريا لبنان العراق.		
23-	غيدا: أبو-	الحارثي(19)	وادي الحوارث		الأردن: أريد ، عمان سوريا: دمشق النيرب لبنان: بيروت العراق: بغداد		و. المتحدة: شيكاغو :عمر محمد أبو غيدا: عبد الرحمن توفيق أبو غيدا، ومحمد علي أبو غيدا بريطانيا: لندن: فؤاد أحمد أبو غيدا

الرقم	العائلة	جذرها العربي القديم	الموطن قبل الطيرة	فروع العائلة في الطيرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
24-	الفار	الغساسنة	دير غسانة (20)		الأردن: أربد سوريا: دمشق، حمص. لبنان: طرابلس. العراق: بغداد		
25-	قبيلة		قصص، ذياب، الزيات امين، عيسى	الأردن: أربد سوريا: دمشق، اليرموك حمص، ادلب لبنان، بيروت	نمر خليل قبيلة	كندا: هاملتون: محمد حافظ نجم، والمتحدة كاليفورنيا: حافظ نجم ابراهيم عبد القادر قبيلة.	
26-	ليل: أبو-	عين ما هل (21)		الأردن: أربد سوريا: اليرموك، النيرب لبنان: صيدا	يوسف عيسى ابو ليل فهمي عيسى ابو ليل		
27-	المحمود		عبد المحمود، العسل، اسعد الاحمد	الأردن: أربد سوريا: اليرموك لبنان: صيدا العراق: بغداد		و.المتحدة/متشغان: باسم فضل نايف واخوانه عيسى وماهر. عاطف محمد عبد المنعم.	

الرقم	العائلة	جزرها العربي القديم	الموطن قبل الطائرة	فروع العائلة في الطائرة	الحركة عام 1948م	الذين بقوا في فلسطين	الحركة خارج الوطن العربي
28-	مدرس (22)				الأردن: أريد، حبكة سوريا: اليرموك. لبنان: شاتيلا العراق: الحرية		سويسرا: حسن نمر عبد قاسم.
29-	المصاروة	مصر	المصاروة، البحيري، الخطيب				
30-	منصور	مصر			الأردن: أريد، عمان، العقبة سوريا: النيرب، اليرموك لبنان: صبرا، شاتيلا، صيدا، طرابلس، البداوي	الماتيا: علي محمد رشيد منصور و. المتحدة: جورجيا: محمد أحمد عبد الرحمن بريطانيا: لندن: جمال أحمد منصور.	
31-	الناجي		ديار بكر		الأردن: أريد، عمان سوريا: دمشق، اليرموك دمر، النيرب. لبنان: طرابلس العراق: بغداد		
32-	يعقوب (23)						

هوامش جدول الجدور

- (1) الابطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى.
- (2) نعلين من قضاء رام الله، وآخر موجة منهم هي عائلة "عودة" ابان الانتداب، كان مصطفى محمود الباش مختاراً ، فاقطعهم موقع الكبابير، وبنوا فيه مسجداً ، ومنهم من ارتد عن الاسلام واعتنق القاديانية، وهي البهائية، او الاحمدية، كما تعرف ، ففارقهم كبيرهم الحاج عبد الله عودة، ونزل أعالي وادي رشميا ومن مالكي الموقع يوسف الجربوع، وقد باعهم حصته.
- (3) تفيد المقابلات الشخصية التي اجريتها مع بعضهم، ان باكير والناجي وعلوه من اصل كردي، من ديار بكر في الاناضول، وانهم من ذراري ثلاثة اقرباء وفدوا على الطيرة: هم " بكوه (باكير او بكر) وعلوه (علي) وحسوه (حسن) .
- (4) نسبة الى منطقة البحيرات المرة في ناحية السويس.
- (5) بدر وعويس شقيقان، هذا ما اكده لي بعض ثقاتهم، وممن يعرفهم جيداً من اهالي الطيرة. عرفوا باسم القدسيين، نسبة الى قدس من اسماء السفينة.
- (6) في كتاب " الخلفاء الراشدين" ص34 (بنو تيم من بني مرة والمتفرع منها بنو قحافة) وفي القبائل العربية ص227 (تيم من مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر من قريش من العدنانية). وعلى ص 229 (وهناك عائلات في غزة والخليل ويافا وغيرها تعود بنسبها الى البكريين هؤلاء. وبالديار المصرية جماعة من البكريين).
- (7) قباطية من قرى جنين، وفي سبائك الذهب " بنو حجير بطن من بني عمرو بن عامر بن صعصعة، نزلوا مصر، وعامر من هوازن بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان» ويذكر الدباغ ص 199 ان لهم ابناء عمومة هم عشيرة الشنابلة في طلوزة في جبال نابلس ، وهي من العرافة (من بني خالد) وهؤلاء بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية.»

(8) فرع من طيء من كهلان، فهم يمانيون، وأكثر انتشار لهم في بادية الشام والعراق.

(9) في كتب الانساب يكثر ذكر راشد وابي راشد وبني راشد او الرواشدة) منهم عدنانيون حجازيون وعدويون. والى هذا الرأي يذهب فرع العائلة في عنابة من قضاء القدس، ويشار الى ان " ابو راشد" في الطيرة هم قيسيون مما يدعم القول بعدنانية العائلة .

وسائر ما يذكر من (راشد والرواشدة) هم من بني جذام من الازد اي انهم قحطانيون يمانيون ذكرهم معجم القبائل العربية، وسبائك الذهب في اماكن في سوريا وفلسطين والاردن ومصر، ومما يروى عن وفد جذام حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم عام 7 هـ / 628م، قال عليه السلام: « الايمان يمان، هكذا وهكذا بني جذام ، صلوات الله على جذام، يقاتلون الكفار على رؤوس الشعف، ينصرون الله ورسوله» - الشعف: رؤوس الجبال، وصاحب كتاب العشائر الاردنية يذكر الرواشدة في الطفيلة - كفرع من الحمائدة ص 636 ، وفي البلقاء كفرع من اللبادة ص 652، بون الاشارة الى انهم قحطانيون او ان لهم فروعاً في فلسطين.

(10) تصر عائلة الريان على انهم جاؤوا الطيرة من قرية "كابول" من قضاء الناصرة.

- كابول قرية تقوم على انقاض قرية تحتها- وان لهم فرعاً في حيفا هو " ابو حرش" وكان اناس منهم يسكنون الدامون، وانهم ما يزالون على اتصال بأصلهم وفرعهم.

(11) وينسب الى بني شيبه السعديون، سكان قرية المزار، جنين، نسبة الي (سعد الدين بن مزيد الجبائي) المتوفى سنة 621 هـ / 1224م؛ متصوف من اهل جبا من اعمال القنيطرة في الجولان- وينسب الى قرية المزار الشيخ الشهيد فرحان السعدي، الذي اعدمه الانجليز في 27 رمضان 1357 هـ / تشرين الثاني عام 1938م. ومن ذراري بني شيبه عائلات في نابلس وعكا وسيلة الحارثية وغيرها. ومنهم قوم بصعيد مصر يعرفون بجماعة نهار بنواحي سفت وما يليها. القبائل العربية للدباغ-

(12) تعرف هذه الفروع في الطيرة باسم الحمولة، وهي آخذة بالتفكك ، واول من غادر الطيرة منها فرع البدوي الذي سكن حيفا. وفي اواخر القرن العشرين اخذت عائلات مثل عبد المحمود والعسل وعبد القادر، في الاردن، تتلمص من الحمولة شيئاً فشيئاً.

وفي معجم القبائل ص 536/535 يرد ذكر السلطان كاسم علم لاكثر من فرقة طائية الاصل اي انها يمانية قحطانية من بني جذام، ولم يرد لها ذكر بين القبائل العربية في فلسطين، وانما بنواحي عسير على طريق الطائف -أبها، وفي الكرك والرمثا.

(13) عبيون : الى الشمال من رام الله، مساحتها 36 دونما - قاموس القرى الفلسطينية .

"ومن أشهر الحسينيين الفلسطينيين نذكر ظاهر العمر 1106-1196 هـ الذي ينتسب الى حمولة الزيدانة، من اعقاب الحسين بن علي. وهؤلاء الاعقاب منتشرون في الناصرة، وفي بعض قرى الجليل. ومنهم جماعة في (ياصيد) نابلس، وفي منطقة المعراض من محافظة اربد(القبائل العربية ص 217).

(14) لعائلة علوه فروع في عتمان/ درعا السورية، وفي البصرة العراقية، وجزت بين هذه الفروع زيارات متبادلة، حضر جانباً منها محمود حماده علوه الذي اكد ذلك خطياً للمؤلف. وهذا لا ينفي ان تكون ديار بكر التركية موطن العائلة الاول.

(15) نعتبر قبوم عائلة عمورة في الطيرة هجرة اياب لهم من المغرب، فقد هاجر العرب اليه ايام العصر الذهبي للسيادة الكنعانية على البحر المتوسط، وتكاثروا بنزوح آخرين من فلسطين اثر الحرب بين طالوت وجالوت، اذ نزحوا براً عن طريق مصر وليبيا، وفي ليبيا اناس من عائلة عمورة في بنغازي وآخرون على الساحل السوري وفي العراق ولبنان عائلات تحمل اسم عمورة ، ربما من موجات تلك العائلة العائدة .

(16) عويس " اما العويسات المذكورون، منهم بقايا في قرى تي البرج وبيير معين من اعمال الرملة، وعائلة عويس في يافا، انهم من بقايا ابي العويس بن ابي بكر الجرمي. وفي قضاء القدس قصر عويس الاثري، الراجح انه كان مركزاً من مراكز العويسات في الزمن الماضي. ومن هنا تلتقي آل عيسى والعويسات بجرم بن طيى بن كهلان بن سبأ بن عبد شمس، وعليه فهم من جرم غير جرم قضاة" . القبائل العربية للدباغ ص 81.

وهذا يقودنا الى القول بأن عويساً في هامش 5 يحمل اسم جده، ومن ذريته جاءت عويس في الطيرة، ومن ذرية اخيه بدر الطيراوية ولا علاقة لهم بأبي اناس في الخليل كما يتوهم .

(17) " عن آل ربيعة، او آل الفضل بن ربيعة البلاء الحسن في محاربة الافرنج، وهم عدة بطون؛ اعظمهم شأنًا وارفعمهم قدراً آل عيسى ومن امرائهم مهنا الاول الذي حضر معركة عين جالوت 658هـ/1260م.

وعرب العيسى في شمال شرق الاردن وجبل الدروز والصنابحة في محافظة عمان، وغيرهم، وهم يرجعون الى طيء بن كهلان بن سبأ عبد شمس " القبائل العربية 78/77.

(18) في رسالة خطية بعث بها "نايف عبد الرحمن الغبن" الى المؤلف، يقول فيها ان عائلة غبن ترجع الى عشيرة " الغبن" في اليمن، وان غبن من رجالات الجزائر، قد هاجر من فلسطين الى امريكا بعد هزيمة قائده، وهناك اسس عائلة آل كابوني AL- GHABONI ، ويذكر عن والدته زيارة قام بها ثلاثة من المقيمين في امريكا الى الطيرة، وتم التعارف بينهم، فرد الزيارة" محمد شحادة يونس الغبن" ورجع بزوجة امريكية هي " البصوية وظل على علاقة حميمة معهم، أسيء فهمها وقتل بسببها، ثم ان شقيقته " صفية شحادة" التي اشتهرت بلقب " الهربودية" قد تزوجت من عائلة عباس وانجبت اربعة ذكور وتسع اناث تزوجن في عائلات عباس وزيدان ويونس وابي غيدا وغبن، وتبادلت العائلات النسب حتى اصبحوا عائلة واحدة.

(19) ومن اعقاب " سنبس" بضم السين وكسرهما، في فلسطين، قبيلة الحارثية ... ان بني حارث من اوفر القبائل عدداً، من احد بطون طيء متقلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها الى القفار. ومن الحارثيين في فلسطين اعقابهم في قضاء جنين ، ظهر منهم " أحمد بن طر باي بن علي الحارثي " من اللجون 979-1057هـ / 1571-1647م، الذي أيد السلطان سليم فاتح الشام[فعينه أميراً] وما زال الحارثيون حكام جنين وما والاها من البلاد الى ان خرجت الحكومة منهم سنة 1088هـ، والى قبيلة الحارثية تنسب عشيرة وادي الحوارث في قضاء طولكرم والغنامة من عشائر صفد، وشيوخ قرية المزرعة، كما نسبت اليها " خربثا" الحارثية من اعمال الرملة، وقرية الحارثية من اعمال حيفا، وسيلة الحارثية من اعمال جنين.

وسنسب بن ثعل من جرم بن طى بن كهلان بن سبأ عبد شمس اليماني (القبائل العربية للدباغ ص 88).

وعائلة ابي غيدا الحارثية التي وفدت الى الطيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تنقطع صلاتها مع جنورها، فقد ظل التزاور قائماً بينهم حتى الاربعينات من القرن العشرين.

(20) الى الشمال الغربي من رام الله، مساحتها 56، دونما وارضيتها 13 الف دونم، من توابعها خربة الدوير وخربة بلاطة- قاموس القرى الفلسطينية ط 1990م- وان الفساسنة خلدوا اسمهم في قرية دير غسانة، من اعمال رام الله القبائل العربية للدباغ ويجوارها قرية ام جبيل الاثرية، (قاموس القرى ط 1990م).

(21) المدرس من الغلال ما درس بالنورج، ومن الكتب ما كثرت قراءتها والقول بين الطيراويين ان عائلة المدرس هي الاقدم بين العائلات وجوداً في الطيرة.

(22) في الطيرة بيوتات وفدت خلال العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، ثم حدثت النكبة عام 1948م قبل ان تتكاثر وتصبح عائلات ذات عدد، ولكنها ظلت على ولائها للطيرة، وانتمائها لاهلها، ومنها بيوتات نمت واصبحت عائلات طيراوية حديثة وأولئك هم.

1- البلعاوي : الحاج أحمد - من بلعا قضاء نابلس تزوج من عائلة عبد القادر ولم يعقب، توفي ودفن في الطيرة.

2- البلوط محمد خليل- من عائلة آل سيف في برقة قضاء نابلس، وال سيف يرجعون اصلهم الى قبيلة العتيبي اليمانية. ومن هولاء (ال سيف) وهم حمولة كثيرة العدد منتشرة في الديار النابلسية وغيرها (القبائل العربية ص 167) وآل سيف لم يرد لهم ذكر في شجرة الانساب الأم للقبائل اليمانية، مما يدل على انهم فرع حديث النشأة نسبياً.

3- الجبالي : محمود: من شكويكة/ قضاء طولكرم، عمل فراناً واستقل بفرن له عرف باسمه تزوج وانجب ذرية تقيم في دمشق.

4- جرار : الشيخ ناجي عيسى- من جبع جرار قضاء جنين، وهو الشيخ ناجي معلم التربية الاسلامية في مدرسة الطيرة للبنين، وافتتح في مسجدها كتاباً صيفياً، وكان امام

مسجدها ، ثم عمل مأثوناً شرعياً فيها . تزوج من خارج الطيرة، وخلف ذرية تقيم في اربد
كبعض العائلات الطيراوية.

5- جلدة ، ابو-، احمد صالح درياس ، من عائلة درياس من ام الزينات، من مجاهدي القسام،
وجلده لقب غلب عليه واشتهر به، تزوج من عائلة درياس الطيراوية، توفي في اربد، لم
يعقب .

6- الزبيدي: حمد موسى- صحب عائلة ابي غيدا وتزوج منهم، وانجب ذرية تقيم في دمشق،
ويقال ان الزبيدات المنتشرة بناحية الغور قد خرجت من قرية حلبون/ قضاء جنين.

7- الحمصي: محمد واحمد وعبد القادر- ثلاثة اخوة من خيرة شباب حمص المجاهدين الذين
التحقوا بالقسام في جهاده ضد الاحتلال الفرنسي ، ثم تحولوا معه الى فلسطين عام
1922م، ليستأنفوا الجهاد معه، من طيرة حيفا التي استقروا فيها، وكانوا من العناصر
القتالية في منظمة الكف الاسود، تزوجوا من بنات الطيرة، وانجبوا واشتغلوا بصناعة
الاحذية، ثم عادوا الى حمص في اعقاب النكبة، وظلوا على انتمائهم وولائهم للطيرة
واهلها.

8- الزير: محمود -اخوه توفيق، من قرية ابو شخيدم بنواحي رام الله، تزوجا من اهل
الطيرة، وانجبا ذرية عادا بها الى مسقط رأسيهما بعد عام 1948م.

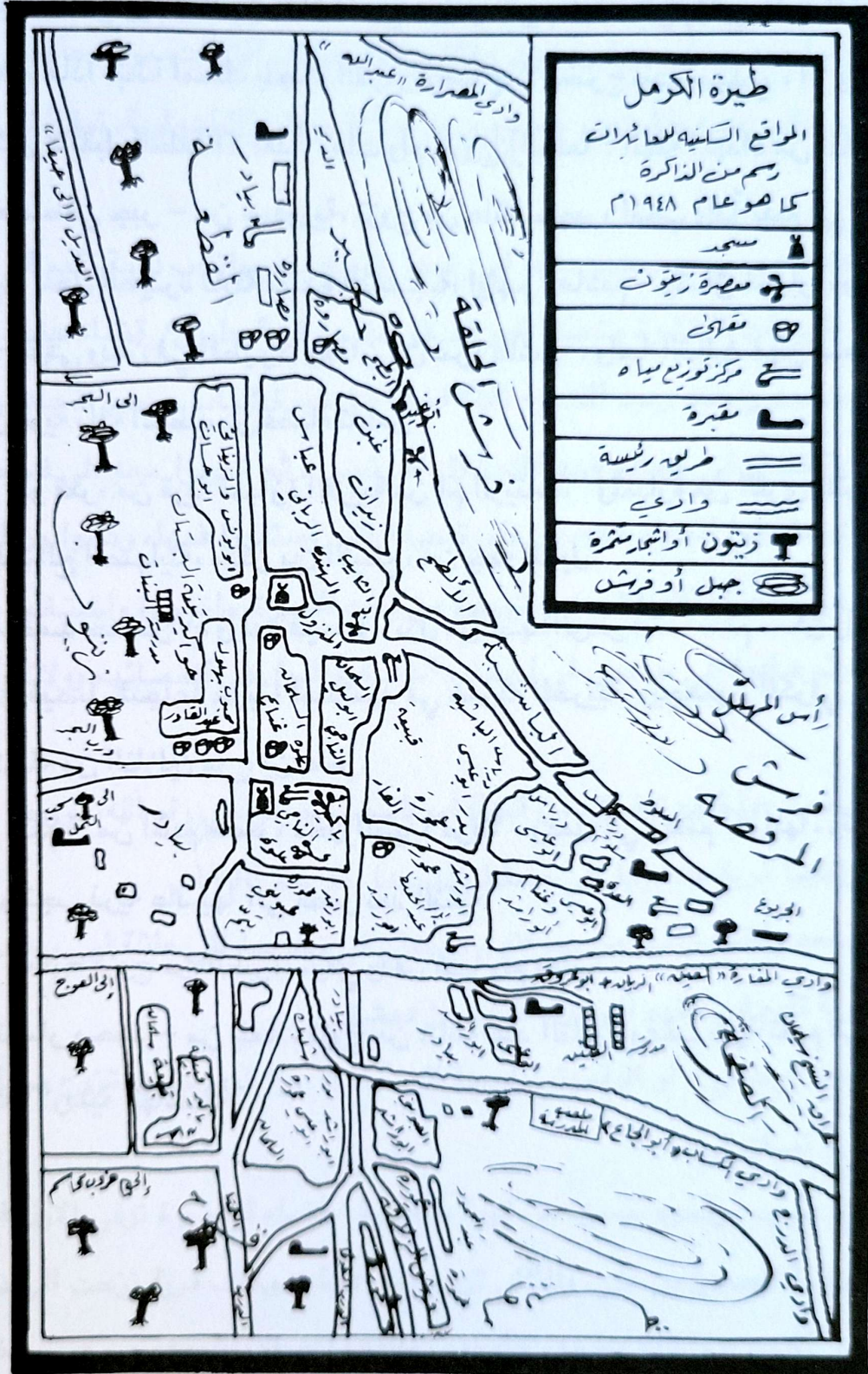
9- السائس: أحمد وأخوه راشد من صرفند ، يرجعان في نسبهما الى عائلة ابي راشد، تزوجا
وانجبا ذرية تقيم في مخيم اليرموك، قريياً من دمشق.

10- سويد: عبد الرحمن - او الراميني، نسبة الى "رامين" من قرى جنين، تزوج من الابطح ،
وخلف ذرية تسكن اربد.

11- الصفوري : سيد- واخوه حسن، من قرية صفورية /قضاء الناصرة توفي الاول في جدة،
وهو في خدمة الحسين بن علي، والثاني تزوج من الابطح، وخلف ذرية نزحت الى دمشق.

12- الضميري" أحمد - واخوه محمد، جاء بهما والدهما صفييرين، وهو من عرب الضميري
المقيمين بجوار الخضيرة من اعمال حيفا، وعرب الضمير من اعقاب بني صخر، تزوج
احمد من الابطح وعقب ذرية تقيم في مخيم اليرموك.

- 13- العبدة: ذيب - من قرية زمارين، كان في خدمة رجل من الحمولة وبعد وفاته، خولته الحمولة لبناتها في يوم زفافهن، فلا تخرج عروس الى بعلاها حتى يؤدي خلعة الخال الى ذيب العبدة، فاذا ابطاً امسك بلجام الفرس وصاح: لا تخرج بنت سيدي ، الا وخلعتها بايدي، وكان لا يقبل الخلعة الا نقداً . مات ولم يتزوج.[الخلعة : الحلة المهداة من الملابس].
- 14- العثمان: مصطفى جبر - من صفورية، تزوج من عائلة حجير، انجب ولداً يقيم في اربد.
- 15- الغزاوي : دخل الطيرة ثلاثة بهذه النسبة، اولهم : هاشم - وكان نجاراً، وثانيهم محمود- توفي ودفن في الطيرة، وهذان من غزة هاشم-. واما الثالث فهو محمود - ايضاً، من قرية باقة الحطب من قضاء نابلس.
- 16- قمر: علي ابو قمر، من قرية قمبرة القريبة من ام الزينات، " وقمبازة من القرى التي ازالها الانتداب لصالح الصهاينة، سكن بين الابطح، من جهة الجبل.
- 17- الكزلي: محمد خضر -، وولده فيصل، نزل من جهة الوعر ابتداء، ثم سكن وادي ابي الجاع كان فيصل شجاعاً جريئاً استشهد في معركة الخريبة، ويجمعون الكزلي : كزامة، وعرب الكزامة من النازلين مرج بن عامر.
- 18- المصري: تمام - من اقليم مصر، دخل الطيرة فراناً ، وعمل في معظم افرانها، وتزوج من الباشية، وانجب ذرية عاد بها الى مصر بعد النكبة.
- 19- المغربي: عمار- تزوج من الطيرة، توفي ودفن فيها ولم يعقب.
- 20- نصار : نصار محمد - من بلعا ، تزوج من عائلة عبد القادر، وعقب ذرية تقيم في اربد ، من المملكة الاردنية الهاشمية.



طيرة الكرمل
المواقع السكنية للعائلات
رسم من الذاكرة
سنة ١٩٤٨ م
مسجد
مزرعة زيتون
بئر
مركز توزيع مياه
قبرة
طريق رئيسية
وادي
زيتون أو شجرة مثمرة
جبل أو فرس

المصدر : د. الحلبي ب. - قرض الزين - البوشقرة - أولاد عبد الحفيظ الأحمدي - كاشم

طيرة الكرمل
المواقع السكنية للعائلات

جريدة المراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- ابراهيم، د. نجيب ميخائيل -، مصر والشرق الادنى القديم، ط2، 1966م.
- 3- اين كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير ، محمد علي الصابوني ، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.
- 4- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب.
- 5- برهوم ، محمود - ومحمد خروب، قاموس القرى الفلسطينية ابان الانتداب البريطاني. كتاب صامد 19، 1990م.
- 6- بعلبكي، منير - القاموس المورد، انجليزي - عربي ، 1986م.
- 7- البغدادي، ابو الفوز محمد أمين- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب.
- 8- بو يصير ، صالح مسعود، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن دار الفتح/بيروت ط2 1968.
- 9- الجوهري ، عبد الحميد - الصيدلية الشعبية 1988.
- 10- خان ، ظفر الله والاسلام- تاريخ فلسطين القديم ، دار النفاس،بيروت، ط2، 1974.
- 11- الدبّاغ ، مراد- بلادنا فلسطين ج6، دار الطليعة ، بيروت ، كانون 1، 1981م
- 12- الدبّاغ مراد- التاريخ القديم 1958 وزارة التربية والتعليم الاردنية .
- 13- الدبّاغ مراد- القبائل العربية وسلالتها في فلسطين ، دار الطليعة . بيروت 1979م
- 14- رياض ، د. محمد ، الانسان ، دراسة في النوع والحضارة ، ط2، 1947م.
- 15- زكّار سهيل- تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر بيروت 1990م
- 16- الزركلي، خير الدين- الاعلام، ط6، تشرين 2 ، 1984م . دار العلم للملايين .
- 17- سابق ، السيد- فقه السنة ، ج1، ط2، 1973م، دار الفكر العربي ، بيروت.
- 18- سعيد، محمود أحمد- طيرة حيفا ما بين 1900-1948، قدسية للنشر والتوزيع ، ط1 1991م.
- 19- سوسة، د. أحمد نسيم -، العرب واليهود في التاريخ ط ، 1975م، العربي للاعلان،دمشق
- 20- الشامي، د. رشاد عبد الله - الشخصية اليهودية الاسرائيلية ، والرّوح العدوانية ، عالم المعرفة ، الكويت ، حزيران، 1986م.

- 21- الشريعة : مجلة - عمان ، عدد شباط 1993م.
- 22- الشريف، ريجينا-، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، الكويت ، كانون الاول 1986م.
- 23- الشلبي، د. أحمد- مقارنة الأديان - 1 - اليهودية ط7، 1974م.
- 24- طوقان : صبحي - سجل الخالدين - شهداء فلسطين . مجلد1، 1967، الاسكندرية .
- 25- العالمية، موسوعة الآثار ترجمة محمد عبد القادر محمد وزميله، وهي من وضع 48 عالم آثار عالمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977م.
- 26- العبادي ، احمد عويدي- العشائر الاردنيه ج1 ط1 ، 1988م.
- 27- عبد الحميد ، السلطان - الثاني، مذكراتي السياسيّة.
- 28- عبد الرحمن، د. عواطف-، مصر وفلسطين ، ط2، عالم المعرفة، الكويت ، حزيران 1985م.
- 29- عبد الله، ابو اسلام أحمد- الماسونية في المنطقة 245، ط 1986م
- 30- العربي ، مجلة- العدد 325، الكويت.
- 31- عطا الله ، عيسى - قالوا في المثل ، جمعية الدراسات العربية في القدس، ط 1985م.
- 32- الغزالي، د. محمد-، فقه السيره 1976م.
- 33- الفلسطينية، الموسوعة-، الاجزاء 1-4-1988م
- 34- الفيروز ابادي ، محيي الدين بن يعقوب- القاموس المحيط.
- 35- قاسم ، أحمد- وزميلاه، زراعة الخضروات ، للثالث الاعدادي 1966، وزارة التربيه والتعليم الاردنيّة.
- 36- كحّاله ،عمر رضا:معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، دار العلم للملايين، بيروت 1968م
- 37- كيّالي ، د. عبد الوهاب - تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1986م.
- 38- المسيري، د. عبد الوهاب- الايديولوجية الصهيونية، عالم المعرفة ، الكويت ، حزيران 1988.
- 39- المصرف، ناجي زين الدين- موسوعة الخط العربي، وزارة الثقافة العراقية 1948م.
- 40- المقدّس ، الكتاب- [الاسفار والاناجيل] طباعة كوريا ، 1976م.
- 41- مولاربييه. فرانسيس- وآخر ، صناعة الجوع ، ترجمة احمد حسّان ، عالم المعرفة، الكويت، نيسان 1983م.

توطئه

الباب الأول - الاراض

3	الموقع والاسم والشهرة
11	المساحة والحدود
13	النشأه الجيولوجية
15	التضاريس
22	الاوديه
23	وادي كفر السامر
23	وادي ريشة
24	وادي عمرو
25	وادي عبد الله - المصراة
27	وادي العين - المغارة
35	وادي «ابو الجاع» الكساب
38	وادي مسليه
41	وادي فلاح
46	السهول الغربية
50	الارض، مواقع واسماء
52	السهل المنكوب
55	المناخ: الامطار، درجات الحرارة

الباب الثاني - الإنسان

الفصل الاول : ابن الحياه

61	أ- الحياة النباتية
61	- فلسفة واقعية
63	- الاشجار
63	- التين
65	- الخروب
66	- الزيتون
72	- معاصر الزيتون
77	- الاشجار البرية
81	- المزروعات
81	اولاً- القمح غداؤنا
83	- خبز ولا كالتابون
85	- بركات الله في الارض والانسان
88	- البيادر
90	- وأتوا حقه يوم حصاده.
98	ثانياً - الخضروات
98	- القثائيات
100	- القرنيات
103	- الزراعة خبرة وفن
111	ثالثاً- النباتات البرية
115	رابعاً- الورود

الموضوع	الصفحة
ب- الحياة الاقتصادية	117
- بؤرة حضارية	117
- الانعام	119
- الانعام، الضأن والماعز	128
- ولكم فيها منافع كثيرة	130
- الغذاء الحيواني على المائدة	136
- في الكساء	138
- الصيد	139
- التجارة	142
- الحرف اليدوية	144
- وسائل النقل	146
- العمل والعمال	149
ج- الحياه الفكرية	153
- مصادر الفكر في الارياف	153
- شلل وجمود في الفكر	161
- المسجد والكتاب والمدرسة	163
د- الحياة الاجتماعية	172
- تمهيد: الحارات	172
- نظام الاسرة	179
- الجيل الجديد	181
- المرأة الطيرايوية	183
- الزواج في طيرة الكرمل	189

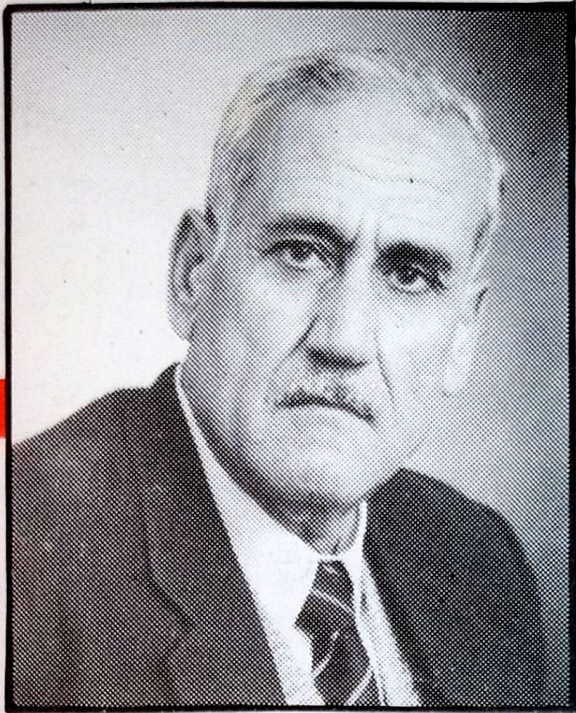
الصفحة	الموضوع
198	- ملاعب الصبا
202	- ألعاب الطفولة
212	- الحكواتي وخيال الظل
214	- علمتهم الحياه
220	- انعكاسات

الفصل الثاني : من التاريخ

231	- الحضارة الكرملية/الناطوفية
234	- كنعانية عربية
235	- في مهب الريح
236	- براءه تاريخية
241	- في العهود الاسلامية
243	- العهد التركي : عندما كانوا
246	- سفر بيرك
249	- الخاسرون
251	- عهد الانتداب: خلفية سوداء
256	- القسّام في الطيرة
258	- حياة الجهاد واستشهد القسّام
259	- الاضراب الكبير
262	- مسرحية من فصلين
264	- معركة وادي الدرج

الصفحة	الموضوع
265	هدأة العاصفة: الوضع السياسي العام.
268	الطيرة والحرب العالمية الثانية.
272	وحيداً : اجواء ساخنة.
275	- معركة الزيتون.
278	- معركة الخريبة
279	الحرب غير المعلنة: ملكنا المصفحات..
280	- جريمة بريطانية
281	- المرقصة.
282	- بين الرؤية والامل- على باب النهر.
284	-... وارتخت بعض الانامل.
286	- فاوضونا لنستسلم.
289	- السادية في الشخصية اليهودية.
293	- في الميزان.
296	- جنود العائلات.
309	- هوامش جدول الجنود.
317	* جريدة المراجع.
319	* فهرست المواضيع.

وآخر دعوانهم ان الحمد لله رب العالمين



عبدالصمد الحاج يوسف ابو راشد

من مواليد طيرة الكرمل / حيفا ١٩٣٣
تلقى في الطيرة تعليمه الابتدائي
اكمل دراسته الثانوية في اربد
التحق بسلك التعليم/وكالة الغوث في الاردن سنة ١٩٥٤ معلما
حتى ١٩٦٦/١/٥ حيث عمل مديرا حتى نهاية خدمته في ١٩٩٣/١٢/٣١.
نال اجازة في الآداب / اللغة العربية من جامعة دمشق سنة ١٩٦٨م